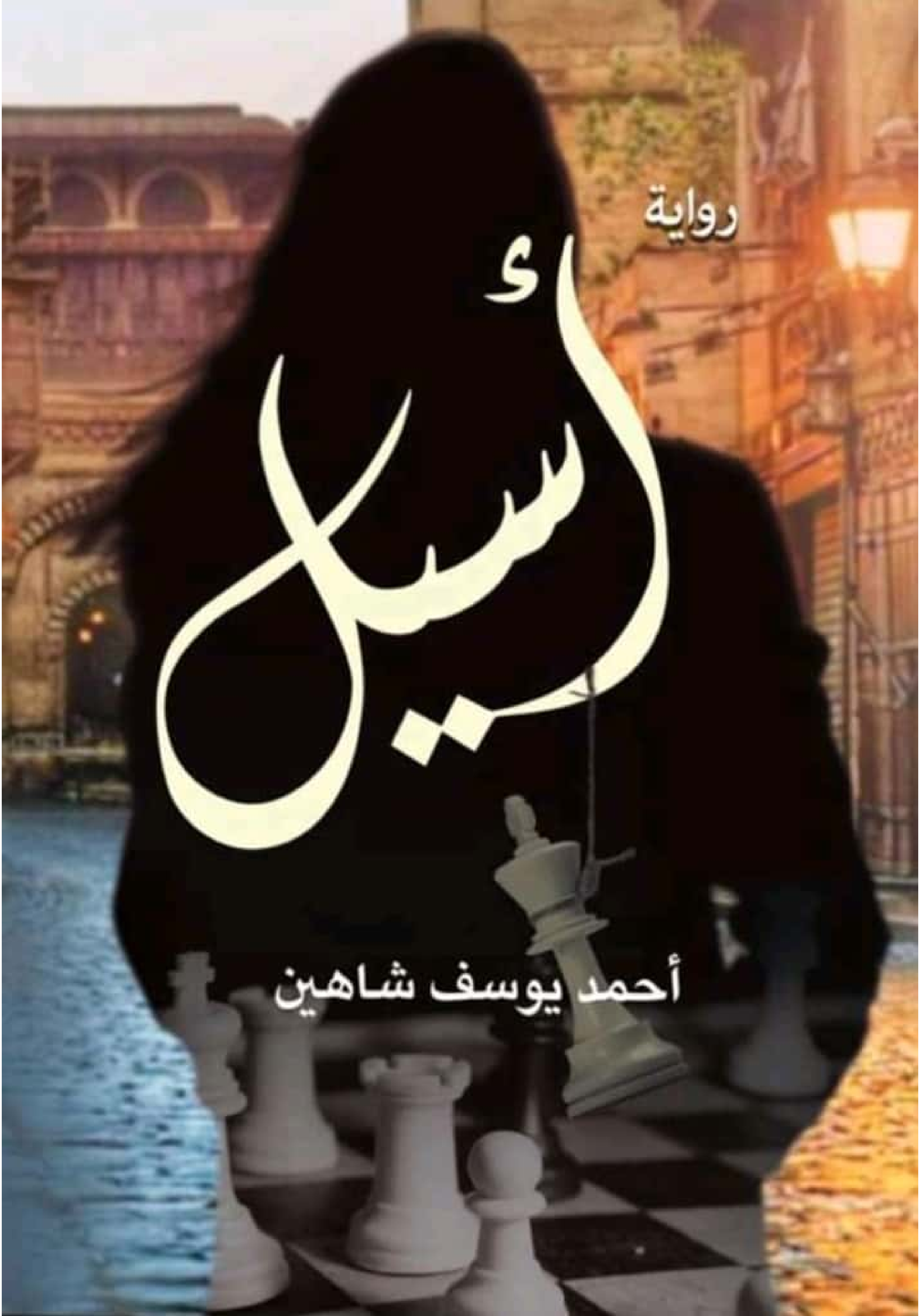
رواية
أسيل
أحمد يوسف شاهين

أسيل

أحمد يوسف شاهين

دار نهضة مصر
للنشر

أسيل

تأليف:

أحمد يوسف شاهين

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-0000-9
رقم الإيداع: 00000 / 2017
طبعة: ديسمبر 2017

تليفون: 33466434 - 02 33472864
فاكس: 02 33462576
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دار نهضة مصر للنشر
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

أسيل

إهـــداء

إلى

كــل

بيدق

شريف

شكر

للصديقين.

الأستاذ محمد عزام..

والأديب محمد فاروق شمس الدين.

لمجهودهما العظيم في مراجعة الرواية.

(1)

أكوام متراصة من التماثيل الفرعونية الرخيصة، صناديق خشبية تملأ المكان بغير انتظام.. خيال شاب لا يزيد على العشرين.. مرهق الوجه، مهدل الكتفين، يجلس في ركن بعيد بالمخزن الصغير.. محتضنًا ركبتيه.. يميل بجسده للأمام قليلًا، ثم إلى الخلف.. ببطء، كحال طالب علم يحفظ شيئًا من درسه استعصى عليه.. «مُنى» تندفع للداخل لتسبق تفكير الجميع، خلفها «شريف» والضابط.. تحتضنه فتختفي بجسدها الضئيل داخل تجويف صدره العريض ويتكور رأسها أسفل ذقنه.. تمتزج خيوط أشعة شمس تتسلل من بين عروق خشب يظلل سقيفة المخزن بظلال كثيفة على وجهيهما.. تلثم جبهته فيغمض عينيه ويبتسم في رضا، بينما يرمق «شريف» بنظرة جانبية مترقبة. تبكي هي، وتصرخ باسمه، وتحمد الله في تتابع رتيب وصدرها يعلو ويهبط في توتر.. دموعها تغرق وجهها.. صوت الضابط يخترق فضاء المشهد قائلًا في رتابة: «معاك بطاقة يابني؟».

«منى» تزيد من تعلقها بياقة قميص الشاب قائلة في تنمر: «بطاقة إيه يا حضرة الظابط؟ هو مش كفاية إن البلد بقى فيها خطف.. عيني عينك؟ هو اللي بيتخطف بيبقى معاه بطاقة؟».

واصل متململًا، بلهجته التي يملؤها الشك، كأنه لم يسمعها: «هو ده ابنك يا مدام؟».

قالت في تلقائية، بلهجة لا تقبل النقاش، وهي تسحبه من كتفيه نحو السيارة وكأنها تخشى أن يلتقطوه منها: «أيوه هو ده «عمر».. متشكرين ياحضرة الظابط.. الحمدلله..».

بدت وكأنها لم تلحظ النظرات المتشككة في العيون.. سارت به، تكاد تدفعه دفعًا نحو السيارة، وكأنها تخشى أن ينتزعه من بين يديها أحد ثانية.. وسط ذهول «حسناء» التي جمدت في مكانها غير مصدقة، وذعر «شيرين» و«رأفت».. «شادي» تبادل نظرة مع «شريف» الصامت في عدم استيعاب للموقف.. وقال بصوت مرتفع أفلت منه بلا وعي: «هو إيه اللي بيحصل ده؟».

انتزع «شريف» نفسه من ذهوله.. تبادل نظرة خاطفة مع مساعديه الأربعة، سار بخطوات سريعة نحو سيارته واعترض طريق «منى» قائلًا في ذهول: ««مُنى».. إيه اللي بتعمليه ده؟ مين ده يا «مُنى»؟».

أزاحته في تركيز، بحركة آلية، وكأنها تتوقع ردة فعله، ولا تطيق حديثه.. بلهجة زال عنها كل رقتها وخجلها المعهود، قالت وهي تواصل دفع الشاب للولوج في المقعد الخلفي: «سيبني يا «شريف».. «عمر» رجع خلاص، مش وقت خناقات ولا مشاكل..».

استدار عنهما وهو يفتح ذراعيه علامة قلة الحيلة.. توجه للضابط وهو يقول في انكسار: «ده مش ابني يا فندم!».

- «نعم؟».

- «مش ابني.. ده مش «عمر» ابني..».

- «حضرتك بلغت البوليس إن ابنك مخطوف.. وإن عندك معلومة أنه في العنوان ده.. صح كده؟».

- «أيوه صح،.. بس..».

- «أنا ما تعاملتش معاك رسمي، ما قلتش حاجة: طلعت معاك بالقوة كلها.. كسرنا المخزن وفتحناه.. قل لي: هل أنا قصرت مع حضرتك في شيء؟».

- «لأ طبعًا.. بس مش هو ده..».

- «ده هو العنوان.. ودي أم الولد.. صح؟».

- «يافندم حضرتك مش فاهمني..».

- «حضرتك اللي مش فاهم الموقف يا أستاذ، الولد إنت قلت إنه اتخطف.. احنا عادة في الخطف ما بنتحركشي قبل مرور 24 ساعة، مع ذلك جينا معاك، ولقينا الولد أهو.. دلوقتي إنت عايز إيه بالظبط؟».

- «ابني، عايز ابني.. ابني اتخطف امبارح من الفيللا، وده مش هو..».

ببرود مستفز أجابه الضابط «مش شايف إن الموقف محتاج منك لشوية توضيح؟..».

- «قلت لحضرتك مكالمة مجهولة، رقم خاص.. بس الولد ده أنا معرفوش..».

- «أنا مش بتكلم على كده.. قل لي: مش المدام دي أمه برضه؟؟ يعني أمه مش عارفاه، وحضرتك اللي عارفه؟».

- «ولا حد من اللي واقفين هنا عارف الـ«بني آدم» ده.. اسمعني حضرتك، أكيد «عمر» ابني قريب من هنا.. أرجوك ساعدني..».

قال وهو يتحرك بعيدًا عنه بنفاد صبر: «شوف ياباشمهندس، الموضوع كله انتهى كده بالنسبة لنا.. عندك أي دليل على اللي بتقوله اتكلم، ما عندكش.. اسكت خالص، وإوعى من وشي لو سمحت. ابقى تعال القسم نكمل المحضر، علشان الحكاية دي مش عجباني من أولها لآخرها، واللي حصل ده مش حيعدي كده.. وكفاية قوي كلام النهارده..».

(2)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 1

البدايات الهادئة للدور (للمباراة) قد تنم عن معركة عاصفة تلوح في الأفق.

كان هذا هو اليوم الذي ذهب فيه «شريف» بصحبة زوجته «منى»، ومساعديه في شركته الخاصة.. «رأفت»، «شادي»، «حسناء» و«شيرين».. لاستعادة «عمر».. ابن «شريف» و«منى» الذي كان من المفترض أن خاطفيه قد حبسوه في ذلك المخزن في خان الخليلي.

لكن الأمور لم تصل إلى هذه العاصفة بين يوم وليلة.. بل إن المراقب لأحوال «شريف»، «منى».. و«عمر» قبلها، لم يكن ليجول بخاطره هذا الانقلاب الشامل في أحوالهم.. بعد ما لايزيد على الأسبوعين!!

سأل «شريف» نفسه كثيرًا، متى صار مزاجه إلى ما صار إليه؟ متى صارت الشركة ونجاحها مجرد أرقام، وأصفار على اليمين في أرصدة البنوك؟ متى توقف عن الاستمتاع بالطعام، وبالجديد، السعي للنزوة، والافتتان بالسفر وبالحلم؟ لم يتوقف أبدًا عن تذوق

اللذة في كل وقت عاشه.. لكن لهفته إلى كثير من الأمور صارت اليوم ذكرى.. أشهى الطعام.. أحدث الأشياء وأفضل السيارات، لم يعد شيء صعبًا عليه، أو بعيدًا عن يديه.. لكنه صار كالترس، جماد لا يشعر، إلا كمن يدور في آلة الحادثات من حوله.. أو هكذا أحس.

كانت الحياة تسير به في هدوء رتيب، وكأن ديدنها قد عوَّده أن يسير بحذر من يتفادى الحفر، وبهدوء من خبر التسرع والجنون، ومن زهد العفوية والتجريب.. فيأتي السبل غير مبطئ الخطى في وجل من يتلمس خطاه، وغير مسرع في لهفة من يتعجل النجاح.. غير مكترث إلا بما يفيد، وغير آبه إلا بما يهم.. شيء مما نسميه في أحاديثنا بالتعايش، أو في أوصافنا لأنفسنا بالتأقلم، أو مما اصطلح «شريف» على وصفه عقب تنهيدة تتغلف بالرضا وتكسوها مسحة يأس، ردًّا على سؤال عن الحال والأحوال من مقرب أو صديق: «أهو.. أهي ماشية والحمد لله».

كدور شطرنج هادئ البدايات، سخيف المطلع.. بدت له أيامه.. لكنه لم يكن يدري أنه سوف يخطو خطوة ملعونة.. سوف ينقل قطعة من قطعه في ثقة على رقعة المباراة بينه وبين القدر، فيلازمه الندم بعدها طويلًا.. خطوة تتضاءل بعدها رتابة أيامه التي يبحث لها عن سبب، ويخفت بجانبها صوت الباحث عن اللذة والجنون الذي لازمه لزمن.

الدور بسبيله إذن أن ينقلب رأسًا على عقب.. والسؤال الذي يشغل فكره منذ شهور وشهور، لن يلبث أن يصير سؤال الساعة.. وحل المعضلة.

متى كانت تلك النقلة الخاطئة؟ تلك اللحظة التي تغير بعدها كل شيء.

في منزله، وقت المغرب.. يشرد في رقعة الشطرنج المسجى أمامه.. تماثيل خشبية صغيرة.. جيشان يصارعان بعضهما من خلال أنامله.. يحب تلك الوضعية التي يجلس فيها منعزلًا عن العالم من حوله، «منى» تراجع أوراقًا جلبتها معها من عملها للمنزل، و«عمر» يراقب التليفزيون أو يسد أذنيه بالسماعات فيحلق مغمض العينين، بعيدًا في أنغام موسيقاه.. أما «شريف».. فيواصل دفع الجيشين ليحاربا بعضهما.. يعشق ذلك الموقف الذي يجعله هو الخصم والحكم، يتمثل تفكير الجيشين، فينقل نقلة ويرد عليها بأخرى، هو الفائز، وهو الخاسر.. يبتسم في مرارة.. أبيض وأسود.. هكذا الشطرنج، ولكن ليست الحياة بذلك الفارق الواضح.. ذلك الحد الفاصل بين ما يجب وما لا يجب، وما ينفع وما يضر.. يقاوم التفكير بذلك الوضع المجنون، يلاعب خصمًا، هو ذاته.. يهاجم جيشًا هو جيشه.. بنفسه وفكره يحاور آخر، لا يغادره ولا يختلف عنه.. يسمونه الجنون ممازحين.. «منى»، و«رأفت».. مساعده القديم بالشركة.. لكنهم لا يعلمون أنه يسأل نفسه طوال الوقت، معاودًا نفس السؤال: متى كانت تلك اللحظة؟ النقلة، التي خطاها في حياته، مثل نقلة دور الشطرنج.. تلك النقلة التي يختلف بعدها كل شيء.. متى.. متى توقف الإحساس باللذة حتى وهو يطارد نزوة مع تلك العميلة أو الفتيات اللاتي يضعهن القدر في طريقه، واستمراء المتعة

في أحضان عابرة سبيل ينسى معها لحظته، ويعود بعدها لأسرته وقد غسل همومه وكسر رتابة الطريق؟ متى سئم الجنون..؟

يسرح ببصره في رقعة الشطرنج كلما لاعب «رأفت»، صديقه القديم ومرءوسه الحالي، إذعانًا لإلحاحه اللزج، أو من قبله زوجته، «منى»، التي كانت تذعن هي بدورها لافتتانه بأن يلاعب محبوبته في أول أيام زواجهما، قبل أن تقلع عن مجاراته منذ عامين، أسبوعًا بعد أن احتفلا مع «عمر» بنجاحه في الثانوية العامة، وتصارحه أنا «مابحبش الشطرنج، بيجيبلي صداع.. خلاص بقى، بصراحة دلوقتي بقيت ما قدرش زي زمان، انت أصلًا بتبقى مبسوط أكتر وانت بتقوم بدورك كحكم في ماتشات النادي ولا لأ بذمتك؟ وبعدين ما تلعب معاهم؟ أكيد بيلعبوا أحسن مني».. يصمت ويبتسم لردها، يتردد لثوانٍ، تستدير مبتعدة وهي تظن أن ابتسامته من زاوية فمه تعني الموافقة، لكنه يزين بابتسامته فمًا يحجب كلماته عنها.. ويخشى أن يغضبها، يريد أن يخبرها أنه لم يكن يقابلها عبر الرقعة المربعة من أجل الفوز، معها هي لا يريد الفوز، يسأل نفسه بعض الأحيان.. هل يتمنى لو أنه لا يعرف غيرها؟ هل سئم الحياة معها؟ أم سئم اللذات في أحضان من سواها؟.. هل صار يتمنى أن ينكشف أمره مع كل مغامرة، فيبكي مرة بين يديها ويرجوها ألا تتركه ينسل من بين يديها، أن تحبسه في المنزل فلا يرى غيرها، لا يرى الشركة ولا مشاكلها ولا العملاء ولا العميلات المتدلهات في غنجهن، ولا يرى سوى «منى» التي أحبها منذ عشرين عامًا..

هل يتمنى أن تعود؟ أم أن طبع الجسارة وصيد اللذات عليه غالب؟

مثلما غلبه الأسبوع الفائت..

يراقب «شريف» وجهها ذلك الصباح بترقب أكبر من المعتاد.. لم يمض على شجارهما الأخير ثلاثة أيام.. لم تتبادل معه خلالها كلمة واحدة.. بالأمس فقط جهزت له العشاء، ووضعته على المائدة الصغيرة التي تقبع عند قدميه.. وجلست بجواره وهو يشرد في تلفاز لا يدري بالضبط ماذا يعرض على سطحه.. تسمر مبهوتًا، وهي تعقد ساعديها أمام صدرها وتشرد بإصرار في نقطة بعيدة عنه، كأنها تتعمد ألا تصافح عيناها وجهه. انتقى بضع جمل قصيرة، صاغها بحذر ليشكرها على العشاء، فتمتمت بلهجة خاوية بأن لا هناك داعٍ ليشكرها.. تشجع فاعتذر عما بدر منه.. وعاود التأكيد بأن ما افتضح أمره فيه، لم يكن سوى نزوة، وأنه أساء التصرف.. اهتزت أهدابها في سرعة، لكنها لم تعلق ولم تنظر إليه.. قامت من جلستها قبل أن يلمس طعامه.. غابت في حجرتها لكنه قام بعد قليل، حين لم تعد إليه.. تركت الباب مفتوحًا وتوسدت السرير مولية ظهرها للباب، تمدد لجوارها وأطفأ النور.. تظاهرت بأنها لم تسمع حديثه.. أمطرها بالاعتذار، والوعود.. تغزل في جمالها بجمل جديدة حفظها من نزوته الأخيرة.. لكنها ابتسمت وندت عنها ضحكة خافتة، لم تعترض عندما احتضنها، لكنها أشاحت بكتفها تبعد ذراعها الملفوفة حولها وهي تهمس: «نام دلوقتي.. مش وقته..».

قالتها بلهجة غاضبة مغلفة بغنج لم تخطئه أذنه.. فسألها: «طيب الجميل سامحني خلاص؟».. فأجابته بهدوء: «الجميل زهق من كلام كل مرة ده.. عاوز ينام، وبكره الصبح يشوف..».

لذلك راقب وجهها الذي أشرق بابتسامة تمنحها لابنهما «عمر».. الجالس بجانبه لنفس المائدة.. لكنها ما إن التقت عيناها بعيني «شريف»، حتى استحالت لابتسامة أقل اتساعًا، لكنها شفعتها بتقطيب حاجبين جميلين، ونظرة قالت له، بغير كلمات: «ليس أمام الولد.. دعه ينطلق لحال سبيله بعد الإفطار.. ثم أمطرني بكلمات الحب، ولسوف ألين..».

يجلس ابنه «عُمر» إلى نفس مائدة الإفطار التي يجلسان إليها، ويرغم نفسه على الرد على أسئلة «شريف» الثابتة كل يوم. «الساعة أربعة»، «لأ»، «أيوه»، «ماشي».. وتلك هي إجاباته المسهبة عن متى تنتهي محاضرات اليوم، وهل لديه درس خصوصي في المساء، وهل سيخرج بعدها مع أصحابه، وموافقة أخيرة منه على أن يتصل بأمه أو بأبيه حتى يخبرهما أين سيكون حتى يطمئنان عليه، تلك الـ «ماشي» التي حلت بعد إلحاح عنيف من أمه محل «قشطة» التي شنفت آذانهما لشهور، قبل أن يتلطف عليهما باستبدالها بما لم تجد «منى» في نفسها الطاقة اللازمة لمواجهته، فاكتفت بالنصر الجزئي الذي دشنته بابتسامة الرضا التي وجهتها لــ «شريف» بعد أن تبادلا معه هذا الحديث «المطول» هذا الصباح!!

تنصرف إلى المطبخ، فيتشاغل «عمر» عن نظرة أبيه الثاقبة بترتيب أوراق أمامه، يدسها في حقيبة أمامه يصطحبها في مشواره اليومي للجامعة.. لكن «شريف» لا يلبث أن يقول في تخابث، وبلهجة حرص على أن يجعلها هادئة كي لا تصل لمسامع «منى»: «أنا دفعت المصاريف تاني، وقلت ماشي، يمكن محرج تقول لي وديت الفلوس اللي أخدتها فين، مع إني عارف إنك ضيعتها على أصحابك اللي بيلعبوا معاك مزيكا..».

يرد عليه دون أن يرفع بصره، ومن بين أسنانه، كمن اعتاد تصحيح هذه الكلمات مرارًا: «اسمها بنتمرن موسيقى.. مش بنلعب..».

يتابع وكأنه لم يسمعه: «.. لكن أنا يعني عايزك لما تغيب بره بالليل قوي كده، تشوف لك حجج أحسن من كده، أمك ممكن تضحك عليها بكلمتين، لكن أنا لأ..».

رفع بصره إليه بقلق خفيف، لكن «شريف» تابع مركِّزًا بصره على عينيه «يعني البنت اللي كانت عندك بالليل، وماشية على اتنين الصبح.. دي إذا كان مالهاش أهل يسألوا عليها، انت ليك أهل خايفين عليك.. بلاش الرمرمة دي.. يعني استنضف شوية..».

قال بلهجة حاول أن يصبغها بأكبر ثبات ممكن: «احنا كنا بنراجع حتة في اللحن..».

ابتسم في سخرية: «وحفظتها كويس؟».

انتزعت كلماته شبح ابتسامة.. كانت آخر ما رآه من وجه «عمر» قبل أن يقوم من موضعه.. ليتحرك صوب باب المنزل.

تركت الابتسامة خلفها قلبًا يحس بوخز شيء ما في أعماقه.. انهارت ملامح السخرية من وجه «شريف».. وحل محلها همٌّ ثقيل، كعادته.. كلما جلسا معًا، أو انتزع منه طرف حديث ما انتزاعًا.

•·······························•

«شريف» يندهش بعض الأحيان: ماذا يشعر به ولده تجاهه فعلًا؟ فما عسى شاب مثله أن يحس نحو من لا يفهم تقريبًا أيًا من الأشياء التي يحبها ويحرص عليها؟. هما، والحق، لا يرتاحان لوجودهما معًا في مكان واحد طويلًا. نفس التوتر يشعران به، ونفس تحاشي النظرات، الذي تنهر «منى» «عمر» عنه دائمًا، لكنها تحسب «شريف» غاضبًا منه لصمته وطلباته التي لا تنتهي، أو ربما بسبب ملابسه التي لم يعد كلاهما يفهم كنهها، وسهراته غير المنطقية، وإصراره على ابتياع سيارة له، فضلًا عن انعزاله الدائم في حجرته، وانقطاعه عن زيارات الأقارب، سواء القادمون إلى منزلهم أو هؤلاء الذين يزورونهم كلَّ خميس..

لكن الحقيقة أن «شريف» و«عمر» غاضبان من بعضهما لأسباب أخرى، ربما لم تعرفها «منى» بعد.. الحقيقة أن الرجلين يتحاشان بعضهما منذ زمن.. وبالتحديد منذ عصر ذلك اليوم البعيد.. عندما جلسا معًا في المقهى.. وكان ذلك بتدبير منها هي..!!

(3)

ما الذي كان في ذلك اليوم البعيد؟

ما الذي حدث، ويتظاهر هو طوال الوقت أنه لا يؤثر فيه، ولا يغرق أفكاره بهموم، وخواطره في مرارة لا قرار لها؟

بعد العمل.. كان هذا هو يوم لقاء «شريف» بابنه، «عمر».

كانت «منى» قد فكرت طويلًا في هذا اللقاء.. أسبوعين كاملين، حتى ذلك العصر، عندما كان «شريف» يجلس أمام التليفزيون يقرأ كتابًا عن الشطرنج.. منهمكًا كعادته أخذ يخط بين وقت للآخر تفاصيل نقلات أعجبته من الوصف الذي يقرؤه لمباريات شهيرة، وهو غافل عن شاشة تليفزيون تلتمع أضواؤها بالمشاهد المتتالية، وعن «منى».. التي تركت متابعتها منذ دقائق لتتأمله مشغولًا، وهي تفكر من أين تبدأ حديثها إليه، قالت له كلامًا كثيرًا عن الوصال المفقود، عن «عمر» الذي سيضيع منهما، وأصرت على إتمام اللقاء بينهما كما دبرت.. قالت في توسل يمتزج بالصبر: «إنتو بره البيت، راجل وابنه، حتتكلموا أحسن من هنا..» نظر إليها في صمت شجعها على المواصلة قبل أن تكتسي قسماته بغضب تتحسب له، فتابعت: «هنا بيعمل حجته القطار السريع ومواعيد الجامعة، وبعد ما يرجع.. يا إما بيذاكر، يا إما عنده معاد مزيكا مع أصحابه، أو درس، أو أي

حاجة والسلام.. وانت بصراحة يا «شريف».. عمرك ما حتدخل أوضته وتقول له عايزك في كلمتين.. إنت عاوز الكلام ييجي من نفسه..».

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 2

عندما يتواجه وزيران.. ولا يكون هناك استعداد لأي من الخصمين بالتضحية بنفسه.. فإن الأمور تتعقد أكثر وأكثر في المباراة.

دخل «عمر» إلى المقهى في الموعد المضروب.

«شريف» كان قد سبقه بنصف الساعة.. أمر لنفسه بكوب من الشاي، انتهى منه، وفي ذهنه ألا يسمح لـ«عمر» بدعوته على شيء.. اتصلت «منى» به مرتين، لكنه لم يرد إلا في الثانية.. «ماتحجرش دماغك قوي كده في موضوع المزيكا ده.. دي في الأول وفي الآخر هوايته يعني مش مشكلة كبيرة.. ماتكبرش الموضوع..».

- «ابنك بيحتاج صبر كبير..المناقشة معاه مش سهلة، سيبك من اللي بتشوفيه انتي منه، معايا أنا بيبقى حد تاني خالص..».

- «لا والله، أنا مش زعلان منك..».

التقط «عمر» نفسًا عميقًا كأنه يداري به توتره لدى سماعه تلك الكلمات من «شريف»، داعب لحيته الخفيفة بطرف إبهامه وهو يوجه نظرات صاعدة لأبيه.. ملؤها الفضول والدهشة، ثم اتكأ بظهره للخلف.. وباعد بين ركبتيه وقال في تثاقل: «بابا.. أنا مش سهل عليًا أسألك السؤال ده.. انت زعلان وأنا عارف.. ماما سألتني كتير مالنا، وإيه اللي حصل.. أنا ما قلتلهاش حاجة.. وفي الآخر انت ما صلحتلهاش الفكرة، أنا متأكد إنها زي ما بتسألني برضه أكيد بتسألك.. ».

- «وعاوزني أقول لها إيه؟».

- «إني مش مزعلك في حاجة!! يا بابا انت عارف إني مش مزعلك بالمعنى اللي هي فاهماه.. هي حاسة إنه فيه مصيبة أنا عملتها، وبناء عليه خانقاني في الرايحة والجاية.. أنا مش باتكلم معاك في البيت كتير، علشان ما نتكلمش في الموضوع تاني..».

- «من غير ما تعترف إنك غلطت يا «عمر»، مفيش فايدة.. انت عارف أنا باتكلم على إيه..».

«يا بابا اسمعني، أنا جيت وقلت أعمل لها اللي هي عايزاه.. بس إنت عارف إني مش شايف نفسي غلطت في حاجة، وأظن مش حنتفق أبدًا مهما اتكلمنا، يعني اللي حصل واللي كان أيام الشركة وكده.. إنت عارف بقى..».

اعتدل «شريف» للأمام في حدة.. ونظر إليه بغضب مكتوم قائلًا من بين أسنانه:

- «إيه اللي حصل يا «عمر»؟.. قول لي إنت إيه اللي حصل، واللي بتقول إنه ما كانشي مزعلني بالمعنى الحرفي للكلمة؟ ما دام قاعد بتحاسب أبوك وعاجباك اللعبة قوي؟».

اضطربت نظرة «عمر».. وحاول تحاشي نظرة أبيه، لكنه بعد صمت قصير، وعندما لم يحول «شريف» نظره عنه، عَدَّل من وضع ياقة قميصه، وقال في توتر لكن بلهجة من حسم أمره مسبقًا: «أنا مش بحاسب حد، عمومًا خلاص يابابا.. لو كلامي يضايقك، اتكلم انت طيب.. ولو إني شايف إن القعدة دي مالهاش داعي..».

- «وأنا كنت من رأيك برضه، لكن أظن إن فعلا رأي أمك في محله، ما دام عامل لي فيها عاقل وغلبان، أنا أقول لك إيه اللي حصل.. اللي حصل يا أستاذ: إن عيل متدلع، لسه في أول حياته، جات له فرصة سهلة وعلى طبق دهب، يتعلم الشغل اللي بجد، ويتمرن في شركة شغالة وليها اسم في السوق.. لكن رفس الفرصة برجليه، وقال أنا المزيكا عندي أهم..».

- «أيوه يا بابا.. بس كمل اللي حصل..».

- «...».

يشيح «شريف» بوجهه بعيدًا، بينما يستعيد ذكرى ذلك اليوم منذ أسابيع.

(4)

كان «شريف» يجلس إلى مكتبه، يستمع إلى أصوات دق الأسياخ الحديدية.. دقة.. اثنتان.. سبعة، تراهن مع «شادي» يومًا على الرقم.. وكان «شادي» يتندر مع «رأفت» على ذلك الأمر، عندما دخل «عمر» مصفر الوجه.. زائغ النظرات.

طلب لقاء «شريف».. منفردًا.

في الحجرة الجانبية، بعد أن أفلتا من نظرات القلق في العيون.. انفجر «عمر» في وجه أبيه.

كان يصرخ.. يبكي.. ويتمتم بكلمات كالذي يهذي.

أمسكه «شريف» من كتفيه.. يهزه ليهدأ.. لكنه تماسك بغتة وسأل في يأس: «الشركة دي بتشتغل في إيه بالظبط؟».

أجفل «شريف».. صمت ولم يحر جوابًا.. عندما أعاد «عمر» سؤاله بتوتر أكبر.. كان لا بد له من أن يجيب بشيء ما.

- «مين اتكلم معاك يا عمر؟».

- «اطمن.. ما حدش اتكلم معايا في حاجة.. كلهم محرصين وواخدين بالهم.. كله عامل نفسه بيشتغل في تصميم علب الكشري وأكياس الدليفري، وموضوع التطبيقات بتاع الموبايلات، Apps

علشان الموضة، وتغذية القطط، والآثار وغيرها، وساعات design علشان يعملوا أجندات ونتايج السنة الجديدة وكده، كله مركز قوي، عايشين الدور حلو جدًّا كأنهم شغالين في الحاجات دي بجد، بس أنا عرفت لوحدي..».

- «عرفت إيه؟».

- «يعني صح؟؟».

- «انطق!!».

- «عرفت إنكم بعد ما كنتم بتعملوا أكياس النور، وبتطبعوا كتب، وقلنا الحال اتدهور والسوق مش ماشي، وبتعملوا شغل محلات الأكل ده.. بعدها.. ولا قبلها، شوف انت بقى من امتى، بقيتوا شركة Private Investigations، بتتجسسوا على الناس..».

- «عمر»، احنا مش بنتجسس على الناس.. دا شغل زي أي شغل».

وكأنه التقط الخيط الذي يريده، هبَّ من استرخائه للأمام قائلًا في ظفر: «كويس قوي، خبيتوه عني ليه، لما هو شغل زي أي شغل؟».

تردد شريف للحظات، بدا له أنه اتخذ منعطفًا هامًّا في حواره مع ولده المتحفز، لكنه حسم أمره ببراعته المعهودة في القرارات التلقائية، وتابع رده:

- «علشان إنت صغير على الكلام ده، احنا نفسنا ما بنحبش نظهر في الصورة، وكمان ممنوع حد بيعرف التاني شغال على أنهي

ملف.. السرية أهم حاجة في الشغلانة دي.. من غيرها ممكن تحصل مشاكل..».

سأله متهكّمًا: «السرية؟.. ليه سرية من أصله..؟».

أغلق عينيه في محاولة للسيطرة على أعصابه، أزاح غضبه من عناد «عمر» عن ناظريه، ضغط نواجذه في تؤدة، ليضيف إلى نفسه قوة في التحكم في صوته ونبراته.. تابع كأن لم يسمع مقاطعته: «.. وأي حد جديد في الشغلانة دي بيشتغل في الدعاية العادية فترة، تقدر تسميها «مرحلة أولى».. زي ما بيحصل معاك كده، لحد ما يبان، هو ينفع ولا ما ينفعش.. أنا كنت لازم أقول لك في يوم من الأيام، وساعتها كنت حتفهم..».

- «سرية إيه اللي مهمة؟ السرية والخداع صح؟ مرحلة أولى إيه؟ إنتو بتشتغلوا جواسيس!».

- «افهم!.. الناس بتطلب طلبات معينة مننا وإحنا بنعملها لهم، فيه حاجات ما ينفعش البوليس يعملها لك».

- «ليه ما ينفعش يعملها؟».

- «ما يعرفش.. ما يقدرش، أو ماعندوش وقت.. حاجات كتير زي دي وألعن من دي. الموضوع مش بيبقى حبل غسيل اتسرق ولا حرامي نشل محفظة يا «عمر». فيه مشاكل كبيرة ما بيحلهاش البوليس، وماعندوش طريقتنا ولا اللي بنعرف نعمله.. فيه ناس كمان ما بتقدرش تستنى مصلحتها تخلص بالشغل التقليدي بتاع البوليس، وكمان عندهم فلوس ومستعدين يدفعوا علشان يخلصوا وينجزوا..»

نظر إليه نظرة حملت اتهامًا بشيء ما، لكنه سأله في تؤدة: «بس كده يابابا؟».

- «يعني إيه؟».

- «بس كده؟ مصالح ناس.. كانت رايحة البوليس، بس ياعيني البوليس مشغول ومش فاضي.. فأنتم بقى أسرع وكده؟ بتتعبوا علشان مصالح الناس وأمنها وأمانها.. وبتاخدوا مقابل يعني.. بس كده؟».

رد «شريف» وكأنه يتخلص من الجملة التي يعلم أن «عمر» يريد الوصول إليها: «لأ.. مش بس كده، فيه حاجات تانية كمان، بس انت ماستنيتشي علشان أحكيهالك يا «عمر».. شوف، فيه مثلًا..».

لكنه قاطعه وكأنه يريد أن يختصر الطريق: «انت بتشتغل في الحاجات دي معاهم؟».

- «أيوه طبعًا.. إنت ناسي اني أنا اللي عملت الشركة دي؟».

- «انت عارف يا بابا إن فيه ناس بتطلب تتجسس على زوجاتها وأزواجها علشان بيشكوا في سلوكهم؟ عارف كده؟ أكيد عارف طبعًا!!».

هز كتفيه في لا مبالاة وقال له في هدوء «وإيه الفرق يا عمر؟ اللي بتخون جوزها ولا اللي بيخون مراته، ما هو ده كمان مش شغل البوليس، حاجة ما يعرفش يعملها.. عارف ليه؟ علشان مافيش تهمة بتقول خيانة زوجية، علشان زوج ولا زوجة يعرف دي ولا ده.. مع إن اللي سرق عربية، زي اللي بيسرق ثقتك فيه، الاتنين حرامية، ولازم

يتكشفوا.. الاتنين يستاهلوا، وما دام البلد مش عارفة تجيب حق الناس دي، ولا حاطة لهم عقوبة.. فيها إيه لما يبقى فيه اللي يقدر؟».

أنهى «شريف» كلماته، ورمق «عمر» بنظرة حائرة.. لم يجسر أن يخبره بأن هذا هو أكثرية نشاط الشركة، لكن نظرة «عمر» الملتاعة، وصوته المرتعش أنبآه بأن هذا ما هو إلا تحصيل حاصل، وأنه يعلم بالفعل ما يكفيه.

عاد «عمر» ليسأل أباه في اهتمام مشوب بقلق:

«بابا.. انت سامعني؟».

أفاق من شروده على صوت ابنه مختلطًا بأصوات ضيوف المقهى الجالسين إليه.. صمت للحظات بعد استرجاع تلك الذكرى، ثم قرر أن يهاجم.. فاعتمد لهجة منخفضة الصوت، وأقل حدة.

- «شوف يا «عمر».. الحياة دي فيها حد لازم يتعب.. علشان غيره يرتاح، الشغل عمره ما كان عيب، ولو احنا ناس ما بنعملشي الشغل بتاعنا كويس، ألف غيرنا حيعمله، ولو ماعملناهوش حيروحوا لغيرنا.. يابني احنا كنا زمان شركة عظيمة، ما كانشي فيه بيت في مصر كلها ما فيهوش أكياس النور بتاعتنا.. المخازن عندنا ما كانتشي بتلاحق، طباعة الكتب دي جات فكرة للمدير كده، كان راجل فخم كده وبيحب القراية جدًا وعمرك ما تشوفه إلا في إيده كتاب، وبعدها اتفتح لنا باب رزق واسع جدًا منه، أنا شفت بعيني هنا صحفيين كبار وأدباء تحلم بس إنك تشوفهم في الشارع، بمنتهى التواضع.. بيستنوا

الأستاذ، وبيراجعوا معايا الديسك بتاع كتابه، وبيتصلوا يسلموا عليَّا، ويسيبولي رسالة لو اتأخرت، ناس فعلًا ما تتعوضش. لكن سنين بعدها اتدهور الحال، أكباس النور حصل فيها مشاكل والمكن القديم ما قدرناش نوفر له صيانه مظبوطة ولا نشتري غيره.. مشينا في موضوع الكتب، بالوقت.. الناس ما بقيتشي تشتري كتير.. هو فيه حد بيقرا اليومين دول؟ وبعدين احنا كنا بننشر روايات وشعر، وماكانشي بيجيلنا بتوع الكتب الدينية للأسف، دول بيبيعوا بيع.. حاجة مهولة، بس ما قدرناش نشتغل في النوع ده، لأنهم دايمًا عايزين يبيعوا بأسعار في الأرض، فبيعوزوا ورق رخيص، وأسعار الورق نار، وماتفهمش ليه عمرنا ما فكرنا نستعمل ورق رخيص، ولا نبيع طبعات أي كلام علشان نلم فلوس وخلاص..».

تململ «عمر» في جلسته وقال في هدوء: «بابا.. أنا برضه مش شايف غير إنكم بتشتغلوا في أعراض الناس.. دي مش شغلانة، أنا على الأقل ما شتغلهاش.. وبعدين إنت زعلان مني إني سبت الشغل اللي خططت تشغلهولي ولا إني عايز أسيبه علشان الموسيقى؟».

«الاتنين يا عمر.. الحاجتين..».

«أنا ما بحبش غير الموسيقى، وأيامنا غير أيامكم، ممكن الواحد يشتغل في المزيكا عادي، دي شغلانة زيها زي الدكتور والمهندس وزي شغلانتك، وحاكون حاجة كبيرة فيها..».

«خلص دراستك وبعدين اعمل اللي انت عايزه.. انت مش ماشي عِدِل في الجامعة، هي مش الجامعة دي بيذاكروها برضه زي ما كان على أيامنا ولا دي كمان اتغيرت؟».

«أخلص الأول علشان أبقى عجزت وماعرفش أبقى حاجة تانية، إلا اللي انت عايزه برضه صح؟».

«لما تصرف على نفسك ابقى اعمل اللي انت عايزه».

نظر «عمر» إلى سقف الحجرة كمن يتشبث بصبر يأتيه من السماء، وقال وهو يحرك يديه أمام وجهه محاولًا شرح فكرته في انفعال: «يادي الملل ياربي.. أنا باتكلم في موضوع معين، لا انت ولا ماما بتجاوبوني عليه بإجابة أبدًا، كأنكم بتتجنبوا المناقشة.. أنا عايز الموسيقى تبقى مستقبلي، يكون الرد دايمًا: احنا اللي بنصرف.. يعني إنتو اللي من حقكم تقرروا.. ياسيدي ما تصرفش عليًا.. أنا اخترت مستقبلي وشغال فيه.. أنا بروح الجامعة علشان ماما ما تزعلش، وعلشان مش عايز خناقات في البيت.. الجامعة مهمة، بس مش على أول أولوياتي دلوقتي، احنا بس اللي بندور على الشهادة وخلاص.. انت سألت «ميسي» واخد شهادات إيه؟ ولا «بيتهوفن» اتخرج منين؟، لما الناس بيعجبها لعيب كورة بتسأل الأول اتخصص في إيه ولا شغلته إيه، ولا بتدفع فلوس علشان تشوفه في الملعب وتهتف باسمه؟ تفتكر لو كان قال أنا حتخرج من الجامعة الأول علشان أبوه عايز كده.. كان حيبقى فيه كام واحد زيه؟ والنهارده لما بقى لعيب كورة.. كام واحد زيه؟».

«حتقول للناس انت بتشتغل إيه؟ انت فاكر انك حتطلع مايسترو يا «عمر»؟ عارف انت بقى، كام واحد بيحلموا زيك وكام واحد بيبقى مزيكاتي كبير ومشهور؟ وبعد كام سنة؟».

«اسمه موسيقار يا بابا، فنان.. أي حاجة غير مزيكاتي دي، دي زي ما تكون بتقول على الدكتور مطبباتي ولا المهندس مهندزاتي، وبعدين: أنا مش عاوز اطلع حاجة كبيرة، ولا حاجة مضمونة، أنا عايز أعمل حاجة بحبها.. مش عايز اطلع في الآخر....».

قطع جملته بيده، وعض على شفته السفلى.. لكن هذا لم يفت انتباه «شريف».. فبادره متحديًا: «ماتكمل؟ مش عايز تطلع في الآخر زيي.. صح؟!!».

بوجه ممتقع ويدين تفركان أصابع بعضهما في توتر.. غمغم «عمر»: «مش بالظبط.. تقدر تقول إني عايز أكون أحسن منك..» رفع عينين ملؤهما الرجاء لوالده، وهو يتمنى ألا ينتبه للمعنى الذي أفلت منه: «مش برضه دي أمنيتك؟».

- «أنا مش عاجبك في إيه يا «عمر»؟ أظن الوقت مناسب إننا نتكلم بصراحة.. ما دام قعدنا مع بعض.. مافيش داعي نأجل المواجهة.. اتكلم..».

تردد قبل أن يحسم أمره بالرد.. فقال لأبيه وهو يسيطر على حماسه بصعوبة:

- «ماشي.. مش عايز أبقى بشتغل في شغلانة علشان آكل عيش، أرضى بأي فلوس وأرضى بأي تعب، أقنع نفسي إني باعمل كده علشان مافيش حل تاني، أبص للي حواليا وأقول إني أحسن من ناس كتير.. انت بتسميه إن الواحد يحمد ربنا، بس ربنا ما يرضيهوش إني أكون مكسور، ولا قرفان، ولا عايش ومقضيها وبس.. ما تقوليش

إن الحياة كده والدنيا كده.. أكيد الحياة مش كده، ولا احنا بس اللي حياتنا كده..».

عضَّ على نواجذه وهو يحاول تمالك أعصابه وقال بهدوء مفتعل: «عمر».. «كلنا في سنِّك فكرنا نعمل حاجات كبيرة، كنا متأكدين أننا حنصلح الكون.. الدنيا مش كده..».

بابتسامة خفيفة، وبوجه يبدو صاحبه أنه يعاني لاختيار كلماته، قال: «وبعدين لقيت إيه لما كبرت؟ إنت اخترت بمزاجك، أنا مش شايف إنك فشلت.. بس إنت مصر تفسر كل شيء بسر الكون والحياة اللي أنا مش فاهمه، أنا ما ظنش رغم كده إنك مقتنع ولا مبسوط..».

ابتلع «شريف» لعابه بتوتر، وقال متظاهرًا بالثبات: «وانت بتقول ليه إني مش مبسوط؟».

قال بلهجة من ضجر من مناقشة شيء لا يحتاج دليلًا: «يعني عاجبك إنك بتصور الناس في مواعيدها الغرامية، وتتبعهم بيروحوا فين ويكلموا مين؟ ولا عاجبك إنك بتبقى مبسوط لما تثبت، إن فيه واحدة صايعة بتخون جوزها، بعد ما كنت بتنشر كتب بتنشر الأخلاق الحميدة والجمال، بقيت بتدور تثبت مين محترم ولا مش محترم؟».

أمسك بجانبي رأسه وغمغم: «خلاص يا «عمر».. كفاية كده النهارده..».

لكن «عمر» واصل وكأنه يرى الفرصة سنحت أن يخرج ما بصدره، ويخشى ألا تتكرر: «أنا مش عاجبني، ومش متصور إنه عاجبك، إنت عايش، بس مش مقتنع، وأنا مش عايز أكون كده، مش

عايز أكون زيك.. بادورعلى الغلط فين.. عايز أنا اللي أبقى مثال للصح أو الغلط، زي ما الناس تقدرني..».

نظر له بمرارة وقد اعتدل ليواجهه مرة أخرى: «ومين اللي منعك؟ كل ده أنا مش بعمله في رأيك؟».

هز «عمر» رأسه في سخرية حملتها ابتسامة زاوية فمه، وواصل بمرارة: «انت حتى الشطرنج اللي كنت بطل فيه، سايبه، وبقيت حكم بيدور برضه على مين بيلعب صح ومين بيلعب غلط، طبعا حتقول لأنك خبرة، ما ختلفناش.. بس خبرتك بتمشيها في الطريق الأسهل، وبتقنع نفسك إنك مبسوط.. حتى الموسيقى بتاعتي اللي مش عاجباك.. عايز أطور نفسي وأخلص المقطوعة اللي شغالين عليها، أملي تتعزف في الأوبرا، مش كل أملي إني أسمع نفس الأغنية لأم كلثوم للمرة ال 100، وأقول أي جزء أحلى من أي جزء..».

التقط أنفاسه وظهرت على ملامحه أمارات الضيق كمن يصارع جملة تريد أن تحتل مكانها على طرف لسانه، ثم بدا وكأنه رضخ لإصرارها فقال في بطء، يمتزج مع احتقان وجهه: «أنا عايز أسألك سؤال.. بجد يعني، ما فكرتش أبدًا تشوف الموسيقى اللي بسمعها، عبارة عن إيه؟ كم مرة اترجيتك إنك تديني فرصة، طيب عارف ليه؟ لأني كنت عايز أشوف إحساسك بالموسيقى بتاعتي زي ما بتحس بالموسيقى اللي مُصر تسمعها كل يوم.. كنت عايز أصب الموسيقى بتاعتي في ودانك ولو مرة، وعارف أنها ضروري حتعجبك.. ما تستغربش.. أيوه أنا كنت طمعان فيك، طمعان إني أشوفك بتبص لي بإعجاب، عينيك بتلمع من الدهشة، على الأقل مرة من نفسي..».

انتزع «شريف» نفسه من ذهوله، وقال بغضب مكتوم: «هي دي مشكلتك معايا؟ ثم هو مين اللي يتعلم من مين؟ انت عاوزني أسمع المزيكا اللي على مزاجك، علشان أبقى لايق على الصورة اللي في دماغك، صورة الأب الـ «سبور»، الـ «مودرن»، اللي مصاحب عياله وماشي معاهم، وبيقول لك الله عليك، على أي تصرف عبيط تعمله.. هو ده المثالي اللي في دماغك؟».

بوجه كسته خيبة الأمل، قال في خفوت: «يا بابا.. أنا ما قصدش كل ده..».

واصل في حنق وهو يميل نحوه: «أنا والدك، ولي عليك حق الطاعة، إنت بتديني أوامر ليه؟ أحب إيه وماحبش إيه، ناقص تقول لي اتعلم مني ولا طلع ورقة وقلم واكتب ورايا علشان الكلمتين دول حينفعوك!!.. هو انت ما حدش قال لك يا «عمر» إنك تاخد صاحبك على عيبه أبدًا؟ ما بالك أبوك؟».

- «مافكرتش في يوم يابابا.. سؤال مش أكتر، ما فكرتش تتعلم موسيقى؟».

مبهوتًا سأله: «أفندم؟».

هنا نظر له «عمر» نظرة طويلة، كيائس حزم أمره للقفز من النافذة بعد طول تردد، وقال في حسم هادئ: «أنا يا بابا غيرك، حد تاني غيرك. مش عايز أفضل زيك مستمتع بدور الحكم، والسميع.. عايز أعمل حاجة بنفسي.. حاجة الناس تفتكرني بيها.. ليه مش عايزني أكون غيرك؟ ليه مستكتر عليًا أحقق اللي كان نفسك تعمله، لأ وكمان

بتنكر إنه خطر على بالك في يوم من الأيام.. أنا..أنا مش عايز أكون انت يا والدي..ببساطة، مش عايز».

- «ودلوقتي بتحللني نفسيًا.. إيه قال لك إني كنت أتمنى أعمل الحاجات دي؟ كانت عندي هواياتي، وكانت كتير على فكرة، لكن اتعلمت، واشتغلت وتعبت، كافحت علشان أخلف ابن عاق.. وفاشل».

صمت «شريف».. تحجرت مقلتاه على فم ابنه.. أحس لوهلة أنه اندفع، تسرع، جرفته كلماته بعيدًا عن الشاطئ حتى انقطع الحبل الرفيع الذي كان يربطه بالمرساة.. «عمر» من جانبه لملم أشياءه، قام من مقعده وأضاف في قسوة وهو يستعد للرحيل: «أنا مش عاق يا بابا.. أنا حاولت كتير إني أفهمك.. بس انت أصريت تسمع الكلام بالطريقة الصعبة دي.. وعلشان كده عاوز أقول لك، إني بعد اللي شفته في الشركة، ومن إصرارك على إني مش بعمل حاجة عليها القيمة، فمعلهش يا بابا.. اأمرني بأي حاجة غير إني أسيب الموسيقى.. وعايز أقول لك كمان.. إني عمري ما حسيت بالضيق منك زي النهارده بعد كلامك وبعد القعدة دي.. كان نفسي تكون جنبي وتساعدني، كان نفسي أكون محتاج لك..».

وكانت آخر جملة نطقها قبل أن يستدير ليغادر المكان.. بينما «شريف» يتمتم من خلفه في يأس حزين: «انت مش محتاج لي يا «عمر»؟».

(5)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 3

الدور المحفوظ، النقلات الرتيبة التي يتبادلها الخصمان على الرقعة.. تحمل في طياتها خطرًا كبيرًا: نقلة واحدة، في غير ترتيبها الطبيعي، قد تقلب كل حساباتك رأسًا على عقب.

قام من مقعده، خلف المكتب البسيط الذي لا يميزه عن مكاتب مساعديه في الشكل شيء.. ألقى إلى «رأفت» المتحفز لحركاته.. نظرة خاصة، هز معها ذلك الأخير رأسه لأعلى وأسفل في سرعة.. ليتحرك الجميع بترتيب بدا تلقائيًا لمن لا يعرفهم.. «شريف» يتحرك صوب باب جانبي مغلق فيفتحه ويغلقه وراءه في سرعة، «شادي» يسارع بإنهاء الحديث مع عميل جالس أمامه كان يطالبه بتغييرات في تصميم شعار لمنتج ما، «شيرين» تسارع بالتقاط زجاجتين للمياه المعدنية من صندوق أسفل مكتبها، و«حسناء» لا تنسى أن تصوب إليها نظرة استنكار يبدو أنها درجت عليها فلم تعد تميز مناسبتها للموقف من عدمها.. قبل أن تلتقط أوراقًا مصفوفة بعناية في ملف

سميك، من درج مكتبها.. ليتحرك الجميع نحو باب يفضي لحجرة جانبية صغيرة، في تتابع دقيق.

كان «شادي» آخر من أغلق الباب خلفه.. ألقى بجسده السمين على مقعد بالكاد احتواه.. اصطف أربعتهم خلف نصف دائرة خشبية أنيقة من ما يشبه الموائد نصف المستديرة.. بينما جلس «شريف» قبالتهم.. مقعد دوار يحتويه، ساقًا فوق ساق.. متهدل الكتفين كمن يحمل همًّا ما.. عيناه شاردتان بعيدًا عنهم، يتابع بعينيه قطع الشطرنج المنتظمة على لوح أنيق على مائدة صغيرة كعادته، حتى يخاله الناظر لا يحس بوجودهم.

ساد الصمت للحظات، قال «شادي» في حماسة: «خلاص العميل مشي، أنا قفلت باب الشركة، وعلقت علامة «مغلق للصلاة»..».. تردد قليلًا وتابع في تحرج: «.. يعني، لقيتها أحسن من «استراحة ونعاود خدمتكم في تمام الثانية ظهرًا».. أصل برضه شكلها أحسن لما..».

تنحنح «رأفت»، فقطع «شادي» حديثه.. وكتمت كل من الفتاتين ابتسامة، قبل أن يقول «رأفت» في بساطة: «عايزين نبدأ يا «شريف»..».

بصوت منتبه، بعكس مظهره الشارد قال في ضجر: «قول يا «رأفت»..».

- «قضية رجل الأعمال خلصت خلاص.. المطلوب كان إننا نوجد دليل على خيانة مراته له، العربون استلمناه من أسبوعين، والملف جاهز.. «شادي» و«حسناء» كانوا ماسكين الملف ده..».

نقل «شريف» قطعة أمامه، وعاد أدراجه ليصمت مجددًا.. نظرت «حسناء» لـ«رأفت» في حيرة، فأشار لها بالحديث دون انتظار.. قالت بصوت حاولت جعله رخيمًا: «احنا اتفقنا من غير أسماء.. التفاصيل عندك يا «شريف».. علشان كده حابدأ.. رجل أعمال كبير، السيد «هـ.ض.ع.»، 55 سنة.. مش محتاج تعريف.. ثروته وشركاته أكبر من إنها تتعد، وأكتر من إننا نعدها.. نفوذه قوي جدًا، الراجل ده لولا إنه مش عاوز مناصب، كان بقى حاجة كبيرة من زمان.. متجوز «غ. ك. ض.».. بنت عمه، اللي كان تاجر كبير قوي، «فرق السن بينهم كان كبيرًا.. هي حوالي 36 سنة، بس العيلة كانت مش عايزة الفلوس تطلع بره، ثروة «هـ» بناها من الأول من الورث بتاع «غ» بعد أمها ما ماتت من خمستاشر سنة.. حياتهم مستقرة، وولادهم بيتعلموا بره.. بس «هـ»..».

جلجل صوت «شريف» في حسم بغتة، وهو لم يزل بعينيه يلتهم رقعة اللعبة التهامًا دون أن يرفعهما نحو الجالسين: «اختصري.. احنا مش حنناسبه، عايزين نعرف حاجة جديدة..».

احمر وجهها خجلًا، وهي تختلس النظر نحو «شيرين» التي ابتسمت في شماتة، و«رأفت» الذي رفع حاجبيه في تعبير خاص، كمن يقول لها دون كلمات: «ألم أقل لك؟».. فتابعت بعد هنيهة صمت «المهم يعني، زي ما هو واضح.. «غ.» بتتقابل مع ولد جربوع كده.. وبيشوفوا بعض في كذا حتة.. إمبارح آخرها..».

حرك قطعة من القطع المصطفة أمامه في عنف فقطعت حديثها، وانتبهت العيون إليه.. وهو يقول في برود: «و.. (جربوع) ده استنتناجك؟ ولا دي حاجة ما لهاش دعوة بالموضوع؟».

ابتلعت لعابها في توتر ورأسها يزداد احتقانًا وهي تغمغم بصوت خفيض: «لا.. ما لهاش دعوة بالموضوع..».

خيل إليهم أنهم لمحوا ابتسامة في زاوية فمه.. لكنه أمرها بحسم أن تتابع.. فقالت بسرعة وكأنها تود أن تتخلص من الكلمات الباقية لديها: «عندنا دلوقتي اسم، وعنوان وبيانات الولد ده.. عندنا مكان مواعيدهم الغرامية.. صور للقاءاتهم في كذا أوتيل، وأماكن عامة تانية كتير، فيديو وهو بيعدي عليها بعربيته وهم خارجين مع بعض، وكمان عندنا شهود شافوهم في العين السخنة في ديسمبر اللي فات..».

صمتت.. فرفع عينين باردتين نحوها.. ارتبكت قليلًا لحدة نظرته وهو يسأل في ضجر: «بس كده؟».

هزت كتفين مرتعدتين وهي تنظر حولها كمن تبحث عمن يؤيد كلامها، قائلة: «للأسف، مش سهل كده نثبت على واحدة تقيلة زي دي، خيانة لجوزها.. يعني شوف إنت لما جوزها نفسه، بالحرس والـ سيكيوريتي اللي عنده دول كلهم، مش عارف يثبت عليها حاجة..».

رفع عينين حائرتين إلى سقف الحجرة، وسط ترقب الجميع، وقال بعد هنيهة: «الستات أصعب من الرجالة في الحاجات دي طبعًا.. ساعات بيبقى الحاجات دي كفاية إنها تؤكد شك الراجل..

لكن لو الكلام العبيط ده يكفيه، ما كانش طلب مننا التحقيق من الأول..».

خفض بصره ناحية «رأفت» وهو يسأل: «اللي بعده؟».

أجابه بجدية، وهو يسترق النظر إلى ورقة أعدها أمامه: «.. «حسناء» قالت اللي عندها.. دلوقتي «شادي»..».

مسح «شادي» عرقه في حماسة وهو يقول في لهجة يملؤها الفخر: «الأفلام عندي يا كبير، مشوار «السخنة» ده أنا جبت قراره، والهانم كانت في الأوتيل مع البيه من شهر.. برضه عندي كام صورة تمام، لما ركزت.. الموضوع ما طلعش صعب قوي كده..».

التقط أنفاسًا متتالية وكأنه يمهد لما يقوله، وقد أسعده انتباه «شريف» له، وتابع: «مراقبته هو، كانت أسهل من مراقبتها بكتير.. عرفت رايحين فين، وامتى بيباتوا مع بعض.. الواد بتاع خدمة الغرف، ظبطته.. معايا أفلام كاملة.. ياللا مفيش داعي أكمل بقى إنت فاهمني..».

اختلس نظرة صبغها بوقار زائف نحو «شيرين»، التي خفضت بصرها، لتتجنب عينيه في حياء، بينما ابتسم «رأفت» في سخرية وهو يتابع وجهه، ووجه «حسناء» المحتقن غيظًا من ردة فعل «شريف» تجاه تقريرها.. بينما صمت «شريف» وهو يحرك قطعة أخرى.. ثم رفع وجهه بغتة نحو «شادي»، وسأله في اهتمام: «احنا طلبنا من «هـ.» كام؟».

انتفخت أوداج «شادي» في فخر وهو يقول: «500 ألف يا كبير..».

رفع «شريف» حاجبيه في دهشة لحظة.. لكنه لم يكد يفعل.. حتى شرد مرة أخرى وقطب جبينه.. بعد لحظات من الصمت المهيب على الحجرة سأل في اهتمام وهو يقلب نظره بين «شادي» و«رأفت»: «وهو وافق على المبلغ الكبير ده إزاي؟».

تابع «شادي» وكأنه كان ينتظر هذا السؤال: ««هـ.» اتكلم معايا أنا في القضية، أنا قلت له إن العادي بتاعنا 150 ألف جنيه، وياخد ملف كامل فيه إثباتات كافية يقدر يواجهها بيها، ولو طلعت مراته بريئة، بناخد 75 ألف بس.. مصاريف الشغل وكده.. بس في حالته هو حناخد مبلغ أكبر، علشان ننجز أسرع.. وعلشان فيه مصاريف مراقبة في حتت كتير..».

زاد «شريف» من تقطيب جبينه.. بينما اندفعت «حسناء»، محاولة تحسين صورتها من التعنيف السابق قائلة في اعتراض: «احنا كنا قلنا كذا مرة إن الأسعار تبقى ثابتة.. «شريف» إنت دايمًا تقول لنا إن شغلتنا دي حساسة.. والسمعة فيها مهمة، صحيح احنا مش بنشتغل في النور، بس عملاؤنا كلهم ناس تقيلة، وبيحكوا لبعض، ورغم إن معاهم فلوس كتير، لكنهم برضه بيحاسبوا على القرش، ولو عارفين إن سعرنا عشر قروش، لو طلبنا حداشر قرش بيعتبرونا حرامية..».

بضيق رد «شادي»: «احنا أساسًا بنتعامل غير مع حرامية يا «حسناء»؟ الناس دي دايمًا بيتعاملوا معانا، وهم عارفين إنهم بيعملوا حاجة غلط، أو بيداروا على شيء مش مظبوط، التفاوض معاهم له سكة برضه، ومش كل قضية زي التانية علشان يقول لي

اشمعنى فلان ما دفعتوهوش قد كده، وبعدين دايمًا فيه تبرير معقول.. المهم الزبون يلبس العمة صح.. بعد كده بيدفع وهو مبسوط لما بيلاقي اللي هو عاوزه اتعمل.. و«هـ» بالذات كان عنده استعداد..».

انتبه «شريف» عند هذه النقطة في حدة.. أنزل ساقه من فوق أختها، حدج «شادي» بتلك النظرة المخيفة التي يخشونها وسأل في حزم: «يعني إيه كان عنده استعداد..؟».

ارتبك «شادي» وقال في تلقائية: «لما قلت له إن مصاريف القضية حتكون أكبر من المعتاد، وقلت له الأسباب اللي باقول لك عليها.. كان تقريبًا مش عاوزني أكمل كلامي.. وقال لي بالحرف الواحد «أنا عاوز الملف ده في أسرع وقت، وحادفع أي حاجة تقولوا عليها، حتى لو مليون جنيه»..».

ازدادت حيرة «شريف».. وبدا لأول مرة منذ بدء الجلسة منتبهًا لما حوله.. سأله «رأفت» في اهتمام: «بتفكر في إيه يا «شريف»؟».

قالت «شيرين» في صوت خفيض: «يمكن كان لازم نطلب أكتر؟ الراجل كان بيقول حتى مليون جنيه موافق..».

قال «شادي» وكأنه يدافع عن نفسه: «أنا قلت ما فيش داعي أبالغ.. افرضي ما عرفناش نثبت حاجة؟ الراجل تقيل برضه ويرجع يؤذينا.. وبعدين حلو قوي 500..».

قاطعه «شريف» مغمغمًا وكأنه يحادث نفسه: «عاوز الملف في أسرع وقت.. وحيدفع أي حاجة نقول عليها..».

انتبه إلى رقعته مرة أخرى.. أطال النظر وأمسك بقطعة «الملك» قلبها في يديه بينما ساد الصمت على الجالسين، وفي اللحظة التي اعتقدوا فيها أنه لن يتحدث أبدًا.. رفع عينيه فجأة إلى «حسناء» قائلًا بلهجة آمرة: «صورة البطاقة بتاعة «هـ» فين؟».

ارتبكت وهي تخفض بصرها للملف المسجى أمامها، وقلبت في أوراقه في توتر مغمغمة: «صورة البطاقة.. معرفش.. مش عارفة معايا ولا..».

رفع صوته هادرًا: «متعرفيش؟».

نقل نظرته النارية إلى «شادي».. الذي قلب في ملفه بسرعة بشكل تلقائي.. توقف عند ورقة في آخر الأوراق وأخرجها بيد مرتجفة، قام في سرعة من مكانه وناولها لـ «شريف».. الذي تناولها ليلقي عليها نظرة طويلة، بينما أنظارهم جميعًا متجمدة عند وجهه.. يبحثون عن أي بادرة تشي بما يقصد.. لكنه قام من مكانه.. مرخيًا يده الممسكة بالورقة إلى جانبه، أعطاهم ظهره وهو يحدق من النافذة.. وقال في بطء: «راجل أعمال، غني جدًّا، ومراته من عيلة غنية.. طبيعي إن فلوسهم مخلوطة على بعض.. وطبيعي كمان إنها لما تخونه ويبقى عايز يثبت ده، إنه عاوز يطلقها، مش يخلص منها، وإلا يبقى مش محتاج دليل..».

عاد ليواجههم، وقد انقلبت سحنته الهادئة لغضب واضح: «ولما يبقى محتاج دليل على الخيانة، ومحتاجه قوي لدرجة إنه مستعد يدفع فيه مليون جنيه، يبقى حيكسب كام من إنه يطلقها؟».

بوجه شاحب سأل «شادي» بصوت خفيض: «قصدك إنه حيساومها على الفضيحة؟».

في سخرية أجابه «شريف»: «يساومها وهي بنت عمه؟ «هـ.» صعيدي، وعيلته صعايدة، حتى لو مراته غلطت، العيلة واعتبارات الدم تمنعه من إنه يفضحها، الموضوع حيتلم، والطلاق عيبة كبيرة، قصة بالمنظر ده معناها إن فيه بينهم مشاكل.. ده أكيد.. لكن هو مش عايز يطلقها والسلام، لأ.. واضح إنه عاوز دليل.. يخلي الدنيا مش ممكن تتلم أبدًا.. وماحدش يقول له إنت غلطان ولا فضحتنا.. دليل يخليهم ما يقدروش يتكلموا لو طلقها.. أو لو هدد إنه يطلقها..».

في حيرة قال «رأفت»: «قصدك إيه يا «شريف»؟ إنت فهمت إيه من صورة البطاقة؟».

أشار له «شريف» بسبابة حازمة: «فهمت إنكم بتهرجوا، ده مش شغل يا سادة..».

عاود النظر لـ «شادي» وهو يقول بغضب عارم: «إنت اللي قعدت معاه، وأخدت بياناته، بس ده مش شغل يا بيه.. لو بتفهم، كنت فكرت حتى تقرأ البطاقة وإنت بتصورها، وتاخد بالك من الإسم الرباعي..».

قلب الورقة في يده بامتعاض، ثم ألقى بها ناحيتهم في غيظ وهو يقول: «أقدم لكم يا شوية فشلة، رجل الأعمال اللي بيشتغل في الضلمة، بس كلكم متصورين إنكم خلاص، تعرفوا كل حاجة عنه.. تعرفوا تقروا؟ صورة البطاقة عندكم.. الاسم الرباعي «فلتاؤوس».. «فلتاؤوس» يا بهوات!!».

بعيون لم تستوعب الخطر، لكنها تحس حرارة لهيبه، يأتي من عيني ذلك الثائر أمامهم، يرمقهم في غضب.. تأملوه صامتين، كل يخشى التصريح بما لم تستوعبه عقولهم بعد.. فابتسم بمرارة وهو يواصل التهكم: «يعني البيه عاوز يطلق مراته في الكنيسة.. الطلاق له سبب واحد بس، يخلي الكنيسة توافق عليه: الزنا.. بعدها ما تبقاش مراته، ويكسر عينها وماتاخدش فلوس إلا النفقة، ولا يمكن تتجوز تاني.. والمعلومات دي، تغير الموقف تمامًا.. «هـ.» ولو كنتم دورتوا كويس، كنتوا حتعرفوا إن إخوات مراته هم الشركاء بتوعه، وإن فيه مشاكل جوه العيلة بخصوص البيزنس، ومش بعيد يكون عاوز حجة قدام عيلته، وأهل مراته.. علشان يساوم بيها على حاجات تخليه يستفرد بالبيزنس لوحده، والملف ده حيساعده يمشي كلامه.. وإلا، حيقدم طلب طلاق في الكنيسة.. وحيقدم الأدلة اللي طلبها منك يا «شادي».. وساعتها الفضيحة حتبقى بجلاجل لمراته وإخواتها، ودول طبعًا مستعدين يدفعوا أي حاجة، أو ينفذوا له أي طلب علشان ده ما يحصلش.. علشان كده كنت باسأل: حيكسب إيه لما هو مستعد يدفع مليون جنيه؟ فهمتوا؟ ولا لسه؟».

اتسعت عيونهم في دهشة، أطرق «شادي» برأسه وهو يتحاشى عيني «شريف».. بينما احتقنت «حسناء» و«شيرين».. وأشاح «رأفت» برأسه في عصبية، وكأنه يتفادى انفجار «شريف» بوجهه، مخافة إحراجه أمام الآخرين.. بينما «شريف» يواجههم في غضب ويقول: «لازم تصحصحوا شوية.. الشغلانة دي مافيهاش هزار.. زي دور الشطرنج الحلو، طول ما إنت ماشي حلو الدنيا تمام، لما

بتقع، الدور بيفرط، زي السبحة من إيدك، وده مع غلطة واحدة، نقلة غلط ما فيهاش غيرها..».

اتجه نحو الباب، فقاموا في احترام.. بينما استدار قبل خروجه ليردف في حسم: «الموضوع انتهى كده.. التقرير دا أشوفه قبل الفينالة.. القعدة المهمة أنا اللي حاقعدها مع الراجل.. وكل الأفلام دي مش حنعرفه عنها حاجة.. التقرير حيطلع سلبي، ومش حناخد حاجة خالص، هدية مني علشان أول تعامل، الراجل له قرايب مهمين وحينفعوني.. طبعًا ما حدش فيكم له عندي المرة دي مكافأة عن الشغل ده.. كفاية الهبل اللي عملتوه..».

خفضوا أبصارهم أرضًا، برغم الإحباط الذي يموج في صدورهم، لكنه استطرد غير مبال بهم في صرامة: «أما بيانات «غ.» بقى، وتليفونها اللي بترد عليه.. فتكون عندي بعد خمس دقايق، حاتصل بيها وأشوف حاعمل إيه.. دوركم في الموضوع انتهى على كده، ومش عايز أسمع كلمة تاني عنه..».

وابتسم وهو يقول في مكر قبل أن يغادر الحجرة: «.. أشوف، هي بقى مستعدة تدفع كام، وجوزها ما يعرفش اللي احنا عرفناه.. مش تقول لي 500 ألف وفرحان يا «شادي».

لكن خارج تلك الحجرة.. يفقد شغفه، لمعة عينيه، وحسمه وحماسه مرة أخرى.

يعود للوجوم والشرود.. وبشكل خاص اليوم.

كل عدة أشهر كان يتكرر ذلك الوجوم، العينان الهائمتان في شاشة الحاسوب بغير هدى، ذلك الشرود، عدة أيام.. يعلم مساعدوه أنهم لا يتوجب عليهم الاحتفاظ بتلك المسافة بينهم وبينه، هو.. رئيسهم، إلا مرة في الأسبوع.. في الساعة أو ما يقل عنها قليلًا، عندما يجتمعون اجتماعهم الدوري.. لكن بمجرد أن أزال «شادي» لوحة «مغلق للصلاة».. وسط تهكم الآخرين على اختياره الذي يتناقض مع عملهم المتلصص في الظلام، حتى يبدأون في التصايح والنقاش في سفاسف الأمور، ورويدًا رويدًا تبدأ ضحكاتهم، ويتردد لعملاء عليهم للنقاش في ما طلبوه، وتسترخي أعصابهم مرة أخرى، ويعود «شريف» صديقهم الهادئ.. الذي لا ينفعل عليهم إلا فيما ندر.. الهائم بنظراته في اللاشيء.

«حسناء» و«شيرين»، الموظفتان النشيطتان اللتان تجلسان إلى مكتبين متجاورين، تتظاهران أنهما لا تباليان كثيرًا لردة فعله غير المبالية بأي كلمة تدور أمامه، بينما يبتسم «رأفت» في هدوء، وكأنه استوعب الأمر.. وتضيق عينا «شادي» في مكر خفيف، ينظران لبعضهما في فهم.. ليميل عليه «رأفت» في غفلة من الآخرين.. ويهمس له متسائلًا: «هي «مُنى» عرفت المرة دي كمان، ولا إيه؟».. فيرفع إليه «شريف» عينان تشيان بالاستسلام، وتجيلان البصر فيمن حولهم استرقاقًا لوجوههم خشية أن يفهموا شيئًا مما يلمح إليه.. لكن «رأفت»، وقد جاوبته ردة فعل «شريف» بأكثر مما سعى إليه.. يبتسم قائلًا في خفوت، ومختلسًا نظرة موحية سريعة إلى «حسناء» المنشغلة: «مراتك مش سهلة، ولها عينين في الشركة هنا، وإنت

بتعك جامد يا «شريف» مع أي قطة بتخبط على الباب.. مش حتتعلم بقى؟».

غمغم مجيبًا إياه بخفوت: «خلاص الحكاية عدت المرة دي كمان، يتبقى بس «عمر»، والهم المعتاد، مش أكتر..».

«شريف»، وبرغم قسوته عليهم في الاجتماعات، وصرامته الواضحة بأمور العمل، إلا أنه لا يحمل مع ذلك السمت خارج حجرة الاجتماعات.. فسرعان ما يهدأ، وينغمس في شروده المعتاد.. حتى يخاله الناظر ساكنًا كمرءوس، وهادئًا كمن ينتظر الأوامر، لا كمن يحيط بكل تفصيلة من حوله، وإن بدا يسبح بأفكاره بعيدًا عنها.. اعتاد «شريف» المرح الذي يظهرونه بعد جلسة عاصفة كتلك صباح اليوم، لكنه لم يعر لأي من تلك الوجوه بالًا، يعلم أنها مسألة وقت وتمر، فيستعيدوا تركيزهم.. ويتناسون ما كان منه من انفعال، باختيارهم أو مجبرين.. لا فارق لديه.. بينما يغرق في تأمل من حوله أحيانًا..

«شادي»..

حصان الشطرنج..

الذي لا يمكن توقع حركته بسهولة.

يسأل العميل الجالس إليه عن تاريخ ميلاده، ويخبره فورًا: «ده كان يوم سبت.. خمسة أغسطس.. أيوه سنة واحد وسبعين كان يوم سبت.. قل لي أي تاريخ ميلاد، وأنا أقول لك كان يوم إيه..»، أو يكرر اسم تلك العميلة في هيام مفتعل.. لكنها لا يبدو عليها الضيق من مزاحه ولا التحرج، بل تتابعه بشغف وهو يقول في شرود مثير

للضحك: «جميل اسم «سميحة».. طيب عارفة إنتي، «عبد الحليم» كان اسمه إيه في الفيلم ده؟ لأ.. غلط، اسمه «أحمد سامي»..».. «شادي» لا يحمل همًّا، ولا يتذكر إساءة، ولا تفهم لكل ذلك سببًا، سوى أنه هو.. !!

يرفع «شادي» عقيرته بالصياح: «ياجدعان شوية منطق أبوس إيديكم..».

ثم لا يلتفت إلي «شريف» كما اعتاد ليستشهد برأيه الذي يحسب أنه يؤيده فيقول في المعتاد شيئًا مثل: «ماتِحضَرنا يا كبير؟ إنت حتسيبني للناس دول ياكلوني ولا إيه؟»، بل يواصل نقاشه مع «الناس دول» في سلاسة، إلا إذا كانت من تناقشه في عصبية كالمعتاد، هي «حسناء».. ساعتها يعرف أن الأمر نقاش بيزنطي وسفسطة لن تنتهي، ولا طائل من ورائها.

«حسناء».

تلك التي يمكن أن يعتمد عليها.. تنجز الكثير، لكنها حادة المزاج.

فيل الشطرنج العصبي.

تلك السمراء التي ترتدي الحجاب، والتي تصر طول الوقت أنها دميمة، وأن الحال سينتهي بها إلى العنوسة لا محالة، ترد عليه بقسوة مسفهة من رأيه: «ده تفكير رجالة، كلاسيك قوي وشيء يخللي الواحدة تقرف بجد.. إنتوا مافيش عندكم مخ، إيه الجديد؟» بينما يداعب «رأفت» ذقنه النابتة على جانبي وجهه حاد الملامح، في حيرة، متجاوزًا وقاره المرسوم، ممهدًا الطريق للانتباه لرأيه الذي

حسبه بعناية، وصاغ ملامحه كي يغيظ به «حسناء»، فيميل برأيه لجانب «شادي» ويصر بخبثه المعتاد، على أنه لم يعبر عن القضية بشكل صحيح كما هي عادته، وتُنهي «شيرين» الحوار بأن تُذكرهم بآرائهم السابقة والتي كانت كلها عكس ما يقولونه الآن، وإذ تلمح معارضة من الآخرين، تركز عينيها في عيني «شادي» وهي تعلم تأثير ذلك على ارتجاف شفتيه انبهارًا بجمال عينيها الزرقاوتين، وهو يتلمس طريقه منهما إلى بشرة وجهها البيضاء البضة، أنفها المحمر انفعالًا وكأنها تلوذ بحمرته هربًا من الرد، ثم إلى عنقها الساحر، وقوامها المتناسق، فيبتلع ريقه ويغمغم بهدوء بشيء يعلن به استسلامه لمنطقها وهو يقينًا لا يفعل، بينما يحتقن إثر ذلك وجه «حسناء» وهي ترمقه بطرف مقلتها في غيظ ثم تشير نحو «شريف» و«شادي» في غيظ وتنعتنهم بناقصي العقل، وسط تملص «رأفت» من كلامها حرصًا على عدم إثارة أعصابها أكثر، وتبسم «شيرين» في انتصار الأنثى الواثقة من تأثيرها، والتي تعلم أن المسألة تجاوزت حيز النقاش المنطقي، و«شادي» يميل قائلًا في صدق: «والنبي يا «شريف» ما تزعل، انت عارفها مجنونة» ولا تلبث «المجنونة» أن تغلق حاسوبها في غضب، لتنهض متوجهة للمطبخ الجانبي الصغير متشاغلة بتحضير مشروب لها، ولتبتعد عن الأجواء التي تثير أعصابها.. ودقات كعبيها الغاضبتين ترجان الممر الدالف من حجرتهم الواسعة وأبصارهم معلقة بجسدها المتناسق الممتلئ الذي يبتعد مزمجرًا في صمت.

«شادي» أيضًا كان يزمجر الآن، في لهجة اعتادها منه «شريف» عندما يطرح رأيًا يعلم مسبقًا أنه لن يلقى قبولًا لدى رئيسه: «يا «شريف» علشان خاطري.. الراجل حيتجنن ويقابلك..».

ضحك «رأفت» بلهجة أقرب للشماتة في ما سوف يتلقاه «شادي» من رد وقال: «يابني إنت مش كفاياك كلام بايخ في جنابك النهارده؟ ما بتزهقش؟ خلاص، قال لك كذا مرة ما لوش فيه..».

غمغم «شريف من بين شفتيه وهو يحملق في شاشته محاولًا عدم إعطاء الأمر حجمًا أكبر مما يستحق: «هو أنا مش قلت لأ صحيح؟».. ونظر لعينيه مباشرة مضيفًا في لهجة حاسمة تحمل لومًا مبطنًا: «نبطل بقى ونركز في أكل عيشنا يا «شادي»».

انبرت «حسناء»، إثر عودتها حاملة مشروبها في يدها، لتقول في عصبية: «أنا مش غايظني إنك رافض تقابله، ولا إنه الموضوع طلع مش جايب همه، أنا مش فارسني إلا البهوات اللي سحلوني معاهم: design وتفكير وسهر علشان نخلص المشروع الوهمي ده.. وفي الآخر على فشوش..».

أشار «شريف» بإصبعه وكأنه وجد ضالته أخيرًا قائلًا بحسم وهو يقلب بصره بين وجوههم: «هو ده بالظبط، احنا بنعمل موضوع التطبيقات على الموبايلات دي منظر بس.. زي الـ design والدعاية بتاعت محلات الأكل والذي منه، كل دي واجهة.. شغلنا الحقيقي إنتوا عارفينه فين.. ولو إنه ينفع نخليه الرسمي، ما كناش حتى عملنا غيره..».

انبرى «شادي» في يأس وهو يقول بلهجة يملؤها الرجاء، وقد استدار بنصف جسده الممتلئ ناحيته حتى برزت ثناياه من خلف المكتب: «يا «شريف» الموضوع ممكن يكون فيه فلوس كتير موت.. ده سيستم جديد زي الأندرويد، سيستم تحكم في الموبايلات.. احنا حنخلي الموبايل يشتغل على الإنترنت بس، كل حاجة من خلاله حتى الاتصالات.. تطبيق واحد مالوش تاني ولا ينفع يتقلد، ينزل مرة واحدة ويخللي الحديد يبقى تليفون، وكمبيوتر وكل حاجة.. الموضوع كبير والراجل شركته مش بسيطة، دول تاني أكبر ناس في العالم، وإحنا حنبيعه باسم الشركة علشان يجيب قرشين، غير كده مش حيجيب حاجة..».

تململ «شريف» وهو يرفع عينيه عن شاشته ويقول في بطء: «طيب، من باب الفضول كده، لما هو السيستم بتاعكم ده جامد كده، ما تبيعوه إنتم، منكم ليه كده.. وتخرجوا الشركة منها؟».

«والله شغل جامد، وإنت شفته، بس بتنكر إنه عجبك، أنا متأكد..».

«أنا مش بنكر، هو شكله حلو صحيح، وفتحته على الإيميل امبارح.. بس أنا ما فهمش في الحاجات دي، وبعدين أضمن منين إنه حيمشي أساسًا ولا حيجيب شغل مع الناس دي، برضه ما قولتليش.. مش بتبيعوه بنفسكم ليه؟».

«علشان لو بعناه بأسامينا لوحدنا مش حيجيب حاجة، دول ناس حيتان ومن غير وقفتك معانا مش حينفع بجد، الموضوع كبير ومنجم

دهب، ما يغركش إننا شكلنا مهيسين.. بس والله عملنا دراسة جدوى جامدة..».

لمعت عينا «شريف» في غضب وهو ينقل بصره بين الرجلين الماثلين أمامه، وهو ما زال جالسًا بينهما: «يعني إنتوا فعلًا حاولتوا تبيعوا الشغل بتاع الشركة من ورايا؟».

تلعثم «شادي» وتبادل نظرة قلقة مع «رأفت»، ولم يلبث أن قال في صوت مرتعش: «يا ريس أبدًا والله.. أنا اللي بس ما بعرفش أزوق الكلام.. احنا قعدنا مع الراجل، وفهمنا كل حاجة.. بس عمرنا ما ييجي في بالنا نعمل كده.. ده طبيعة السوق يعني..».

أطال «شريف» الحملقة بوجهه بنظرة مخيفة.. لم يلبث أن أطفأ جذوتها سريعًا، سيطر على انفعاله ببراعة، عاد بظهره ليستند إلى المقعد، وهو يشبك أصابعه أمام وجهه وقال في حسم: «التقرير بتاع «رأفت».. أنا قريته كويس.. ».

قال «رأفت» في اعتراض، وهو يحتفظ بنظرته الواثقة: «لأ يا ريس.. أنا قلت له من الأول إنك مش حتوافق.. الورق ده أنا كتبته من وحي كلام «شادي»، وعلشان هو ما يزعلش بس.. ».

واصل «شريف» مشيرًا بيده نحوهم في لهجة تحمل رائحة الخطورة: «طيب طالما بتبيعوا بعض في ثانية كده، حاقول آخر كلمة عندي، المسألة لسه في البداية.. وإنتوا عاملين تطبيق تجريبي لسه.. والموضوع ده، كأي مشروع.. بيحتاج ساعات لسنة واتنين وتلاتة تطوير، وشغل، لحد ما يكتمل.. الحاجات دي أنا عارفها كويس، حنتحول لعبيد مشروع مش مضمون أساسًا، ووقتنا حيضيق وحنسيب

شغل الشركة لحد ما تجيب ضرفها، ومش حناخد غير مرتبات نظير شغل التطوير اللي في علم الغيب ده، وأنا أهم حاجة بالنسبة لي الشغل الأصلي.. ولا تطبيقات ولا يحزنون..، وإنتوا فاهمين كويس أنا قد إيه مزنوق اليومين دول، والموضوع انتهى كده..».

انبرت «حسناء» وهي تقول في انتصار وتشفٍ: «قل لهم، صح كده يا ريس.. تطبيق ربطات الحجاب خلص بالمناسبة.. وفيه اتنين حييجوا يتكلموا معانا فيه.. حاجة في الخفيف كده.. مش المواضيع اللي بتاخد ليالي وشهور شغل..».

تكتم «شيرين» ضحكتها في صعوبة، بينما يشير «رأفت» إليها من طرف خفي أن تصمت.. كي لا تثير حفيظة «حسناء» أكثر.. بينما يتصبب «شادي» عرقًا وهو يوزع نظرة لوم جانبية بين «رأفت» و«حسناء»، يلملم أوراقه وقد كست وجهه خيبة الأمل بوضوح.. بينما يراقب «شريف» ردة فعله دون أن يلحظ، قبل أن يضيف بهدوء قاسٍ، قبل أن يخرج «شادي من الحجرة: «إنت عاوز تكمل معانا يا «شادي»؟».

تألقت عينا «شادي» متفهمًا، وقال في سرعة تناسب دقة الموقف: «طبعًا يا ريس.. طبعًا».

بنفس الهدوء تابع وهو لا يرفع عينيه عن شاشته: «طيب دي آخر مرة تتكلم فيها عن الموضوع ده..».

ممتقع الوجه هز «شادي» رأسه لأعلى وأسفل مرتين، علامة الفهم.. وأسرع يغادر الحجرة.. بينما نظرات «رأفت» تتلاقى مع

عيني «حسناء» التي أشارت إليه بالصمت.. وكأنها تحذره، فقد ألقى رئيسهم كلمته الأخيرة.. واعتكر مزاجه كما يحدث كثيرًا هذه الأيام.

ولم يكن ذلك غريبًا، بالنظر لما يواجهه «شريف»، وما يغرق فيه من هموم.

كان ذهنه مشغولًا بالأهم مما ينتظره في الأيام التي تلي ذلك، وهم يعلمونه..

ساد صمت بعد خروج «شادي».. قطعته «شيرين»، التي صوبت نظرة قلقة إلى «حسـناء» أولًا، وكأنها تخشى ردة فعلها عندما تسمع ما سوف تقول، لكنها بعد لحظة تردد بسيطة، حسمت أمرها وهي تقول في انتصار: «أنا خلصت يا باشمهندس «شريف».. الـ App عامل شغل تحفة على النت، بعت لك اللينك..».

تململت «حسناء وهي تغمغم في خفوت بشيء ما، بينما «شيرين تتظاهر بعدم سماعها، وتكتفي باحمرار أرنبة أنفها في توتر محاولة الإبقاء على نظرتها تجاه «شريف» ثابتة».. ولم يلبث أن قال «شريف» في شرود: «هايل يا «شيرين».. أنا بس حاوصل مشوار لـ«عمر» أديله فلوس.. ولما أرجع حاشوف اللي إنتي عايزاه.. البيه نسي الفلوس في البيت ومصاريف الجامعة النهارده آخر يوم..».

«شيرين»

البيدق (عسكري الشطرنج) الأنيق.

الجميلة.. الهادئة، التي يموج صدرها بالكثير، ويختفي تحت هدوئها أمواج من الحماس، يظهر في إنجازها لأعمال غير متوقعة.. بكفاءة.

قامت من فورها واتجهت نحوه وهي تتناول مظروفًا من يده، مضيفة برقة: «لا وعلى إيه؟ أنا أوصل بسرعة أديله اللي إنت عايزه.. أنا عندي مشوار جنب جامعته حقابل عميلة بعد نصاية كده.. خليك إنت اتفرج على التطبيق وخد وقتك علشان عايزة رأيك النهارده يمكن أتعامل وأخلص، خليك بس وأنا أوصل له اللي إنت عايزه..».

(6)

«رأفت».

كاتم الأسرار.. الذي يعرف الكثير، ولا يطمع في المزيد.

وزير قطعة الشطرنج.

«التطبيقات بتاعة الشهر اللي فات تمام.. أنا تممت على الأرباح، النسب معقولة وكل التفاصيل بعتهالك بالإيميل..».

خفض صوته فجأة ومال نحوه بحيث لا يراه الآخرون وتابع: «فيه موضوع مفيد كده علشانك، «شادي» حيكلمك.. ما تعندش المرة دي، حاول تنجز..».

تاركًا «شريف» يخفي حيرته بتقطيب جبينه بتركيز زائف في أوراق ملقاة أمامه.. سارع «رأفت» بالعودة لمقعده ملقيًا جسده بشكل روتيني.. وهو يتجه لمقعده يلوك بفمه شيئًا ويرشف من كوب في يده في استمتاع.. سارحًا ببصره عبر الحجرة نحو «شيرين».. منتهزًا اللحظات التي تغفل فيها «حسناء» عن تتبع نظراته..

إثر نظرة من «شريف» نحو «شادي»،.. اتجه بعدها الأخير نحو شرفة الحجرة التي تبعد بمحيطها عن جلستهم.. قام بعدها «شريف» تلقائيًا ليلحق به.. وقفًا بعد أن أغلق الباب من خلفه.. متجاورين

ينظران إلي الفراغ المسجى أمامهما، البناء الذي يرتفع بدقات رتيبة من معاول عمال تلوحهم أشعة الشمس، بينما يغمغم «شادي»: «راجل كبير.. كبير قوي.. أمن دولة ولا حاجة أكبر، ماعرفش أكتر من كده..».

- «وإحنا مش قلنا اللي ما يقولشي هو مين، يروح من مطرح ما جه؟ تاني يا «شادي»؟».

- «المرة دي مختلفة، الحكاية بجد.. وده ممكن يكون سكتك للموضوع اللي شاغل بالك يا «شريف».. الراجل ده واصل».

- «قلت له على الوزارة؟».

- «دردشت معاه.. هو كان سامع عنك من زبون من التقال بتوعنا، سمع كلام زي الفل، واتزنق في مشكلة، فإنت جيت على باله.. مع ذلك، كان عايز يتطمن، هو بيتعامل مع مين..».

- «يتطمن إزاي؟».

- «إنت عارف الناس دي يا «شريف».. بيشك في صوابع إيديه.. واطمئنان الناس دي إنه يكلمك بنفسه، يسمع صوتك وياخد ويدي في أي كلمتين، خصوصًا إن الشركة ما بتشتغلش شغلها في النور..».

قطب جبينه وهو يتذكر طمأنة «رأفت» له، بالرغم من هذا تظاهر بالضيق: «إنت بالشكل ده ممكن تجيب لنا مشاكل يا «شادي».. نشاط الشركة مش حاجة بنحب إنها تتعرف، علشان كده بنقي الزباين..».

- «ما تقلقش.. الراجل لو عاوز يئذيك، مش كان بلغ عنك، وقفلها لك.. من غير ما ييجي ولا يعمل نفسه مزنوق ليك؟.. ثم هو

خلاص جالنا برجليه وعارف كل حاجة، حنعتبره زي الناس التقال اللي بنعمل لهم الشغل وبننجزه على رقبتنا علشان نتجنب أذيتهم، مش ده كلامك اللي علمته لنا يا «شريف»؟».

صمت وهو لا يدري جوابًا.. لم يكن قلقًا كما يبدو، لكنه آثر التريث.. «طيب وواحد زي ده ممكن يكون مزنوق لينا في إيه؟».

- «عربيته اتسرقت..».

بدهشة حقيقية استدار إليه: «إنت بتهزر، صح؟».

- «العربية مش المشكلة، المهم الورق اللي في العربية.. الورق هو عايزه بأي تمن، ومش عايز حد يعرف إنه كان معاه من أصله.. علشان كده عايز العربية ترجع بالورق اللي فيها من سكات، ومن غير شوشرة..».

التقط أنفاسًا عميقة متتالية ليداري انفعاله، ولما لم يجد استجابة من «شريف».. استرسل: «الله أعلم الورق ده إيه، احنا عمومًا ما لناش دعوة، أنا حبدأ أتحرك.. موضوع سرقة النوع ده بالذات انتشر قوي الفترة اللي فاتت، وعندي اللي يجبها..».

- «وبعدين؟».

- «لما العربية ترجع، تتصل إنت بيه وتوجب معاه.. ما تاخدش كل حقك، ولا حتى سيبها له خالص.. وبعد كده الراجل ممكن يخدمك.. الحكاية شكلها بالنسبة له مهمة فعلًا.. وممكن يعمل قصادها أي حاجة.. إديني الإشارة بس وأنا حتحرك، وماتحملش هم..».

(7)

بدأ كصباح مثل غيره، لكنه لن ينساه أبدًا.

وجه «منى» الجميل هو أول من رآه وهو ما زال في ذلك الفضاء المغلف بالصمت والعدم، بين نومه ويقظته طالعته عيناها الحور، اللتان تتكئان على وجنتين خططتهما السنون بلمسات خفيفة على استحياء، وشعرها الذي ينسدل على جانبي وجهها المستدير، وابتسامتها التي تكشف وسط ذلك كله عن صفي أسنانها الصغيرة. كعادتها وكما يحرص هو، أيقظته في السابعة إلا الربع تمامًا وهي تهمس له بتفاصيل مغرية عن الإفطار الشهي، جمل وكلمات تغير منها يوميًا، ترنمها تارة بالإنجليزية، أو تقولها مقلّدَة بصوت ممثل أمريكي شهير، أو تتبعها بضحكة طفولية تشبه ضحكة «نقار الخشب» في كرتون الأطفال الشهير، وهي تبتعد بخفة حاملة قامتها المتوسطة تسربل بها إلى المطبخ القريب إلى حين. تكرار هذا كل يوم، وبرغم ما تحاول «منى» معه من تنوع وما ترتكبه من مرح، يدفع بخواطر إلى عقله: يومًا ما، أثناء شهور خطبتهما الأولى منذ عشرين عامًا، قال لها إن أجمل ما يراه فيها أنها تفاجئه كل مرة بشخصية جديدة.

لا يستطيع أن يطرد من خاطره ذلك المعنى المزعج الذي يلح عليه وقتها حتى لو كان عقله ما زال بين النوم واليقظة: إنه يفتقد «منى»

التي أحبها آنذاك، «منى» برهافة صوتها الخافت.. وهي تميل عليه في ذلك المقهى، لتلقنه ما يطلبه من النادل من مشروب.. رغم أنه يقف أقرب إليها منه إليه، فتميل نحو «شريف» عبر المائدة المزركشة بمربعات بيضاء وحمراء تحتضن مزهرًا منمنم النقوش لا ترتفع ورداته إلا بمقدار يصل إلى أسفل ذقنها في مدى رؤيته لها، ترنو إليه لحظة ببريق عينيها فيعاود سؤالها لأنه استعذب صوتها وهي تلقنه، براءة عقلها وهي تصدق أنه لم يسمعها.. فتعيد تلقينه بصوت أكثر خفوضًا، قبل أن يهمل وجود النادل المتململ تمامًا، وينظر إليها في تعامٍ عن كلامها مستعيدًا إياه لمرة ثانية، فتتقد وجنتاها دفعة واحدة بدمٍ خجول، تضحك فتكتم فمها براحة يدها في رقة كأنها تربت على شفتيها بأصابع ثلاث وتخفض رأسها للحظة، تختلس نظرة جانبية للنادل السَّئوم الذي يفتعل الابتسام بينما عيناه تشيان بالضجر من الأفعال اليومية لهؤلاء العشاق، كما يفعل الآن بينما هو يتحسس تلقائيًا بعينيه، رغم سابق تأكده ساعة ولوجهما معًا إلى المقهى القابع بحضن النيل وهما متشابكا الأيدي منذ لحظات، يتحسس بعينيه موضع «خاتم الخطوبة» في يد كل منهما قبل أن ينطلق بعقله نحو الحكم بالرقاعة أو بقلة التربية عليهما.

أحيانًا يخيل له أن تلك اللحظات صارت كبقايا الليمون المثلج المنعش، الذي دأب النادل في ذلك المقهى على إحضاره إليهما دون أن يطلباه. تكررت لحظاتهما التي كانا يسرقانها من الزمن، هي تهرب من آخر محاضرات جامعتها، وهو يهرب من ملاحقات أبيه وأمه له بالأسئلة عمَّا يمنعه من الارتباط بابنة خالته، فيؤخر العودة

للمنزل لمواجهتهما، ويقابل عوضًا عن ذلك.. تلك التي ضم نصف قلبها إلى نصف قلبه. «شريف» كان يحب الليمون الذي يقدمونه هنا.. لكن دائمًا هناك تلك الرشفة أو أكثر، تلك اللواتي يغادرهن الإنسان في قاع الكوب تأدبًا، العشاق يفعلون ذلك، البنات يفعلنه أكثر وأكثر..

«منى» كانت لا تحب الليمون، لكنها لم تخبره قط، كانا يجلسان في مطعم خرجا إليه معًا عندما بلغ «عمر» العاشرة، رفضت الليمون وقالت إن معدتها تؤلمها، صارت تأمر لنفسها بـ «كولا دايت» ثم «زيرو»، نسي الأمر برمته، لكنه يذكره الآن بين الحين والحين، وبخاصة بعد ما كان بينه وبين «عمر» في مسألة الشركة، تلح عليه خاطرة مزعجة: هو يتمنى عليها إن كانت قد أكملت شراب نصف الكوب الذي تخلفه دائمًا وتهز رأسها في عناد جذاب رافضة إياه، يختلس النظر إلى ربع كوبه المليء، والذي يخلفه مرغمًا ليتناسب والجو العام، خلافًا لرغبته، يسرح نظره أكثر إلى كوبها، يحب الليمون لكنه يسأل نفسه أيهما أولى بالتفكير «محبوبته التي يسرق الدقائق بصحبتها أم بضعة قطرات من الليمون المنعش؟ ما المانع من الجمع بين الاثنين.. يخبره عقله في بلادة، لكنه يسأل نفسه ليلًا بعبث.. لماذا لا يخرج نفسه من الحرج ويخبرها أنه يحب الليمون فيشرب كوبه كله؟ هل الإبقاء على تلك الرشفات دليل ذوق أو حسن تربية أو شبع؟ هل هو إعلان بالانشغال برفقتها أكثر من الانشغال بما بينهما من مشرب أو مأكل؟ هل لا يجتمع الأمران أبدًا؟ هل المتعة عيب أم أن الحب متعة كافية، تفسدها المتع المصاحبة لها، حتى لو

كانت من باب الغرائز والحسيات؟ تجاسر مرة ومال نحوها سائلًا إياها في مرح عما إذا كانت سوف تكمل تلك الرشفات.. بعينين ملأتهما الخيبة والفزع نظرت إليه وقالت بتحدٍ لا يجسر معه رجل أن يحرك إصبعًا، وبصوت كنفير ألف طبلة حرب منذرة مكتومة: «لا.. اتفضل لو عايز».. تراجع لثانية ثم أبت نفسه أن تنكسر لأمر تافه كما بدا له، وآثر أن يجيب عن سؤال عقله البليد عن اللذتين بنعم، ترك كوبها المحاط بأسياج الرهبة وأشار بثقة للنادل الذي أتى على عجل، كأنه يريد أن يحمل طلبه لينتهي من هذا العذاب، فللعشاق عنده في المقهى استدعاءان لا ثالث لهما، وكان هذا الاستدعاء يوحي أن الفتى المغوار ينتوي أن يدفع حساب جلسته مع أميرته، وينقده ورقة إضافية ينفخ بها أوداجه في حضورها وهو يتظاهر بأنه لا يهتم ما إذا لاحظت ذلك، بينما يثمن انبهارها بطرف بصره، لكن «شريف»، بدلًا من ذلك، أمر بكوب آخر من الليمون، تسمر النادل في مكانه لهذا الأمر الذي اخترق ناموس العشاق، وزلزل توازن عالمهم كما يعرفه، جاءت نظرة «منى» إلى النادل صارمة و«شريف» يسمع صوتها لأول مرة يعلو قائلة: «لأ.. مش عاوزين حاجة. اتفضل دلوقتي لو سمحت».. هذا الحزم الذي أنبأه بأن الأمر جلل، رغم أنه لم يستوعب كنهه، بيد أن النادل ابتسم صامتًا وانسحب في هدوء ساحبًا كوب الليمون ربع الممتلئ، وزميله ذو النصف الخالي، تلقائيًا كمن يعرف تمامًا ما يفعله، وكمن تدرب على هذا المشهد قبلًا عشرات المرات، وكمن يفهم قواعد ترك نصف كوب الليمون وربعه، بل وشفع تحركه وابتسامته بأن عاد فورًا ليضع طبقًا أنيقًا أمامه

يحوي وريقة الحساب المفرودة بغير خجل، وكأن خبرته أنبأته بأنهما راحلان الآن لا محالة، بعد الحماقة التي ارتكبها الفتى المغرور!!

«العربية رجعت.. والورق سليم، كله زي الفل..».

بسعادة لا تخلو من انبهار أجابه عبر سماعة المحمول: «تمام.. إنت أنجزت بسرعة يعني يا «شادي»..».

- «يا ريس عيب.. ما دام في مصلحتك، أنا رقبتي ليك.. وإنت لما تبقى في الوزارة تفتكرنا بقى وما تنساش.. يا معالي الوزير».

ضحك فخورًا بخيال يراه أمامه واقعًا، وسأله في فضول: «وبعدين؟ الراجل نتصل بيه إزاي؟».

- «إنت عارف النظام مع الناس دي.. هو مش سايب نمرة، بس بيتصل كل يوم في معاد ثابت. طبعًا النمرة نمرة خاصة، ما بتظهرش على الموبايل.. حخليه يكلمك، وإنت عيش حياتك معاه بقى..».

في لحظات قليلة عندما يخلو بنفسه، عندما يحملق بوجهه في المرآة ذات النقوش بحمام منزله، صباحًا حيث يذبح سيقان شعيرات ذقنه النابتة خلال سباته، يخيل إليه أنه ما زال بعد كل تلك السنوات يتذكر ذلك النادل وابتسامته الساخرة، «منى» وصرامتها وانكسار كرامتها الذي لم يدم طويلًا لكنها حرصت على إشعاره بأنه أخطأ

خطأ فادحًا، وألجمت عقله فلم يعد يسأله بعدها في بلادة عن اللذتين وكل هذا «الهراء».

لكنه يعرج على أمور أخرى، تتداعى مع ذكرى الليمون.. يفكر في حياتهما اليوم: رحلة السفينة التي يحلم بها منذ أن تزوجا، عمله الذي توسع وتضاعف حجمه مرات من شركة صغيرة إلى أخرى أكبر إلى مشاركات في محال ومشاريع، وما زال يلهث وراء الأفضل، وسباقه مع زمن لا يرحمه من أجل مشروع «مريح» يبدو سرابًا لا يتجسد أبدًا، «عمر» الذي يرفض ذوقه، يدير رأسه بعيدًا عن موسيقاه لو سمعها، يأبى أن يلعب الشطرنج معه، ويرفض أن يعمل عملًا يتدرب به على مستقبل كان يخططه له، حتى الوزارة التي يسعى لمقعدها، أحس أن الأيام هي التي تدفعه لهذا السعي، أن يجري تلك الاتصالات وأن يتودد لهؤلاء المسئولين، يلقى كلامه بحساب، يزن جمله ويصفها متجاورة متعاضدة، حتى يعطي أثرًا أو يخفي آخر، مدفوعًا، أو مسحورًا أو مرغمًا.. أن يسير هذا الدرب الذي لا يدري أيسعد به أم يشقى؟. لكنه لا تخامره تلك الجذوة التي تشعل صدره باللهفة، ويختلج قلبه بالقلق كلما خطر طيفها بنفسه.. تلك المشاعر التي غادرته منذ سنين، تلك التي بات لا يلتمسها إلا في نزوة، ليلة طليقة بعيدة عن قيود العمل، وشقاء المشاوير، وقلق العملاء وهمومهم.

عجيبة هي تلك الأشياء التي نصير عبيدًا لها، نلهث وراءها وتتعلق بتحقيقها قلوبنا، فإذا صارت واقعًا، تركناها وكأنها احترقت، مثل أعصابنا ومشاعرنا التي احترقت بلهيب الرغبة، يختفي بريقها الذي ملأ أبصارنا؟ لماذا تبهت الألوان عندما تصير بين أيدينا؟.. أهو

الإنسان يملؤه الاستغناء بعد أن صارت في يده اللذة؟ أم هو الاشتهاء السرمدي للممنوع؟.. متى صارت «منى» بالنسبة له لذة قديمة.. متى صارت فقرة صباحية مكررة، وفقرة ليلية محفوظة؟.. «منى» التي لا تستطيع النوم إلا وهو بجانبها، ولا تطيق السهر أيضًا، فيأوي مبكرًا لفراش بارد، مرغمًا.. يظل باردًا إلى أن يصحو على صوتها الذي يتقمص شخصية جديدة، ساعتها يداهمه شعور عابث لا يستطيع له تفسيرًا: يحس أنه ما زال يريد رشفة الليمون الباقية، وهي تمنعه إياها بدون أن يفهم لماذا، يدوران حول الكوب المحرم دون أن تنتهي اللعبة، لذة ما سال في جوفه كانت تدفعه دائمًا للعودة إلى نفس المقهى، يخال له أن الكوب استبدل بحياتهما بشكل و آخر، فكأنه فقد من لذاته الكثير فيما يجاهد لتربية «عمر» وبلهاث وراء المال.. لكن «شريف»، ليلًا.. عندما يخلو بها في حجرتهما، بعيدًا عن الصخب، والشركة، والضجيج، والناس.. يعود بخياله لجو المقهى ومحرماته من اللذة المسروقة وسط سيف الصفعة على وجهه، التي تتلوها ضحكة مكتومة منها، يطرح لذاته إذن ويقبل عليها ليرشف رشفته الأثير.. لكنها فجأة.. برغم كل ما رسمه له خياله من بهاء وسرور.. تصير «عيب» و«مش سننا»، أو «يعني إيه؟» و«إنت ابتديت تعرف حد عليًا يا «شريف» ولا إيه»؟..

ما زال «شريف» عطشًا لرشفتين أو ثلاث من كوب «ليمون» مهمل..

علا صوتها من مكان ما في المنزل

««شريف»، إيه رأيك في موضوع الأسهم بتاعة إمبارح؟».

في تثاقل تقلب لجانب فراشه، الدوار السخيف يحيط بعقله، ينفض رأسه في هدوء محاولًا أن يستفيق.. أجابها بصوت يفوح من كلماته النوم: «أنا اللي خبير استثمار في البنك برضه يا «منى»؟ إنتي بتسأليني بجد؟».

جاءه صوتها لاهثًا بما أوحى إليه أنها تتحرك بسرعة بين المطبخ ومائدة الطعام، تجلب أطباق الإفطار رائحة غادية بينهما: «إنت برضه ليك نظرة.. ما قلتليش رأيك؟».

بملل أجاب: «إعملي اللي إنتي عايزاه.. دي فلوسك مش فلوسي..».

- «يا حبيبي مش بدل ما تفضل في البنك؟ أنا كل ما بالاقي فرصة باستغلها..».

صمت أملًا منه أن تكتفي برده عليها.. واصلت بعد هنيهة: «ومش عايز تنزل الشركة بقى في البورصة؟ مش حتتعب في حاجة، أنا كلمت الراجل ومستعد ييجي لغاية عندك يعمل الإجراءات..».

انتبه وأجابها في سرعة وهو لا يزال يأمل في حسم النقاش: «لأ.. أنا قلت مش عاوز دوشة.. ما تيجي تاخدي اليوم أجازة، ونروح أي حتة؟».

قالت وكأنها تحادث نفسها بينما تعدل من هندامها أمام المرآة.. وكأنها انتهت من مهمة تحضير الطعام وتعدل آثار ذلك على مظهرها:

«أجازة ما ينفعش.. يا «شريف» دوشة إيه بس؟ ما فيش دوشة ولا حاجة.. إنت بس اللي مكسل زي العادة..».

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 4

لا يمكن أن تحظى بالاثنين معًا: التموضع الجيد لقطعك، والتهديد المستمر لقطع الخصم.. إلا في حالة واحدة: أن تكون لاعبًا ماهرًا جدًّا.. وكلنا يظن نفسه ذلك اللاعب!!

«شريف» ما زال في قلبه تجاهها حب لا يغفو، وقدر من الاهتمام لم يزل يملك عليه كيانه، لكنه بات يسأل نفسه عن الفارق بين الحب، والاعتياد؟ عما نضطر إليه لأننا لم تعد بنا طاقة لنجرب غيره، أو لم يعد بنا شغف جامح كما كان؟ هل تعلم «منى» كيف تغيرت صورتها في عينيه، من حبيبته الشقية إلى أمه الرءوم؟ هل تعلم أن قطعة الملابس التي يصر على شرائها لها، ويأتي في سبيل ذلك بكل صنوف الإقناع والإلحاح التي يطولها لسانه وعقله، حتى ترمقهما البائعة بنظرات تزيد من احمرار وجه «منى» في خجل جذل، ويفيض منها الحسد الذي يكاد يتغلب على نزعة البيع لديها لمرأى ذلك المحب قبل الزوج، الذي يشتري رضا زوجته بأي ثمن؟.. هل تعلم أنه يستشعره كشراء الأسهم من بورصة أفلست، يكاد الشاري يعب

من كل ما تطوله يداه عبًّا؟ فعل يرجو منه أن تهدأ ولا تتابع تحركاته ولو لفترة، وأن تغمض عينيها عن نزواته ولو قليلًا. لم يعد يداعب خزائن حبه في فؤادها، يولج مفاتيحه في أقفالها مجربًا واحدًا تلو الآخر، لعله يفلح في أن يسكب فيها من حبه مخزونًا. لم يعد فعله فعلًا كأفعال المحبين المتهورين المجانين، الذين لا يحسبون حسابًا ولا يفكرون بالغد، «شريف» فقد نزعته للجنون اللذيذ في مضمار العشق، عندما صار حتى جنونه محسوبًا، صار يشتري الغد باليوم، لأنه غير واثق إلا في اللحظة التي يعيشها، فتتسرب من أنامله حلاوة اللحظة المرومة، وهو يظن أنه قابض عليها بكفه.

يعلم أن «منى» تترك لقرون استشعار قلبها المدى والبراح، لتلتقط ذبذبة هنا أو هناك، لتلمح نظرة فضول من عينيه لهذه أو ابتسامة طالت لثانية زائدة مع تلك التي التقياها في النادي من بين صديقاتها أو بناتهن، اللواتي تفور أجسادهن وتتثنى مع مشيتهن، يصافحنه في إعجاب لا يخفى عليه، ونظرات غارقة في فضول المستكشف لهذا الوقور الوسيم، الذي لا هو أب مسن كما يشي بذلك سن ولده، ولا هو الشاب المناسب لهن كما يبدو من سمته وصوته. لكنها تكتفي بالمراقبة.. فتصمت ولا تعلق، يعلم أنها تظن أنه يلهو، كطفل يتعلق بلعبة جديدة، تصمت وتتأمل.. تلك الثنايا التي تثير غيظها هي نفسها، وتلك العيون التي مازالت تملك ناصية اللمعان والشقوة المحببة والعبث الهادئ المغري، تصمت وتبحر معه كراكب أفعوان الملاهي، لا يملك من أمره شيئًا، إلا بتوقف القطار.. أما هو، فيعلم أن هناك عينين تراقبانه، فيتجنب التلصص بعينين تتشوقان لاستكشاف تلك

الثمرات الناضجة، وتنسم ذلك العبق اللعوب، يركز بعينيه عند لقائهن في العيون، لأنه يعلم أن تأثيره على الفتيات في تلك السن مهول، فيسبغ على نفسه قشرة الوقار الممتزج بقلب شاب، فتظل نكاته موضع الضحك، وتعليقاته تتسع العيون لها من قبل أن يلقيها، ترقبًا..

يعشق تلك السن.. ويفضلها في فريساته اللواتي ينتقيهن عبثًا، هن لا يعبأن بالـ «مفروض»، والـ «صح»، لا ينشغلن بالمستقبل والمال وكيف يستثمرنه أو كيف يدير أمواله، لا يتحدثن في مسائل لا يود التحدث فيها، ولا يفرضن عليه ندماء وأصدقاء ودوائر من المعارف تخنقه.. هن ينشغلن باللحظة، تمامًا مثله، المتعة أمامهما، والدنيا كلها من خلفهما.. هكذا يذوب مرتاحًا، ويمدد قدميه غير عابئ بشيء.. يمنحنه ما لا تمنحه «منى» إياه.. لكنه لا يمتلك الشجاعة لتعلم «منى» بما يرتكبه من دون علمها، وينهار عالمه عندما يتطرق إليها خبر من هنا أو هناك، فتبكي وتصرخ وتقاطعه، ثم يعودان لسابق عهدهما.. لكنه لا يتخلص من شعور القلق بعدها أبدًا، وهو غارق في نزوة بعد أخرى.. فيظن طوال الوقت أن ساعة الخطر قادمة، وفي كل لحظة خطر ينجو منها يزيد اطمئنانه ويقل قلقه على اللحظة التالية.. فيواصل بانتقاء موضع عينيه مداعبة خزائن قلب «منى» بورقة الإخلاص المصنوع، تكاد تحترق على لهيب نار مكتومة، نار تتوق إلى المغامرة، وتعلم أنها تحتاج لتدبير، وأن مخاطرها كبيرة.. وأن هذا ليس زمنها.. نار تشتعل من أجل يوم من ماضٍ كان مليئًا بمثلهن، وكان هو مناسبًا أكثر.. متهورًا أكثر.. حرًّا أكثر..

نظر إلى وجهه في مرآة تحتل نصف حائط الحمام، يفكر في طرفة «شادي» التي ضحكا عليها معًا أمس، أو في تدريبات الموسيقى التي يؤديها «عمر» مع فرقته، في فيللا «منى» النائية.. وكيف لا يرتاح «شريف» لرفقائه.

وموقف معين يتداعى على عقله هذا الصباح.

كان هذا بعد جلسته المطولة مع «عمر» بأيام.

بدا له يومها أن الفرصة لتلطيف الأجواء تتحين قطافها.. لم يكن يود أن يكون هو البادئ بالحديث، لكنه وبكل تركيز، كان يقتنص الفرصة كأي فرس شطرنج نشيط يفتك بوزير مغرور استباح الرقعة بلا كلل.. غير أنه لن يفتك بغريمه، بل كان يتوق لأن يلعبا نفس الدور معًا، يحيكان نفس المكائد، ويضحكان لنفس الطرائف.

كانوا ثلاثتهم يجلسون ذات ليلة إلى التلفاز. على سطحه تراقصت الصور وخرجت منها الألحان بأغنية شهيرة، خفيضة الصوت، وكأنها تتحرج من انصراف الجمع عن مراقبتها. «منى» انحنى ظهرها تكتب ملحوظة في وريقات خاصة بعملها، بينما تراقب شاشة جهازها المحمول لتنقل أرقامًا من صفحات البورصة، تتمتم بين فينة وأخرى برقم أو اثنين أو كلمة اندهاش.. وتغرق في أفكارها بعيدًا عمن حولها... بينما «شريف» يصب تركيزه على منضدة أنيقة مستديرة صغيرة الحجم، رشيقة الأرجل في انثناء محسوب، تحتوي رقعة خشبية مسجاة في إحكام.. بينما ينقل قطعة شطرنج بين هنيهة وأخرى من موضع لآخر، ويشرد أحيانًا في وجه ولده، فيعجب في نفسه، لِم يجلس معهم من الأساس ما دام هائمًا بموسيقاه لهذا الحد؟

«عمر» يسترخي بظهره إلى الأريكة الواسعة، يحدق بالسقف بينما تستقر في أذنيه سماعات جهاز صغير، يغمض عينيه تركيزًا كأنه يحلق مع موسيقاه لسماء الحجرة.. يدير عينيه نحو «منى»، إذ ندت عنها صيحة ظفر: «كان عندي حق..» تغمغم بها في حسم دون أن ترفع عينيها عن الوريقات، فيتنهد هو في ملل.. ويواصل العبث بقطعه.

حانت التفاتة منه ناحية «عمر».. عيناهما التقتا للحظة.. سارع «عمر» بتحويل عينيه بعيدًا، لكن «شريف».. بقلب داخلته قشعريرة خفيفة من الفرح، عاجله بسؤال: «خير؟ بصيت لي أخيرًا؟».

هز كتفيه ليبدي لا مبالاة، وقال: «لا أبدًا.. بشوفك بتعمل إيه بس».

تشجع قليلًا، وبأمل يحدوه أن يتبادلا أكثر من تلك الجمل القصيرة سأله: «طيب ما تسيب اللي في ودانك ده، وتيجي تلاعبني دور؟ انت عارف، ده شطرنج.. يعني مش حتضطر تتكلم معايا كتير لو مش حابب تتكلم..».

توتر «عمر» وكأنه لم يتوقع ذلك، وقال بعد تردد: «لأ معلش، أنا مبحبش الشطرنج.. مبحبش الجو بتاعه ده..».

- «إيه هو الجو بتاعه ده؟».

بتعبير خيبة الأمل على وجهه، ولّده إحساس بأنه يزج به زجًّا في سجال لم يستعد له، قال في تبرم: «مش حتفهمني.. بلاش أحسن، معلش أنا مبحبش ألعبها وخلاص..».

استدار إليه «شريف» بجسمه كله، لسبب ما جذب حديث «عمر» اهتمامه.. كانت أول مرة يتحدثان فيها عن الشطرنج، وبدا وكأنه يتوق لأن يفصح عن رأيه لأبيه. خطر ببال «شريف» أن تفصيلة صغيرة مثل تلك، قد تكون سببًا لتلين الأجواء بينهما.. سأل نفسه في ثوانٍ قليلة انشغل فيها بالتحديق في وجه ولده مدهوشًا، ماذا يكون ذلك السبب، أهو نفور من شيء يمارسه أبوه، أهو التمرد الذي ألفه من «عمر» دومًا، أم هو شيء آخر، تشي به تلك القسمات المفعمة بالإحراج على وجه الشاب الجالس أمامه، والشعور بأنه يجر إلى فخ حديث لا يود التشارك فيه؟

بعد أن استقرت نظرته طويلًا على وجه «عمر» لم يجد ذلك الأخير مناصًا من أن يتكلم.. حسم أمره وقال وهو يشير بيديه، محاولًا شرح فكرته: «أنا عارف إنها لعبة.. بس بشوف الناس واخداها جد قوي، إنت مثلًا.. بتلعبها على طول، وبتراجع ماتشات مشهورة.. وقربت تعيش كل حياتك بخطوات وقواعد.. لما بشوف إزاي لها بطولات عالم، وجمهور ومجلات وشغلانة كبيرة..مالهاش أول من آخر، مش باحس إنها مجرد لعبة..».

- «وانت مابتحبش الألعاب اللي شكلها جد، ولا مابتحبش الجد اللي شكله لعب؟».

هز رأسه في توتر من يضطر أكثر وأكثر لشرح فكرة كانت منسية في ظلام ارتاح إليه: «لا ده، ولا ده. أنا شايف إنها من كتر ما هي جد، بقت عاملة زي مصارعة التيران كده، الاسم لعبة، لكن فيها سادية متوحشة، ما حدش واخد باله منها..».

- «إزاي؟».

- «زي ما الجمهور بيصقف للماتادور، وبيعتبر إنه كل ما زادت وحشيته في قتل التور يبقى شاطر أكتر، وما حدش بيبص للتور نفسه، ولا بيعتبر إن اللي بيحصل له ده غلط، وقتل مش أكتر.. يعني، إنت بتحط حيوان في حلبة، وبتقتله ببطء، بوحشية.. علشان الناس تتسلى.. لو فكرت حتلاقي الحكاية دي فيها شبه من الشطرنج جدًّا..».

ضحك «شريف» وقال في لهجة ودود، حاول نزع التهكم عنها: «إنت بتتكلم على الشطرنج اللي بنلعبه يا «عمر»؟.. فين بس ده كله؟ يابني مصارعة التيران دي، اعتبرها الجزء المتوحش في الحياة.. غلط ولا صح، مش موضوعنا.. بس الشطرنج دي لعبة ذكاء.. الأذكى هو اللي بيحسبها صح، الشطرنج بيفوز فيه اللي بيتعلم إنه يتجنب الفخ اللي خصمك بينصبه ليك.. الشطرنج لعبة مخ، مش قوة وقتل زي الماتادور ما بيعمل.. ».

- «وإنت بتفوز في الشطرنج على حساب مين؟ مش بتضحي بقطع تانية علشان الملك يعيش؟».

- «بالظبط.. دا مزعلك في إيه طيب؟».

- «شوف، يمكن تعتبرني عبيط كالعادة، بس أنا مش شايف الرسالة من اللي بتقولوا عليها لعبة دي إني أفكر وأحسب خطواتي كويس زي إنت ما بتقول.. أنا شايف إن الواحد بيتعلم منها إنه يتحكم في أي حد تحت إيده،علشان مصلحته.. زي الملك ما بيعمل..».

بدهشة قال وقد فقد لجام تهكمه: «يابني، ملك إيه اللي بيعمل؟ أنا اللي بلعب مش الملك؟».

قال في حسم وهو يشير نحو صدره في ثقة: «من اللحظة اللي بلعب فيها، بابقى أنا الملك. من لحظة ما بمسك القطع بألعب كل حاجة علشان مصلحته، ومصلحتي، وبضحي بأي قطعة مهما كانت كبيرة، علشان هو يعيش.. آه، هو حتة خشب.. بس اللي بيحصل ده هو إرادته، لوحده، وأنا بنفذها طول الوقت، لأن أنا الملك..».

وصمت للحظات وهو يراقب وجه أبيه بنظرة ذات معنى.. ضاقت لها عينا «شريف»، وعقله يستقبل الموجة الآتية إليه من بين شفتي ولده في اهتمام أنبأه به الموقف، الذي واصل متمتمًا: «.. لكن أنا مشكلتي مش مع القطع الكبيرة.. مشكلتي مع العساكر الصغيرين..».

سأله وقد بدأ يلمح ما يرمي إليه: «إن الملك متحكم فيهم طبعًا؟».

واصل وكأنه لم يلمح رنة السخرية في كلماته: «إنت عارف طبعًا، في آخر الدور يعني، لما يبقى خلاص كل حاجة خلصت، ومفيش إلا ملك وعسكري اللي فاضلين معاك. عسكري شاطر، قرب يوصل لخط النهاية، خلاص حياته حتتغير، وحيبقى وزير.. حيبقى أكبر وأقوى قطعة في الشطرنج كله.. عارف ساعتها طبعًا المفروض اللاعب، بيعمل إيه؟ ساعتها بيحاول بكل جهده، إنه يحمي العسكري.. تلاقي الملك ماشي مع العسكري خطوة بخطوة لحد خط النهاية، بيحميه، واخده في حضنه.. بينما هو كان من عشر دقايق بس مجرد عسكري تافه، بيموت من غير ما حد يزعل عليه، ولا له قيمة..».

قاطعه وهو يراوح بين المثال والتماهي معه، وبين المعنى الذي ظن أن ولده يرمي إليه: «ده يوريك إنه الملك برضه مع العسكري ده لحد الآخر، ليه مش شايف إنه بيراعيه وبياخد باله منه.. لأنه من رعاياه مثلًا؟».

اتسعت ابتسامة «عمر» في سخرية وهو يقول: «أقول لك ليه مش بفكر كده.. لأن الملك وهو بيعمل كده، مش عايز مصلحة العسكري، ولا عايزه يكبر ويبقى وزير.. هو عايز حد قوي يدافع عنه، ويحميه من الموت.. عاوز قطعة في أرض الملعب، يقدر يكسب بيها الدور. الملك لو بيحب رعاياه وبس، زي ما انت بتقول، كانت اللعبة دي بقى ممنوع فيها القتل، وممنوع فيها التضحية بقطع صغيرة علشان الكبيرة تعيش، وبقطع كبيرة علشان الملك يعيش..».

- «هو عيب إن الملك يساعد حد من رعاياه إنه يبقى حاجة كبيرة، والحاجة دي تبقى ضهر الملك وسنده؟».

بدا على «عمر» الفهم أيضًا، إذ قطب جبينه بشكل يعرفه أبوه، وقال في حنق: «لأ، العيب بس إنه مابيساعدش إلا الشاطر من رعاياه، زي ما إنت بتقول. الملك بيساعد اللي قرب يوصل لخط النهاية ويترقى.. طيب فيه في القواعد إنه لو ساعد عسكري غلبان ينفع يترقى على طول؟ ممكن العسكري وهو لسه ما قطعش أكتر من خطوة ولا اتنين يترقى على طول؟».

- «يابني.. دي لعبة، ما ينفعش نطبقها على الحياة..».

واصل بغيظ أكبر: «دلوقتي ما بقاش ينفع نطبقها على الحياة؟ ممكن ترضى ابنك، أو حد من رعاياك.. يحب أو يعمل حاجة إنت

مش شايفها من مقامك، أو مش من مقامه.. اللي هو مقامك برضه؟ ينفع الملك بتاعك ده يساعد عسكري ما عندوش القدرة دي؟ قواعد اللعبة.. بتسمح بكده؟ عسكري عادي، ما يعرفش يمشي وسط النار ويوصل لخط النهاية زي غيره؟ أو عسكري مش مهتم، أو مش قادر؟».

زفر «شريف» في حنق وخفض رأسه للحظة ثم رفع عينيه لـ «عمر» وقال: ««عمر».. ما ينفعش كده يابني.. احنا لازم نتكلم أكتر.. واضح إنك شايل حاجات كتير لسه..».

لكنه تجاهل جملته.. قام من مكانه وهو يلملم أسلاك سماعاته ويشيح بوجهه أرضًا منهيًا النقاش: «علشان كده مبحبش الشطرنج..».

تحرك باتجاه حجرته تاركًا وراءه «شريف».. الذي أشاح بيده القطع التي أمامه في غضب.. انتبهت له «منى» لتسأله عما حدث في قلق.

- «مفيش.. اللعبة دي زهقتني بس..».

قالها وقام ليلتمس هواء نقيًا بالشرفة.. ونظراتها تشيعه في دهشة.

- «شريف إنت حتنزل ليه دلوقتي؟ عايزين نكمل كلامنا بتاع امبارح!!».

- «مش باقول لك أفكار أمك وكلامها؟».

- «انت عارف كويس إني أنا اللي عاوزة الحكاية دي.. دي مش أول مرة أكلمك في الموضوع ده».

- «بعدين يا منى.. أنا اتأخرت..».

كان قد اقترب بسيارته من مكان مركنها أمام الشركة.

انتزعته من تلك الخاطرة، أخرى مُلِحة، أخذت شكل ملاك هفهاف الملبس، حاني النظرة، ممشوق الظهر.. راقبها وهي تتعثر في خفرها، وتخفض مقلتيها لترقب بهما حذاءيها الأنيقين في غير تكلف.. تزيح خصلة ذهبية غطت عينيها في وله من يلثم حبيبًا.. وتدلف لمقر شركته التي يستعد لتوقيف سيارته أسفلها..

إذ راقبها في تمحيص على صفحة مرآة سيارته بعد أن تخطاها.. قال لنفسه إن اليوم سيبدأ بداية لطيفة على ما يبدو، بدا له وكأن إحساس الرتابة غادره.. تناسى ما يحمله من هموم، بدت له الآن ذكرى اليوم الذي قضى عصره مع «عمر»، بعيدة الآن.. دعها تخفت بدقاتها المزعجة على ثنايا مخك، ولو مؤقتًا..

هكذا همس لنفسه.

قبل أن تسلمه الخصلة الذهبية لذكرى أخرى شبيهة.

(8)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 5:

لا تدخل مباراة وفي ذهنك هزائم سابقة.. ستكرر أخطاءك بعينها.

«حورية».. تهادت على خواطره، كصورة من ماضٍ بعيد.

كانت أيامه، هو و«منى»، تمر بكل جديد.. لكنها لم تكن حبلى بالفريد.

كانا في أول زواجهما، سنة ونصف مرت.. زيارتان لطبيبين ممن يتكدس عند بابهما طالبو الفرج، كانتا كافيتين بإقناع «منى» أن الأمر انتهى. كانت أول مرة لـ«منى» تقلع فيها عن الغرق في فكرة الإنجاب، هي التي دأبت على تخيل حياتها مع الطفل الذي تنتظر بشائره مع كل شهر، ويغص حلقها بآهة ضيق عليه كأي غالٍ تفقده، مع أول مغص ببطنها، وأول قطرة دم من رحمها. الطبيبان اتفقا على استحالة الإنجاب، تحت إلحاحها اقترحا تلك العملية باهظة التكلفة، غير مضمونة الحصاد. «شريف» لم يتركها تغرق في حزنها.. صحيح أنها غضبت لرفضه اقتراض التكاليف من أمها.. لكنها كانت تعلم أيضًا

أن أمها لا يمكنها إقراضها كل ذلك، سألتها المال قبلُ، فاتهمتها أن زوجها لا يكفيها، فصمتت ولم تحر جوابًا، ولم تصارحها بالحقيقة.. لكنها ظلت توحي لـ «شريف» أن المال موجود، وهو السبب؛ ربما رغبة منها بألا يكون الأمر خطأها، وأملًا في إبعاد شبح وصمة العقر عنها.

الآن، وبعد مرور تلك السنوات.. تذكرا معًا - كل في باله وبداخل عقله - تلك الأيام، وإن اختلفت أسباب كل منهما.

«منى» كان حنينها يستيقظ.

وهو، «شريف»، يدور بعقله بحث عن شغف جديد..

كان ذلك منذ سنوات طوال.. قبيل مولد «عمر».

لم تكن «حورية» جميلة كالمألوف.. بسنوات عمرها الأربعين، وجمالها الذابل وسط تجاعيد رقيقة، تظهر حول زاويتي عينيها عندما تفتر شفتاها الغليظتان عن ابتسامة أسنان بيضاء أكثر من اللازم.. قوامها المتناسق الممتلئ قليلًا في إغراء.. كانت مثل الأرامل في هذه السن، يطاردن السنين الذهبية بمزيد من الغنج، ورهط من الملبس الفاضح في ترتيب محسوب، والتهذيب المريب مع من تستلطفهن من فحولة الشباب الذي يبحث عن فرصة.. عن مال أو حضن من الرفاهية.

عندما قابل «حورية».. كانت «منى» قد تغيرت في عينيه..

لم تعد تلك الفتاة الرقيقة التي تضحك لطرفاته بغير حساب، الفراشة التي تهمس من بين أسنانها وهم جلوس إلى طقس غداء

أمها الأسبوعي يوم الجمعة.. إذ تحس بسخريته من الموجودين من أقارب أمها أو أخوالها وأعمامها.. لغرابة أطوارهم، دون أن تنظر إليه في خفوت: «ماتبصليش لحسن حاضحك..».. ولا تلك التي تستقبله بعد يوم العمل المضني بحضنها الدافئ فلا تفلته إلا عندما ينهرها لأنه لم يتخفف من «تراب الشارع» بعد.. فتهرول لتحضير المناشف والحمام له بعينين دامعتين من السعادة بعودته.

لم تعد صبورة، ظن أن تأخر الحمل هو السبب، فحاول أن يخفف عنها، أن يهون عليها، لكنه كلما فعل استشاطت غضبًا، اتهمته بأنه يحيل الأمر لمسألة أكبر من حجمه، وأنه يختلق الفأل السيئ كأنهما لن يرزقا أبدًا بأطفال، اختفت قشرتها الرقيقة فهاله صلابة النواة، بدأت تسأله عن العملية المطلوبة لها، يجيبها بأن الأمر يتخطى قدرتهما، فتصمت وتجنح للبكاء صمتًا وهما متجاوران، ظهرها ملتصق بظهره، البرودة تلفهما ولا يكسرها سوى دموعها الساخنة على وسادتها القصية عنه.. لم تعد «منى» كما كانت.. اختفت تلك اللمعة في عينيها، حلت محلها كلمات الترحيب المدفوعة بإحساس الوجوب، والصمت المتوتر وهي تحضر له عشاءه، يكسر الصمت صوتها وهي تسأله عن حصيلة اليوم برفق، لكنه يشعر بنصل توبيخها في صدره، كانت في البداية تواسيه بكلمات قصيرة وتمنيه بغد أفضل، لكنها صارت تبدل الموضوع حتى لا «تتقلب الليلة نكد».. ثم صارت تهمل سؤاله كأنها فقدت الأمل في أن يأتي جهده بقروش تسد عوز البيت، وأصبحت لا تطالبه بشراء لوازم المنزل.. احتد عليها يومًا عندما تعجب من الطعام الذي وضعته على المائدة إذ أجابته بنفاد

صبر: «ماما اشترت لنا لحمة». خاصمته يومين، ثم عادت لتسأله عن العملية وكيف سيغطيان مصاريفها.

لكن العمل في السياحة مهلك.. مرشد السياح يقتات على الأفواج، على الطوابير المصطفة قبالة المتحف المصري في أشعة الشمس، يذهب يوميًا ممنيًا نفسه بهذا المشهد الذي لا يتكرر كثيرًا، يحمل كيسه الأسود البلاستيكي الذي يحوي برديات مقلدة، وتماثيل بلاستيكية ملونة لهذا الإله أو ذاك.. تلك التماثيل التي يبتاعها من «رأفت» من محله بخان الخليلي بأسعار بخسة، يجيل عينيه لينتقي هدفه في حذر ودقة.. يحاصر تلك الحسناء زرقاء العيون بحديثه المعسول عن البشرة اللامعة والجمال الذي يطل منها، يلقي بطرفة يحفظها، عن كونها تشبه ابنة خالة نفرتيتي.. تضحك، فيفرك أصابع جشعه، ينتقل إلى الخطوة التالية على الرقعة، يبرز السلاسل والتماثيل مدعيًا أنها تحمل اسمها بالهيروغليفية.. يقبض على دولاراتها فرحًا، يدير ظهره فورًا وتختفي ابتسامته الأنيقة فلا يسمع نداءها عليه تسأله عن تماثيل أخرى أو عنوان مطعم قريب، قضيت المهمة فليتركها إذن ليطير لغيرها.. رجل مسنٌّ وقور، أشيب الرأس متهدل العينين، يضع على رأسه القبعة القش ويمسك بالخرائط والمطويات، يحدثه عن الرحالة الفرعوني الذي دار حول العالم وتمثاله الذي – ويا للمصادفة – يحمله معه بثمن بخس، ويقتسم قروشها القليلة معه.. مهمة أخرى تنتهي ليطير مرة أخرى.. فقط لينهي يومه باستبدال العملة في صرافة قريبة من المتحف.. بسعر بخس، لكنه أفضل من اللاشيء.. موظف الصرافة صار يحفظه، يعبس في وجهه ليسهل التفاوض على السعر،

يعطيه الجنيهات المتعرقة وكأنها غمست بالزيت.. لكنه بها يسعد، على قلتها يبهج ويطير.. هذه المرة نحو البيت.

«منى» التي تعمل ببنك حكومي كبير.. تبحث له عن عمل، واستبدلت هذا البحث ببحثها عن صنوف التدليل التي كانت تقدمها له مساء كل يوم.. حل الجد محل الهزل في حياتيهما، وضاق ذرعًا بمساعدات أمها الإجبارية، وبكلماتها التي كانت تعلق بها على ضيقه، وهي تخلع حجابها أمامه، فيظهر شعرها المبتل من أثر عرق، وشعيرات تاجها المتخشن من كتم أنفاسه، وعلامة الشال على مفرقها تضع حدًّا بين لفحة الشمس والجلد الذي جثم على صدره قماش سميك لساعات، في غير اكتراث لمظهرها، تصعد رائحة الرطوبة المكتومة من تحت إبطيها لأنفه، فيحس وكأنها لم تعد تراه، وكأنها لم تعد هي التي كانت تخلع ملابسها قبل النوم في الظلام وتصفف شعرها لساعات قبل أن تتعطر في إخلاص، مقدمة للارتماء بجانبه في أحضان دافئة صارت ذكرى، خجلًا من نظراته المحبة، لكنها الآن تقول في قسوة باردة: «طيب وإحنا حنجيب منين؟ مرتبي على قد البيت، وإنت أمورك مش ماشية.. وماما مش غريبة.. ماهي برضه مش حتشوف بنتها وتسيبها تعبانة وتسكت».

لذا.. وعندما علمت «منى» من عميل كبير بالبنك، أنه يبحث عن عمال بالمطبعة، ومدققين لغويين لدار نشر صغيرة، ألحت عليه في كارت صغير، يحمل بياناته، وزجت بـ «شريف» زجًّا إلى تلك الشركة.. سنوات قبل أن يمتلكها هو لنفسه، ويحول كل شيء لمنحى آخر.. استجاب لطلبها بحماس تكبر أن يظهره، وصم أذنيه

عن «رأفت» الذي قال في دهشة: «إنت يا «شريف» اللي ما بتحبش مكتب ولا وظيفة، تسيب السياحة وتشتغل مراجع كتب؟ مش علشان معاك ليسانس آداب يعني حتبقى البريمو في الشغلانة دي.. إنت مش بتصبر ليه؟ ما قلت لك الغردقة حتبقى زي الفل وأنا حنقل شغلي هناك.. وإنت تعال معايا ونعافر في أي حاجة، والرزق هناك كويس وكل يوم فيه فلوس، وأهو لو ما مشيتشي.. ابقى اعمل اللي إنت عايزه؟».. أشاح ساعتها «شريف» بيده في ضجر وقال كمن حسم أمره: «شوف.. أنا زهقت، ما هو مش حفضل طول عمري أتخانق مع «منى» علشان مصروف البيت.. وبعدين أهي شغلانة لحد ما تفرج. أنا مش مسامحها إنها أجبرتني على الشغلانة دي، بس في نفس الوقت مش حاقدر أسد على المصاريف بالشغل القطاعي ده، ولا بفهم في حاجة علشان يبقى ليَّا مستقبل فيها.. يعني خلليني زي كل الناس، مكتب وورقة وقلم، فيها إيه يعني.. أقله أمها تحل عن سمانا شوية..».

كان قد مل إثبات الكثير لنفسه، وإرضاء عناده المستطير.. أعجب صاحب العمل به لثقافته ولباقة حديثه، ووظفه على الفور.. استوعب العمل بسرعة، وصار الأثير لدى كل العاملين، صديقًا للجميع بمعسول حديثه الذي اكتسبه من عمله مع السائحين، يفهم ما الذي يعجب هذا فيردده، ويستوعب ما يقلق ذلك فينفيه ويتجنبه.. صارت لديه مواعيد ثابتة للعمل.. «منى» أبدت سعادتها به، لكنها كانت سعادة من ذلك النوع الذي لم يرق له، سعادة من أنجز شيئًا، وأثبت رجاحة رأيه حتى يوشك أن يقول لك في تشفٍّ: «مش قلت

لك؟». سعادة من أعاد الأمور لنصاب ما صحيح، وليست من يمتدح فعلًا عظيمًا، عظيمًا كما يؤمن هو بنفسه، عظيمًا كما يرى تنازله عن مغامرته الأثيرة مع السائحين والتقافز بين طوابير المتحف المصري، ومغازلة تلك والتلطف لذاك، سعادة تتناسب مع تضحيته بالرضوخ لحل لم ينبت بين ثنايا عقله، ولم تلده تلافيف أفكاره.. سعادة باردة.. هادئة.

وكانت «حورية» من زبائنه.

أرسلها المدير إليه بتوصية خاصة.. هي من العميلات المحترمات.. تدفع بسخاء.. يجب أن يعنى بها، وهو يعلم أنه سيفعل للباقته كما قال له في الهاتف.

قصت عليه، كيف أنها تعاقدت لكتابة رواية مع الدار.. سلواها الوحيدة هي القراءة ومتنفسها الوحيد هي الكتابة، زوجها الثري توفي منذ شهور، هي لا تزال تلبس السواد لأن الناس ينفرون من المطلقة المرحة، لكنها تحب الحياة، وتسعد بصحبة «الناس المرحة اللي زيك».. قالتها ونظرة عينيها اللعوبتين منصبة على فمه، وعطرها الثقيل ينفذ لعقله.. فيحمله على الخفة في التعليق.. والسخرية التي يستجلب بها ضحكة غنج، تبالغ في التباسط معه، يتبادلان ملمس باطن كفيهما على طرفة لا تضحك، وكأنهما يعلمان أن جسديهما يتوقان لبعضهما.. استمع لشكواها بشأن الطبعة «البروفة».. وعد بأن يحلها في أقرب وقت، فأكدت على أهمية الكتاب لها، ثم.. وبابتسامة مغرية، ورأس يميل نحو كتف بضة كشفت عنها غلالة حريرية سوداء هفهافة، وأصبعين رقيقتين مضمومتين تعدلان من

وضع جدائل مفرقها الدقيق.. وبعينين واثقتين تتابعان توتره، الذي تشي به تفاحة آدم التي تصعد وتهبط في غرة رقبته، بسعادة منتصر، عرضت عليه أن يناقشها في التفاصيل غدًا على العشاء بمكان هادئ تدعوه إليه.

لم يكن يحتاج إلى تظرفه المعتاد مع السائحات، ذلك المجهود الذي اعتاد بذله من أجل لفت أنظارهن، المسنات في غير توغل هن الأفضل.. يتعب كثيرًا حتى يقنع نفسه بجدوى قضاء الليلة مع إحداهن، لكنه المال.. والعوز كما قال لنفسه.. وهكذا يكون التكلف في إلقاء النكات وتأمل الضحكات، ويكون الميل برأسه ناحية رأسها في ضحكة مفتعلة طويلة وقياس رد فعلها على قربه، اشتمام شعرها وإلقاء كلمة إعجاب محسوبة قصيرة عن العطر الأخاذ، اضطراره للتحديق إلى عيونهن لثوانٍ.. لتخمين مكنونات صدورهن: هل تصلح هذه للحديث والتسكع على الكورنيش بعد منتصف الليل.. وربما أكثر؟ هل تريد هذه منه فقط بضاعته؟ هل سيمضي ليلته مع هذه حقًّا في حجرتها؟ هل تقبل بدعوته للعشاء والتريض في القلعة، أم أنها تتسلى بتأمل شعيرات صدره المفتوح من بين جانبي قميص علقت بإبطيه المتعرقين آثار الملح.. وجل ما يشغلها هو «بضاعته» من التماثيل والبرديات، وليست أي «بضاعة» أخرى؟

لكن «حورية» لم يحتج معها إلى ذلك كله.. كانت مختلفة.

لم يكد العشاء يمر منه عشرون دقيقة، حتى انحلت عقدة لسانه الذي ألجمته في الأيام السابقة جرأتها قبل جمالها.. وصعد الطعام الطيب والشراب الباهظ من معدته، فتسللا لعروقه وتلافيف مخه،

وبدأ يغازلها بافتضاح، نظرت معه حولها عدة مرات وهي تلومه على ألفاظه المكشوفة بدلال يستدعي منه المزيد، ويستثير منه النظرات الملتهبة واللمسات التي تصدها في غنج، تتلفت لترى ما إذا كان يتابع جلستهما أحد، وتبتسم له بين الحين والآخر بإغراء وهي تعلم تأثير حاله وجمالها عليه، وتستمتع بجنونه الذي جعلته يشعر أنه فاجأها به، وأنها تفكر في مقاومته، فيزيد إصراره.. بينما قلبها في ضلوعها يتقافز فرحًا، وعقلها يرسم الليلة والأيام التالية.

لم تكن كعلاقاته العابرة، التي يتأخر فيها عن المنزل لساعة أو ساعتين.. الآثار التي تخلفها تلك السويعات المسروقة تعود أن يخفيها جيدًا، حتى لا ترى «منى» منه شيئًا يزعجها، فتلاحقه بالأسئلة ولا يهدأ الحال.. عرفت مع ذلك مرة أو مرتين أنه كان مع غيرها.. انقلبت سحنتها بشكل مخيف، وطفقت تصيح به في غيظ. حزمت حقائبها وتركت المنزل في المرتين لتحتمي بوالدتها. حاول أن ينكر، لكن الحزن في عينيها، والذي توجته دمعة القهر، كان أقوى منه.. فاعترف مقرًّا بفعلته، لكنه أوضح «الشغل ساعات بيبقى فيه عك، والواحد ساعات بيضطر يعمل اللي مش عايزه علشان يمشي حاله.. احنا كده كده بنشتغل في الممنوع، مالناش لا تصاريح ولا زفت، الحكومة مش معتبرانا لينا لازمة ولا موظفين.. الواحدة من دول يندب في عينيها رصاصة لو السعر ماعجبهاش، معرفش بيعرفوا إزاي.. بس تلاقيها تهز لك صباعها قدام وشها وتقول كده «بوليس».. حتندهلي البوليس يعني بنت الذين.. بعد كده لازم تاكلي بعقلها حلاوة، والكلام بيجيب بعضه..».

تقاطعه في غيظ وصوتها يتهدج بفيض من الاستنكار والتشبع بالإهانة: «كلام إيه اللي بيجيب بعضه؟ وانت لازم تعك معاها؟ ما تسيبها وتمشي». يقول مقنعًا إياها بكل تصميم، لا يقنعه هو نفسه، برغم إصبعه الوسطى التي يشير بها نصف ساجد، وسط حفنة أصابع، نحو جانب جبهته: «يعني أمشي وأسيب لها البضاعة؟ واللا أقعد لغاية ما أجيب حقي؟ أدخل السجن علشان عامل خضرا الشريفة يعني؟».

لكنها، وفي كل مرة، كانت تعود معه.. بعد أن تملي عليه أمها شروطًا، يقبل يديها.. يعودان للمنزل البارد، فيحيل غضبها استسلامًا.. وحزنها ضحكًا وقهقهة على نكاته المحسوبة، وتصلبها ليونة وارتخاء، وصمتها تفاعلًا.. ثم لا يلبث هو إلا أيامًا، يعود بعدها لسابق عهده مع الزبائن.. هذه المرة أشد حرصًا ودهاء، هذه المرة أكثر انتقاءً وخوفًا وهو يخفي آثار فعلته عقب ليلة مرهقة.. صاخبة.

«حورية» لم تجبره على البحث في مفاتنها عما يبهره كما تفعل السائحات.. لم يضطر لابتلاع ريقه حتى لا يشمئز ببصره بعيدًا المشهد تلافيف دهن هنا أو تجاعيد زمن قاسٍ هناك.. بل أثارته تلك النار التي ملأت جسده أول مرة رآها، حتى احترقت أعصابه بها دفعة واحدة، وصار يخشى على نفسه من تأثيرها.. لوهلة تمنى لو أن تلك النار تستمر في لهيبها على جسده حتى يعود لـ «منى» آخر المساء.. تمنى لو أن فورته تكون لها، وأن تئن هي تحت سعرته بدلًا من «حورية».. لو أن «منى» هي التي تذوب بين أحضانه وتميل للخلف في غنج يزيده سخونة وصلابة، ويضاعف من عزمه مرات.. لكنه كان يطرد هذا الخاطر مرغمًا تارة ومختارًا تارة؛ إذ نجحت في جعله يترقب،

في كل مرة يلمس جسدها المتلوي، انتظارًا لما سوف تؤديه تلك المرة له من أدوار: الراقصة.. المعلمة.. الصديقة.. العشيقة.. يطرد الخاطر فلا يذكره إلا أيامًا بعدها وليالي تالية عندما يقابل «حورية» للمرة الثالثة في أسبوع.. وتذوب الفكرة بعد ليلة صاخبة في منزلها الذي، وإن زاره سويعات كل أسبوع، إلا أنه صار يحبه أكثر من منزله.

تزوجا إذن، فكان هناك شهود وفرح صغير في منزلها، والعديد من الزغاريد، وفستان أنيق غالي الثمن، وبدلة فاخرة ابتاعتها له من مالها ومعها ستة أزواج من الملابس الداخلية والعديد من الملابس المنزلية والبيجاما.. صارت هناك مأموريات وسفريات عديدة لـ«شريف».. صار يتغيب بانتظام ليبيت ليلته عندها يرشف من رحيقها وهي تسكبه له سكبًا.. لتعوض الفارق بينها وبين «منى»، والذي حسبته فارقًا في السن يوجب عليها الاهتمام بالتفاصيل، والإغراق في الجود، والتخفف من القيود.. لكنه كان هائمًا من السعادة في كون آخر.. كون ليس فيه «منى» التي تجعله يخشى إغضابها، ويتذكر في كل لحظة، حتى لو لم تشر إلى ذلك، ما بينهما من عوالم، تعج بالناجحين، وأبناء العائلات الراقية، والأنوف الشامخة، والأمهات اللواتي يرفلن في نعيم، تنقل آثار نعمته إلى بناتهن، اللواتي يصرن أرقى.. ذوات فضل وإن انكسرت نفوسهن تحت وطأة عقم لا يخدش منازلهن، ولا يطول صورتهن بشيء مما علق في نفسه من ذل موروث، وخنوع واجب، وفقر لا يخرج منه إلا أيامًا.. بل يفرض الفضل عليه ثمنًا ما، هو الذي لا يملك المال ولا الجاه، هو الذي يفتقر إلى الحسب، كان عليه أن يضع أحلامها صوب عينيه، فإن لم تطلها يداه.. طالتها نفسه،

كان عليه أن يطيعها في البحث عن عمل ثابت، ويسعى لذلك وإن لم تستسغه نفسه المنطلقة، وإن أبته بنات أفكاره العابثة.

كان لهيامه في الكون المتخفف من الأعباء ثمن بدوره، لكنه تشاغل عنه، وظن أن لن تطالبه الدائنة به أبدًا، لكن كان لا بد أن يكون لهذا نهاية محتومة.. كان ذلك عندما طلبت منه «حورية» أن يطيل من أمد بقائه معها.. لأنه سيصير عما قريب أبًا!!

تكور بطنها الصغير، ونظراتها اللائمة المتفرسة في وجهه، وزفراته الممتلئة كمدًا والمشبعة غيظًا.. كانت هي ملامح تلك الأيام التي تلت إخبارها له بالخبر الذي ظل أيامًا يقسم لها إنه فرح به بأكثر مما بدا عليه.. وظلت أسابيع تشك في أن هذا غير صحيح.. «رأفت» ضحك في هيستيريا عندما قص عليه ما حدث.. لكن وجهه اكتسى بالجدية وهو يشير عليه: «خليها تنزله!!».. «لأ..». قالها «شريف» بحزم.. ورفض مجرد الحديث عن الأمر..كان يدري أن اللعبة تغيرت.. لم تعد المتعة والمغامرة هي عنوانها كما في مطارداته لهؤلاء المتصابيات الأجنبيات.. لكنها اكتست بمسحة نادرة الحدوث من الجد، لكنه جدٌّ يروق له، من زاوية لم تخطر بباله في البداية: سيكون أبًا!!

نعم، أب!! ومن هذه اللعوب التي تحرق أعصابه قبل أن يعتصرها اعتصارًا، فلا يدري أهي عشرة الحب، أم العشق، أم الارتياح، أم الزواج كما هو حاله مع «منى»؟ لكنه بالرغم من أنها لا تتناسب مع تصوره المسبق عن أم لأولاده.. لكن وماذا في ذلك؟ «منى» اتفقت مع هذه الصورة في ذهنه.. أم الأولاد العاقلة المنكسرة التي

لا ترفض له أمرًا.. لكنها لم تنجب له.. لن يمكنها.. ولن يمكنه أن يعالجها فتنجب.. «حورية» تحبه.. على الأقل تحب عنفوانه وهيامه بها وبجمالها الذي تقف أطلاله شامخة ترفض أن يطويها نسيان.. «حورية» تساعده بالمال وتجهز له مستقبلًا ترسمه هي، فيدهش من تفاصيله التي تناقشها معه، فتملأ نفسه راحة لها، ولحديثها الذي تقدم فيه رأيه على رأيها.. «حورية» ستكون أمًّا لولده.. فما عساه يكون في ذلك غير مقبول؟ ما الضير؟ ثم ما العمل، غير الاستمساك بذلك والتربيت عليه؟

لكن الأيام لم تكن تحمل إليهما هذا الهدوء الذي انتظره.

(9)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 6

الشطرنج حياة.. كل مغنم كبير يسبقه عمل عظيم وجهد كبير.

كان ما هاله في بداية الأمر، هو أن العينين الناعستين الشقيتين حولتا قبلتهما عنه إلى حملها، إلى الحديث عنه بلهفة، إلى الاتساع وهما تشرحان اللازم من زيارات الطبيب والمأمول في المستقبل، عوضًا عن اللحظات التي كانتا تضيقان فيها في عبث، فترسلان سهامهما نحو وجهه المأخوذ، مع ابتسامة تحيل عناده رمادًا، وتردده إلى فكرة هزلية.

لاحظ في دهشة كبيرة، أن غنج «حورية» استحال حنانًا هادئًا، ومسئولية عميقة تشي بها قسمات الوجه الذي اختلط جده بملاحة قسماته الآن.. لكنه اجتاز دهشته، وأغرقها بحنانه.. وزاد مع ذلك في المقابل، من رعايته لـ «منى».. بل إن تلك الفترة من حياتهما شهدت أفضل حميمية بينهما منذ زمن.. كان يعود خاوي الوفاض هادئ الأعصاب من خليلته الحامل التي تلقى منه الرعاية، لكنها لا تقوى

على مجاراة غريزته لأمر الطبيب بالراحة والامتناع.. يعود لقرينته التي تنتظر كلمة عذبة واحدة من فمه لتذوب ذوبًا في كيانه، فيغرقها بالرعاية والاهتمام.. بينما مخططه يكتمل.. «منى» تبدو في عينيه بريئة مسكينة أكثر فأكثر.. «حورية» تبدو متطلبة أكثر، ضاغطة على أعصابه بطلباتها أكثر، تعطيه الأمر تلو الأمر، وتبدو له كما لو أنها تعلم أنها تدفع من مالها: «ماهو الحمل كده.. مش قادرة، ولازم تساعدني.. ما هو ابنك برضه..». ناء بحمله أكثر من مرة.. أصابتها الدهشة منه.. فسألته فأنكر أن هناك ما يقض مضجعه، لكنه كان بدهاء يدفعها دفعًا نحو الهاوية التي رسمها منذ زمن.. الشركة مرهقة، وهو يدخر منذ زمن لمشروع كبير.. ينتظر من ورائه أن يفتح طريق مستقبله، الشركة مرهقة لكنه لا يجد لنفسه مستقبلًا آخر عداها، الشركة مرهقة لكنه لديه خطط لتطويرها وجعلها تدر ملايين، لكن لن يعطيه أحد الفرصة.. الشركة مرهقة وهو يحب العمل بها وسوف ينميه ويطوره، لكن من ذا الذي يقبل بأن يكون أبوه موظفًا بسيطًا في شركة مثل هذه؟ العمر يمر وأحلامه تتبخر.. هكذا قال لها وهو يعلم تأثير حديث السنين والأيام عليها.. ابتلعت الطعم، خامرها شعور بأن وليفها يبحث عن عش أكثر استقرارًا، وأنه يود لو بقي معها، لكن صبره ينفد.. هي تعلم أن جمالها يذوي، وأنها نالت مرادها من وليد في أحشائها يشي بحياة كاملة تعوضها عما فات.. عن الزوج الثري الذي عاملها كقطعة أثاث، تحفة غالية اقتناها فلما ظفر بها وخبت جذوة الاحتفاء بها، أهملها، وعاشت سنين من احتمال غرابة أطواره. هو الذي كان يملك المال الوفير، لم يكن ينفق منه إلا على ما يحب.. سهراته ومجونه، ليالٍ باردة مرت بها، تسأله قربه، تتسول حديثه، وتستجدي أن ينفق حتى

على الطعام.. يضيق به الحال من إلحاحها، فيلقي إليها المال كأنه يلقي متسولًا.. تبتلع إهانتها وتسد رمقها.. هي، ابنة العطار الشهير، صارت يومًا أسيرة لثري مجنون، قاطعت أهلها من أجله لما عارضوا زواجها، فصارت بين لهيبه وبرودهم، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، تمنت الموت وهي تقنع ذاك بإمهالها أيامًا لتسدد ثمن ما ابتاعته، وتتوسل إلى آخر أن يخفض ثمن بضاعته قليلًا، وتتحمل سهام النار التي تخترقها من خلفها وأمامها، والعيون التي تعرض عليها ما تأباه، وتغريها بالفتات، وتلعن كرامتها.. عاشت معه حتى انتهى به الحال ذات يوم ميتًا تحت عجلات سيارة.. هكذا وبكل بساطة.. بكت يومها ليس عليه لكن على شبابها الذي ذوى، على كرامتها التي لم تجرؤ على الذود عنها، كل الأموال والعقارات التي ورثتها لم تفرحها، قالت لنفسها: وفيم الفائدة؟ لكنها بعد قليل خلعت السواد الذي فرضته عيون الناس، ضربت بلوك ألسنتهم عرض الحائط، من قال: إن المال لا يزيد صاحبه بهاء؟ ألم يكن المرحوم زوجها ثريًا؟ الكثيرون اعتقدوا أنه من الأعيان، وعاملوه على أنه من كبار القوم، لكنها كانت تعرف أكثر.

أغدقت على نفسها تعوض ما فاتها.. ملابس وعطور، إكسسوارات وساعات وسيارات.. لكن بقي الإكسسوار النهائي غائبًا.. في أعماق ضحكتها المجلجلة، التي تجذب إليها أعناق الرجال، فتلويها ليًا، وتثير حسد النساء وتدفع نظراتهم لفحص انثناءات جسدها في إعجاب، في أعماق تلك الضحكة سكن حزن، وشوق للوليف.. وأمل.. أخذ يذوي يومًا بعد يوم، ويهبط سقفه سنة وراء سنة.

وجدت في «شريف» ضالتها، بوسامته، باعتداده بنفسه، بعينيه اللتين التهمتاها التهامًا، ووقعت نظراته منها موقع استحسان، لسبب ما لم تجفل أو تنفر من نظراته وهو يتفحص أركانها، راوغها لكنها كانت أقوى، حاول الهروب قليلًا لكنه لم يكن جادًا، وهي كانت تعلم.. وكانت تحب ذلك.. مع ذلك استقر في وجدانها أنها نالته بشق النفس وصعوبة بالغة، هو فرصتها الأخيرة إذن..

تعلم أنه مراوغ.. أنه ثعلب، لكنه كل ما تمتلك، وهو يحبها، وسوف يحب ابنها، ويريد أن يكون شيئًا كبيرًا.. طموح الرجال محبب لدى النساء ما وافق هواها، وما اتسق مع مرادها، وما تصبو إليه لأبنائها.. قررت أن ترضخ لطلباته، التي هي آمالها وأمانيها لولدها القادم.. فاشترت له الشركة كلها.. إذ أنبأتها الصديقات أنها تعاني من مشاكل مالية، فتدخلت وأنجزتها لمصلحته.. سجلتها باسمه.. انتظرت حتى تمام الولادة، ثم - وبابتسامة واسعة، في يد تحمل وليدها، وفي الأخرى صك الشركة الجديدة - قالت له: «بس انت ترضى عني يا حبيبي.. وتكون ليَّا لوحدي..».

كان ذلك عندما جهز أوراقه.. واكتمل مخططه.. كان ذلك عندما اعترف لـ «منى» أنه متزوج، وأنه لديه ولد.. قال إن غريزة الأبوة ملأته وإنه لم يستطع أن يرتبط بأم الولد إلا في الحلال.. قال إنها لم تكن سوى علاقة عمل، يتزوجها فتنجب، بكت «منى»، لكنها انكسرت تحت خجل العقم، وكلمات الطبيب، ونصل القدر الذي تجسد أمامها ولدًا من صلب زوجها، ومن امرأة غيرها. غلبتها شقوة

المرارة وكآبة الهزيمة، فلم تلبد سماء غضبها غيوم كافية، تزيح بها أمطار حنقها عليه. قنعت.

قال إن أم الولد ماتت بعد الولادة، وإنه سيسميه «عمر».. سيكون ابنهما هو و«منى».. لكن لزم عليهما السفر أولًا.. ليخفيا فترة الحمل المزعومة عن الأقربين.. المولود أوراقه سليمة، هو أبوه، لن يعلم أحد أنهما اصطحباه، شهور وسيعودان بمولود لهما، تكون هي أمه، وسيكون كل شيء على ما يرام.

هكذا اختفيا من البلاد.. واصطحبا «عمر» الرضيع إلى السعودية.

صحيح أن الأمر تضمن تفاصيل أخرى.. حادثة بسيطة وقعت قبل رحيلهما.. حادثة ألقاها في غيابات قاع ذاكرته لسنوات؛ لأنه ظن أنها ليست بأكثر من نقش بسيط على جدار المرآة.. نقش تافه لا يصح أن يشغل نفسه به.

صحيح أنه نسي تلك الحادثة تمامًا، أو كاد، لكنه الآن يراوده شعور مبهم، ثقل غامض يجثم رويدًا رويدًا على صدره، وينبئه بصوت هامس لا يميز حروفه، لكنه يحس بوتيرة كلماته.

هناك خطر ما.

يقترب.

سنوات بعد عودتهما من السعودية، حاملين وليدهما، الذي صار الآن شابًّا يتحسس طريق الجامعة.. صارت «منى» غير راضية عن نفسها.

عملها لم يعد صعبًا يستنزف روحها كما كان، «منى» لم تعد هي الموظفة الشابة التي تريد أن تثبت جدارتها للجميع، لم تعد «الجديدة».. التي ترى في كل يوم أملًا في أن يضيف لرصيد أقدميتها القليل، فيعتادها المكان، وتعتاده أكثر، تلك الصغيرة التي ترتعد مع أي حركة تغيير بالموظفين، والتي تراجع عملها عدة مرات، والتي تصطك أسنانها للقاء عمل عابر مع مديريها. لم تعد بحاجة لأن تثبت لأمها مرة بعد مرة أنها تستطيع أن تعمل، وتنجح.

منزل والدة «منى» فسيح، يحتل الأثاث العربي الثقيل ذو النقوش الغائرة المذهبة مع البساط الإيراني المائل للحمرة والزرقة طابقًا كاملًا من إحدى بنايات المهندسين السامقة، والد «منى» توفي بعد سنوات طوال قضاها في التجارة، شيء ما بخصوص «الخردة» كما أخبرته، لم يحرص «شريف» أبدًا على فهم النوع بالضبط، فهو على أية حال لم يعاصر الرجل، ولم يره في حياته، فقد توفي و«منى» لا تزال في أول عام من الجامعة. لكن عمل الرجل وتجارته خلفا مالًا محترمًا، وبنايتين متوسطتين في الدقي، وأرضًا تؤتي أكلها بوفرة في قريتهم الصغيرة بالشرقية، وأرملة جميلة صار صباحها مشحونًا بالعصبية مع زملاء العمل الحكومي الرتيب، وبعد العصر تدفع عنها الصعبانيات من الجيران، ونظرات الفشل في عيني الابنة المقهورة، والابن الذي يبث لها شوقه ولوعته الزائفين عبر أسلاك هاتف انحصرت في حرارته علاقتهما ليداري بها غيابه بأوروبا، والذي بدأ كدراسة ثم صار أملًا في عمل، وانتهى بشيء لم يعد أحد يفهم كنهه ولا منتهاه.

تمصمص أمها شفتيها، وترفع حاجبًا وتخفض قرينه، فتبدو وكأنها تخلت مؤقتًا عن ذلك الأنف المترفع في شموخ يشي بالنفور من معظم البشر، فتصير أقرب ولو للحظات، من الأمهات الموظفات الكادحات اللواتي دأبت «منى» على تأملهن في شرود، وهي في طريقها عائدة بعد إرهاق يوم طويل، في شرود نظرة يمتزج بها الحنين لشيء ما، مع الإشفاق على البنات المرتعدات من توبيخ أمهاتهن.. تعنفنهن على بقعة متربة في طرف أثوابهن، قبل أن تعرج «منى» على بيت أمها القريب فتلقي بنفسها على الأريكة الوثيرة وهي تصدع بقدمين مورمتين، وظهر يؤلم.. لتقول أمها.. وهي تهز رأسها: «يعني لو كان الأفندي بيشتغل شغلانة زي الناس، كان إيه اللي يجبرك انتي على قِلة القيمة والمرمطة في المواصلات كل يوم بالشكل ده؟».

تلقي بشكواها التي ينوء صدرها بها، جانبًا، وتقول في ثقة: «أنا مش متضايقة يا ماما.. ده شغلي وبحبه، ثم «شريف» بيعمل اللي عليه..».

- «شغلك وبتحبيه؟ إنتي وارثة عن ابوكي الله يرحمه اللي يعيشك ملكة 100 سنة، غير إيراد الأرض.. والعمارات، شغل إيه اللي انتي محتاجاه ده؟».

- «والله أنا مبسوطة يا ماما..».

- «وحتبقي إيه في الشغل ده؟ مديرة بنك؟».

تغلق عينيها محاولة ألا تفلت يدها التي تكبح توتر القوس.. وتقول باستنكار: «ما تكسريش مجاديفي.. وبكره تشوفي، «شريف» حيبقى حاجة كبيرة، وساعتها حاقعد في البيت.. وحرتاح..».

- «وإيه يجبرك على الهم ده؟ كل ده علشان البيه اللي مش عارف يفتح بيت؟ مانا غلبت أقول لك بلاش.. لا ده كان قيمتنا ولا مستوانا.. آدي النتيجة..».

تقول في غيظ انفلت من بين حروفها: «مالوش لازمة الكلام ده.. أنا حفظت الاسطوانة دي يا ماما، يعني تنبسطي لما أقعد في البيت ونصرف من فلوسي؟ لا «شريف» حيرضى، ولا أنا حبقى مرتاحة.. أهو على الأقل أنا بكمل اللي البيت محتاجه وهو بيحاول.. هو مش بيتي برضه؟».

ومن ثم تهب واقفة، تتحامل على آلام ظهرها وهي تمد يدها لحقيبة يدها وتقول بغضب: «وبعدين ده جوزي وبحبه يا ماما، لحد إمتى حفهمك إني بتضايق من الكلام ده عليه؟».

لكنها، وفي كل مرة.. ينتهي بها الحال إلى عناق مع أمها التي تقول بحنان مغلف بقشرة صلدة، صبغتها سنون من الوحدة، وخيبة أمل في صنوف براقة من البشر: «يا حبيبتي، معلش.. بس لما تتعبي قوليلي.. أنا مش عايزاكي في يوم تلوميني إني ما كنتش جنبك، أو إني ما نصحتكيش».

لكن تلك الأيام ذهبت.. وذهبت صبغتها.

صارت «منى» مديرة لإدارة كبيرة بالبنك، من اللواتي تترأس فيهن عشرات الشباب «الجديد»، المتحمس. سيارة البنك الفارهة تأتي بها وتعود، لم يعد الإرهاق والتفاني في العمل هو شاغلها مثلما كان، لم تعد أمها تلومها مثلما كانت تفعل، لم يعد «شريف» ينوء بحمل المال اللازم لها ولـ «عمر».. انتقلا لمنزل أرحب، وحياة ألوانها أزهى، وبشرها أكثر ابتسامًا، وهواؤها أضوع عطرًا..

لكنها بحثت عن هم جديد.

«عايزة طفل يا حسناء..».

قالتها وهما تخطفان سيجارة في شرفتها أثناء غياب «شريف» ليلًا في أحد «مشاوير» العمل التي لا يفصح عنها أبدًا. «عايزة أخس، وعايزة أعمل شعري، بس موضوع الحجاب ده خلاص انتهى، المرة دي بجد بقى باختياري.. مش زي زمان..».

كان قد استقر في وجدانها أن عدم إنجابها في بدء زواجهما كان هو عقاب الله لها لخلعها الحجاب.. فعادت لتلبس شالًا حريريًا داكن اللون ذهبت به إلى العمل مرات، عقصته حول رأسها وأحكمت رباطه أسفل ذقنها الصغير مثل الراهبات، حتى نهرتها أمها ذات عصر في اليوم الثالث.. «إنتي إيه اللي لابساه ده؟ مش قلنا حتعقلي خلاص؟ وبعدين يا تحطيه يا تشيليه خالص، بلاش اللون ده كمان ما تفوليش علينا..».

استبدلت ألوانًا زاهية على استحياء، خشية أن تغضب أمها، وتحرجًا من نظرات زميلاتها في العمل.

لم تعد لفكرة خلع الحجاب بعدها أبدًا.. لقد كان الأمر أصعب مما تصورت.

لكنها الآن تفكر في كل شيء من جديد.

(10)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 7

البيدق الشارد وسط الرقعة يغريك بالتهامه..
بيدق رشيق يثير لعابك.. احترس!

لكن ذلك اليوم العجيب، الذي بدأت معه كل تلك الأحداث، انعطف بحدة عندما ظهرت «أسيل».

أفضل وصف لـ «أسيل» وهي تدخل الشركة لأول مرة، هو أنها كانت بالفعل كنغمة البيانو الـ Base التي تلفت أسماع الحضور وتحبس أنفاسهم وسط مقطوعة عظيمة، اشرأبت أعناق «شادي، و«رأفت» لمرآها، حبست «شيرين» أنفاسها في انبهار، ولم تحنق كعادتها لرؤية من تتحلق حولها الأنظار في حضرتها، برغم أن العميل الواقف أمامها قطع تأمله في عينيها وانتقل مباشرة نحو تأمل العينين الزرقاوين وانثناءات خصر الوافدة الجديدة، ومناطق تماس حدوده الطبيعية بتأنٍّ، بينما وجدت «حسناء» نفسها ترفع حاجبها إعجابًا بجمالها الهادئ دون أن ترغب بشفعها بمصمصة شفتيها المعتادة.. وهي تتأمل وجهها المثلث ووجنتيها النحيلتين، وتدقق في كل قطعة

من ثيابها البسيطة، رداء طويل أبيض من الكتان المزركش بالورود الزرقاء والخضراء عند ذيله، ذراعيها المكشوفتين وبياض بشرتها، وشعرها المعقوص بوساطة قلم رصاص يمسك بجذوع شعيراتها الناعمة من الخلف معًا. «رأفت» من جانبه غمز لـ «شريف» القابع وراء مكتبه يحدق في شاشة الكمبيوتر في تركيز لم يدرِ أحد له سببًا، لكن ذلك الأخير لم يكن في حالة استغراقه وصمت الحادثات من حوله قادرًا على التقاط الإشارة.. حبس الجميع أنفاسهم وهي تتجه في هدوء نحو مكتب «شريف».. توقفت أمامه وهو لا يزال لا يحس بها، تنحنحت، فأسرع «رأفت» من مكمنه ليمد يده ليقرب لها كرسيًّا بجوار وقفتها، جلست بثقة تناسبت مع سمتها وهي ممسكة بمقبض حقيبة يدها الصغيرة بكلتا يديها.. أزاحت شلالًا ذهبيًّا منسكبًا على جبينها الوضاء، وقالت بصوت رخيم مغلف بالجدية: «أستاذ شريف مدير الشركة موجود من فضلك؟».

انتبه كالملسوع أخيرًا.. لأنها صارت في مجال بصره فوق الشاشة مباشرة.. لكنه تماسك إذ رأى شفتيها تتحركان، اعتدل في جلسته وأشار لها بالجلوس، دون أن يلحظ أنها جالسة بالفعل، وهو يحاول ألا يطيل النظر إليها ليتمالك أعصابه من رائحة عطرها التي دلفت إلى أنفه.. بينما «رأفت» يقول لها مشيرًا قبالة «شريف» في مرح: «الأستاذ شريف بنفسه هو اللي قاعد قدامك يا آنسة.. ما تعرفناش!!.. أنا رأفت نظمي..».

مدَّ يده لها فبادلته السلام في بساطة وهي تبادله الابتسام. ««أسيل».. اسمي «أسيل سيف الدين».. انبعث صوت «حسناء»

من الجهة المقابلة حادًا، بلهجة تفوح منها رائحة تحذير خفي: «يا أستاذ رأفت يا نظمي، ما تضايقش الآنسة أسيل.. قالت لك هي عايزة الأستاذ شريف..».

تدخل «شريف» قائلًا: «أهلًا بحضرتك.. أي خدمة؟».

بصوت لم يسمع أشد منه نعومة، وبكلمات تنساب في خفة، قالت: «أنا كنت سألت على حضرتك قبل كده، بس قالولي في التليفون إنك كنت في أجازة.. حمدالله على السلامة».

- «الله يسلمك..».

- «حضرتك تسمح لي أبدأ أعرض القضية اللي معايا؟».

صمت للحظة، نظر لها في استفهام صبغه بجدية، ليوحي لها بالحرفية، لكن نظراته أخذت رغمًا عنه تطوف بعينيها، وتهبط لشفتيها المكتنزتين، لكنه سرعان ما انتزع نفسه وقال في جدية ودود.. كتلك التي يستخدمها مع العملاء القدامى، ممن لا يتحمل إغضابهم، ويفاوضهم وفي ذهنه ألا يخسرهم تحت أية ظروف: «مش فاهم، أنا حاسس إني شفتك قبل كده، أنا بصراحة افتكرتك وانتي داخلة عليَّا، واحدة من زميلات عمر ابني أو من شلته في الجامعة..».

رسمت دهشة بريئة على وجهها وقالت بعتاب محبب: «وانت ما تعرفشي شلة ابنك في الجامعة؟».

- «يعني.. الواحد الأيام دي فيه حاجات كتير بيفوته يعرفها، تقدري تقولي كده، العلاقة بيني وبين عمر مش متينة قوي لدرجة إنه يعرفني على أصحابه، اتضح إن أنا مش Cool enough وكده..».

- «يعني إيه؟».

- «أنا عارف؟ ياللا.. أستغفر الله العظيم، أهي بلاوي بيخترعوها لنا كل شوية، تلاقيه دور ماشي اليومين دول، بس شكله ما بيخفش ولا حتى بالراحة 7 أيام..».

- «اللي هو إيه ده؟».

- «اللي هو Cool enough ده.. أنا بهزر يا آنسة «أسيل».. ده اسمك صح؟ بهزر.. بس هو عمومًا الجيل ده مش عاجبه حد، يعني إنتي برضه من الجيل ده، فأظن فاهماني كويس..».

- «فاهماك طبعًا، هو صحيح أنا أكبر منه شوية، بحكم إني خلصت الجامعة من زمان.. بس يعني مش شايفة له حق في اللي بيقوله..» قالتها وشفعتها بنظرة عانقت فيها بزرقة عينيها ياقتي قميصه الأنيق، وفتحة القميص المفتوحة، وأضافت بهدوء: «أنا مش شايفة إنه عندك مشكلة إنك not in trend ولا حاجة..» كان حديثهما غير ملحوظ بتفاصيله لمن حولهما، فقد كانت كلماتهما تحجبها خلفية أحاديث متبادلة وهمهمات بين العميل المتواجد مع «شيرين» من جهة، وعلى الجانب الآخركانت «حسناء» تجادل «رأفت» في تحدٍّ مكتوم عن سلوكه مع «أسيل» وما إذا كان ودودًا أكثر من اللازم، و«شادي» يبتسم لمغزى اشتباكهما ويلقي بتعليق ساخر بين فينة وأخرى، لكنه.. وبالرغم من ذلك.. اعترته رعشة خفيفة لنظرتها، برغم أنها لم تستغرق سوى ثانيتين، كانت نظرة من النوع الذي يتجلى فيه الإعجاب المحرم، ويظهر فيه لمعة الشرود غير المحكوم بلياقة، والمدفوع بطاقة الانجذاب الغريزي، نظرة حملت له في

تينك الثانيتين أكثر بكثير مما حملته كلماتها المفسرة.. وأطلقت في أصابعه وحلقه تلك الرعشة، كمن انتظر الشمس طويلًا حتى تأمله اليأس، فإذا بها تبرز في الأفق، وما بين لهفته على التحديق في الأمل الذي ظهر في نفس لحظة اليأس منه، بقدر رغبته في التأكد من حقيقته وأنه ليس سرابًا، بادلها «شريف» نفس التحديق، كان يحاول التأكد.. ويستزيدها.. لكنها خفضت بصرها لأسفل.. قالت شيئًا عن أنها أول مرة تدخل مكانًا من هذا النوع، ولذا تبدو مرتبكة قليلًا.. استمر يركز على شفتيها ولمعان بياض اللؤلؤ من خلفهما.. صوت خفيض ما في صدره أمره بالتوقف، لكن أصواتًا أخرى، هناك في أطراف أصابعه وخلف عينيه، كانت تعرف أن الجميع غير منتبهين، فنبهته أن الفرصة مواتية ليزيد من حملقته، ويستزيد الشمس من ضيائها، ذهب أدراج الرياح صوت صدره الذي يحثه على النظر بعيدًا.. واصلت كلامها فقالت بنظرة خفيضة نحو الأرض كأنها تعلم أنه يحملق فيها ويستعذب ملامحها ولا تمانع.. إنها كادت تذهب ضحية تحت عجلات سيارته وهو يصل إلى الشركة منذ قليل، هو تفاداها، لكنها تعتذر إذا كان مرورها أمامه قد شتت تفكيره.. لم يحاول إظهار دهشته، وتجاهل أنها كانت تبعد عن طريقه بمسافة كافية، بل آثر أن يغمغم في خبث حاول مداراته بوجه خالٍ من التعبيرات: «طبيعي لازم أتشتت».. رفعت عينيها للحظة، صمتت وهي تبادله نفس الوجه المحايد، وأعادت نظرة الالتهام لصدره المفتوح.. هذه المرة أقصر.. وواصلت وهي تعاود تأمل طرف حذائها ورعشته تتحول لإحساس لذيذ، قالت إنها رفضت اللجوء لشركة أخرى، لأنهم الأفضل.. استطردت كمن يملي شروطه، لكن برفق من يحرص على إتمام

الاتفاق، فقالت إنها جاءت لتمثل عميلًا لا يريد أن يظهر في الصورة. أجابها بأن هذا معتاد في مجال عملهم، وعلم أن الأمر يتخطى حدود العملاء الذين يأتون لطلبيات الأكياس البلاستيك وعلب «الدليفري» لطباعتها بشعار وبيانات المحل، هذه إذن عميلة تأتي للتحري عن أحد ما.. ناولته ورقة عليها بيانات الشخص المطلوب التحري عنه، وأخبرته أن المطلوب مراقبته ومعرفة علاقاته خارج نطاق العمل.. ابتسم لسذاجة طرحها، وأيقن أن العميل الخفي الذي لا تريد التصريح باسمه هو لا بد أن يكون زوجة رجل الأعمال المعروف الذي حملت الوريقة حروف اسمه.. خيانة زوجية أخرى هي إذن، نوعه المفضل من القضايا. لم يظهر لها اندهاشه من طيبتها في نظره، واكتفى بقوله إن القضية مقبولة، وبالغ في وضع رقم هائل كأتعاب له، طرح فورًا عليها أعلى نوع من الخدمات التي يقدمونها: «حاديكي Package كاملة، صوت وصورة، وبيانات الشخصيات المطلوبة وعناوينهم، ومشاكلهم بالتفصيل..».

- «مشاكلهم إزاي؟».

- «يعني، بصي.. إنتي حتمضي لينا على إنك طلبتي مننا التحقيق ده، علشان ما يجيش يقول لنا حد بعد كده أنا ما طلبتش منها حاجة.. مجرد كلمتين يعني إنك على مسئوليتك الخاصة بتطلبي الكلام ده وإحنا لسنا سوى منفذ بالأجر وكده، بعد كده بقى.. العميل اللي انتي بتمثليه.. واللي مش عايزة تقولي اسمه - وده براحتك وحقك تمامًا - حتسلميه الملف بتاع الشغل.. حيلاقي الدليل اللي هو، أو هي، عايزاه.. بشكل يبقى الراجل اللي بنتحرى عنه ده راح في داهية

خلاص، ومش بس كده، لأ كمان اللي حنلاقيهم معاه عرفنا كل حاجة عنهم، يعني ساعات بيبقى وارد إن العميل عاوز كمان يعمل معاهم واجب، يفضحهم في مكان شغلهم، يهددهم بالأدلة دي.. هو وراحته بقى..».

كانت تركز بصرها على وجهه بغير انتظام، تتنقل في أثناء حديثه بين عينيه وفمه، لتعيد النظر إلى فمه طويلًا ثم تهز رأسها بالموافقة كأنها تستوعب حديثه كلمة كلمة.. ولم يغب اهتمامها واستزادتها له من الشرح عن ملاحظته.

هل كانت تعلم أنه مأخوذ بشيء فيها؟ هل كانت مأخوذة به؟ «شريف» كان عقله يعمل في سرعة في تلك اللحظة ويطرح الاختيارات ويقارن الاحتمالات كما اعتاد، كأنها افتتاحية شطرنج أثيرة لديه.. لكن صوت صدره علا ليعطل تفكيره ويسأله السؤال الأوجب، فيذكر لنفسه أنه يعلم أن الفتاة قد تعجب بشاب ما.. لكنه لا يبدو في العشرين مثلًا.. يجاوبه صدى رد الشط الآخر: أصوات أصابعه وحلقه ولسانه، إذ صرخت لتخرس صوت صدره في تلك اللحظة فتجاوزها.. لكنه لم يكد يصل إلى النقطة التالية.. حتى رفعت عينيها وهي تواصل الحديث إليه.. قرر أن يحسم أسئلته بيده، تلاقت أعينهما لثوان.. صمم على التركيز في عينيها مباشرة، يواصل هز رأسه لأعلى وأسفل بتؤدة، كمن يتابع كلامها ويزنه، شفع ذلك بابتسامة عابثة من زاوية فمه يعرف أنها أفضل زواياه عندما يتموضع للتصوير، وهي تبادله نظرة التركيز في عينيه.. حتى إذا جذب نظرها إليه.. انتقل.. ما بين عامد ومأخوذ، إلى شفتيها.. وعنقها النحيل..

ثم خفض رأسه كمن يتأمل في حديثها.. ولاحظ أنها خفضت عينيها وهي تواصل الحكي عن موضوعها.. بينما صارت تتأمل في أطراف أناملها بمقلتين ثابتتين، قدر هو ثباتهما كوسيلة لاستراق النظر في مجال رؤيتهما، لترى بنفسها أين تذهب عيناه.. وماذا تصافح وماذا تلاطف.. لكنه استمر في العبث بنظراته، والجرأة بسهامه، وأصوات صدره ورعشته تزداد عذوبة، حتى لو لم يستوعب إلا أيسر اليسير مما قالته، وهي لا تبالي بنظراته ولا شروده.

إذن حسم الأمر، أو هكذا قال لنفسه، كان لا يريد أن يتردد، كان يرغب أن يعيش لحظة أشعة الشمس وهي تغرق أوصاله التي تجمدت من البرد.. فاستلقى في دفئها، وآمن بقوتها، وأسبغ عليها ثقته، لذا قال لنفسه بحسم: «هذه الفتاة تعرف أنها أعجبتني، وليس لديها ما يمنع.. أي شيء زائد عن ذلك هو مزايدة وتزيد.. الأمر بيدك يا «شريف» فلا تطغ فتزل قدمك.. ولا تجبن فتندم وتنالك نظرات الاحتقار».

أبدى إعجابه بكلامها.. تبادلا أرقام المحمول بناء على طلبه.. افترقا على لقاء قريب، عندما قامت ألقت نظرة على حقيبته الجلدية وقالت مجاملة: «حلوة قوي الشنطة دي، بس لو بني كانت تبقى أحلى..».. قال بسرعة بديهة لم يعتدها في نفسه منذ زمن: «تصدقي أول مرة أسمع الموضوع ده؟».

– «موضوع إيه؟ اللون البُني في الجلود تحفة.. معروفة!!».

– «لأ، موضوع إنها سودة.. أنا باتعامل معاها طول الوقت على إنها زرقا؟!!».

جلجلت ضحكتها ساحرة.. أكدت عليه أن يتصل بها.. تجاوز لهفته وأكد لها أنه «أكيد يعني حلاقي وقت ما تقلقيش».. لم يشأ تحديد موعد ما.. اتكأ للخلف في راحة وهو يتنهد في ارتياح.. لكن الأصوات خفت من حوله فور رحيلها مرة أخرى تتهادى في عذوبة منسلة من الباب.. اختار أن يخفض صوت الموسيقى ليكتمه.. فعاد إلى الصمت وكل ما يتردد من حوله هو صوتها وهو يستعيد حديثها.. وعينيها.. وشاشة رقمية تعكس خياله وهو مبتسم، انتزع نفسه من شروده وهو يلقي لـ «شادي» بأمر الملف المطلوب لعميلته الجديدة التي لم تفارق ضياؤها وجهه منذ لحظات.. تلقف «شادي» الأمر في صمت كعادتهما في إخفاء التفاصيل عن بعضهما كقواعد العمل.. عاد «شريف» لشروده في شاشته.. بينما «شادي» يختلس النظر إليه من موضع خفي في قلق..!

(11)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 8

لماذا؟

أكبر وأصعب سؤال في اللعبة.

وكانت آخر جملة نطقها قبل أن يستدير ليغادر المكان.. بينما «شريف» يتمتم من خلفه في يأس حزين: «إنت مش محتاج لي يا عمر؟».

يومها.. وبعد رحيل «عمر» مكث «شريف» طويلًا بالمقهى يحدق مذهولًا فيما أمامه.

واليوم.. يجلس بعد انتهاء العمل.. وحيدًا كعادته على شاطئ النهر.. يستعيد ذلك اليوم.

ما زالت الذكرى حية.. كل حرف وكل نظرة تبادلاها.

تذكر كيف بقي بعد رحيل «عمر» عن جلستهما وحيدًا.. كمن فوجئ بالـ «كش مات».. بعد مباراة حسب حسابها بدقة، فلم يخطر

على باله ذلك الفرس الجامح الذي اقتحم قلب مليكه برمح غادر.. ليسقط صريعًا.

ارتج هاتفه المحمول بالارتعاش، فأعاده إلى وعيه بالموجودات.. أنبأته الشاشة أنها «منى».. وضع الهاتف على أذنه وهو يخبرها باختصار أن «عمر» قد أنهى جلسته معه.. لم يكد ينقد النادل أجره ويعاود الشرود حتى ارتج هاتفه مرة أخرى، لكن برعشة أقصر زمنًا.

«عمر وصل يا شريف وحكى لي كل حاجة. أول مرة يتعصب كده. إنت واضح أنك ما صبرتش عليه. كلمني أو قول لي حتخلص شغل إمتى علشان نتكلم بره، بلاش في البيت».

ألقى المحمول من يده بعد فراغه من قراءة الرسالة النصية.

زفر بغيظ، انتزع نفسه من أسر جلسته، حتى كاد أن يلمح شجنًا ما في عيني النادل القريب.. ألقى بورقتين ماليتين على المائدة دون أن ينتظره، كأنه يخشى أن يقنعه بالانتظار، أسرعت خطاه خارجًا.. أغلق عينيه إذ داهمته أشعة الشمس.. راوح بين أن يضرب موعدًا لـ «منى» لملاقاتها خارج المنزل كطلبها، لكنه سرعان ما عدل عن خاطرته.. وقرر أن يسير قليلًا على غير هدى.

تلك البقعة من شاطئ النهر، حيث تقبع بقعته المفضلة.

وقف بقدميه على موضع الجلوس العريض من الأريكة الخشبية، شرد بعينين زائغتين، ووجه جامد.. في الماء الذي يجري، غير عابئ بقسوة الضفتين.. غص قلبه وهو يعب الهواء،عله يهدأ قليلًا.. لكنه

انتزع نفسه بعد دقائق من شروده.. جلس، نفض رأسه من الذكرى وشرد مجددًا.

أشعل سيجارة وأرغم نفسه على الابتسام. كان يأمل بمزاج أفضل في الساعة المقبلة.. إذ ملكه بغتة الشعور بأن اليوم لا يمكن أن يأتي بأسوأ مما أتى به حتى الآن.. فضلًا عما رزح تحته من ضغط بسبب تذكره جلسة «عمر»، ومكالمته الباردة معه هذا الصباح، لذا فقد حسم أمره تمامًا، واستقر على أن يذهب في التو لملاقاتها..

ملاقاة «أسيل».

(12)

من عجب أنه لم يشعر بمرور الوقت، إلا عندما أوقف سيارته تحت العنوان الذي أعطته إياه عندما لقيته بالشركة في ذلك اليوم.. يوم أن أسرته زرقة العينين، وإفلاتها لعينيه تجولان بمحرابها كيفما عنَّ لهما.. كان قد بدأ يتأهب للصعود لذلك العنوان، لكنه جلس ليغالب تردده.

تردد للحظة وهو متوقف بسبب زحام الكوبري قبل أن يصل إليها.. لكنه اتصل بها.. لم ترد.. لكنها عاودت الاتصال به.. فتح الخط.. سألها: «موجودة؟».. قالت في بساطة من لا يكترث كثيرًا: «أيوه.. إنت جاي؟».. بتعجل يرد على عدم اكتراثها قال: «عشر دقايق.. لو الزحمة خفت شوية..».. أغلق الخط، واستعاد كلماتها الهامسة في غفلة من زملائه ذلك اليوم قبيل انسيابها كنغمة الـ Base من مكتبه، بعد أن تحدثت طويلًا عن مشروعها الذي ساقها إليه، وبعد أن التقط من كلماتها ما يسمح له بفهم ما تقصد فعلًا، فقد كانت عيناه مشغولتين بأكثر مما يسمح لأذنيه المرهقتين بالانتباه لأكثر من رخامة الصوت وانسياب المقاطع وللحنها.. «المشروع بسيط، بس محتاج تخيل.. يعني If you don’t mind يبقى كويس لو تزورني في الأتيليه.. هناك حاقدر أفرجك أنا أقصد إيه، أنا بشتغل هناك بعد الضهر، وعادة باتأخر.. كلمني قبلها.. أنا أصل بانسى

نفسي في الشغل.. حتى علشان أجيب لك حاجة تشربها، عندي قهوة على السبرتاية كويسة قوي، تقريبًا الحاجة الوحيدة اللي باعرف أعملها..».

يذكر كيف داهمه شعور بالغبطة، العينان الناعستان وهما تختلسان إليه ذلك الكسر من الثانية، مرتين، الدعوة الأنيقة المغلفة بالود الذي – وإن لم يحمِّله بأكثر مما احتمل – أطرب قلبه، وعزف فيه لحنًا بهيجًا قصيرًا، خفيض الصوت مرتعشًا.. تمامًا مثل.

مثل ارتعاشة هاتفه الآن.

كانت هي على الناحية الأخرى من الخط: «لو بتسأل نفسك، إذا كان العنوان صحيح واللا لأ.. فالإجابة أيوه.. أما إن كنت فاكر إن وصولك لباب المبنى من غير ما تطلع كفاية.. أحب أقول لك، بطل كسل واطلع، أنا شايفاك من الشباك..».

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 9

لا تقع في حب الخصم.. النقلات الرشيقة، والأفكار العبقرية تسحرنا، فنتعاطف معها.. وندرك بعد فوات الأوان.. كيف أننا كنا عرضة لنيران الخصم.. طوال الوقت.

يقع أتيليه «أسيل» في الدور الثاني من البناية ذات الطوابق الثلاثة.. بناية من بنايات الزمالك القديمة.. التي احتفظت بطابع معماري ساحر، النقوش الغائرة أعلى النوافذ الطويلة، أعمدة الرخام التي تزين الوجهة، وتتشارك في رفع أقواس المرمر المزدانة مفارقها بزهرات اللوتس الحجرية، التي تبدو كجمال امرأة عجوز لا يزال يحمل ابتسامة ماضٍ فاتن كمرأى عينيها الذابلتين، الطراز الفرنسي الذي بدا وكأنه هبطَ على الجزيرة القابعة في حضن النيل.. واثقًا كمن جاء ليبقى، بعكس «شريف» الذي جاء ولا يدري ماذا جاء به.

وبداخل الشقة لم يكن الوضع مختلفًا.. الحوائط ذات اللون الأصفر المكتوم، واللوحات الصماء بلون خلفية محايد، خالية إلا من بقع لونية، تنسال في هدوء لحن متسربل بالعدم حتى يفتضح

بهاؤه في نور ينسكب من طرف اللوحة في خجل.. وينتهي ببقع قانية من الأحمر أو الأزرق أو الأخضر الناعس، كانت كل اللوحات، كما خطر في بال «شريف» تنويعة من لوحة واحدة، تصميمًا واحدًا بألوان متباينة وتنفيذ مختلف.. وقدر أن صاحبة تلك اللوحات تنفذ بروفات لتصميم ما، أو أنها معجبة جدًّا بهذا التصميم إلى حد أنها تنفذه بألوان مختلفة.

في وسط اللوحة وقفت هي، ترتدي بذلة من بذلات العمال ذات القطعة الواحدة، ذلك النوع الذي يشمل بنطالًا و«حمالات» من الجينز الأزرق، ويغطي قميصًا أبيض اللون تزدان ياقته بنقوش دقيقة من «الدانتيل» الأبيض.. من خلف الباب المفتوح أطلت عليه مائلة من جانب طرف اللوحة القائم، أسنانها قابضة على جسم فرشاة رسم بينما أطراف شعرها مرفوعة لأعلى بإحكام ليجمع كلماتهن قلم رصاص، معقوص كالعادة، بابتسامة بسيطة من طرف فمها أشارت إليه بيسراها أن يقترب، أدخلته ويمناها تواصل لمستين للفرشاة على اللوحة.. تركته يتفقد المكان بعينيه وهي تعتذر في بساطة عن الفوضى النسبية للمكان.

- «معلش الدنيا فوق بعض.. اقعد على الفوتيه الأزرق ده.. اللي وراك.. آه.. معلش القماش اللي على الأرض ده بفرشه قدامي دايمًا، مشروع مفارش بسيط كده، مسيره يكمل.. ».

التفت إلى بيانو صغير بجانب جلسته.. فبادرته بمرح خفيف وهي تنتهي من لمساتها للوحتها وتستعد للجلوس قبالته، ومنضدة صغيرة خشبية منخفضة تفصل بينهما، بينما تجهز وعاءً صغيرًا للقهوة: «ده

الــ Pianino بتاعي.. ده تقريبًا اللي حيجنني في يوم من الأيام، بس حجننه معايا الأول..، قهوتك إيه؟».

ابتسم رغمًا عنه، لكنه حافظ على تكنيك زاوية فمه.. راقبها في شغف وهي تملأ الوعاء بالـ «سبرتو» ببساطة من اعتاد ذلك، وقال بسلاسة: «سادة! أرجو ماكونشي عطلتك..».

- «عطلتني جدًّا..».

- «...؟».

- «Cute قوي.. إنت صدقت.. لأ خالص طبعًا.. It is just funny that you ask».

ناولته قدح قهوته فتناوله دون أن يلحظ عينيها اللتين تفحصتا وجهه الحزين، وشعرها الذهبي الذي سقط على عينيها، فلم يطرف لها رمش، لئلا تفوتها ملاحظته وسبر غوره.. لكنه عندما انتبه كانت قد حولت نظرها بعيدًا.

- «مالك يا شريف؟.. أنا حاقول لك يا شريف ماشي؟».

- «Sure».

- «دي نص الإجابة بس..»

تنبه لاعب الشطرنج العتيد بداخله وطفق يحسب الخطوات والرد عليها..

الافتتاحية: النقلة الأولى:

سوف يقول لها إنه بخير، أما هي.. فسوف تصر على أنه يبدو حزينًا، سيحتار في أي إجابة يعطيها، فهو يريد أن ينحرف بهذا الحديث لمنطقة دافئة، يصيران يتحدثان كصديقين.

النقلة الثانية: سيقول لها إنها مشاكل بالعمل وإن زوجته وابنه يحيلان حياته لنمط رتيب ومشاكل.. على الترتيب، ستتسع عيناها وتهز رأسها لأعلى ولأسفل كأنها فهمت، وستتعامل معه كأنه متزوج، وكأنه يذكر لها زوجته عامدًا لتصل إليها رسالة ما: «أنا متزوج وأحب زوجتي، لا فرصة هنالك.. لن يكون هناك شيء بيننا».. ستقول هي شيئًا مجاملًا مثل أن الحياة كلها كذلك، وأن «مسير ربنا يهديهم».. وسوف تضع حدًّا فاصلًا بينهما كأنها ترد رسالته بأقوى منها.. سيثور كبرياؤها الأنثوي إذن وهي تقول بغير كلمات: «وأنا لم أقصد أن أفسد حياة رجل متزوج.. من تظن نفسك أيها الأحمق؟ بل من تظنني أنا؟ ساقطة؟ أم أنثى لا تجد الحب، فتستجديه بحجج رخيصة: إذ تدعو رجلًا متزوجًا إلى مكان عملها ومسكنها؟».

دارت الخطوات والاحتمالات في رأسه بسرعة حركات البيادق على الرقعة، وحماسة الرخ وهو يتأهب لسحق الخط الخلفي لجيش الخصم.. تأهب الوزير بداخله لنصحه بالتعقل.. «ماذا تريد منها على أية حال؟» قالها وزير أفكاره وهو يتأمل الرقعة بين «شريف» و«أسيل» في شغف ويهز رأسه في تعقل الفاهم الذي رأى تلك الافتتاحيات للعديد من المنازلات من قبل، وكمن دافع عن مليكه في ظروف أشد خطرًا وأحلك سوادًا حتى لم يعد يأبه بآهات المتابعين للرقعة والمتحلقين حولها.. لكن مليكه حسم أمره.. «شريف» كان قد حسم

أمره في تلك النقطة إبان انتظاره مترددًا في سيارته قبل صعوده، لا يدري بالضبط ماذا يريد.. لكنه يعرف أنه يريد أن يتحدث إليها.. منذ اللحظة التي خطت فيها إلى حجرته بالشركة وهو يراوغ السؤال، سأل نفسه هل أعجبته؟ لم يقوَ على الإجابة لأسباب تتعلق بوجود «منى» في حياته.. تلك نقلة أخرى على الرقعة احتار في شأنها.. «أسيل» تعجبه؟ إذن فهي خيانة لـ «منى».. وهو.. الذي لم يقرب الخيانة بمعناها العاطفي إلا لماما، منذ عدة سنوات، ولا يتورط مع عميلة إلا لليلة واحدة عابرة، يعود بعدها ليقطع كل صلة بها، لكنه يشعر أنه هذه المرة يريد أكثر.. لن تكون ليلة ويكتفي، لا يبغي وقتًا لطيفًا وكفى، لا يستطيع أن يستسلم لإعجابه أو يرضى به، لذلك آثر ألا يهجم، وفي الوقت ذاته لا ينكص على عقبه، افتتاحية دفاعية أخرى مما يتقنها «شريف»، يؤمِّن خطوطه، يربك الخصم ويبسط أدواته على وسط رقعة النزال، يجب أن يحتفظ بمفاتيحه في يده.. دفع ببيدق شجاع مثقف إلى وسط الرقعة، بيدق من النوع الذي يفضله: أنيق وذكي ويجيد القفز بين المربعات من موضوع إلى آخر، من موضع إلى الذي يليه، فخرجت كلماته واثقة:

- «أنا شكلي كده.. لكن مش باكون حزين ولا حاجة. واضح إنك بترسمي حلو قوي.. أنا مش بفهم شيء عن الرسم في الحقيقة.. بس بيتهيألي إنك بترسمي زي مدارس رسم معينة، إنتو كلكم كده.. الفنانين الموهوبين يعني.. مش بترسموا كده أي كلام، كله محسوب وله أصل ونسب.. مش كده؟»

لكنه كان يواجه لاعبًا من طراز فريد.. أو بالأحرى لاعبة.

بمكر أجابت وهي تركز في عينيه: «وده حيفيدك بإيه.. لو قلت لك أنا بارسم تبع أي مدرسة فنية؟ إنت مش لسه قايل بنفسك إنك مش بتفهم في الأمور دي؟ ما تقول إن أنا ضايقتك بسؤالي؟ لما سألتك ليه شكلك حزين يعني؟ يمكن فيه مسافات معينة إنت حاططها بينك وبين الناس اللي لسه بتتعرف عليهم، وانت شايف إني كده بتخطاها بدري قوي، ولازم نعرف بعض أكتر قبل ما أسألك في حاجة زي دي؟ أو كده يعني؟».

فرحًا بتلميحها لعلاقة ممتدة، اندفع يأكل البيدق المتأنق الذي دفعت به إليه، أرسل إليه بيدقه المتقدم في وسط الملعب، غير مبالٍ بصراخه وتوسلاته، قائلًا بدون حساب: «لا أبدًا.. ليه بتقولي كده؟».

أطبق فرسها الأسود ذو السرج الأحمر القاني بلون الدم، على بيدقه فصرعه برمح فارسه المسلول اللامع تحت ضوء حجرتها الخافت، تردد صهيله الظافر قصيرًا، بينما اخترق الرمح صدر المسكين، ذهبت صرخته أدراج رياح، حملت لأذنه صوتها الهادئ كمنوم قوي، يجعله بين نوم لا يأتي ويقظة مشوبة بالغيوم: «عظيم! عايزاك بس تفهم حاجة عني: أي مشاكل حاقدر إني أفهمها ما تقلقش مني..».. ركزت نظرتها على عينيه وقالت ببطء أكثر متابعة: «.. وعمومًا، خُدها مني حكمة: الستات ما يجيش من وراهم غير الهم!».

بأي حاسة تعرف النساء، متى وكيف يغزو ذلك السهم قلب الرجل؟ لماذا لا تفوتهن رعشة اليد التي تمسك بقدح القهوة، ولا نظرة العين المغتصبة إلى تلك الاستدارة أو تلك الابتسامة؟ كيف يلمحن الاضطراب حتى لو داراه ألف حرف وحرف، وحتى لو

أخفاه مائة ستار من الجدية والغموض؟ لماذا تستتر مشاعرهن تحت طبقات من إهاب المعسول والمأمول، ولماذا، بالمثل، لا تطال مكنون قلوبهن أعين الرجال؟

لكنه ورغم تلك الأسئلة التي ألمح بها إليه عقله، ضحك غير مبالٍ بقلق وزيره الذي توسل إليه أن يتقدم لإنقاذ الرقعة من انتشار قواتها في هدوء خبيث.. تراخى تركيزه بفعل جرأتها، فقرر الاكتفاء بتهديد فرسها ببيدق بائس: «ليه بتقولي كده؟».

- «لأنك مهموم بحياتك أكتر من اللازم، ده باين عليك جدًّا، إنت فاكرني أصغر من إني أفهم.. أو ما بتحبش تعمل من نفسك ضحية، أو أضحوكة في عينين الناس.. بينما أنا عاوزة أطمنك يعني، إني حفهمك صح، أنا أصلًا ما بفهمش الناس غلط، وإلا ما كنتش عزمتك تجيني هنا..».

انشغل بقولها، يوازن الترغيب وشبح الفواصل المزروعة بينهما في تهذيب أنيق، انشغل بتكتيكها حتى لم يلحظ أن بيدقه المسكين مات بأسرع مما احتل المربع الذي سيق إليه قسرًا، لكن الأخطر أنها كانت قد نشرت أفراسها وأفيالها من حوله في صمت، بينما أقنع نفسه بأن المباراة ما زالت في الملعب، وأن دفاعه حصين ومنيع.. صار كأنه الحكم الذي يرقب ولا يتدخل.. طالما حذر تلاميذه في النادي ألا يقعوا في حب الخصم.. وألا ينجرفوا للإعجاب بتحصيناته فينشغلوا عن جيشهم ذاته.. قال في انبهار: «طيب وانتي عايزة تعرفي إيه؟».

- «عايزة نكون مبسوطين وإحنا مع بعض.. إنت وانا.. مش أنا بس».

- «أنا مش زعلان..».

- «بس مش مبسوط..».

نظر إليها كمن صدمته كلماتها.. لسبب ما أصابته جملتها بألم.. ولنفس السبب الذي ظهر على وجهه، اقتربت منه في بساطة.. وقفت قبالته وهو ما زال جالسًا.. تلاقت أعينهما لفترة طالت دون أن يعتريه التوتر الذي يليق بالمواقف.. رفعت يدها لتربت على رأسه في حنو أغلق معه عينيه للحظة وكأنه يستمد منها الراحة. نظر إليه وزيره في ذهول وهو يرقب خطوط النيران المفتوحة عليه من كل حدب وصوب، وصمت في غيظ مكتوم. ابتسمت في براءة.. تناولت منه قدح القهوة بتمهل من يتناول لعبة من طفل يتشبث بها حتى لا يزيد من عناده، أو من يقنع مصممًا على الانتحار بأن ينتزع منه سلاحه الذي عزم على تفجير جمجمته به، أزاحت القدح جانبًا.. مدت يدها تنهضه من جلسته وهي تجبره على أن يتبعها لمشاهدة لوحتها وهي تقول في رقة أنثوية: «ولما انت ما بتحبش القهوة بتشربها ليه؟».

كالمسحور حرك فيلًا على الرقعة يسوقه إلى حتفه، غير مبالٍ بنظرات وزيرها الشرس، ورد كالمأخوذ: «عرفتي منين إني ما بحبهاش؟».

ألقى وزيره باللعنات عليه في صمت، واستعد لإلقاء خطبة الوداع لجيشه في إحباط، تراصت بيادقه مطأطئي الرءوس في ألم، بينما قالت هي في دهاء، وهي تلقفه أجمل نظراتها: «لأنها بردت.. اللي بيحب القهوة ما بيستناش.. على الأقل ما بيسيبش أول شفطة حتى لو سخنة، تعال بقى، أشرح لك العك اللي باعمله».

(13)

فركت «منى» يديها في توتر واسترقت النظر لساعة يدها للمرة العاشرة وهي تقول لـ «حسناء» في قلق: «هو ما خلصشي لسه؟».

- «رأفت بيبص عليه، بيقول الماتش مطول لسه..».

بدا «شادي» مشغولًا بحاسوبه المحمول وهو يقول مغمغمًا: «يا منى اهدي شوية.. الموضوع مش في إيده، الماتش لازم ينتهي وهو ما يقدرش يسيبهم، مسير حد يستسلم دلوقتي واللا يخلص على التاني..».

كانت جلستهم في طرف المقهى الخاص بالنادي الذي يعمل فيه شريف مدربًا ومشرفًا على نشاط الشطرنج.. فرغت أنصبة الليمون والقهوة منذ زمن، حتى تصلبت بقايا أثر الرشفات على حواف الأكواب والأقداح، وبدا الكل متشاغلًا عن الوقت الذي يمر بطيئًا على «منى»، «شيرين» باتصالاتها المتكررة ودق محمولها المتكرر، وحديثها ذي الوتيرة الهادئة الناعمة مع المتصلين، و«حسناء» بتصنتها على «شيرين» في حقد دفين وهي تحسب كل متصل عريسًا محتملًا، وتلعن وتيرة غريمتها في تأفف يظهر بين كل فينة وأخرى، ونظرات الحقد الدفينة إليها، بينما «شيرين» تغلف جلستها بتعليق مجامل عقب كل مكالمة، إذ تعتذر للحاضرين عن «الدوشة اللي أنا عاملاها

دي، معلش..»، و«شادي» بصفحات الإنترنت التي يستعرضها طول الوقت عبر محموله، والتي تزينها صور القطط وتدور في معظمها عن تغذية القطط ورعايتها، وحتى «رأفت»، بسجائره التي اغتالها واحدة بعد الأخرى وهو يتغافل عن نظرة «حسناء» المتوترة إليه بعد إشعاله واحدة جديدة، واضطراره كل مرة للبحث عن تعليق مختلف يصف به احتياجه لسيجارة جديدة، أو تعجبه من انتهاء الأولى بهذه السرعة، أو قلقه من أن يضايقهم بدخانها.. برغم أنه يدخن منذ أكثر من ساعة بانتظام، وحتى قام من مجلسه، بناء على توسلات «منى» المتكررة ليستحث «شريف» على أن (يخلص الماتش ده بسرعة واللا يقول لهم يشدوا حيلهم) كما قالتها «منى» في رجاء ممزوج بحسم يحمل معه ثقة في سهولة الأمر، واتهامًا ضمنيًا لـ «شريف» بالتقاعس مقدمًا عن التنفيذ، وقام «رأفت»، برغم أنه يعلم ألا جدوى من ذلك، وهو يلوم نفسه على فكرته التي طرحها على «منى» بزيارة «شريف» في عمله المسائي.

«منى» قالت له في مكالمتها بالأمس بصوت يكاد اختناقه أن يترجم إلى عبرات: «رأفت.. أنا مش عارفة أعمل له إيه. شريف زهقان من كل حاجة، أنا حاسة بيه ومش عارفة أعمل له إيه، موضوع عمر مِنَكِّد عليه، والحكاية بينهم وصلت لطريق مسدود. الولد مقتنع جدًّا باللي في دماغه.. وشريف لا عايز يصدق إنه حيعمل حاجة كبيرة، ولا قادر ياخده على قد عقله، أنا نفسي بس يرجع يضحك زي زمان، أو يبطل العصبية اللي هو فيها دي، أنا عارفة إنه ما بيفكش عن نفسه إلا معاكم.. لو خرج ما بيرجعشي إلا متأخر، ولو قعد في

البيت ما بينزلشي، وفي الحالتين أنا مش عارفة أعمل له إيه.. يرجع متأخر بينام على طول، ويقعد في البيت يبقى ساكت ومابيردش على حد..».

- «شريف لو مش عايز يتكلم، مش حيتكلم حتى معانا، بس أنا برضه ملاحظ إنه ساكت زيادة شوية عن اللزوم اليومين دول، ومطلع عينينا في الشغل قوي.. عمومًا، قوليلي أعمل إيه يا منى، وأنا أعمله؟».

- «بكرة عيد ميلاده.. عاوزة نخرج مع بعض ونغير جو، لو أنا اللي قلت له مش حيسأل فيَّا وحيتحجج بأي حاجة..».

هكذا اتفقوا على اللقاء، وهكذا عاد «رأفت» بـ«شريف» في يده يقوده إلى جلستهم.

خفق قلب «منى» في قوة وهي تراه يرفع حاجبيه في دهشة لم يستطع معها منع نفسه من الابتسام، لكن سعادتها تلاشت وهو يتخذ مقعده بجانبها بعد أن أفسحته له «حسناء»، قائلًا في فتور: «هو انتي يا منى؟ طيب مانتي عارفة إن عندي شغل..».

- «كل سنة وانت طيب يا حبيبي.. عقبال 100 سنة..».

عاد حاجباه للارتفاع قليلًا، وخفض من نظرته في ألم استمر لثانيتين، وهمس مغمغمًا: «وهو إيه الفرق يعني؟».

- «مش فاهماك؟».

- «إيه الفرق بين النهارده وإمبارح؟ أو السنة الجديدة والقديمة، غير إني كبرت سنة، أو ضيعت سنة من عمري؟».

تململت «شيرين» في مكانها في إحراج، ونقل «رأفت» بصره بين «شادي» و«حسناء»، قبل أن يقول في حماس مفتعل: «يا راجل إيه اللي بتقوله ده؟ كل سنة وانت طيب، دي منى قلبت الدنيا علشان تجمعنا كلنا دلوقتي.. وعاملالك مفاجأة كبيرة..، وكلنا سيبنا اللي ورانا وجينا علشان خاطرك..».

قال «شادي» شاردًا في شاشة حاسوبه: «آه والله.. تلاقي داني مستنيني على العشا دلوقتي..».. ثم رفع وجهه في إحراج إذ صمتت الأصوات من حوله وهم يتأملونه بمزيج من الذهول واللوم لتعليقه الشارد.. فأضاف بمرح يداري به وجهه الممتلئ والمحتقن خجلًا: «كل سنة وانت طيب يا مان!!».

لكن «شريف» تجاهل - لحسن حظه - تعليقه وقال في بساطة باردة: «معلش يا جماعة، أنا لسه ورايا ماتشين تاني، ومش منتظر أخلص قبل الساعة عشرة..». قالها ونظر لساعته، فأسرعت «حسناء» تقول وهي تختلس النظر لوجه «منى» المحمر من الإحراج، محاولة القيام بدورها لحماية صديقتها من المواجهة التي تلوح في الأفق: «إحنا مستنيينك يا شريف.. كمل شغلك، وإحنا حنتغدى مع مُنى.. ويمكن الماتشات تخلص انسحاب واللا حاجة، ومنين ما تخلص تعال نخرج مع بعض..».

أشاح بيده في غير اهتمام: «هو هنا فيه حاجة تتاكل؟ ثم كمان ساعة الكافيه حيقدم مشروبات بس، أنا باقول تروحوا أحسن، وأنا متشكر للاهتمام ده كله..».

تدخلت «شيرين» وقد لمحت توتر «منى» يزداد: «يا باشمهندس ما تقلقشي علينا، أنا حاطلع أجيب سندوتشات، وبعدين احنا نروح نعمل إيه؟ أنا عن نفسي فاضية.. ومامي عارفة إني معاكم، حتى تدريب التنس النهارده اتلغى، وانتو يا جماعة وراكو حاجة؟..».

جالت بعينيها في وجوههم تستحثهم على الرد، فأجابوا جميعًا بالنفي في حماس، حتى إن «شادي» رفع عينيه عن محموله واشترك في الرد المفعم بالتأكيد، وسارع «رأفت» بتأكيد توفر الوقت لديه وأن الطفلين لدى والدتهما الليلة وحتى الغد.. وتغلبت «حسناء» على نفورها من «شيرين» وهي تلعب دور المتحذلقة بوضع اجتماعي أعلى، وعلى غيظها من إتيان «رأفت» على ذكر طليقته التي تعتبرها غريمتها الخفية، لإحجام «رأفت» عن الارتباط بغيرها منذ فراقهما، ولتهربه من كل محاولاتها الخفية والصريحة للالتصاق بمجرى حياته بأكثر من دور الصديقة أو الزميلة، ونفت تمامًا انشغالها بأي شيء الليلة، بل زادت بتأكيدها على أنها خصصت اليوم خصيصًا لعيد ميلاد «شريف»، مختلسة نظرة لترقب امتنانًا ما من «منى» التي تحجرت نظرتها على وجه «شريف» في خيبة، حاولت وضع حدود لها بأن تمنعها عن ساحة تقاسيم وجهها، ونظرة أخرى لوجه «رأفت» وكأنها تأمل أيضًا في جذب انتباهه عبر ذلك التكريس الوفي.. لكن نظرتها لم تصافحها نظرة صاعدة إلى عينيها كما أملت، بل تراقصت مقلتاه في قلق ينتقل بين ملامح «شريف» و«منى»، قبل أن يقول «شريف» في حسم هادئ يغلفه ضيق يروضه قدر استطاعته: «يا جماعة أنا متشكر ليكم جدًا، بس أظن الوقت مش مناسب،

تقدروا تتفضلوا.. منى، روحي انتي، وأنا لما ارجع بالليل حنقعد نتكلم وابقى أعزمك على العشا لو انتي عايزة..».

ساد صمت ثقيل والجميع تتلاقى نظراتهم بإحراج.. كانت «شيرين» أول من قطع الصمت متنحنحة وهي تهم بلملمة حقيبتها قائلة شيئًا عن أنها سوف تتركهم الآن ساعة وتعود فورًا لأنها ستنجز غرضًا ما.. قبل أن ينضم «رأفت» لقولها بأنه سيوصلها في طريقه حتى لا تتأخر، لكن «منى» قالت في ثورة مكتومة كمن لم يعد يستطيع أن يتحمل: «مالك يا شريف؟».

- «مالي؟».

- «إيه لو انتي عايزة دي؟.. أنا عايزة أحتفل بعيد ميلادك، وانت حتى مش عايز تقعد معايا ولا مع أصحابك.. كلنا فضينا نفسنا علشانك وانت مش عايز تقدر ده ولا مهتم..».

- «يا منى أنا عندي شغل..».

- «وبعد الشغل؟ حترجع البيت وتسألني عايزة تخرجي واللا لأ؟ أنا عايزة أخرجك من اللي انت فيه..وانت مش عاوز ترجع طبيعي تاني..».

- «إيه اللي انا فيه؟ وإيه الطبيعي؟».

- «ماعرفش مالك!! إنت قول لي..».

- «مش بتقولي عاوزاني أخرج من اللي انا فيه؟ اللي هو إيه؟..».

تنحنح «شادي» وقال في هدوء: «(شريف).. هدي نفسك.. (منى) مش لوحدها، احنا كلنا شايفينك زهقان.. ومش فاهمين مالك، يعني حبينا نقضي وقت لطيف معاك مش اكتر..».

تدخلت «منى» لعلمها بحنق «شريف» الذي يستعد لبسط سيطرته الآن، إذ تعلم كيف سيبدو له أنها تحرجه أمام أصدقائه ومرءوسيه، فقالت في مرح اصطنعته: «خلاص يا شادي، سيبوه يا جماعة.. خلاص يا شريف خلص شغلك وكلمني أكون جاهزة، وإحنا يا جماعة عازمينكم على العشا الليلة..».

نظر إليها طويلًا.. حتى أجفلت من نظرته، وقال في بطء: «ليه يا منى؟».

- «؟؟...».

- «ليه بقينا كده؟ ليه بقينا زي الأصحاب اللي كل واحد بيحسس على عيوب التاني طول الوقت، ومش عايز يكلمه فيها؟».

نفضت إحساسها بالحرج أمام الجالسين.. وتجاهلت نظرة الشفقة في عيني «حسناء» نحوها، والذهول في عيني «شادي»، ولكزة مرفق «رأفت» لـ «شريف»، وحتى الفضول الجامح لـ «شيرين»، وقالت في ثقة: «علشان احنا متجوزين من زمان، يعني أصحاب قدام زي ما بتقول.. الصحوبية في الجواز ميزة مش عيب يا شريف، جوزي لما يبقى صاحبي دي حاجة كويسة، والأصحاب بيحسسوا على بعض.. إيه اللي يضايقك في كده؟».

- «اللي يضايقني إنك مش بتزعلي.. ما تقولي إنك قرفانة مني؟ ما تقولي إنك شايفاني كئيب وممل، ومش شريف بتاع زمان؟ بتلفي وتدوري ليه؟ وجايبة الناس يساعدوكي إني أبقى أحسن، وأرجع زي ما انتي عايزاني أكون، زي اللي في خيالك؟ ليه عاملة نفسك مش متضايقة مني، ليه بتعملي كده غصب عنك وانتي عارفة إن ما فيش فايدة؟».

عندما عاد أدراجه من تلك الجلسة العاصفة، انتظر ربع الساعة حتى تأكد، من نافذة حجرته الواقعة أعلى مقهى النادي، أن «منى» ومن معها قد انصرفوا.. غابت آخر سيارة تحمل «رأفت» و«شادي»، فتنفس الصعداء وهو يرقب ساعته في فضول.. عاد للهبوط لقاعة المباريات حيث التنافسية التي أوشكت على البدء، تجهم وجهه في وقار الحكم العتيد بدون إرادة منه وهو يدلف إلى قاعة الألعاب الرياضية ذات الأرضية الباركيه، والعمودين الحجريين في طرفيها، اللذين يحملان السلة المعدنية ذات الشبكة المعروفة لكرة السلة. اقترب من المنضدة التي تتوسط القاعة، وتتوسدها الرقعة المربعة والساعة الإلكترونية التي يتحكم في إيقاعها خلال مناظرته اللقاءات، ثقب بنظره وجهي المتنافسين الشابين، اللذين اندفعا للقيام في توتر يليق بمنصبه المهاب.. وقال في رتابة من استعد للموقف، وبرزانة تليق بوجهه الصارم: «الدور قبل النهائي حصل فيه تعديل.. الاتنين التانيين اللي حيلعبوا بعدكم انسحبوا النهارده الصبح.. حضوركم حاسجله وموقفكم سليم قانونًا، لكن كده يبقوا إنتو الاتنين في النهائي بشكل تلقائي، بس الماتش بتاعكم حيتلعب

يوم الحد الجاي.. مبروك، اتفضلوا ونشوفكم بعدين..الساعة 4 يوم الحد، ومسموح بعشر دقايق تأخير، بعدها يعتبر المتأخر منسحب، وبالتالي مهزوم».

صرف اللاعبين على عجل وذهنه شارد بعيدًا..

كان كل ما يشغل تفكيره.. أن الوقت لا يزال في صالحه، وأنه لن يتأخر عن موعده معها.

ولكن صاحبة الموعد.. لم تكن «منى»!!

(14)

دق هاتفه المحمول برقم خاص، تمامًا كما أخبره «شادي».. تمهل وهو يبتسم لنفسه، وبعد الرنة الثالثة مسح شاشته بإصبع ثابتة، صمت ليستمع لصوت محدثه، وهو يتعمد التماهي مع انطباع الهدوء والغموض.. ثم لم يلبث أن رد في ثقة المنتصر: «طبعًا يافندم.. كل حاجة تمام.. اسمح لي حضرتك، المساعد بتاعي حيتولى بنفسه تسليم الأمانة لحضرتك.. والله مش منظرة، بس مواعيد وارتباطات كتير انت حضرتك سيد العارفين بقى..».

استمر عقله يعمل في سرعة ليستوعب بأي اتجاه يدفع بكلماته «يسعدني يا افندم.. مفهوم طبعًا، أنا متفهم حساسية موقف حضرتك، وهو منتظر مكالمتك.. أنا بس كان في استفسار صغير، كنت عاوز حضرتك تساعدني فيه..».

قطع كلماته جمل ودودة من الطرف الآخر عبر أذنيه، نفخت أوداجه وهو يحاول الاستجابة بلهجة بسيطة: «الله يكرمك يافندم، دا من ذوق حضرتك بس.. أنا أظن هو حكى لحضرتك شوية عن موضوعي.. بس أهم حاجة دلوقتي، إن الأمانة ترجع الأول وحضرتك تطمن، واحنا يعني حنروح من بعض فين..».

أنهى المكالمة وهو يبتسم لنفسه.

اليوم لم يعد استغناؤه عن أجره في عملية ما يشغل باله.

ينتظر ما هو أكبر.

كم تبدلت الأيام.

لم يكن ليقبل بذلك فيما مضى.

عندما كان المال مشكلة كبيرة بالنسبة إليه.

شرد في تلك الأيام مرة أخرى.

* * *

كان حديث عهد بالزواج من «منى».

مرت ثلاثة أعوام ولم يكن التوتر قد غزا حياته بعد، «عمر» كان لا يزال في الشهر الثاني من عمره، عاد - «شريف ومنى» لتوهما من الخليج الذي قضيا في قيظه عامًا أو يزيد، ثم نفد صبره، وانكسرت فورة حماسه، وجذوة خوفه، التي دفعته إلى هناك حاملًا عروسه بعد عامين من زواجهما، وعادا وهي تضمد جرحه، بينما كل من حولهما يستقبلونهما بالترحاب الذي يليق بالعائدين، والذي لا بد أن يذبل بعد فترة.. كالوردة اليانعة بعد استقرارها في قارورة الزجاج الأنيقة، وكان حالهما أشبه بتلك الوردة. نضبت ينابيع القصص التي فاتهما حضورها، انتهت كلمات التدليل للمولود، وحسرات الأم والأقارب أنهما لم يحضرا الحمل ولا الولادة، اللذين كانا محل أمنيات لم تتحقق قبل سفرهما لفترة طويلة، وبعد أن أدلى نصف أطباء القاهرة بدلوهم في الأمر دون فائدة، ذلك الحدث العظيم الذي اغرورقت

له عينا الأم عبر الأثير، لكنه فاتها لصعوبة السفر ورفض دعوة الزيارة التي ظلت الأم تشك في كون «شريف» قد أرسلها من الأصل، صمتت الأفواه المرحبة والألسن التي كانت تؤكد أن (بلدكم أولى بيكم).. حل محل أصواتها صخب الصمت، ثم أسئلة التندر بالفراغ الذي لديهما، ثم صارت الأسئلة أكثر صراحة.. عن الخطط وعن طبيعة عمل «شريف» المرتقبة.. صاحبتها التلميحات التي لم تصب كبدًا ولا قلبًا للحقيقة، عن وفير المال الذي لا بد أنهما عائدان به من الغربة، مشفوعة بتلك الأسئلة ذوات النصل الصدئ، والتي تحملها النظرات الفضولية والألسنة المتزلفة (وناويين على إيه؟).

كان قد ترك عمله بالشركة قبل أن يسافر، لكنه قرر أخيرًا أن يستخدم المال الكثير الذي جناه من تلك الصفقة الكبيرة التي أمنها قبل سفره، والتي عطل استفادته منها السفر، تلك الصفقة التي أنهت كفاحه الطويل المرير.. تلك الصفقة التي أخفى تفاصيلها عن «منى» طول عمره، من أجلها تعب وشقي، وسهر طويلًا، ابتلع عشرات من الأقداح السوداء برائحة القهوة، وتجرع المئات من لحظات القلق، وغاب لأيام وليالٍ طوال عن المنزل.. تذكر «منى» تلك الفترة قبل سفرة الخليج، حيث كان غيابه يطول عن المنزل، أحيانًا يبيت خارجه أيامًا، ليعود خاوي الوفاض، مكدود الهيئة، سعيدًا بلا سبب تارة، منهكًا صامتًا تارة، يحمل بضع عشرات من الجنيهات حصيلة هذه العمولة أو تلك، هالات سوداء عديدة تحت العينين، وسعال متجدد يحرق صدره من أثر تدخين لعين.. و«منى» التي توازن بين رغبتها في معرفة سبب غياب حبيبها عنها طول الوقت، وبين حرصها على عدم

الضغط عليه بالأسئلة، تكاد تحترق هي الأخرى، تحت وطأة نقص المال والأنفس.

تلك الفترة لا تزال تذكرها بمزيد من الغم.. هي التي أصرت على الذهاب للطبيب بعد الأشهر الأولى.. الزواج بالنسبة لها لم يكن أكثر من «شريف» إلى جانبها، وطفلين أو ثلاثة ينامون في هناء وصمت كالملائكة في أسرتهم.. لكن المأمول تأخر، وتأخر.. لم تكن لتكترث رغم قلقها، لكن شيئًا ما في «شريف» أنبأها أنه لم يبالِ، شيء ما أعارها لمحة من مستقبل رأته بعين الحاضر.. واللمحة أخافتها، جمدت الدم في عروقها، لم تعد مطمئنة إلى ذلك الشريك الهادئ الذي يذوب حبًا لها، تكررت نقاشاتهما، وشجاراتهما، وتركت البيت محنقة مرتين، لكنه لم يكترث بعد الأولى، واضطرت في الثانية أن تتصل به لتعنفه، فعاد ليعيدها منزله، بينما أحست في عينيه أنها ستكون الأخيرة.. هذا رجل يعدها بأن يكون لها كالعسل تلعقه من على أطراف أصابعها، فإذا به يتسلل من بينها كالماء، هذا حبيبها، الذي يدير وجهه بعيدًا عنها في بطء ليرسم مستقبلًا له بدونها؛ لذا أصرت، في قمة شجاراتهما وخلافاتهما، في خضم ضيقها من عمله غير المنتظم، وبياته المتكرر خارجًا، وعزوفه عن التفسير، وقلة المتوفر من المال، هي التي أصرت على استشارة الطبيب.. أوصلتها أمها بأكبر الأطباء، ودفعت لها مقابل الكشف مقدمًا، لم تجد ثورته ولا تعلله بضيق الوقت، لوحت له بأنه لا بد أنه يعلم عن نفسه عيبًا، فسخر منها ووافق في النهاية على اصطحابها إلى هنالك.. لم تذهب مرارة النتائج وجلسة الطبيب معهما عصر ذلك اليوم القائظ.. لم

تذهب تلك المرارة من فمها حتى اليوم، وهي تستحضر مشهد وجهه المهيب يقول في بطء: (الحاجات دي بإيد ربنا، الأستاذ «شريف» سليم ما فيهوش حاجة، إنما حضرتك عندك مشاكل كتير.. ومن غير العملية، ما فيش أمل..).

ذلك الحجر الذي خلفته كلمات الطبيب، لم يرفع حمله عن كاهلها تدليل «شريف» لها، الذي استمر ليومين ثم عاد سيرته الأولى في الغياب والعمل متأخرًا، ولم يزده اضطرارها لا شعوريًّا إلى تحمل عصبيته بأكثر من ذي قبل، ولا سكوتها عن رفضه اقتراض تكلفة العملية الجراحية المطلوبة لها بحسب الطبيب، إلا سوءًا.

التفتت إلى هموم عملها.. غرقت في مشاكل أمها.. وشاركها «شريف» نفس الاهتمام، ربما ليداري على تقصيره تجاه منزله، وغيابه الطويل في عمل لا ينتهي، ولا يميط عنه اللثام.

ثم جاء السفر.

وجاءت قصة الحمل.. ومولد «عمر»..

أرادت أن تستقدم أمها إليهم.. لكن «شريف» رفض.. نظر في عينيها نظرة ذات مغزى وقال لها: «انتي عارفة إنه ما ينفعشي..».

- «بس.. البيت واسع..».

- ««منى».. انتي فاهمة.. كل الترتيب حيبوظ..».

- «طيب امتى؟».

- «لما تولدي بالسلامة.. وبعديها حنمشي على طول.».

- «وامتى حاولد بالسلامة..؟».

فيما بعد، وعندما عادا لمصر.. لم تسأله «منى» من أين أتى بالمال الذي مكنه من شراء الشركة، ولم تتعجب عندما قال لها محاولًا وأد السؤال في عينيها إنه مال اكتسبه من عمله بمصر قبل السفر.. ولم تسأله لماذا لا يدفعه الآن لقاء العملية المطلوبة للإنجاب، إذ علمت أنه لم تخطر بباله تلك الخاطرة، فلم تكن أبدًا من أولويات الإنفاق لديه.. فقد صار أبًا لولد، وبالنسبة إليه.. كفى!

سوف يفتتح عمله الخاص، شركته الخاصة.. سيستخدم الشركة التي ابتاعها سرًّا قبل السفر، ولم يخبر أحدًا أنها له.. سوف ينجح في ذلك العمل، فقد صارت له خبرة في تلك الدروب، خبرة أيقن بروح اللاعب الماهر أنها نقاط ضعف تعج بها نفوس البشر الذين سوف يتعامل معهم على رقعته.. سوف ينكل بهم من أول نقلة، سوف يغمد رمح فرسه في قلوبهم.. بلا رحمة.

لم تكتمل سعادة «منى» لسبب غامض لم تفهمه أبدًا.. قالت لنفسها إنه الإنجاب، الذي صار حلمًا لم يتكرر، أو ربما هي طبيعة «شريف» الخوانة، ونزواته التي لم تنسها، ولن تضمن اتقاء شرها.

لكنها، وكما فعلت دائمًا، اكتفت بابتسامة «عمر» البريئة التي واستها، وبعمل الشركة الذي كما بدا لها ازدهر وملأ حياته، فلم يعد المال هو المشكلة ولا الشاغل بعدها أبدًا، حتى ظنت أنها لن تعود لهذا الأمر مرة أخرى..

* * *

عاد بخاطره إلى مكالمة «شادي» منذ قليل.. راجع حديثهما بسرعة في ذهنه:

- «كويس، مش عاوز تتكلم دلوقتي أوكي.. قل لي بس إنك ابتديت، ولا لسه؟».

- «لا.. كله تمام ما تخافش..».

- «طيب، من غير ما تفسر علشان «رأفت».. الموضوع خيانة زوجية؟».

- «باين كده..».

- «مراته هي اللي باعتاها.. صح؟».

- «مش باين.. مش واضح يعني، يمشي الحال لو كده، بس.. حاقول لك بعدين المسألة معقدة شوية..».

- «كلمني لما تبقى في البيت، وسلم على «داني»..».

- «يوصل يا ريس..».

(15)

وصل إلى موعد اللقاء المضروب مع «أسيل».. لكن انتظاره طال.

جلس وسط الأزواج من العشاق على الكورنيش اللامع.. على أريكة معدنية صغيرة.. ساعتين كاملتين مرتا.

صدره يضيق أكثر فأكثر.

* * *

نافذة حجرتها في الأتيليه.. إضاءة خافتة.. الساعة تقترب من منتصف الليل.. الزمالك بهدوئه يغريه بالصعود، وأيضًا يخوفه من التمادي.. ما بال رجل يجلس في سيارته تحت نافذة في شارع جانبي، ثم يصعد لشقة فتاة وحيدة منتصف الليل؟

أضاءت شاشة محموله وتسارعت دقات قلبه.

«شايفاك.. اطلع الدنيا برد..».

قرأها فابتسم.. امتلأ صدره بدفقة دافئة من الثقة قبل أن يتحرك خارجًا من السيارة.

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 10

النقلة المباغتة سوف تربكك.

احترس، فليست تلك النقلة التي ستهزمك.. لكنها نقلاتك غير المحسوبة، اندفاعك الأهوج لتعوض قطعة فقدتها أو موضعًا فقدت السيطرة عليه.. هذا هو مقتلك الحقيقي!

لكنها قابلته ببرود.. نظرة ساهمة، تحركات جسد محسوبة، مسافة ثابتة تحفظها بينها وبينه وهي تقدم له كرسيًا، تدعوه للجلوس بصوت محايد لا يوحي باعتذار لتخلفها عن الموعد.. ولا ترحيب زائد تخفي به شيئًا.. شعرها عقصته خلف رأسها، ولملمت بأطراف أناملها رداءها لتضمه حول جسدها حتى ظن أنها تخشى على نفسها من نظراته. طرد الصمت كلمات الترحيب بينهما سريعًا.. حتى خفضت نظرتها لأسفل، كأنها بانتظار أن يفصح عن سبب زيارته.. تردد وهو يبحث عن شيء مناسب يحول دون أن يحيلهما السكوت إلى ضيوف ثقيلي الظل عليه، يفتش عن كلمة تدفعها للحديث، يريد أن يسألها ماذا عطلها عن المجيء؟ لماذا لم تتصل به لتعتذر؟ هل

بها شيء؟ هل لم تعد تطيقه فجأة؟ يستدعي تفاصيل لقائهما عندما زارته بالنادي قبيل زيارة «منى» بدقائق.. هي التي ذكرت الكورنيش.. بلهجة حنون ونظرة ثابتة في عينيه، قالت بعدها «بحب أتمشى كتير هناك..» قالتها وداعبت خصلة من شعرها فأنهت عناقها مع أذنها، ورفعتها لأعلى مع روح «شريف» التي ارتفعت معها، تشجع وقرر أن يتقدم خطوة.. البيدق المتقدم لوسط الرقعة يتحسس خطواته، فإذا تشجع أفلت وصار خطيرًا، صار قبيل خط النهاية بخطوتين، ثم خطوة، ومن يدري ربما يصل لخط النهاية فيصير وزيرًا.. الجسور فاز باللذة.. قال بثقة: «خلاص النهارده نتمشى مع بعض.. أخلص بس وأشوفك هناك.. ولا أعدي عليكي؟».

اختلجت شفتاها توترًا، لكنها قابلت خطوته بمهارة «لأ أنا حاجيلك.. يعني حنضيع الليلة كلها في التوصيل وإنت شكلك حتتأخر؟.. يعني على الساعة كام كده؟».

يجلس أمامها الآن ليبحث عن البداية المناسبة.. يلومها ويثور؟ ستقول له: «فهمتني غلط..».. وسترد عليه تلك الهجمة سهامًا من النقد والازدراء.. وسيخيفها ذلك من التعامل معه.. إذن ليكن هو اللوم المغلف بابتسامة وعتاب؟.. أيضًا لا ينفع، قد لا يظهر ذلك حرصه على لقائها بحق، وقد يفهم أنه غير غاضب فعلًا.. لكن هل يريد أن يغضب؟ هو غاضب بالفعل، لكن هل يريدها أن تعرف ذلك؟ أن تعتذر وترجوه أن يهدأ؟ أن يسامحها؟ ما بال النار تتقد في صدره، أنفاسه تحرق أنفه، يضيق محيطه بالهواء.. يفكر أين كانت؟ مع من كانت؟ أين نظرتها المهتمة؟ أين ما يستحق هو الآن منها من اهتمام

وتركيز ونظرة تحمل العطف والاعتذار المبطن؟ متى تمكنت منه بهذا الشكل؟ متى صارت تحركه ردة فعلها، ويهزه غياب ابتسامتها كما تفعل الآن وهي تحدق في الأرض بينهما؟ ذراعاها معقودتان، نظرتها باردة، قدمها تهتز في توتر يشي بأنها تنتظر كسر الجمود مثلما يفعل هو.. بيد أنها تنتظره أن يتحدث، يبدو أنها تعول على ذلك كثيرًا، بينما يبحث هو عن اللائق.

- «انتي.. ما بتحبيش تخرجي مع حد أكبر منك؟».

اختار أن يهاجم، الخطوة غير المتوقعة، النقلة المباغتة التي تبعثر الأوراق، لن يلف ولن يدور، لهذا أثر يرجوه، ويستطيع معه حفظ ماء وجهه.

كان يتمنى لو أنها رفعت حاجبيها، مالت برأسها للوراء وأظهرت كم فوجئت بحديثه، أو لو أنكرت عليه سؤاله، لكنها رمشت مرتين بعينيها.. فقط، كمن يقدر أنه اختصر حوارًا طويلًا فأصاب بضربة رشيقة بيت القصيد، في غير اندهاش.. رفعت نصفها العلوي من الاتكاء للأمام، واجهته بعينين باردتين وقالت متنهدة، كمن يزيح عن كاهله حملًا: «أيوه.. بصراحة آه..تقريبًا يعني».

- «حد أكبر منك، أو بتعبير أدق: حد متجوز؟».

- «أيوه..».

- «طيب.. ما هو انتي كمان كان لازم تقولي لي حاجة زي دي، قولي لي: مش باحب أخرج مع حد أكبر مني.. لكن، انتي اديتيني معاد، أنا ما ضغطتش عليكي..».

- «مش عارفة أقول لك إزاي.. كلمة «مش باحب» كلمة مش صح، مش بتعبر صح عن اللي أنا أقصده».

احتوت ذقنها براحة يدها، محددة أطرافها بالإبهام والسبابة، بدت له مختلفة.. أقرب الآن إلى «منى» أيام خطبتهما عندما اقتربا من مراحل اختيار الأثاث وفرش الشقة، أو من «حورية» بعد أن تأكد حملها، لكن «أسيل» قالت بلهجة تفكير عميق: «يمكن الكلمة المناسبة.. تقدر تقول كده، مش بارتاح في الخروج مع.. مع.. يعني انت فاهم بقى..».

«فاهم طبعًا..».. لكنها قاطعته ثانية.. لأنها خشيت أن تحزنه كلماتها، قدرت أن نصل جملتها الأخيرة اخترق قلبه، فعمدت لمحاولة يائسة لإخراجه من مغمده: «بص يا شريف، الموضوع أصله عامل زي ما يكون مثلًا أستاذي في الجامعة، اللي طول عمري باتعلم منه الكمان، وواخدة عليه من سنين طويلة كمان، في يوم من الأيام بيقول لي نخرج مع بعض نتمشى وكده.. فهمت يعني إيه: مش حاكون مرتاحة؟ يعني.. حاكون خايفة أقول كلمة عبيطة ولا أعمل تصرف غبي..».

مزيد من الجدية والتفهم على وجهه يرتسمان.. السماحة المرسومة تطل من عينيه وكأنه يبرز لها أنه غير مهتم.. ثم يقرر أن ذلك يكفي.. التمويه كاف جدًا لينتقل للهجوم الفعلي.. الغطاء الذي وفره لهجومه حتى الآن مقنع ومناسب: «انتي المهم فاهمة معنى اللي بتعمليه إيه؟ أنا مش مهم خالص على فكرة.. سيبيني أشرح لك قصدي يا «أسيل».. أنا بطبيعتي بحب الناس، ما بحبش إن

الحكاية تبقى عميل وشركة وخلاص، يعني فيها إيه لو عرفنا بعض بره الشغل؟».

- «فيها إني مش حابقى مرتاحة.. زي ما تكون حاجة مش طبيعية، وبعدين يعني انت بتعمل كده مع كل العملا بتوعك؟».

- «لأ طبعا.. فيه ناس بيكونوا أول وآخر علاقتي بيهم هي أول زيارة.. بس أنا شايفك بنت لطيفة، إنسان بيتعامل مع إنسان تاني ومرتاح له، مرتاح له في الكلام، في التفكير، بتتكلمي باحب أسمعك، باتكلم.. كلامي بيشدك لنفس الموضوعات اللي باتكلم عليها وبهتم بيها، مش خسارة إنك علشان مش بترتاحي للفكرة، من غير ما تجربيها حتى، إننا بالعافية كده ما نعرفش بعض؟.. عارفة انتي عملتي إيه؟».

قال سؤاله الأخير بمرارة أثارت فضولها، كانت لهجته شبه دامعة، أفزعتها.. اتسعت عيناها خوفًا وهي تتكئ نحوه للأمام وتربت على يده: «شريف، ما حصلشي حاجة ما تنفعلش.. أنا آسفة، أنا.. كده ولا كده.. كنت تعبانة وماكنتش عايزة أنزل.. بس..».

تهدج صوته وهو يقول في ألم: «انتي حسستيني أنا أد إيه كبرت.. أد إيه أنا انتهيت.. حسستيني أد إيه أنا لما أطلب من بنت إننا نتمشى على الكورنيش.. أبقى نيتي سيئة ووحش أد إيه..».

- «انت مش كده يا «شريف».. والله العظيم أنا آسفة بجد..».

تمالك أعصابه واحتد فجأة قائلًا: «عارفة انتي بقى إيه؟.. انتي جبانة..».

صمت وهو يفرك عينيه ويلتقط نفسًا عميقًا يستعين به على وقوفه المباغت من جلسته، كأنه يهم بالرحيل عنها، أضاف في حزم: «انتي خايفة تعملي أي حاجة مش طبيعية.. أي حاجة جديدة، إزاي واحدة في سنك تخاف؟ تخاف تتعرف، تخرج، تدخل.. وكل اللي في بالك إني حاعمل إيه؟ حاضحك عليكي؟ أشربك حاجة صفرا؟ ولا المسألة تتطور ونحب بعض؟ مش يمكن خفتي من كده؟ وأنا راجل متجوز والجو ده؟ وانا يعني علشان مهتم بيكي أبقى بحبك؟ ولا عاوز أحبك؟».

كست وجهها الجدية، وقالت في خفوت: «الموضوع ماوصلش لكده يا «شريف»، بس انت يعني شايف طلبك طبيعي؟ أنا استقبلتك هنا في الأتيليه، وانت عارف انه يعتبر بيتي، على أنك صديق وصاحبي. أنا كمان شايفاك لذيذ وبحب أتكلم معاك، بس حط نفسك مكاني، حاقول لنفسي إن «شريف» بارتاح معاه وزرته مرة وزارني، واتكلمنا في التليفون كتير، ودلوقتي حنخرج مع بعض.. ممكن الموضوع ينتهي بخروجة ولا اتنين ولا عشرة وأصحاب عادي، ويمكن برضه نحب بعض، يمكن أحبك أو تحبني زي انت ما بتقول.. طيب انت عاوزني أدخل العلاقة ببساطة، والاحتمالات دي كلها موجودة ومفكرش فيها ولا في عواقبها؟ يعني تصور مثلًا، نناقش المسألة كافتراض زي ما انت قلت: مش جايز نحب بعض؟.. نعمل إيه بقى ساعتها؟ انت تعرفني منين وأنا أعرف عنك إيه؟».

«وافرضي يا ستي.. ليه إنتو دايما كده؟ بتحسبوها كتير قوي، لكنكم بتنسوا في الحقيقة إنكم بتحسبوا حسبة غلط، إنتو بتفكروا

في حاجات مالهاش علاقة بالموضوع، وتطلعوا منها باستنتاج تاني خالص مالوش برضه دعوة بالموضوع، قولي لي انتي: لو مرتاحين مع بعض يبقى إيه المانع إننا نكمل؟ ولو كملنا، تفتكري حيكون الحب يعني بالعافية؟».

- «يعني انت مش بتعامل الحب على إنه ماتش شطرنج يا «شريف»؟ ما هي حياتك كلها شطرنج.. طيب اشمعنى الحب اللي عايزني آخده واحدة واحدة؟ ليه بتنكر عليًا إني أشوف، ممكن أكسب الماتش ده، ولا شكلي كده حأخسره وبلاش منه أحسن؟»

- «علشان أنا فهمت إن الحب مش شطرنج.. الحب مش ماتش ولا دور..».

- «أمال إيه؟ نقلة حلوة تعجبك؟ ولا خطة ولعبة تلعبها على خصمك، تاكل فيها قطعة غالية ولا اتنين؟ طيب وبعدين؟ إيه بعد كده؟».

- «في الحب ما فيش بعدين.. فيه دلوقتي.. ومتعة وعذاب اللحظة وبس..».

- «علشان انت شاطر، وعارف إنك حتغلبني..».

- «ومافيش غالب ولا مغلوب كمان..».

- «ده سهل يقوله واحد متعود يكسب، والهزيمة عنده بيعرف يستفيد منها، راجل بيشتغل مع حيتان السوق، ولافهم حوالين صباعه.. وبيكسب من كل حاجة وأي حاجة.. أنا مش قدك

يا «شريف»، وقبل ما أعمل حاجة لازم أكون فاهمة حاعمل إيه، وحيحصل إيه..».

- «إنتو كده.. ليه ما بتقبلوش المتاح أبدًا؟ ليه كل تفكيركم واصل لحد خط النهاية، ومابتقبلوش حلاوة البدايات والتمهيدات كشيء تعتزوا بيه، وتحبوه خطوة بخطوة؟ ليه دايمًا شرطكم: يا إما كل حاجة يا إما ولا حاجة؟ يانموت الملك ونكسب الدور، يا إما مش لاعبين من أساسه؟».

- «لأن لما المسألة بيبقى فيها حب، احنا الستات بنبقى بصراحة متخلفين.. ».

- «ده يخليكي تبقي مرتاحة لحد، وانتو مبسوطين مع بعض، ثم تقرري فجأة إنك تقطعي معاه، وتقولي لنفسك: وآخرتها إيه؟ وتحرقي كل اللي بينكم، وتولعي بجاز في العلاقة اللي إنتو الاتنين حابينها، علشان السؤال العبيط: وآخرتها إيه؟ ما يكون آخرتها زي ما يكون.. وبعدين، عايزة تعملي في نفسك كده، انتي حرة.. طيب وأنا؟».

- «ولما يكون آخرتها ده ممكن يئذيني أو يئذي مشاعري؟ مش دي كمان حاجة مهمة ولا كمان تيجي زي ما تيجي يا «شريف»؟ يعني انت تمام.. طيب وأنا.. أهو زي سؤالك بالضبط؟ مش الحب والكره في الآخر مشاعر بنحس بيها وبتأثر في حياتنا؟».

- «لأ.. الحب إنك تحبي من غير شروط، من غير وعود، من غير تعهدات، من غير سبب..».

- «حتى لو الحب ده مسدود في طريقه بزوجة وأولاد في حياة اللي ممكن أحبه، على فرض يعني إني حاحبه؟».

- «الحب اللي بتقولي عليه، لو إنك بتحبي بجد، حتحاربي علشان اللي بتحبيه.. زوجة وأولاد إيه؟ وأنا اللي قربني منك إيه؟ أنا مش باعيب فيهم، بس لو مافيش حاجة فيكي محتاجها ما كنتش قربت منك، ولا كنت تعبت نفسي النهارده وجيت لك برغم اللي عملتيه، ولو انتي حتحبيني.. لسه يعني.. ما دام حتمشيها كلام في المستقبل.. لو حتحبيني، المفروض ما تقوليش لنفسك: طيب وأنا أعمل إيه؟ ما هو متجوز ومخلص ليها؟ الحب اللي بجد حيكون أقوى منك، وحيخليكي تحسي وتعملي معجزات.. وأنا عارف إنك حاسة بيَّا وبحبي.. أنا شايف في عينيكي إنك بتحبيني..».

رمشت بعينيها في توتر لوهلة، قبل أن تتحاشى نظرته وتتابع في لهجة جادة «ماتتنقلشي من مناقشة اللي حيحصل لو بحبك لمناقشة أصل مشاعري، علشان أقبل تصورك انت عن الحب بالتبعية بلاش شغل التحريات الخاصة والأكشن بتاعك ده يا «شريف».. خلينا في افتراضنا اللي بنناقشه.. افرض إني حبيتك، ومراتك فضلت شريكتي فيك؟».

- «وافرضي انها حتفضل شريكتك فيَّا؟ وحبك انتي فين؟ بقدر ما بتحبيني حتغيريني، والحب اللي بجد بيغير.. وبينتصر. وبيكون ليه لون وطعم تاني ما حدش ممكن يشاركه فيه، حتى لو المشاركة موجودة فعلا قدام الناس، لأن اللي بين المحبين حاجة، واللي قدام الناس حاجة تانية..».

- «انت بس يا «شريف» اللي فاهم الحب؟ لا مراتك فاهماه، ولا أنا، ولا حد في الدنيا غيرك؟».

- «أمال الحب معناه إن مراتي، بعد عشرين سنة جواز، تبقى كل همها إنها تعرف الكوافير ده أحسن ولا التاني، والقَصَّة دي أشيك عليها، ولا تسيبه طويل؟».

هزت كتفيها محاولة إخفاء لذعة حنق في صوتها: «أكيد بتحبك وعايزة تبقى حلوة في عينيك».

واصل كأنه لا يريد لحبل أفكاره أن ينقطع: «.. وإنها عايزة تجيب عيل وهي داخلة على الأربعين، أو إنها تصحيني كل يوم الصبح علشان تقول لي ابنك عمل وسوى، وهي أصلًا السبب في كل ده؟ كل اللي باحبه تقول لي عليه غلط، أو تصدعني إنه ما بيعجبهاش؟ ولا الحب معناه إن الواحدة بعد الجواز تبطل تقول كلام حلو لجوزها، وتستناه هو اللي يتكلم وهو اللي يقول؟ الحب معناه إن تاريخ أول حمل هو تاريخ آخر مرة نتكلم فيها مع بعض ونكون على راحتنا، من غير ما نتحاسب على الكلمة، من غير ما خُلقِنا يضيق، من غير أفكار غلط وسوء فهم كأننا لسه نعرف بعض».

- «مش يمكن انت اللي مفهومك عن الحب غلط؟ مش يمكن الحب بتاعكم - بتاع الرجالة يعني - حب عايز بس الكلام الحلو والهمس والتسبيل؟».

- «مش غريبة إن الحب بتاعكم.. يعني على اعتبار إني ما فهمشي وماعرفش حاجة عن الحب.. الحب بتاعكم بيكون في الأول وفي مرحلة التعارف، حب مجاريه سالكة، صافي ورايق من غير سوء فهم،

من غير خناقات على قصدك إيه بالكلمة دي، وليه ما قلتش الجملة دي، وفي مرحلة متقدمة بقى، بعد الاتنين ما يتجوزوا ويشبعوا جواز، والمفروض يعني يكونوا فهموا بعض، بيبقى كل كلمة وكل سكتة لها ألف معنى وبتعمل مليون مشكلة؟ هو ده بقى الحب اللي بيحسبها.. ويوقف الدنيا على الحسبة؟ (لو مش ليَّا لوحدي يبقى مش لاعبة).. (لو بيحبني بس بيحب واحدة تانية يبقى أنسحب أنا برغم إني باحبه، وبرغم إني عارفة إنه بيحبني).. والأكليشيهات بقى اللي حفظتوها لبعض: (ماقبلشي تشاركني واحدة فيه)، (كرامتي ما تسمحليش)..».

- «الحب لازم يعني يبقى بالذل؟ بالإهانة والعذاب؟».

- «أيوه الحب مش موقف كرامة، بتحبي حد يعني حتسلميله نفسك، روحك، دماغك، وانتي مبسوطة، لأنك عايزاه يبقى جزء منك وأنتي جزء منه، حابة كده، مش مشروع بتبنيه.. حلم بتحبي تحلميه، وبتحبي تحلميه للآخر من غير ما تصحي نفسك منه بالعافية، كوباية عصير مشبرة في حر ملهلب، بتشربيها نقطة نقطة، مش بتوقفي شرب في النص وتقولي حاحوشهم لبعدين لحسن ما حدش ضامن ألاقي حاجة ساقعة في الجو دا تاني.. ولا خلاص كفاية كده علشان عيب.. الحب يا هانم أكيد مش اللي انتي بتعمليه، ما تعلمتيش حاجة من شغلك اللي بتعمليه كل يوم ده؟».

قالها وأشار للحجرة من حولهما في يأس، حتى اتسعت عيناها في غير فهم فسألته: «ماله شغلي؟ إيه علاقته بالموضوع؟».

تابع في غيظ: «بترسمي من الألوان لوحات، وبتلوني خيالك على ورق.. عايشة بخيالك، بتحلمي وبتعيشي جوا صورك، جوا لونك،

ولحنك، والبيانو والكمانجة، بتطيري مع الفكرة دي ودي، وبتعرفي قد إيه جمال اللوحة اللي ممكن تاخدك معاها في كلام وأخد وعطا بالساعات، تكلميها وترد عليكي، واللحن يمسكك يهزك من اليمين للشمال ويطلعك سابع سما وينزل بيكي سابع أرض.. وانتي بتحلمي ومغمضة عينيكي، وكل الجنان ده، لكن لما تيجي تفكري في الحب.. تعملي عاقلة وبتدوري على المنطق..».

قالت وهي تضيق عينيها في تركيز: «انت كده يا «شريف» بتثبت لي أكتر إننا ماكناش حنخرج مع بعض علشان أصحاب ونتكلم ونشم هوا.. أنا افترضت افتراض وناقشتك فيه.. باقول لك تصور يعني.. فرضًا وكده.. بس شايفاك بصراحة متحمس وبتتخانق، مش منظر حد بيناقش احتمالات أبدًا.. بصراحة شكلك بتتكلم جد..».

النقلة المباغتة في وسط الرقعة كان حريًا بها أن تفقده توازنه.. تلك النقلة التي تأتيك ردًا على توغل وزيرك، وربما أيضًا قطعة أو اثنتان من المدفعية الثقيلة في خطوط الخصم.. ثم فجأة، يباغتك بضربة خلف خطوطك.. تقلب بها موازينك.. فتسارع بالدفاع، وتسحب كل قطعك المهاجمة بيدك، وتجهض حلمك بيدك خشية الخطر الذي يداهمك.. لكنه كان مستعدًا بتحصين قوي..

قال في ثقة: «مطلوب مني أقول لك إيه؟ أقول لك أنا باتناقش بافتراضية؟ فتطلعي من ردي ده باستنتاج، إن أنا مش جد، وإنك لازم تصرفي نظر عن معرفتنا، وإنك معاكي حق تطنشيني؟ ولا أقول لك أيوه، ماكانشي قصدي خروج وبس، وكان في دماغي حاجة تانية،

وبكده تمسكيها عليًا، وتقولي لي انك مش مطمنالي.. واللي يضحك على حد في أول العلاقة أكيد ناوي يخدعه بعدين؟».

ابتسمت ورفعت حاجبًا في دهشة، وهي تكتم ابتسامة من زاوية فمها تسللت في إصرار لملامح وجهها الجادة رغمًا عنها.. ثم سرحت ببصرها في وجهه قائلة في مداعبة: «فظيع انت يا «شريف».. كفاية لعب الشطرنج اللي حيجننك ده، انت بتحسب كل الاحتمالات طول الوقت، لدرجة إن الحياة اتحولت بالنسبة لك لاحتمالات.. ».

لكنه لم يتبسم لدعابتها.. ظلت نظراته الصارمة مركزة على وجهها.. كأنه ينتظر ردها.. كأنه شرح قضيته فلم يعد يملك المزيد ليضيفه.. ارتبكت لنظراته، وخفضت بصرها ثم قالت أخيرًا وهي تحكم ياقة الروب حول رقبتها في مشهد زادها تحفظًا: «فيه حاجات بتفسد عليك حلمك.. يا «شريف» انت مش عايش في الدنيا دي معانا؟ أنا مش حاقول لك أنا شفت كتير، ولا إني عانيت من إني بحلم، وخيالية، ورومانسية أكتر من اللزوم، مش حاقول لك أنا اتقرصت قد إيه ولا حصل لي إيه، لأنك حتقول لي إنك شفت زيي وأكتر، وحتطلب مني أتحمل، لكن حاقول لك بس إني فيه ظروف الواحدة بتلاقيها بتقاومها، واللي انت بتسميه عقلانية ومش عاجبك ده يمكن يكون طريقة القلب اللي بيحب بيعملها علشان يساعد نفسه إنه يكون قراره عقلاني، ومايتألمشي من النتايج بعدين، النتايج اللي انت مش بتفكر فيها، والعذاب اللي انت شايفه حتة من اللذة والمتعة.. يعني مثلًا، احنا عرفنا بعض في شغل.. ما سألتش نفسك، من وجهة نظري أنا يعني، لما كل ده يفشل، لما الحب يبوظ، ولا انت ما تصبرش على

الحب زيي، ولا الظروف والعقلانية اللي مش عاجباك دي تهزمك ولا تهزمني.. ومش بس أخسرك، لأ.. كمان أخسر حتى الشغل اللي بيني وبينك، وأدخل في مشكلة مع أصحاب القضية، لأنك زعلت مني والدنيا بقت بيننا مش لذيذة، أعمل إيه؟».

عند تلك الجملة احتقن وجهه.. عض على نواجذه في صوت مسموع.. هب واقفًا بغتة كالملسوع قائلًا في غيظ وبصوت يقطر دهشة: «كده كل حاجة بانت.. أنا مخنوق ومش ناقص.. كل اللي همك التحقيق.. يعني تقولي كلمتين حلوين وخلاص، علشان المصلحة تنقضي.. مش كده؟ انتي جبانة.. أجبن من إنك تخاطري حتى ومشاعرك صاحية، ومقفلة على نفسك وقلبك، وفاكره إن ده الاحترام ولا مش عارف إيه.. وأنا عمومًا يعني مش عايز أشوفك تاني..».

هم بالانطلاق لولا أن جذبته من ذراعه، أمسكت به من كتفيه ليكون في مواجهتها.. شعرها الثائر على مفرقها.. عيناها المحمرتان.. وجهها الحزين المصدوم.

وكلمتان تحملان ضوع عطر فمها كالورود فوق حروفهما: «خليك.. ما تمشيش».

- «عايزة مني إيه؟».

قالت بنظرة تذوب خجلًا إثر ثورته، وعينين محمرتين كأنهما من أثر بكاء مكتوم، همست وهي تلصق جبهتها بجبهته، بصوت كأنه قلبها المختلج: «عايزاك توصلني الحفلة..».

(16)

توقف بسيارته أمام تلك الفيللا الفاخرة.

ترجل منها وهو يبتسم لنفسه.. فعلى الجانب الآخر من السيارة، فتح الباب لها بانحناءة تمثيلية، فترجلت «أسيل».. علبة الكمان المتوسطة في يدها.. فستان السهرة البراق الأسود.. كتفاها البضتان، وابتسامة اللوم الهادئة وهي تنظر إلى معصمها كأنها تتفقد الوقت، بالرغم من أنها لا تحمل الساعة.

«دي مواعيد دي يا كابتن؟، قال عامل لي متهور وعايش الدور قوي، بطيء أوي في السواقة يا مان، الحفلة حتبتدي من غيرنا..».

- «كدابة جدًّا على فكرة.. هو فيه برضه حفلة من غيري؟».

- «كداب جدًّا برضه، طبعًا فيه حفلة من غيرك، هي مش حتبقى Cute قوي، بس حيبقى فيه حفلة عادي، قصدك من غيري أنا اللي مافيش حفلة، ياللا بقى أنا استنيت كتير..».

- «لما نشوف، انتي محسساني إني حاسمع «بيتهوفن»..».

- ««بيتهوفن» مين يا بني؟ انسى اللي سمعته في حياتك قبل كده واقعد على جنب كده وجهز إيديك، حتضطر تصقف كتير..».

قالتها وتأبطت ذراعه في بساطة، ليدلفا معًا عبر المدخل الحجري للفيلا، مخلفين وراءهما حديقتها الفسيحة، التي التمعت أضواء مصابيحها المرفوعة على أسنة عواميد معدنية قصيرة، لتترك لمعة في عيني «أسيل»، ورعشة خفيفة في ظهر «شريف»، عززتها ملامسة ذراعه لذراعها فجأة. حركة أخرى لم يعد نفسه لها.. اختلس نظرة لوجهها يبحث عن شيء ما، وأنفه يتشمم عطرها البسيط.. ساحرًا.. بدا له التعبير المناسب لوصف هذا الفوح الهادئ، وجديلة الشعر الراقصة على مفرقها، وتلك الوجنة التي قابلته باحمرار خفيف.. سأل نفسه: هل أحست بارتباكه؟ وهل ارتبكت لنظرته المأخوذة، فتتشاغل عنه بخطاها على السلم؟

تعثرت خطوته، لكنه انتصب معتدلًا، فهمست في خوف: «حاسب يا شريف..».. ركز عينيه على وجهها وتوقف لوهلة، حنان صوتها سَمَّره في مكانه وهو يرى السراب، فلا يدري أيشك في حواسه أم يمتدح دقتها.. لكنها قالت ببساطة وهي تسحبه في اتجاه مواصلة الصعود: «خللي بالك.. ركز في السلم بس..» ذابت رعشته في ابتسامتها التي كساها العبث للحظة، وغلفها اللوم وهي تخفض ذقنها في خبث وتلكزه بمرفق ناعم في جنبه، فيمثل التأوه وهو يضحك.. «تستاهل..».. قالتها بصوت حرسته عينان فاتنتان، لاهيتان كطفل يلهو بلعبته الأثيرة، داعيتان لشيء غامض.. فاجتاحت قلبه الراحة.. وتبعها فرحًا بها، وهي تتأبط يده بيد مرمرية أسيل، لتملي عليه أن يسرع.. فهي النجمة تلك الليلة، وما ينبغي لها أن تتأخر بأكثر من ذلك.

«رمزي الطويل حيودي الفلوس فين يعني؟ ما هو لازم يبقى عنده فيللا زي دي طبعًا..».

قالها «شريف» في مزيج من الحسد والإعجاب، مستندًا في وقفته إلى عمود من الرخام المصقول في جانب القاعة الفسيح، فسارعت «أسيل» إلى نهره باتساع عينيها النجلاوتين، ووضعت راحة يدها على فمه: «وطي صوتك.. الناس اللي هنا كلهم باصين علينا..».

أجال بصره مستعرضًا البذلات الأنيقة للرجال ممشوقي القوام، الذين يمسكون بكئوسهم في وقار مقربين رءوسهم من بعضهم ليتبادلوا أحاديث بدت ودودة، ومتأملًا الحلل اللامعة البراقة للنساء الهيفاوات، المتغنجات في وقفتهن، وهمساتهن وابتساماتهن اللاتي تتوزع في كياسة يمنة ويسرة، بينما يجلس البعض على مقاعد مذهبة في أطراف القاعة، وعلى متكئات مصفوفة على جوانبها ليخلو قلب المكان لوقوف الحشد الحضور، وبينهم تتحرك أسراب منتظمة متباعدة متناغمة من النادلين في حللهم البيضاء وأنطقتهم الحمراء اللامعة، ليميلوا لثوانٍ على كل جمع وركن بما حملوه من مشروبات ولقيمات من الطعام المرصوص بأناقة ملحوظة وألوان زاهية على صوانٍ فضية صغيرة، حتى إذا فرغ المتحلقون من حوله من التقاط حمولتهم، تحركت أسرابهم بعدها بحذر نحو جمع جديد.. قال لها في بساطة وهو لا يستطيع تحويل نظره عن القاعة في شرود: «أكيد بيبصوا على أجمل واحدة في القاعة.. انتي يعني، أو على الغريب اللي واقف جنبها.. كويس إنك قولتيلي آجي فورمال».

لفت نظر «شريف» وجود «رمزي الطويل» نفسه.. في جمع يقف بوسط القاعة، منتشيًا بحلة شديدة الأناقة، لا يمكن أن تخطئ قامته الرشيقة وصلعته المميزة وعويناته الرقيقة الأطر، ونشاطه في الترحيب بضيوفه الذين تحلقوا حوله يضحكون لتعليقاته، ويهشون في وجهه بشكل قرأه «شريف» مبالغًا فيه، في حين ركز نظراته على «رمزي»، فلم تفته تلك النظرات المتلصصة التي يلقيها نحو بعض الفاتنات في الأركان المختلفة للقاعة، مستغلًا انهماك صحبته من الرجال في ضحك جماعي صاخب، إثر تعليق أفلت منه للتو، ومميلًا برأسه بشكل يبدو عفويًا لالتقاط تلك النظرة، أو رد غمزة عين جريئة بمثلها.. قال «شريف» لنفسه إن هذا هو المنتظر.. هذا العجوز المتصابي الذي لا يتورع عن إلقاء سهامه خلف كل صيد.. لا عجب إذن أن هناك من يود إثبات خيانته لزوجته.

لم تقل دهشة «شريف» عندما جال ببصره في القاعة ليتأمل ما بدا أنه الحشد الأكبر من السيدات المتحلقات حول من بدت له صاحبة الحفل.. فنظر إلى الوجه المتخفي بغضونه رغم ملاحته الظاهرة، والذراعين المعروقتين المتهدلتين من منبت الإبطين، وأكوام المجوهرات المتلألئة في سخاء يشف عن رغبة في لفت الأنظار، وإحساس بذبول الاهتمام.. ومال على «أسيل» قائلًا في اهتمام: «اللي واقفة بفستان أخضر دي وحواليها القرشانات دي بقى تبقى مراته.. «عزة المقدم»؟ صح؟».

ظهر على وجهها الارتباك ورمشت بعينيها مرة قبل أن تبتلع ريقها في بطء وقالت: «أظن كده!!».

ابتسم في خبث، وقد أدرك أنه أصاب غايته.. إذن فهي بالفعل - عزة المقدم - صاحبة التحقيق المطلوب، العميلة الخفية التي تمثلها «أسيل».. لكنه قال في بساطة وكأنه شارد بينما يراقب «أسيل» بطرف عينه: «ماهي دي الستات اللي لازم تتخان طبعًا، بصي هي عاملة إزاي وهو عامل إزاي، الراجل سبعين سنة لكن ما تديلوش أكتر من 40.. وفلوس ومركز وحاجة مفتخرة، بصي والنبي الشياكة؟ تحسي إنه بيلعب دور موديل في فيلم!!».

قالت في لهجة سريعة كأنها تحاول تغيير دفة الحديث بدون أن تشعره بذلك: «انت حتفضل تتكلم عليهم لحد ما يسمعونا ونتطرد».

- «هي دي صح؟».

- «يعني إيه.. مش فاهمة..».

قالتها وامتقع وجهها وهي تحاول السيطرة على قلقها.. لكنه ابتسم وقال: «هي دي عزة المقدم؟».

صمتت وهي تهز رأسها لأعلى وأسفل وتتحاشى نظرته فقال في هدوء هامس: «ماتخافيش.. احنا قبل ما نكون أصحاب، انتي عميلة، وسر العميل أو اللي وراه في بير.. أنا بس كنت عايز أتأكد من إني فهمت صح.. هي دي العميلة، بس ده شيء متوقع.. حتصدقيني لو قلت لك إني كنت فاهم كده من الأول؟».

أطالت النظر إليه وهي تفكر بتوتر زاد، ثم بدا وكأنها حسمت أمرها لتهمس في رجاء: «انت فاهم طبعًا إن ده مش هزار! عارف

لو أي حد عرف الموضوع ده، الست دي ممكن تعمل فيَّا إيه؟ ولو جوزها عرف ممكن يحصل إيه؟».

قال بثقة الظافر: «عيب يا بنتي!!».

ترددت وهي تنظر إليه.. وهمت بقول شيء ما، إلا أن أحد الخدم قاطعهما وهو يبتسم بود مصطنع ابتسامة واسعة ضاقت لها عيناه قائلًا وهو يتخذ مكانه بينهما: «آنسة «أسيل»؟ الهانم مستنياكي من بدري..اتفضلي معايا».

قادها معه يمشيان بهدوء مبتعدين، بعد أن ألقت نظرة أخيرة مستعطفة على «شريف» الذي أشار إليها بإبهامين متشنجين لأعلى من ذراعين ممدودتين للأمام، مشجعًا. لم تكد تمشي معه حتى جاءتها «عزة المقدم» تسعى في مشية عصبية، تصحبها عجوز متصابية مثلها، وهي تشيح نحوها بيدين معروقتين بانفعال، لتصيح بكلمات مبعثرة.. رأى «شريف» من مكانه «أسيل» ووجهها يحمر انفعالًا، وترد بكلمات قليلة تواجه بها ثورة «عزة» في يأس، بينما استرق السمع بخلفية آذانه المرهقتين من وقع الموسيقى المتسلل إليهما عبر السماعتين، وزحام ضجيج الحضور.. فلم يلتقط سوى بعض الكلمات المتناثرة من بين شفتي «عزة» عندما يعلو صوتها في بعض المواضع.

«.. فاكرة نفسك مين؟»..... «.. أنا قلت ولا لأ؟»..... «..مش مقصودة؟».... «ومين ده؟».

قالت تلك الكلمات وشفعتها بنظرة نارية نحوه، حتى أحس بأنه ربما أخطأ في الحضور دون دعوة حقيقية، واكتفى بأن يكون رفيقًا

لـ «أسيل».. بينما ظلت الأخيرة تحرك يديها في ضعف وهي تخفض رأسها في حياء وقلة حيلة.

عادت لتوبخها.. مازال يلتقط كلمات مبعثرة تضيق لها عيناه محاولًا استشفاف الدرب الذي تؤدي إليه وهو لا يرفع عينيه عنهما: «عزف.... حصلت تاني.... امتى؟... ما حصلش... الناس كلها عارفة... ما تقوليش لأ....».

تنبه «شريف» على تلك الكلمات وبدا له أنه يفهم.. خاصة وقد حركت «عزة المقدم» رأسها نحوه لترمقه شذرًا بنظرة أخرى.. قبل أن تبرد ثورتها وتشيح بوجهها بعيدًا عن «أسيل» مشيرة للخادم الذي وقف خطوتين بعيدًا، أن يبتعد بها.. فسارا معًا، هو برأس مرفوع وخطوة آلية، وهي بكتفين متهدلتين ووجه يتعثر في النظرات الفضولية الشامتة الساخرة، يتأملها الحضور بنظرات تهدي فستانها البسيط وتبرجها الخفيف ازدراء يليق بمتسول هبط على وليمة يرمقها بعينين جائعتين.

لكن «أسيل» تلقفت موقعها بجانب البيانو الخشبي الأنيق في بساطة.. ولم يكد العازف الأنيق، ضئيل الجثة طويل الفرع، أشيب الفودين، يجلس على المقعد الجلدي الصغير الذي بدا لـ «شريف» وكأنه معد خصيصًا على مقاسه.. حتى انتصبت هي بجانبه بظهرها في شموخ، أمالت ذقنها الصغير على مسند الكمان وهي تلوي ذراعها لتحمله بوضع الإمساك الشهير بالعازفين، وكأنها تريح رأسها الجميل عليه، فتتوسده كأنه راحتها من العذاب، تغمض عينيها في رقة وكأنها تستحضر اللحن في عقلها وتسبح معه قبل أن تعزفه،

رفعت أنفها في اعتداد.. أمسكت بالقوس ولمست به طرف الأوتار كمن يربت على طفل صغير في حنان، ونظرت حولها في ثقة.. ابتسم «شريف» للنظرة التي تجلت في عينيها، نظرة تقول: «ستسمعونني الآن.. يحدث الآن أمر جلل.. فأسكتوا ضوضاءكم وأخرسوا حناجركم واعقدوا ألسنتكم..».. بدأت الأصوات تخف تلقائيًا، ومرافق الحضور تلكز جيرانها إثر تلك النظرة الآسرة.. فينتقل الصمت من ركن في القاعة إلى الذي يليه كأمواج البحر المتناغم.. أرخت ذقنها في رضا وهي تبتسم لنفسها مغمضة العينين.. «أسيل» التي تنثني لتقارب بوجهها الفراغ بينها وبين عازف البيانو في تشنج متناغم، لتعود فتضرب مؤخرة رأسها الهواء مع تلك النغمة والتي تليها، تنسال الألحان في هواء القاعة كأنها الأجراس أو الزغاريد.

وكأن الحضور قد حبسوا أنفاسهم، وكأن «شريف» انتقل إلى عالم آخر، فضاء فسيح مشمس، ألوان من الخيال البهيج، وعطور من أجمل ما اشتم أنفه، لم يفهم ماذا ألمَّ به.. صار مبهوتًا كالطفل الذي يسمع قصص أمه قبل النوم، أو كمن يستمع إلى أفكاره التي ترددت بين جنبات ضلوعه تتشكل في ألحان، وكأنه افتقدها، حلم بها يومًا، اشتاق لوجودها حتى تمنى أن يراها سابحة في الهواء أمام عينيه، كان سعيدًا بغير تفسير، و«أسيل» تواصل السحر، تستمرئ الإعجاب في عينيه دون أن تراه، وتستملح الانبهار في عيون الحاضرين فتزيدهم كأسًا من نشوة، ورشفة من جمال، وشعاعًا من ألوان، وتسقيهم من حلاوة عطرها المسموع، ولونها المعزوف.. التماع الأضواء على حبات الكريستال التي تزين طرف ثوبها مع حركتها زادها سحرًا

فتعلقت بها الأبصار المشدوهة، أما هي فعيناها مغمضتان، وابتسامتها الطفولية تبرق على ثغرها الساحر، وهيامها وميلها برأسها للوراء مع الألحان وكانها تترك نفسها لها لتهدهدها، فيزيدها اندماجًا، فتسبح معها بين حدائق عازفة، وجنات وارفة، حتى بدت كالملاك الذي ضل طريقه إلى القاعة فاشترطوا عليه أن يعزف حتى يطلق البشر والشياطين سراحها، لتعود إلى عالمها المزدان بالعذوبة، والمتوسد بالعشق والمتمخمل بالحب.. و«شريف» لا يجد لعينيه الدامعتين سوى يد تمسح دموعهما في سعادة.. استمر عزفها لقطعة.. ثم أخرى، وثالثة لم تزد الحاضرين سوى إعجابٍ ودهشة.

أنهت عزفها المهيب.. التهبت أكف الحاضرين بتصفيق مدوٍّ دون انقطاع.. قامت من مكانها لتواجه الأكف الملتهبة بلا انقطاع وعيناها تحملان دهشة طفل غاب بوعيه عن الموجودات طول الليل، وخجل أنثى بتول، كان «شريف» أول من اندفع ناحيتها.. اتسعت عيناها في فرحة ناءت قسماتها بكتمانها.. أشرقت مغالبة الابتسام، تناول يدها التي غلبتها البرودة، فضغطها في يده الدافئة بحنان، وأحس بقلبه ينبض في ضلوعه.. وهي تبتسم في خفر لعينيه اللتين اخترقتا وجهها الوضاء في انبهار.. جذبها ناحيته ومال ليكونا في مواجهة القاعة التي ضجت جنباتها بالتصفيق.. وضغط يدها لتتبع حركته، فانحنت لتحية الحضور عندما انحنى هو.. وكأنهما يتلقيان التحية والإعجاب معًا.. نظرت إليه جانبًا وهما منحنيان أمامًا.. وابتسمت قائلة في خفر لائم في دلال: «انت بتعمل إيه؟».

نظر إليها في حزم عابث وهو يميل برأسه المائل لأسفل في وضع التحية، ليقول لها: «وانتي مالك؟ انتي تسمعي الكلام وبس.. سيبيهم يصقفوا وماتطلعيش على طول لفوق.. خلينا تحت شوية..».

زامت بفمها الصغير في اعتراض تمثيلي.. ثم فردت ظهرها لأعلى جاذبة يده فانتصب معها..

هبطت فورة التصفيق رويدًا رويدًا، انسحبا حتى انشغل الحضور بالحديث لبعضهم مرة أخرى.. ارتجفت يدها في يده فنظر فوجد «عزة المقدم» تندفع ناحيتهما مرة أخرى بصحبة صديقتها.. نظر لـ «أسيل» وقال في ثقة: «سيبيلي الست دي..» قالت له في قلق: «علشان خاطري ما لكش دعوة..».

- «أنا عارف باعمل إيه..».

كانت «عزة» قد صارت على بعد خطوة منهما.. فابتسم «شريف» لها ومد يده إليها قائلًا في ثقة ارتجفت لها «أسيل»: ««عزة هانم»، مساء الخير.. حفلة جميلة جدا وحضرتك ما شاء الله منورة وزي القمر..».

لم تصافح يده الممدودة، لكنها تفحصته في تعالٍ من أعلى رأسه لأسفل قدميه في بطء، ثم قالت في عجرفة مشوبة بترحيب بارد: «أهلًا..».

- «علي هاشم».

- «افندم؟».

- «اسمي.. «علي هاشم».. مدير أعمال الآنسة «أسيل».. وأنا اللي باخلص لها كل الأمور الورقية والتعاقدات».

قالها وضغط على كلمة «الورقية» ليعطي الانطباع الذي أراده بأنه فهم كل شيء عن أمر التحقيق الخاص بزوجها.. لكنها نقلت بصرها بينه وبين وجه «أسيل» المحتقن وقالت في استعلاء وعجب: «مدير أعمالها؟ أمال بتقولي ليه إنه زميلك في الأتيليه؟».

- ««أسيل» هانم مش بتتكبر على مخاليق ربنا يافندم.. ده من ذوقها بس.. وإحنا يسعدنا دايمًا نلبي دعوتك الكريمة.. اعذريني إني جيت من غير دعوة.. بس طبيعة عملي بتحتم عليًا إني أكون معاها في أي شغل..».

- «طيب ولما انت مدير أعمالها.. إزاي تسمح بإن ده يحصل؟».

- «خير يافندم.. إيه اللي حصل.. أنا شايف إن الحفلة عدت زي الفل.. والمزيكا كانت مبهرة كالعادة..».

- «ده لولا إني اتدخلت.. لو كان «رمزي» بيه خد باله، كانت حتبقى مشكلة كبيرة..».

- «اطمني يا هانم.. احنا عارفين بنعمل إيه..».

- «عارفين إيه بس؟ انت عارف إن الليلة كانت حتبوظ وكان حيبقا من تحت راسكو؟».

- «طيب بس لو حضرتك تفهميني إيه المشكلة؟».

- «المشكلة إن الهانم بتتصرف من دماغها، وإن اللي اتفقنا عليه ما حصلش، واللي قلنا عليه ممنوع، واللي حذرنا منه ألف مرة..

عادي، كأني باكلم نفسي.. وماتأخذنيش.. كمان وجود حضرتك المفاجيء في الحفل، يعني انت عارف إنها مناسبة على الضيق والضيوف فيها مختارين بعناية، وأنا بصفتي مضيفة الحفل أي حاجة تحصل أو أي شيء مش محسوب حسابه بييجي في وشي.. البروجرام بتاع الحفلة يبدأ الساعة ستة، الهانم وصلت أربعين دقيقة متأخر.. هو مفيش احترام للمواعيد خالص؟.. ما هي لو بتحترم اللي اتفقت معاها، ما كانتش تعمل كده!!».

- «احنا بنعتذر يا هانم.. (شفع كلماته بنظرة حاول جعلها لائمة قاسية نحو أسيل، وهو يواصل كلامه لـ«عزة المقدم»).. أكيد المسألة مش حتتكرر تاني، حضرتك بس عارفة طبعًا الفنانين، الفنون جنون، وكل فنان بيبقى عنده حتة لاسعة كده..».

- «لاسعة؟».

- «يعني الخلاصة، اعتبري وجودي الليلة دي كأنه لم يحدث، واعتبري برضه كأني ما جيتشي من أساسه، أنا أحب أأكد لحضرتك إن كل شيء حيتم بالشكل اللي حضرتك عايزاه، وإن أي تأخير ممكن يتعوض.. وأحب أعيد على حضرتك التأكيد إني كمدير لأعمالها ملتزم قصاد حضرتك بأن أي شيء ممكن يكون سبب للمشاكل مش حيكون ليه وجود.. وده وعد مني..».

- «بعد الحفلة ما خلصت؟».

- «ما هو أكيد يافندم، ده مش آخر تعامل.. وكل حاجة في المستقبل حتتم زي ما حضرتك عايزه، وأحسن».

تبادلا نظرات صامتة.. هو يؤكد لها بغير كلمات أنه ملتزم بإنهاء التحقيق الذي طلبته من «أسيل»، ويشفع نظراته بعينين باسمتين في ثقة من يعيد توكيد وعوده التي نطق بها من ضمان للسرية، وهي تختلس النظرات الجانبية إلى «رمزي» الذي كان لم يزل يحدق في الشابة التي أمامه في ولهٍ وهو يتمتم لها ببضع كلمات مجاملة، وهي تنثني للخلف في رقة تغالب ضحكها لتعليقاته الهامسة.. زفرت «عزة» في صمت وهي تقول في لهجة مستسلمة بدت وكأنها أدهشت صديقتها و«أسيل»: «أوكي.. المرة دي مشيت كويس، أنا مش عارفة ليه مصدقاك، ومش فاهمة إيه اللي في كلامك خلاني أسكت وغضبي يقل، لكن عمومًا، ميرسي يا أستاذ.. أستاذ..».

ابتسمت في رقة، كضبع جائع أشعث يتأمل فريسته التي اتضح للتو أنها الأسد ذاته.. أدرك «شريف» أن هذا هو تأثير إدراكها أنه على علم بكل شيء.. وأنها قررت أن تضمه برقتها ومعسول حديثها لدائرة التكتم التي لا بد أنها أدركت أنها اتسعت عن «أسيل». بادلها ابتسامة واثقة كمن يواجه رد الفعل ذاته كل يوم: ««علي» يا هانم.. «علي هاشم»».. قالها وقد تدخلت «أسيل» لتجذبه من يده كمن تريد أن تغتنم لحظة الهدوء لتهرب قبل أن تنقلب عليها «عزة» مرة أخرى.. تمتمت بكلمات معتذرة.. قبل أن ينسحبا في هدوء لم يطغ عليه سوى أصوات الضحك المجلجل من ركن القاعة لرفاق «رمزي»، بينما «شريف» يواصل تأمل «عزة» وهي ترمق زوجها بنظرة جانبية في حنق.

(17)

قلبه الذي امتلأ بالسعادة لم يحس بالبرودة التي أحاطت بهما وقدماهما تسوقانهما إلى شاطئ النيل القريب.. كانت سعادته بها لا يكاد يتحملها صدره، فتفيض ابتسامته لتقابلها ابتسامة تزين وجهها الذي احمرت وجنتاه من فرط الانفعال والقلق.. كانت سعيدة بدفاعه عنها، قلقة من الموقف برمته، لكنها ظلت تمسك بيده كطفل يخشى أن يتوه من والده الذي وجده بعد غياب.. جلسا على حافة حجرية على الكورنيش تضيء بنور عمود يزين قمته مصباح قديم، يكاد يلفظ أنفاسه من فعل الزمن، وبأنفاس مبهورة انفكت عقدة لسانه وهو يهمس لها بولهٍ: «انتي كنتي رائعة، مش بس العزف، انتي حسستيني إني في دنيا تانية..».

رمشت بعينيها في توتر وهي تطيل النظر إليه قائلة في خجل: «انت جريء جدا على فكرة..أنا قلبي كان حيقف لما كنت بتتكلم مع عزة..».

- «كنت خايفة أعرف إنها هي اللي باعتاكي؟ ولا إنها تفضح الدنيا؟».

احمر وجهها في توتر، فعرف أنه أصاب هدفه.. لكنها استجمعت هدوءها بسرعة وقالت:

- «من كل حاجة.. أنا فهمت انك عارف.. من كلامك واحنا داخلين.. بس هي ست مش سهلة، وقالت لي شوية كلام، هي عرفتك على طول بالمناسبة، بس قعدت تزعق لي في الأول علشان ازاي أجيبك معايا علشان يمكن «رمزي» يربط بين وجودك وأي عيون تكون بتفتش وراه، وبعدين لامتني على التأخير وإني عزفت ألحان ما تفقناش عليها كمان، انت أكيد أخدت بالك..».

بأوداج منتفخة قال: «طبعًا، أنا فاهم كل حاجة.. هي ست أعصابها قوية في الحقيقة وماحسستنيش بكده.. بس ما تقلقيش.. النوع ده أنا عارف أتعامل معاه إزاي.. وسرك معايا في أمان..».

بدا عليها الضيق للحظة، وترددت لثوانٍ قبل أن يستحثها بنظرة مشجعة على الحديث لتقول: «إيه حكاية انك بتقول لها انتي زي القمر..؟ دي over قوي..».

ابتسم كالمأخوذ وهو يقول في تلقائية أدهشته هو نفسه: «هو انتي مصدقة إن فيه قمر غيرك؟».

احمر وجهها ليبعث الحرارة في عروقه فخرًا لأنه أثر بها، وقالت في ضيق فشلت في تمثيله: «لأ بجد.. انت عينك زايغة ولا إيه؟ مش وأنا واقفة طيب!!».

- «عيني زايغة طبعًا، وإلا ما كنتش أبقى مش على بعضي كده وأنا معاكي.. أكيد انتي عارفة إن أنا متجوز..».

قالت في تساؤل حقيقي: «وسعيد بجد بقى، ولا متضايق في جوازتك؟».

- «ولا سعيد ولا متضايق، تقدري تقولي كده مش عارف أحس بإيه بالظبط. مراتي كويسة، وانا مش وحش برضه، بس مش هي دي الحياة المثالية اللي عايزها..».

- «يعني بتحبها ولا لأ؟».

- «ماينفعشي إجابة تالتة؟».

- «ينفع.. بس انت اللي تقولها..».

- «لا سعيد ولا متضايق، أنا بحبك وخلاص..».

بدا عليها أنها لم تفاجأ من إجابته برغم الحمرة الخفيفة التي اكتسحت قسماتها في ثوان، بعكسه هو، فقد كان لخروج الكلمة منه أثر عليه، فشرد غير مصدق أنه قالها.. شعر بخدر في أصابعه، وتسارع خفيف في خفقان قلبه.. لكنها نظرت إليه في غضب لم يستطع تمييز ما إذا كان حقيقيًا أو أملته ضرورة اللحظة، لتبدو بمظهر محترم، وقالت في بطء: «يعني إيه بتحبني؟ انت تعرفني منين؟ أنا وأنت اتنين عرفنا بعض في ظروف خاصة.. شغل أو ظروف أو ضرورة، تعرف أنا بحب إيه؟ بكره إيه؟ وهي الاسطوانة دي إنتو مش حافظين غيرها؟».

- «احنا مين؟».

- «الرجالة! متجوز بس مراتي مش حاسة بيًا، ومش فاهماني ومش عارفة إيه كمان.. وأنا بقى، أنا اللي تالت ولا رابع مرة أشوفك، أبقى يعني المفروض حاسة بيك وفاهماك وممكن تقضي عمرك كله معايا.. صح؟».

انزعج لحديثها.. فأطرق برأسه كأنه يزنه ويقيس رده عليها قبل أن يقوله.. تردد قبل أن يتكلم، وخشي ثورتها.. أحست به فقالت له ما معناه أن يواصل حديثه.. فقال في شرود: «أنا بحبك..ومش عارف ليه حاسس إني كنت بحبك من زمان، زي ما المزيكا اللي عزفتيها ما حسستني إنها بتقول اللي عايز أقوله من زمان..».

- «مش يمكن انت بتحب البنات الصغيرين؟ مش يمكن بتحب مراتك في صورتي، لما كانت صغيرة ولسه ما تشغلتش عنك؟ أو بتحب تعيش حبك ليها معايا؟ مش شايف إن ده معقول أكتر.. من إنك تكون بتحبني أنا؟».

- «أسيل».. أنا بكلمك وأنا مش بكذب ف ولا كلمة.. لكن مع ذلك حاسس إني في ورطة، بحبك بس مش عارف أعمل إيه، طبعًا حاتقوليلي إني لو بحب مراتي أبقى كداب، ولو بأكرهها أبقى خاين وغشاش.. حتقوليلي لما مش بتحبها اتجوزتها ليه، أقول لك ده كان من سنين طويلة، وأقول لك إني ممكن أحبها وأحب غيرها، الحب لواحد بس حتقوليلي صح؟ ماشي، بس أنا ما بكرههاش، بصراحة.. أنا نفسي مش فاهم مالي..».

صمت.. ثم قرر بغير وعي منه أن يقترب بجسده منها. اقترب بوجهه نحو وجهها.. العطر الفواح كرائحة الياسمين المنعش، الأنفاس الساخنة لكليهما تتلاقى في سرعة، عيناه مثبتتين في عينيها.. لكنها لم تجفل كما توقع، لم تصده ولكنها أيضًا لم تتفاعل معه. بقيت المسافة بين وجهيهما يجول فيها لفح الأنفاس ذهابًا وجيئة، ولم تقترب منه لترد مبادرته كما تمنى. صمتت، وهي توجه له نظرة

من نار.. العينان الناعستان اتقدتا بلهيب اللوم والمباغتة. قالت في ضيق حازم وصوت خفيض، حتى أحس بوهج حمرة غضبها على وجنته: «ابعد شوية يا شريف..».

ابتعد كالطفل الذي ضبطته أمه يلهو بلعبة محرمة وقت النوم، عندما أضاءت نور حجرته فانكشف أمره.. سحبت نفسًا عميقًا تستجمع به شجاعتها وقالت بلهجة من يصوب الخطأ وهي تعد على أصابعها: «أولًا أنا مش عبيطة ولا ساذجة علشان تفتكر إني مش فاهماك.. ثانيًا ما تعاملنيش زي كل الناس ما بتعمل، بيفهموني غلط إني بنت سهلة ولا بايعة نفسي لأي غريب، أو إني ببساطة كده مش محترمة، وثالثًا بقى.. بالراحة كده.. أنا حنسى اللي كنت بتحاول تعمله لما قربت مني دلوقتي، وانت كمان لو سمحت.. كمل كلامك بقى، وشوف كنت بتقول إيه..(أنا نفسي مش فاهم ما لي)».

أطرق برأسه للحظات، ثم استجمع تركيزه قائلًا في سرعة كأنه يخشي أن تخونه شجاعته قبل أن ينهي كلامه: «مش ممكن أكون بحبك ومش بحترمك.. ما عرفش أقول أكتر من كده، وتعرفي كمان، مش عاوز أدافع عن نفسي أصلًا.. أنا بحبك ودي مش تهمة، مش عيب..».

لم يلحظ نظرتها الحانية وقسماتها الفرحة، من فرط اضطرابه، وهي تقاطعه: «ومين قال لك إني عاوزاك تدافع عن نفسك؟».. فواصل بنفس انفعاله وكأنه لم يسمعها: «مش قادر ما فكرش فيكي وأتخيل نفسي معاكي مبسوط وسعيد، وعلى راحتي.. اعتبريني منجذب، مفتون، متاخد بجمالك وبساطتك والجمال اللي بلاقيه

في كلامك وصوتك والمزيكا بتاعتك، في نظراتك ليَّا وللناس، في حركاتك وسكوتك كمان، نفسي فيكي..».

بلوم يتثاءب لينفض عنه الغنج قالت بهمس: «شريف.. بتقول إيه؟..».

- «آه.. مش مكسوف لأنه واقع، أنا ما سعيتشي لكده، ولا دورت عليكي، رغم كده حاسس إنك كنتي ناقصاني من زمان.. ممكن تقولي ده عيب وقلة أدب، ومش أصول.. لكن ده مش حيغير من الأمر شيء..» أنهى كلماته بزفرة حارة وهو يزيح العبء عن كاهله.. ثم رفع عينيه إليها يرنو إليها بعينين تنتظران ردًّا هادرًا، ليجدها وقد اغرورقت عيناها بدمع سعادة لم تخطئها عينه.. وهي تقول بصوت ملائكي ترتعش فيه الفرحة: «أنا عمري ما حد قال لي كلام جميل زي ده في حياتي يا «شريف»..».

* * *

في الممشى الضيق أسفل منزلها في الزمالك، الذي يقود إلى شارع أكثر رحابة، وسط أمطار خفيفة، تأبط باطن يد «شريف» نظيره لدى «أسيل». كانا يمشيان بهدوء وأنفاسهما تكاد يتطابق إيقاعها، هو يقودها بجذبة أنامله ليتفادى ذلك الحجر، أو ليهبطا في رفق من جانب الطريق إلى بحره، وهي تتبعه في سعادة المستسلم.

قالت وهي تكتم ضحكة تشي باختلاج قلبها: «يابني الوقت اتأخر عليك، وانت ما روحتش من الصبح..».

- «ماجاوبتيش على سؤالي..».

قالت كمن يدفع بالكلمات حتى يقطع تردده بالافضاء بشيء، وعلى وجهها ابتسامة طفلة حبور أسعدته وإن لم يظهر ذلك: «طفلة وحيدة لأب مهندس وأم طبيبة سابوا بعض من زمان، وكل واحد اشتغل في بلد، أنا بقى نشأت مع ماما وأخويا اللي درس طب، وطلع جراح في إنجلترا».

- «بتحبيهم؟».

ترددت للحظة وهي تتبع إيماءته أن تتخذ جانبه الأقرب لشاطئ النهر الذي بلغته نزهتهم لحظتها، ليحميها من المارة والسيارات: «ما قدرتش أسامح أمي؛ لأنها أنانية. ما رضيتش تضحي بمستقبلها المهني علشان خاطر أبوها.. ماما طول عمرها بترسم حلو، أحلى مني بمراحل، وهي اللي علمتني مسكة الفرشاة وخلط الألوان، لكنها ما كانتش شجاعة تسيب شغلها وتفضل مع بابا في مصر.. هو ما ستحملش العيشة بره كتير ورجع، وهي كانت ممكن ترجع وتكمل في شغلها بس بوضع أقل، وتكمل في الرسم.. بس مصر ما كانتش بالنسبة لها مكان ينفع ترسم وتشتغل فيه على هوايتها وتبقى حرفة.. وما كانتش الأسرة والعيلة بالنسبة لها أهم من مستقبلها اللي شايفاه هناك، وعلشان كده سابوا بعض.. واتحطمت العيلة..».

- «وأخوكي؟».

- «أخويا؟ الدكتور ابن الناس، مش بتاع بهدلة ولا مواجهات، ما يعرفش يقول لأ لماما، وما دام هي شايفة إنه مستقبله هناك..طبعًا فضل الطب والاستقرار بره، لكن أنا طول عمري كنت عايزة أعمل اللي نفسي فيه.. أرجع مصر وأعيش فيها، أشتغل طبعًا، لأني مش

عايزة أعيش عالة على أبويا وأمي، بس مش وظيفة ومكتب ومواعيد وخنقة. فكرت إني أطور موهبة الرسم، اتخانقت معاهم خناقة كبيرة على سكايب كونفرنس، وكانت يمكن المرة الوحيدة اللي يكلموا بعض فيها وجهًا لوجه، قلت لهم إني حفضل في مصر، لا حعيش مع بابا ولا حرجع لماما في إنجلترا، طبعًا لك أن تتخيل قدر الرفض والعناد والخناق والعياط والصريخ، بس أنا مشيت كلامي ورفضت كل عروضهم والمساعدات اللي عرضوها.. إشي وظيفة وإشي فلوس، لكن حاجة واحدة أخدتها بنفس راضية.. هو الأتيليه اللي في الزمالك ده، انت عارف ده ثروة في حد ذاته..».

- «وانتي قبلتيها ليه الهدية دي؟ مش عاوزة تعتمدي على نفسك؟».

- «علشان ده حقي عليهم. هو تدمير حياتنا أنا وأخويا ده مين اللي المفروض يدفع تمنه؟ هو استسلم، وسمع الكلام، ومشي زي الطريق المرسوم له.. ولا عارف يعمل أسرة، ولا طبعًا بقى ينفع يرجع بعد كل السنين دي.. فحياته فعليًّا هناك بس مقاسها مش مريحه، زي الـ«شوز» الضيق عليك، شيك جدًّا من بره وحلو وشكله لايق عليك وعلى لبسك وتمنه الغالي باين، بس ضيق على صوابعك، وانت ما عندكش غيره ينفع تخرج بيه مشاويرك..».

- «طيب وانتي حياتك اتدمرت ليه؟ ما انتي زي الفل أهو، وهم كانوا عايزينك معاهم.. انتي اللي رفضتي..».

- «هم ما كانوش عايزين أكتر من وجودي معاهم، علشان المفروض والمنظر العام وشعورهم بالأبوة مايبقاش ناقص،

وضميرهم ما يتعبهمش.. أنا برضه اضطريت أكمل حياتي من غير أب وأم عاديين، فأخدت الأتيليه، وشوية شوية اكتشفت ان الرسم شغلانة ما تأكلشي عيش، كنت بقعد أرسم في اللوحة شهور وهدومي تبقى كلها بقع ألوان، وأنام على اللوحة من كتر ما باشتغل عليها، باطبق كل اللي اتعلمته في دروس الرسم وأنا صغيرة، وباشتغل على الأبعاد والمشاهد، أنا بحب الفن التشكيلي فبقيت باعمل شغل مش كتير يفهموه في مصر..».

قال وقد أنهكهما المشي.. فجلسا بكتفين متجاورتين على ذلك المسطح الرخامي في مواجهة النهر.. محتضنًا يدها الباردة بيده في حنان وعلى وجهه شبح ابتسامة مريرة: «انتي حتقولي لي؟ أنا عارف الجو ده لما تبقي مالكيش اسم مشهور وتحاولي تقتحمي مجال جديد عليكي.. بس الحكاية دي عايزة منك تعب، وشوية بهدلة معلش، لحد ما توصلي لمعرض كبير يفهم شغلك..»

رنت إليه بعينين لائمتين وواصلت كأنها كانت تخبئ ردها للحظة التي يسديها تلك النصيحة التي طالما شنفت بها أذنيها: «المعارض الكبيرة محجوزة للفنانين الكبار، وماعندهمش استعداد يدوروا ولا يكتشفوا حد، انسى اللي بتسمعه عن تشجيع المواهب الجديدة ونقل الخبرات، زي ما أبويا وأمي ما فضلوا ينفصلوا وضحوا بينا علشان حياتهم عايزة كده، برضه الكبار دول بيعيشوا حياتهم ومش فارق معاهم يساعدوا حد، والنجاح له طرق أنا ماليش فيها بقى..» سحبت نفسًا عميقًا ومالت برأسها على كتفه كأن الذكرى ترهقها: «مع ذلك، أنا ياما لفيت بمحفظة اللوحات الكبيرة دي عارفها؟ على معارض

الرسم الكبيرة، أسيب شغلي وأسيب الكارت بتاعي، كارت شخصي لطيف كده كنت طبعته للتعريف بنفسي لما لقيت كل الناس بتعمل كده..».

قصت عليه بمرارة حاولت تلوينها بابتسامتها الآسرة للقلب.. و«شريف» يحتضن كفها كلما بان عليها التأثر.. أن الأمور سارت على شاكلة متواترة هادئة في البداية: تترك أعمالها في حافظتها الجلدية لديهم أسبوعًا، تعد أيامها كل ساعة، حتى تنتهي ثقيلة.. وقد شل عقلها عن التفكير فيما عدا ذلك، أسبوع يمضي عليها تعاف فيه الطعام والنوم، لا تتكلم مع أحد، تمكث في الأتيليه معظم اليوم، وليلًا تقرر أنها ستختنق في حجرتها إذا مكثت أكثر من ذلك، سيقتلها الانتظار والترقب ويقضي عليها التفكير، ترتدي ثوبًا يجعلها جميلة، وتعالج هالات عينيها السوداء لتداري سُهدها، تتنزه في شوارع الزمالك اللامعة بضياء ضوء قمر يقبل قطرات مطر استقر على مصقول، تلاحق أشعته أذيال القطرات التي تجري على الأرض وتتكسر عليها، فتلتمع ببريق لا يلبث أن يخفت، وتخالها تضحك في استمتاع كطفل تعلم المشي لتوه بينما يطارده أبوه لاهيًا وإياه، تذوب في حي السفارات الهادئ، وتشاهد العشاق تتشابك أيديهم من حولها على ضفة النيل، فتفكر في حالها ووحدتها، لكنها تصير أقل همًّا وحزنًا، وتظن حتمًا أنها سوف تبدأ حياتها مثلهم عن قريب.. باق أسبوع، ستة أيام، خمسة.. وهلم جرًّا.. سيرون لوحاتها ويطيرون فرحًا بها، يزداد شرودها، تفرك يديها من شدة البرد وتحيط نفسها بذراعيها.. ربما اتقاء للبرد، أو لعلها تحتضن نفسها تشجيعًا وطربًا بما

حققت، تتذكر مولودتها من رحم أناملها، التي تنتظر الحكم بشأنها.. يا ألله: كيف استطعت رسم تلك التحفة حقًّا؟ تُرَى ماذا سيقولون؟ أينتظرني صاحب الأتيليه خارجه يوم الموعد المضروب للحكم ترحيبًا وانبهارًا؟ أم تُراه سيجمع الفنانينِ الآخرين الذين يتعامل معهم؛ ليريهم تلك الفنانة الجديدة، وأحلق بين أمواج من العيون المحملقة والألسن اللاهجة بالثناء، والأكف الملتهبة من التصفيق، والأيادي التي تربت على ظهري استحسانًا؟ تُرى بِكَم يثمنونها؟ كثير كما تستحق؟ أم قليل لأنهم لا يملكون الكثير؟ هل أقبل الوريقات الهزيلة تواضعًا مني، أم أماطل طمعًا في المزيد، وحتى لا يبخسوني قدري وأقطع هذه الألسنة من أولها؟

ثم كان اليوم المشهود، ذهبت مرتدية ثوبًا جميلًا، كلفها مبلغًا طار له عقلها، وزوجًا من الأحذية الباهظة الثمن، لكنها كانت ذاهبة لحفل تتويج حلمها، فلم تدخر جنيهًا واحدًا في سبيل ذلك. الأتيليه الأول كان في المهندسين، دخلته والفنانون الذين كانت تتوقعهم، استبدلهم صاحب الأتيليه بعماله الثلاثة رثي الثياب، واسعي الأفواه التي كانت تشم رائحتها، فتحاول ألا تبالي بها، وتلمح انبهارهم بدخولها في كامل زينتها.. انفرد بها صاحب المكان ودعاها لمكتبه..

واصلت في لهجة اصطبغت بمرارة ساخرة، وكأنها تجاوزت الحدث.. لكنها تريد أن ترى أثر قصتها على «شريف»: «..كان بيبحلق فيَّا أكتر ما بيبحلق في اللوحة، بعدما فصص جسمي وهدومي حتة حتة من فوق لتحت وسألني عن اسمي وعنواني، وكان عايز تليفوني كمان، بس أنا مارضيتش، قال لي وهو حياكلني بعينيه: انتي فنانة

ممتازة، أنا ممكن أديكي فيها 500 جنيه بس عايزك تقلدي اللوحات المشهورة، وتيجي تسلميهالي أي يوم بعد الشغل في المحل» نظر حوله ليتأكد من أن أحدًا لن يسمع بقية حديثه وأردف شبه هامس: «..نقفل المحل ونتكلم عن اللوحة براحتنا!!»، الأتيليه التاني بقى، كان ملك واحدة عندها سبعين سنة صاحبة محل كبير للأنتيكات في المعادي، منطقة راقية وجنبها محل ورد كبير بتاعها كمان، والزباين شيك قوي، وباين عليهم بيفهموا.. افتكرت إني لقيت اللي عايزاه، واحدة ذوقها راقي وعندها إحساس، كنت سبت عندها محفظة اللوحات بتاعتي من أسبوع، لكن بدل ما ألاقيها مستنياني بره المحل وبتحتفل بيَّا زي ما كنت فاهمة، افتكرتني بالعافية، وبعدين قالت لي إنه فيه تفاصيل نسيت تشوفها كويس في اللوحة بتاعتي، طبعًا علشان تخبي إنها ما بصتشي فيها من الأساس.. طلعتها من تحت كوم ورق في ركن المحل، وبعدين بصت لها ييجي تلات دقايق من تحت النضارة النظر الشيك اللي لابساها، وبعدين سألتني هو انتي في سنة كام؟ ضحكتني والله. قبل ما أرد قالت لي زي ما تكون بتعتذر وهي بتتكعبل في حروفها.. بس هي أجنبية فتتكلم بالفصحى يعني: «لا تؤاخذيني في السؤال، لكن واضح إنك مبتدئة، شغلك يشبه شغل طلبة الفنون الجميلة الذين يحفظون الكتب ويتأثرون بالمدارس الفنية، أنت ماهرة في خلط الألوان وتوظيف الظلال، تحفظين القواعد وتطبقينها بدقة، لكنك يا ابنتي لا تعبرين عن نفسك بعد، أنت تعبرين عن فكرتك كما يعبر عنها الفنان الفلاني أو المدرسة الفلانية لو عبروا عنها بدلًا منك، تحتاجين لتجارب كثيرة قبل أن تصبح لوحاتك ملفتة للنظر. هذا مجال تنافسي شديد القسوة يا بنتي،

النجاح فيه محجوز للأسماء الكبيرة، حتى لو قدموا أعمالًا لا تليق بتاريخهم، التاريخ يشفع هنا، النية الحسنة لا تفعل»..

ابتسم «شريف» في سخرية بطرف فمه، وقال بخفوت: «اللي ذاكر ذاكر»..

اتسعت عيناها في توتر وقالت متسائلة: «أفندم؟»، أشاح بيده كمن يحاول إبعاد هذا الخاطر وواصل قائلًا: «آه طبعًا، ما إنتي أكيد ما درستيش في النصر الابتدائية المشتركة، تلاقيكي ما سمعتيش الجملة المشهورة دي أبدًا، ولا يهمك.. دي بس حكمة عظيمة كده.. معادها دايمًا ساعة ما المراقب ما يوزع ورقة الأسئلة أول الامتحان.. دايمًا فيه طالب بيقرر إنه يبص بسرعة في الكتاب ولا مذكرة تكون معاه، يقرا سطر ولا فقرة حاسس إنه حينساها وخايف تيجي له أسئلة عنها، المراقبين بقى من كتر ما بيحبونا، وحرصهم إن أعصابنا تفضل متماسكة.. بيهزروا معانا وينكشونا كده علشان يرفعوا روحنا المعنوية بالحكمة الجميلة دي.. ده طبعا بيبقى له أثر عظيم علينا كطلبة، ده اللي فاكر إنه نسي سطر، يتبخر الفصل كله من ذاكرته بعون الله..».

ارتبكت وقد تشتت تركيزها للحظة: «مش فاهمة، بيحبوكم ويؤذؤكم، إيه العلاقة يعني؟».

قال مقاطعًا بمرح: «إيه العلاقة؟ ده سؤالك ده يا حبيبتي هو قصة حياتنا في مصر، ولا عمرك حتفهمي يا بتاعة «إنجلترا» انتي، احمدي ربنا إنه يتعدى قدرتك على التخيل، بلدنا كلها على ده الحال، مش ممكن تكوني جاهزة أبدًا، ولازم يطلع لك حاجة ناقصة، وكل

ما تكوني جاهزة، ما حدش بيكون جاهز لك.. انتي بس اللي واخده الحكاية جد، لكن لو كنتي بتهرجي.. ولا بتعملي أي كلام، كنتي فلحتي على طول.. ياللا يمهل ولا يهمل، كملي كلامك علشان خاطري بس..».. هزت كتفيها في رقة أرغمت ابتسامته الساخرة على الاكتساء بلون الشفقة والحنان.. تابعت له قصتها عن السيدة العجوز، قالت إن السيدة، أمام اتساع عيني «أسيل»، وربما صمتها وتجمدها في مكانها إثر كلماتها الصادمة، ناولتها حافظة لوحاتها الجلدية بعد أن أعادت اللوحات إليها - والحق يقال - بحنان ورقة من يلفح طفلًا بالغطاء ليحميه من البرد، وأضافت بصوت رخيم وهي تمنحها تربيتة على كتفها الغارق مع ظهرها في قشعريرة الإحراج الباردة: «النجاح في مجالنا يا عزيزتي لا يكفيه أن تكوني ممتازة أو جيدة، يجب أن تصير أعمالك فوق العادة، مذهلة، ولهذا كان التدريب والتكرار». همت بالانصراف، لكنها دست في يدها كارتها الشخصي، وأوصتها بالذهاب به كتوصية منها للبازارات السياحية بالحسين والأهرامات والزمالك، حيث يعرض الفنانون الشباب أعمالهم. قالت إن توصية منها ستفتح على الأقل باب الاهتمام والتركيز فيما تقدم لهم، لكنها حذرتها من التفاؤل، وهو ما لم تفهمه في حينه. بدأت في التعافي من الإحباط بعد أقل من شهر، قررت أن تبتلع كرامتها، وأن تعطي للعناوين التي أعطتها لها فرصة، رغم أنها كنت لا تستسيغ المساعدة من أحد.

«تعرفي ترسمي صور فراعنة النيل والأهرامات والشمس طالعة وراهم كدا في الغروب؟» امتلأ الجو بعبق البخور الثقيل وازدحمت

أذناها بأصوات الباعة الجائلين، وتوسلات الشحاذين الأطفال في آذان المارة، حول تلك البازارات في «خان الخليلي»، ولم يقطعه سوى ذلك السؤال الذي انطلق من خلف حاجز زجاجي متسخ ببصمات عشرات الأصابع، تطل منه أطباق وتماثيل لرءوس وأجسام فرعونية، وأوراق بردي مقلدة، شفع البدين سؤاله بأن عرض عليها بعض العينات التي تشبه ما يقصد، وهو يعاملها كأنها لوحات «فان جوخ» أو «بيكاسو».. يبدو أنه حاول أن يهون من خيبة الأمل التي ظهرت على وجهها ففسرها على هواه وواصل مشجعًا: «طيب لو الأهرامات صعبة عليكي، شوفي كده معبد الكرنك؟ هو عمود واحد وبيتكرر بأحجام مختلفة بس الزاوية مهمة علشان تخلصيها بسرعة، شغل بيبقى حلو قوي وبيبيع مع السياح زي الفل». كلما أرتهم لوحة لها أعادوا طلباتهم بصيغة أخرى، حتى قال أحدهم في نفاد صبر بعدما أصرت أنها فنانة تشكيلية وليست ممن يرسمون المناظر الطبيعية ولا الآثار، وأنه يجب عليه أن يحترم تخصصات الفنانين، وهو يرفع حاجبًا وخفض الآخر ويقول بلهجة سوقية: «تخصصات إيه يا أبلة؟ ما تاكلي عيش!! والله أنا لولا توصية الهانم ما كنت عبرتك ولا صبرت عليكي دا كله، ما دام انتي فنانة كده ما تروحي تبيعي «تصاويرك» دي في الأوبرا ولا افرشي بيها قصاد سور الجامعة الأمريكية؟!! اتفضلي بقى من غير مطرود، احنا ورانا شغل».

ابتسمت لنفسها في تهكم، شردت للحظات ثم قالت وهي تنظر إليه في بساطة: «مش باقول لك أنا شفت كتير وتعبت كتير؟».

(18)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 11

في أحلك الظروف لا تسمح لخصمك بأن يلحظ توترك.

عاد لمنزله تملأ صدره لفحة هواء الليل البارد، وإحساس بالزهو ظهر في صفيره المنغوم، والأصوات التي حملها له الأثير من حوله، نفير السيارات وزحام المركبات اللذان صكا مسمعه بوضوح ملأه أملًا بعودة مزاجه لطبيعته، وبعض المارة الذين كانوا يعبرون أمامه كيفما اتفق، دون النظر لإشارات مرور، فيتقبل الحدث بصدر رحب، بل ويتمهل ليسمح لهم بالعبور.. وهم يهدونه نظرات خجلى أوتعبيرات وجوه مذعورة، فيقابلها بابتسامة مشجعة ووجه متسامح، وهو الذي تثيره تلك الأمور إلى الحد الأقصى دائمًا.

لم يكد يفتح باب منزله.. حتى داهمه شعور الخواء فجأة، دلف إلى صالة المنزل.. فقابله وجه «عمر» المبتسم على غير اعتياد، ممسكًا بالجيتار الكهربي في فخر، يحيطه ثلاثة من زملائه يعرف وجوههم.. «سارة» الممتلئة ذات النغازتين وقد تأبطت «الكمان» في

فخر.. «هيثم» النحيل ذو العوينات المستديرة والشعر المنسدل على كتفه معانقًا «الأوكورديون» ومديرًا عينيه في أرجاء المكان، لتصافح عظمة أثاثه ورونق مفروشاته بنهم للتفاصيل، و«جيهان».. التي يبدو كل شيء فيها صغيرًا أوقصيرًا: وجهها ويداها وقامتها وطول شعرها المصبوغ بالصفار الفاقع، فيشترك مع لمعان بشرتها السمراء تحت إضاءة مصباح الثريا العملاقة في منتصف الصالة في إضفاء نفور مميز في قلب «شريف» منها.. وقد وقفت على أهبة الاستعداد، وقد صار سهلًا لكل من يراها لأول مرة أن يتعرف أنها المنوط بها الغناء في هذا الفريق الرباعي الشاب.

توقف في مكانه مبهوتًا من المفاجأة، لا يعرف بم يقابل ابتساماتهم الواسعة، بينما «منى» تأتيه من أحد الأركان قائلة في حبور: «كل سنة وأنت طيب يا شريف، أهم وصلوا زي ما انت كنت عايز.. وحيعزفولك في عيد ميلادك زي ما كان نفسك من زمان..».

قال بصوت فشل في مداراة الدهشة به: «زي ما أنا كنت عايز؟».

سارعت لاقتياده من مرفقه نحو المقعد المقابل لوقفة الرباعي وقالت بطريقة نقلت له مرادها: «أيوه يا «شريف»، مش انت دايمًا تقول لي إنك نفسك تشوفهم في البيت وتعزمهم على العشا من يوم ما ابتدوا في تدريبات اللحن الجديد في الفيللا بتاعتنا؟ أهم يا سيدي.. و«عمر» حيقدم لك اللحن الجديد هدية عيد ميلادك كمان..».

كان «عمر» هو الوحيد الذي لم يفته توتر أبيه.. ضاقت حدقتاه في تركيز للحظة، ظهرت خيبة الأمل على وجهه لثوان وهو ينقل

بصره بين «شريف» و«منى» إذ فهم حقيقة الأمر، وأدرك النقوش والحلى التي أضفتها كلمات «منى» على الموقف لتزينه بحقيقة لا تشبهه، لكنه نفض هذا الشعور حرصًا على ألا يطال زميليه، وبخاصة «جيهان».. بادلته تلك الأخيرة نظرة متفحصة استشعرت معها توتره وفهمت الموقف كله، لكنها دارت شعورها أيضًا لئلا يحس به «سارة» و«هيثم».. وقالت في حبور أجادت تمثيله، وبثقة بدت طبعًا أصيلًا فيها: «مستر «شريف»، احنا متشكرين قوي على العزومة اللطيفة دي، هابي بيرث داي تو يو، ده أولًا، وثانيًا بجد «عمر» ده ولد عبقري، احنا فريقنا من غيره ما يسواش حاجة، وبإذن الله حيكون ليه شأن كبير جدًّا في الموسيقى».

قالتها فابتسمت «سارة» في رومانسية وهي تميل برأسها جانبًا لتتأملها وتنقل بصرها بينها وبين «عمر» كمن يرمق حبيبين يخفيان مشاعرهما عن الكل عداها، ويربت «هيثم» على كتفه مشجعًا بشكل خاص لم يفلح في نزع مسحة النفاق عنه، وهو يغمز في جذل.. بينما «شريف» ينقل بصره بين الثلاثة وبين وجه «عمر» الذي كساه التوتر الرومانسي العتيد مكتومًا، فيزيد حنقه لارتباط ذلك كله بحديث تلك السمراء التي لم يدر بخلده يومًا أن يرتبط بها ولده الذي على ما يبدو يغرق حتى أذنيه في حبها.. فيزفر «شريف» في غيظ.. وهو يقول مستسلمًا.. بترحيب زائف: «أهلًا وسهلًا..».

أراد «عمر» أن يسأله بعصبية ماذا به، ولمَ يعاملهم بهذا البرود، لكن «جيهان» لم تكن لتنتظر بأكثر من كلمتي الترحيب اللتين نطق بهما «شريف» مرغمًا، فالتقطت الخيط لتقطع على حبيبها صدامًا

قرأته من قصصه عن أبيه، ومن رد فعل ذلك الأخير، فأشارت لهم بما فهموه أنه وضع الاستعداد للبدء.. تأهب «هيثم» فداعب أزرار الأكورديون في تركيز بتعاقب معين.. ليلتقط «عمر» النغم مفيقًا من شروده، ويواصل العزف على جيتاره للحظات.. مالت «منى» برأسها يمنة ويسرة وتألقت نظرة حنان وإعجاب في عينيها وهي ترقب عزف «عمر» وتنقل بصرها بينه وبين وجه «جيهان» الذي اشتعل بالاهتمام وهي ترسم ابتسامة ولهٍ على ثغرها، ومقلتاها تأكلان وجه «عمر» في لحظات، كأنها تسرقها من الزمن.. حيث يغمرها إحساس أنها تغتنم الفرصة فتتأمل وجهه وأفكارها تسبح مع نغماته في عالم وردي، اتسعت ابتسامة «منى» لمرأى ذلك المشهد.. ولم تتمالك نفسها من ضحكة خفيفة إذ تلاقت نظرتها مع نظرة «سارة» التي - فيما يبدو - خطر لها نفس الخاطر، فاستطلعت وجه والدة «عمر» ربما لتتأكد أنها ليست الوحيدة التي التقطت ما أحست به.. في غمار انهماك «عمر» في لحنه.. حانت من «منى» التفاتة نحو «شريف».. لتجده وقد خفض بصره أرضًا.. مقطبًا جبينه.. وكأنه يعد اللحظات التي يستغرقها العرض.. ارتفع صوت الكمان في يد سارة.. بينما صدحت «جيهان» بغناء بصوت رخيم عميق.. لكن «شريف» استمر على حاله.. بينما عينا «منى» ترمقانه في لوم ممزوج بالحرج، و«عمر» يتجنب أن يطيل من نظرة الضيق لأبيه لئلا يلحظ أصدقاؤه.. رغم ثقته بأن ما يحدث لم يكن ليفوتهم.

جلس على حافة السرير، يعدل من وضع منامته ويلبس جوربًا ثقيلًا ليستعد للنوم، بينما «منى» تعدل من وضع شعرها وهي تجلس

من ارتداء جوربه، أيقنت أنه يتجنب المواجهة، فاعتدلت لتواجهه من موقعها عبر الحجرة، وقالت في غيظ مكتوم:

- «يعني يا «شريف» دي طريقة؟ ينفع تكسف الولد بالشكل ده؟».

أجاب في برود ليفوت عليها الفرصة، وهو يصبغ كلماته بطعم الحسم لينهي الحديث: «بالعكس، أنا استمتعت بالعرض جدًّا، ومتشكر قوي على الليلة اللطيفة دي، أنا كمان أخدت الـ (سي دي) اللي سجلوا عليه أعمالهم وشكرتهم عليه..».

- ««شريف»، انت ما كنتش حتى بتبص لهم في أثناء العرض، ولا مرة بصيت عليهم.. أنا شايفاك.. إنت فاكر ابنك ما لاحظشي؟».

- «بالعكس أنا كنت سامع، علشان كده شكلي مركز، مش لازم أبص لهم ولا أتكلم..».

- «علشان كده طلعت أوضتك بمجرد ما خلصوا عزف وكلمتك، وندهت عليك علشان ترجع تاني مرتين تسلم عليهم وهمَّا ماشيين، وكإنك ما سمعتنيش؟».

- «مش يمكن ما سمعتكيش فعلًا؟».

- «إنت بتعمل كده ليه يا «شريف»؟ مش كفاية اللي عملته معايا النهارده الضهر في النادي؟».

- «إيه؟».

- «(إيه)؟ دي طريقة تكلمني بيها قدام الناس؟ وكمان ما رضيتشي تروح معايا واتحججت بشغلك؟ هي دي مش هواية بس، ولا شغلانة بجد؟ ما تأجل الماتشات لبكره ولا لأي وقت تاني؟ وأنا اللي قلت معلش، لازم أفضل وراه لحد ما أخرجه من الحالة اللي هو فيها، والنهارده عيد ميلاده ولازم أعمل له احتفال بالليل؟».

- «والله أنا مش بعتبرها هواية، دي شغلانتي وأنا مش حمشي الدنيا كلها على مزاجك.. وبعدين انتي اللي عملتيه يعني هو اللي طبيعي؟ أرجع البيت ألاقيكي جايبالي الولاد والشلة البايظة بتاعة «عمر» يعزفولي ويهيصولي؟ ده بدل ماتخليه يعقل ويشوف دراسته؟».

- «يعني أنا ذنبي إني باحاول أخرجك من اللي انت فيه؟ وانت يعني شايف إنك لما تعامل الولد بالطريقة دي حيقتنع ويبطل هوايته ويسمع الكلام؟».

- «شفتي البنات اللي معاه؟ شفتي منظرهم؟ شفتي اللي بتغني دي بتبص له إزاي؟ آدي الشلة اللي هو بيخرج معاها.. وياريت أشكال عدلة، واحد عامل لي هيبيز، والتانية عاملة زي الفيل والتالتة شكلها يخض، بشعرها الأصفر ولونها الغامق ده، هو ده اللي ربينا الولد علشانه؟ قاعدين بره بيوتهم للساعة خمسمية بالليل.. فين أهاليهم دول يسألوا عليهم؟ وانتي بتروحي الفيللا كل أسبوعين تلاتة تشجعيهم، ما لاحظتيش المناظر دي؟ ليه موافقة على اللي بيحصل ده وكمان تجيبيهم هنا؟ لأ وبيضحكوا عليًا بكلمتين، فالمفروض إني أطير من الفرحة وأتحزم وأرقص من السعادة. بتقولك قال

مزيكا ومستقبل عظيم في المزيكا؟ إنتي جاياهم يغيظوني في بيتي يا «منى»؟».

- «ما انت كنت لسه بتشكرني على العرض العظيم وبتقول عجبك، دلوقتي لا عاجبك العرض ولا الشلة كلها؟».

- «طبعًا مش عاجبني، وانتي عارفة إنه مش حيعجبني، بس أنا عايز أنام يا «منى».. فكنت باقول أي كلام علشان أعدي الليلة دي على خير، وعلشان أنا عارف انتي عاملة كل المولد ده، مش علشان أروق ولا أخرج من اللي أنا فيه، لأ ده علشان تفتحي الموضوع بتاعك تاني معايا..».

- «ولما انت عارف، بتتجنبني ليه؟».

زفر في يأس: «دي ليلة مش فايتة باين..».

- «انت عارف إني عايزة إننا نتكلم في الموضوع ده من زمان، وكل ما أفتحه تهرب مني بأي حجة..».

- «مش مكفيكي كلام في الموضوع ده باستمرار؟ مش حاسة إني مش عاوز أتكلم في الحاجات دي؟ لازم تضايقيني ولازم نتخانق؟ مش كفاية مشاكل الشغل؟».

- «إنت مش عاوز حد يتكلم معاك خالص، ماله كلامي..».

- «مش مكفيكي «عمر» يا «منى»؟ عايزة ولاد تاني ليه؟».

- «يعني إيه عايزة ولاد تاني ليه؟ عايزة أبقى أم يا «شريف»..».

- «أم تاني؟ ثم أنا منعتك؟ ما «عمر» أهو.. ومشاكله، باسم الله ما شاء الله، مالية علينا حياتنا ومش مخلياني عارف حتى أركز في شغلي.. ما تعملي عليه أم زي ما نتي عايزة، أما إذا كنتي مش شايفة فيه مشاكل فده موضوع تاني..».

- «ماتغيرشي الموضوع يا «شريف».. «عمر» على عيني وراسي، بس احنا زمان ما عرفناش نجيب أولاد قبل «عمر» علشان العيب كان فيَّا.. الدكاترة كلهم قالوا من غير عملية مش حينفع..».

- «وأهو نفع أهو.. ما عملناش عملية ولا غيره، ومع ذلك ربنا بعت لك «عمر».. إيه المطلوب تاني؟».

- «قصدك بعت لنا «عمر»، مش بعتهولك لوحدك.. وإحنا اللي اتلهينا بـ «عمر» لحد ما كبر أهو وقرب يتجوز كمان.. أظن ما كانشي معانا فلوس نعمل عمليات ولا غيره، واستحملت وسكت ومارضيتشي ما ما تدينا فلوس علشان انت رفضت الموضوع ده..».

- «طيب إيه اللي اتغير؟ إن معانا فلوس يعني؟ إني عندي شركات وفلوس في البنك وأرض وعمارات؟ مش ملاحظة حاجة تانية اتغيرت؟ إننا كبرنا يا «منى»؟ احنا ما بقيناش الشباب اللي بدأ حياته وعايز يعمل بيت وأسرة وأولاد، احنا عملناهم خلاص، والمفروض تفكري في حاجات تانية.. لازمتها إيه العمليات وخوتة الدماغ؟».

- «لازمتها إنك تهتم يا «شريف».. سنين وانت بتتغير قدامي ومش عارفة مالك، شوية أقول الشغل كتير، بيبني نفسه، الحال واقف، وشوية أقول زهق مني.. إنت حتى مش مهتم إني ألبس الحجاب ولَّا أخلعه..».

- «يعني انتي كنتي سألتيني لما لبستيه؟».

- «أيامها ما عترضتش، علشان ما كنتش عايز تزعلني، وعايزني أعمل اللي عايزاه، لكن دلوقتي مش فارقة معاك أنا عايزة إيه».

- «إنتي مش شوية البنات اللي في الجامعة دول مشوكي وراهم؟ وكنتي عايزة تثبتي لأمك إنك متدينة أحسن منها؟ أنا مالي؟.. طيب سألتيني عايز إيه؟ ولا متضايق منك في إيه، ولا أحب أشوف إيه عليكي؟».

- «جربت لبس شيك كتير وكل ما لبسهولك تقول لي اعملي اللي انتي عايزاه..».

- «طيب وانتي يزعلك إني أقول لك تعملي اللي انتي عايزاه؟».

- «وانت؟ انت عايزني أعمل إيه؟».

أجاب ببرود وهو يرفع كتفيه بخفة: «المشكلة مش عايز إيه، المشكلة إنها أمور تافهة..».

بغيظ صاحت وكأن صبرها نفد: «أنا مراتك يا «شريف» وعايزة أحس إنك مهتم بيًا.. إنت بتتصرف زي ما تكون الجوازة دي خلصت بالنسبة لك.. وعملت اللي عليك فيها ومش طايق تشغل نفسك بتفاصيلها تاني.. يا «شريف» احنا مش بنقرب لبعض بقالنا أد إيه، وكل ما أسألك تقول لي مافيش حاجة، قرفان، مش في بالي والله، أي كلام.. بس لما نعمل العملية على الأقل حيبقى فيه سبب نعيش علشانه..».

- «يعني أنا كنت بقرب لك علشان تحملي؟ ودلوقتي عايزة تعملي العملية علشان أقرب لك ولا علشان يبقى فيه سبب للي في دماغك؟».

تراجعت مصعوقة وهي تراجع كلماته، ما لبثت أن قالت في صوت متهدج: «هو فيه إيه يا «شريف»؟ إنت ليه بتحسسني إني عايزاك وانت قرفان مني؟».

لم يجد لسؤالها جوابًا.. راجع نفسه مستحثًّا إياها على النطق بشيء يعتذر به عن كلامه.. لكنه لم يجد رغبة كافية.. تأمل عينيها الدامعتين، غمغم بكلام عن الوقت الذي تأخر وعن «أعصابك يظهر تعبانة..».. بدا حتى لنفسه غير مقنع، قام وأجلسها على طرف السرير ثم عدل من موضعها حتى استلقت.. اتخذ مكانه بجانبها موليًا لها ظهره، وأطفأ المصباح بجانبه على الطاولة، وأغمض عينيه متظاهرًا بالنوم!

(19)

لـم يلحظ «شريف» كيف أن «حسناء» تتأمله عبر الفراغ بين مكتبها ومجلسه بالشركة في حنق مكتوم دأب يظهر على سحنتها دومًا منذ أن قابلهم بالنادي يوم عيد ميلاده.. لكنها اكتفت بالحملقة في شاشة الكمبيوتر أمامها في اهتمام.. بينما توزع تركيزها بينه وبين العميل الذي كان يهمس لـ «شيرين» عن تحقيق تجريه «شيرين» لحسابه.. وخطر لها أن تتدخل للحديث مع «شيرين» لصرف نظر العميل الذي كان يلتهم وجهها بعينيه.. لكنها تراجعت إذ كان عقلها مشغولًا بـ «منى» التي يبدو أنها ليست على ما يرام من ذلك اليوم.. إذ قدرت «حسناء» أنها لا ترد على مكالماتها منذ ذلك الحين؛ لأن بالها مشغول، ومزاجها لم يعد رائقًا كما كان من قبل.

لـم يكد «شريف» يستأذن للانصراف، حتى استأذن «شادي» ليتناول الغداء في مطعم قريب، بعدها بعشرين دقيقة كان الاثنان يجلسان إلى مائدة بمقهى قريب.. ناوله «شادي» ملفًا سميكًا تناوله قبلًا من حقيبة سيارته.. وقال في لهجة توحي بالأهمية: «اتفضل المصيبة اللي ورطتنا فيها..».

- «ماتقلقشي من كل حاجة كده يا «شادي».. «رمزي الطويل» زيه زي أي حد، مش أول مرة نعمل تحقيق عن ناس كبيرة وواصلة..».

- «بس «رمزي الطويل» مش زي أي حد، الراجل ده مرشح يبقى وزير.. كله عندك في الملف، وكمان رجل أعمال تقيل، وله علاقات بطوب الأرض.. ده مش سبب يخليني أقلق؟».

- «بصراحة لأ.. وانت عارف إنه مش حيبقى وزير، صعب قوي الحكومة تدخل حد سمعته كده فيها دلوقتي..».

- ««شريف» أنا عارف إنك راسم على الوزارة دي، بس ما تخليش اطمئنانك الزايد ده، وفكرة انك تعتبر خصم خفي لـ «رمزي»، وانتو الاتنين بتتنافسوا على منصب واحد، ينسيك علاقات «رمزي».. ثم إنه الناس دي ما لهمشي أمان.. وفي الآخر «رمزي» بفلوسه ومصالحه، أهم عندهم بكتير منك..».

- «الموضوع بيقرب قوي يا «شادي»، والناس اللي وعدوني ما بيهزروش.. المهم إذا كان ده اللي قلقك ما تخافشي.. ما حدش يعرف التفاصيل دي غيرك وغيري وأسيل طبعًا».

- «ده من ضمن الحاجات اللي قلقاني..».

«ليه بقى؟ خلصت تحقيقك عنها؟».

- «أيوه.. الأتيليه بيتها وشقتها فعلًا، ما لهاش شغلانة غير المزيكا في حفلات خاصة، وبتروح أتيليه كبير في المعادي، جنبه محل ورد، صاحبته ست عجوز بس شيك قوي.. راحت مرتين.. والست ودعتها لحد الباب، واضح إنهم يعرفوا بعض، بس مش عارف لسه ليه.. حعرف أكيد».

- «طيب تمام.. مين بعتتها؟ مرات «رمزي» اللي اسمها «عزة المقدم»..».

- ««رمزي» عينه زايغة واتجوز السكرتيرة بتاعته عرفي، بس طلقها تاني لما مراته عرفت.. مش باين انها ممكن تقلق من علاقاته لأنها مش حاجة جديدة يعني، وكمان نص شركته جواسيس ليها عليه..».

- «مافيش ست ممكن ما تقلقشي من عين جوزها الزايغة، بس عمومًا.. حتى لو المعلومة دي مش واضحة عندك، مافيش غيرها ممكن يهتم يعمل عنه تحقيق.. إلا إذا كانت حرب رجال أعمال مع بعضهم..».

- «فيه حاجة تانية يا «شريف».. سيبني أكمل شغل على «أسيل» شوية.. أنا مش مرتاح للبنت دي، فجأة كده بقيت معاها وبقت معاك في كل حتة.. عايز تدّيني وقت أكمل شوية».

- «لأ.. كفاية كده أنا حكمل..».

صمت «شادي» وظهر على وجهه غيظ مكتوم وهو يسأله: «ليه يا «شريف» بس؟ إنت خايف أحسن أقول لك ابعد عنها؟ بذمتك مطمن للوضع ده؟».

- «أيوه.. كفاية كده..».

- «بس فيه مشكلة تانية يا «شريف»..».

- «قول لي!».

- «التحقيق ده إنت طلبت له الـ (full package).. صح؟».

- «انجز».

- «طيب، طالما تحقيق موسع وكامل، يبقى فيه جزء يهمك إنت شخصيًا تعرفه، حاجة كده من أيام السعودية.. ».

- «مين يعني؟».

- «من قبلها بشوية.. حاجة تخصك وتخص «حورية»..».

- «الله يرحمها بقى.. إيه يعني؟.. قصدك..؟».

- «الله يرحمها؟».

أجفل لرد فعله المفزوع.. ونظر له في تساؤل.. فأومأ «شادي» برأسه بـــ (نعم).

فعادت له ذكريات بعيدة...

* * *

«إنتي عارفة إنه ما ينفعشي نجيب أمك زيارة، ولا شهر ولا أسبوع حتى..».

- «بس.. البيت واسع..».

- ««منى».. إنتي فاهمة.. كل الترتيب حيبوظ..».

- «طيب امتى؟».

- «لما تولدي بالسلامة.. وبعديها حنمشي على طول».

- «وامتى حاولد بالسلامة..؟».

منذ سبعة عشر عامًا.

.. وهكذا قاما بتسجيل «عمر» في السفارة المصرية، مولود على أرض المملكة ضمن تسجيل مواليد المصريين بالخارج.. «عمر»، ذو الخمسة شهور وقتها، مكث عند جارتهم المصرية بالسكن المتواضع آنذاك بضواحي الرياض، ريثما يعودان. تساهل معهما الموظف.. قالا له، إنها فاجأها المخاض بالمنزل فلم يقصد المشفى وقام بتوليدها بنفسه، ذرفت «منى» دمعة كان ظاهرها التأثر بمفاجأة المخاض والأمل في إتمام أوراق الرضيع، إلا أنها كانت تبكي أم الولد الحقيقية التي ماتت بحسب قصة «شريف» بشأنها.. ابتسم الموظف وكأنه يواجه بذلك كل يوم، تناول «شريف» راحة يده في سلام عفوي تدرب عليه من عمله بالسياحة مع حراس الآثار والشرطيين بالمتاحف، فدس ورقة متخمة بالأصفار السعودية في يده، فلم يطلب إخطار الولادة ولم يدقق في بقية الأوراق.. هكذا صار ابنهما رسميًا.

عندما عادا لمصر بعدها.. سأله «رأفت» عن أحوال أشقاء «حورية»، وما إذا كان لا يزال على علاقة بها أو يسأل عن أحوالها، فأجابه بثقة أنه لا داعي لنبش الأمر الآن، «منى» هدأت وتقبلت الوضع، وقد صار لديها من تعنى به كولد لها، أما «رأفت»، صديقه المقرب، فقد أعاد عليه السؤال عنهم، وقلقه من ردة فعلهم، فأنبأه كيف أنه يتهرب باستمرار من أقربائها الذين حضروا عقد قرانهما، ويمتلئ رعبًا وتوترًا من أن يعرف أحدهم بشأن «عمر».. لكن نظرات الاحتقار والتفحص من أعلى لأسفل عند ملاقاته أحدهم، وإن كانوا لا يعلمون شيئًا عنه، أنبأته بأنهم غالبًا يحملونه مسئولية ما آل إليه

مآلها.. وإن كانوا لا يعيرون الرضيع الذي فقدوه من بين أيديهم بالًا، ربما لأنه الخصم الرضيع الغائب، الذي حقق لهم بغيابه انفرادهم دونه بالإرث، أو ما تبقى لهم بعد أن رحل «شريف» بالغنيمة الكبرى بعيدًا..

تذكر أيامهما معًا عندما مر بشارع منزلها ذات يوم.. بكى بحرقة، غير أنه نسي الأمر مع أول دمعة جفت، ونسيت الدمعة نفسها سبب وجودها قبل أن تجف المقلتان الباردتان.. المجرمتان.. الشاهدتان على ما فعل.

كانا يعيشان الأيام الأولى بعد مولد «عمر».

كان ليل صيف قائظ يليق بهذا الحي الشعبي الذي احتضن شقتهما المتوسطة.. في سلسال بنايات متهالكة تزين جدرانها كتابات تراوحت بين إعلانات مكاتب العمرة، وعبارات الاحتفاء برمضان، وكللت مفرق رأس الطريق زينات بأوراق صغيرة ملونة باهتة، لا يعلم أحد يقينًا متى ولماذا وجدت طريقها لهناك.

كان قد قنع بما حصده من هذه الزيجة: ولد يحمل اسمه، وأموال تكفيه ليترك الفقر وراءه، لكن كانت في طريقه عثرتان، تحولان بينه وبين هذين: أولاهما.. تلك التي تلقم الرضيع صدرها في حنان غير مبالية به، فيثير مرآها لديه مخاوف كان قد نسيها، ولم يحسب لها حسابًا.. فليست هي التي تمناها لابنه أمًّا، فهو وإن كان لا ينكر أنها أشبعت نزوته، إلا أنه لم يستعد لحياة أطول مما تحتمل النزوة.. ولم يطلب استبدال أم زوجته، بكل تسلطها وصلفها، بمن تقاربها سنًّا، وطبعًا.. وقد اكتفى، وقضى منها غايتيه، وثانيتهما.. هي حاجته

لتفسير معقول لأموال قاربت على الاستقرار في جيبه عن قريب.. فمتى وكيف، وبأي سبب حصل عليها، وهو الذي لم يتسلم موقعه من عمل معتبر قط؟

حان الوقت إذن للحصاد، وكان للعثرتين حل واحد.. لا ثاني له!

«حورية» نائمة على سريرها الذي بردت معاركه، وتلاشى سحره في عينيه شهورًا، احتوى حملًا وضعته الآن لحمًا، يميل لاحمرار كفاكهة طال انتظار نضجها، يلتف بملابس دافئة تحمي جسده الغض، يشخص ببصره لأمه التي تغفل عيناها وينطبق جفناها بعد رضعة مشبعة، غافلة هي كما يليق بنفساء مرهقة، بينما يتقدم «شريف» نحوهما من طرف الحجرة المظلم.. يتحسس طريقه في حرص.. أنامل أقدامه تتحرك بخفة من يتجنب إصدار صوت ينبه الغافلة عن وجوده.. يداه تمتدان ليحتضن الصغير الذي يجفل في عفوية.. أنفاس «حورية» لا تضطرب.. ظله يبتعد.. تصحو على صوت باب المسكن ينغلق خلف ولدها المقتاد بعيدًا.

لم يدخر وسعًا في الانهيار والتظاهر بدور الاب المكلوم.

أبلغ الشرطة وسعى بكل ما أوتي من قوة للبحث في كل بيوت الجيران.. أمطر سكان الشارع بأسئلته وهو منهار.. يصرخ في ذاك، وينهر ذاك، والأعين المفزوعة تتسع أكثر وأكثر.

«حورية» انهارت تمامًا.

كل ما أدركته وهي بين الوعي واليقظة أن «عمر» لم يعد بجانبها.

ظنت أن «شريف» حمله ليهدهده بعيدًا كما يفعل.. نادته فلم يرد.. وبعد دقائق رجت صرخاتها العقار، فأيقظت الشارع بأكمله.

عاد منتصف الليل ليجدها تبكي وتصرخ وتولول وترتمي عند قدميه ليسمع القصة من بين أفواه الجارة المكلومة.. ليصرخ ويهذي بكلام أعده وكرره مع نفسه كثيرًا.. بينما كانت «منى» لحظتها في منزلها، تعنى بالمولود الذي ماتت أمه بحسب روايته لها.

استمر تظاهره أمامها بالبحث الدءوب عنه شهرًا.. شاركه فيها أقرباء «حورية» الذين ملئوا البيت ليكونوا بجوارها، هي التي أحالها الحادث حطامًا.. وذوى جمالها، لتتعمق تجاعيد جبهتها وتتهدل ملامحها، حتى تخالها قد شاخت عشرات الأعوام بالفعل.

قالت الشرطة فيما بعد إن الحادث يبدو وكأنه سرقة.. واختفاء صندوق الحلي وأموال «شريف» كان دليلًا كافيًا.. السارق يبدو وكأنه صنع مفتاحًا للمنزل، لا بد أنه مفتاح «شريف» الذي ضاع قبلها بأسبوع عندما انتزعه أحدهم مع محفظته وسط زحام الأجساد المتلاصقة في الحافلة مساء يوم شاق.

ساءت الأمور أكثر.. فلم تعد الأم الثكلى تأكل شيئًا، صارت تحدث نفسها وتضحك وهي تحادث طفلًا غير حاضر، ثم تبكيه عندما تفيق لعدم وجوده.. ساءت الأمور فلم يتعجب الكثيرون عندما قال «شريف» لقريباتها إنه يخشى تركها بمفردها؛ لأنها حاولت إلقاء نفسها من النافذة مرارًا.. وطلب منهم ألا يفارقوها نهارًا.. فهي ولا محالة سوف تؤذي نفسها، وهو كفيل بصحبتها ورعايتها ليلًا..

لكنها - على ما يبدو - لا تأكيدات هنا، تناولت السم ذات ليلة.. سم الفئران التقليدي الذي لا تكاد تجد له استخدامًا آخر في مثل تلك البيوت.

فقط كي تغافل الثكلى الجميع ذات ليلة مشئومة.. ثم تتلوى لساعتين من الألم، وتلقي بنفسها من الشرفة، لتسقط جسدًا منهكًا مضرجًا في دمائه.

لكنه لم يذكر لأحد أنها كانت تلومه طول الوقت، وأنها سألته مرة وقد بدأت عيناها في التحول لعيني مجنون، بشعر أشعث ونظرات زائغة وإصرار لا يكل، لماذا عاد تلك الليلة بعينها متأخرًا؟ وأين كان؟ لم يذكر أنها لمحت القصة في عينيه، فسألته بغتة عن التوكيل الذي معه منها، ثم ضيقت عليه الخناق، لتستفسر فجأة عن أموالها وشركتها.. ثم ثارت عليه واتهمته صراحة بأنه خطف الطفل منها.. وأنه ينتوي تركها بعدما سلبها كل شيء.

لم يصرح «شريف» بذلك، ولم يمهلها لتقص شكوكها لغيره.. كل ما فهمه أن الوقت قد حان لتغيير ضروري، تغيير حاد في الخطة.

ووجد ضالَّته في زجاجة مهملة في ركن قصي بالمطبخ.

زجاجة حذرته من أن يلمسها بيده قبل أن يحمل «عمر»، لئلا ينقل إليه بعضًا مما فيها، وألصقت بمقدمتها ورقة تحمل تنبيهًا باللون الأحمر لمحتواها الخطير.

كتبت على الورقة: «سم فيران».

فيما بعد، اتهمه أهل «حورية» بأنه قتلها..

كانت المشاعر متأججة، النساء يبكين مكلومات، بعضهن تصرخ الفقيدة التي «مافرحتش»، وكلهن يرمينه بسهام نظرات لائمة.. الرجال منعوه من حضور دفنها، وكاد أحدهم يتهور فيقتله بيدين عاريتين، لولا أن منعه المتعقلون، وسط غمغمات ترميه بأنه «نحس»، «واطي».. وعبارات أخرى، تلصق به أشنع التهم.

التحقيقات لم تسفر عن شيء.. كانت لديه شهود أهل الشارع عن المجنونة التي تصرخ وتلطم خديها ليل نهار، والنسوة اللاتي روجن لفكرة نزعتها الانتحارية لمجرد أنها رددت على مسامعهن سأمًا من الحياة، وزجاجة السم التي لم يلمسها إلا من خلال قفاز بسيط، لا بد أنهم وجدوها بالمطبخ وعليها خطها، وبصماتها.. لا بد وأنهم وجدوا الكوب بجانب رأس سريرها كما وضعه أملًا في أن تتناوله.. لكن أحدًا لم يتهمه بشيء.

لم يحضر الدفن، ولم يذهب للعزاء خوفًا من أن يبطشوا به.

لماذا يتذكر ذلك كله الآن؟

لماذا يداهمه القلق؟

هل فقط لأن «شادي» أتى على ذكر «حورية»؟

يتمنى أن يكون ذلك هو السبب.

هكذا، وبعد أن أنجز مهمته بالسفارة، عاد إلى «مصر» مع «منى» و(ولدهما) «عمر».

صار صاحب شركة خاصة، ليبدأ أعماله فيها، زاعمًا أنها «فلوس السعودية اللي خلتني أقدر أشتري شركة زي دي»، الأمر الذي صدقته

حتى «منى»، وأن سأمه من سطوة الكفيل أقنعه بالعودة، وشراء تلك الشركة التي، وبعد سبعة عشر عامًا كاملة مرت، يجلس إليه أحد أنشط أعضائها الآن قائلًا له في تركيز: «بس بقى يا «شريف».. كنت باقول لك.. «حورية»، لأ عايشة طبعًا، ورجعت مصر، أنا ما عرفشي رجعت فين ولَّا إمتى.. هو صحيح فيه كلام بيقول إنها انتحرت، بس فيه كلام تاني بيقول إنها أصلًا ما ماتتش، وسافرت بره، ودلوقتي صفت أعمالها في «باريس»، دفعت فواتير مستشفى كبير بعد عملية كبيرة قوي، ما حدش عاوز يقول هي إيه.. وقطعت تذكرة لمصر.. حبيت أقول لك بس..»!!

قال في دهشة حقيقية: «عملية إيه، و«باريس» إيه؟».

- «اللي في «فرنسا» دي.. !!».

صمت في حيرة.. شيء ما يحدث، الكذبة التي ولدت منذ سنوات تداعبه في قسوة.. لكنه ابتلع ريقه متغلبًا على حيرته ودافعًا بها بعيدًا عن عقله المضطرب وقال في صوت طبيعي: «عرفت يا سيدي إنها اللي في «فرنسا».. مش فاهم يا «شادي» بس، ده مهم ليه؟».

- «أنا ما عرفش.. أنا اللي بلاقيه باقول لك عليه، واللي ظاهر لينا دلوقتي من تسلسل الأحداث.. إن فيه شخص طلب تحري عن موضوع معين، آخر الخيط بتاع الموضوع ده يوصل ليك ولعقد جوازك مع «حورية»، دي واحدة انت كنت متجوزها زمان وبفلوسها عملت شركة كبيرة، من الطبيعي إنها تكون شايلة منك، فاهمني أنا عاوز أوصل لإيه؟».

فقط «منى» و«رأفت» يعلمان أن «عمر» ليس ابنها، وأن «حورية» هي أمه.. الآخرون يعلمون فقط أنه كانت هناك «حورية» ما، في زمن ما، لم يتحدث بتفاصيل عن أي شيء.. لم يتحدث عن وفاتها أبدًا، بالنسبة لهم جميعًا، هي ماضٍ لا يتحدث فيه، ولا يخترقون هم رغبته في الصمت عنه، لكن هاهو ذا «شادي» يبحث، ليخبره أنها سافرت وعادت..

كيف يسافر الموتى ويغادرون قبورهم، ليظهروا بعد سنوات في أوراق تحقيق عن خيانة زوجية؟

دارت به الدنيا للحظة.

ما الذي يحدث هنا بالضبط؟

أهل «حورية» لم يسمحوا له بحضور الدفن.. ولا العزاء.

هل كان هناك نعي بالصحف؟ لم يبحث عنه، لأنه لم يتوقع أن يقوم أهلها وأشقاؤها الطامعون في مالها، والحانقون عليه لذلك السبب، بمثل هذا الأمر من الأساس.. لم يكن حبهم لها بقدر ما كان لأموالها التي يرثونها من بعدها.. أموالها التي هرب بها هو بعيدًا، كان حريًّا بهم أن يبحثوا عنه، وليس أن ينشروا لها نعيًا بالصحف.

زجاجة «سم فيران» في يمناه.. كوب ماء ممتلئ حتى نصفه في يسراه.

يصب من هذه لتلك في ضوء المطبخ الخافت.. يتلفت حوله.. يضع الكوب بجانب رأسها.. يطمئن لأنها سوف تشرب منه فور يقظتها.. وينصرف في سرعة لينأى بنفسه عن مسرح لجريمة محتملة.

فيما بعد عاد ليملأ الصراخ جنبات المكان.. ويغرق الدم بقعة تحت رأسها بعرض الطريق أسفل الشرفة..

لكنه لم يسأل عن تفاصيل.

متى؟ لماذا؟ صمت كزوج مكلوم انتحرت زوجته المخبولة.

الكل يعزيه.. والبعض يبعده بنظرات كراهية لا نهائية.

لكنه لم يرَ بعيني رأسه شيئًا.. ولم يهتم.

هل من الممكن أن يكون قد انطلت عليه خدعة بهذا الشكل.

كل هذه السنين..؟

في ضجر غذاه إلحاح صديقه المستمر، قال: «لا بصراحة مش فاهم عايز توصل لإيه يا «شادي»..، ومش فاهم إيه اللي يخليك كل شوية ماسك في الموضوع ده..».

- «التحقيق ده مين اللي طلبه يا «شريف»؟ احنا مش عارفين مين اللي طلب من «أسيل» تطلب منك الطلب ده، اللي أعرفه بس إن التحقيق بيوصل لنتايج مش حلو إنها تتعرف، واللي أعرفه إن الشخص اللي عاوز يوصل للكلام ده، أكيد عاوز يؤذيك، وإن أكتر شخصية عاوزة تؤذيك في الكوكب ده حتكون أكيد اللي انت أخدت فلوسها، يعني «حورية»، معرفشي المسألة دي صح ولا مافيش علاقة، بس أنا مش مطمِّن.. صحيح لسه موصلتش لحاجة.. بس حاشوف وأقول لك..».

- «قصدك «حورية» هي اللي بعتت «أسيل»؟.. طيب ما تبعت حد يموتني ولَّا بلطجي يديني رصاصتين ونخلص؟ والمعلومات دي ماهي عارفاها، عاوزاني أدور عليها وأديهالها بنفسي ليه؟».

- «بلاش كده.. طيب مش يمكن حد تاني يعرف؟ أو حد تاني بيفتش في الماضي بتاعك علشان يؤذيك؟ وانت مش قلقان إنها عايشة يعني؟».

- «مش قلقان علشان لو هي فعلًا عايشة كل ده، بتستخبى ليه؟ ومن مين؟ وبعدين يابني أنا حضرت العزا بتاعها بنفسي.. انت مخك راح لفين؟ يعني هي اللي ورا كل ده إزاي؟ أنا مش فاهمك يا «شادي»، حد تاني مين اللي ممكن يكون ورا الموضوع بس؟ يابني دي «عزة المقدم» تقريبًا كانت بتتكلم مع «أسيل» عادي.. ولولا إني واقف، كانت كمان فتحت معاها تفاصيل هي بعتتها لينا امتى وليه، بس أنا اللي قطعت الكلام..».

- «ماعرفش يا «شريف».. الموضوع كله قالقني.. النص التاني بتاع الملف ده أعمل فيه إيه؟ صورك مع «حورية» في الحفلات زمان.. وصورة عقد جوازكم ومعلومات كتير عن حورية ظهرت في الملف، كده مش حلو.. الكلام ده لو «رمزي» وقع في إيده تبقى جات له على الطبطاب، مش يمكن حد عاوز يكشف موضوع فلوسك، وشركتك وانت عملتها ازاي وبفلوس مين؟ حد عاوز يلاعبك بالكارت ده ولا حاجة؟».

- «أنا حاسأل سؤال واحد تقدر تعتبره رد على كل كلامك يا «شادي».. وأنا متأكد إنك حتفهم قصدي: إيه اللي جاب الورق ده

للملف؟ «أسيل» ولا «عزة» ما لهمشي إلا المعلومات اللي عايزينها. مش لازم أصلًا يعرفوا إن كان فيه ملف زي كده..».

في تلقائية ظهر الفهم على وجه محدثه، هز رأسه لأعلى وأسفل في ثقة وتابع وكأنه كان ينتظر تلك الجملة: «تمام. خلاص أنا حاشيل الكلام ده كله على جنب و«أسيل» تاخد الملف على قد المطلوب بس.. أخبار «عمر» إيه بقى؟».

(20)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 12

لا تثرثر كثيرًا.

بعينين متسعتين، نظرت إليه «أسيل»، وقالت في فضول أنثوي، مزجته بدلال خفيف:

«إنت بتلعب شطرنج كويس طبعًا؟».

أجابها «شريف» في استنكار وهو يبتسم:

«أكيد. أمال حكم إزاي؟».

«ولسه بتلعب لحد النهارده؟».

«لأ. ما فيش إلا «رأفت» اللي لما بيستفزني قوي بالعب معاه دور أودورين بالكتير.. غير كده ما بلعبش».

«بطل حركات.. بتكلم جد».

«وانا باتكلم جد..».

«طيب ما دام بتتكلم جد.. ما بتحبش تلعب ليه؟ ما بتحبش تتغلب ولا الناس بتصعب عليك ومش عايز تغلبهم؟».

«لا ده ولا ده. ما بحبش أتذل. بلعب طول عمري علشان ما يتقاليش كش مات.. إحساس اللذة لما الواحد بيقولها، بيبقى لا يوصف، بس إحساس الانكسار لو اللي بيلاعبك هو اللي بيقولهالك، إحساس سخيف، برضه بشكل لا يوصف، علشان كده كنت بانسحب لو شايف إني حخسر الدور..».

- «غريبة دي..».

- «كنت باشارك في بطولات هواة كتير، في يوم واحد من اللعيبة الكبار، أظن كان واخد المركز التالت في بطولة الجمهورية، كان حاضر معايا الماتش الفاينال في البطولة، شافني بالعب وبعد الماتش قال لي انت لازم تسجل نفسك في الاتحاد. وقد كان، بقيت لعيب رسميًّا، وبقى ممكن أشارك في بطولات كبيرة..».

- «طيب.. بس ده شيء عظيم.. ما بتلعبش في البطولات دي ليه؟».

- «علشان اللي حصل.. لما دخلت بطولات محترفين لازم ساعة الانسحاب، لو شايف إن الدور ما فيهوش فايدة خلاص، لازم أمسك القطعة بتاعة الملك، أمسكه من راسه وأنكسه على الرقعة.. رفضت.. الحكم برق لي بعينيه كده، وقال لي لازم تعمل كده وإلا حتتحرم من المنافسة.. ساعتها كنت صغير ووافقت وأنا بتقطع.. وبعدها ما شاركتش أصلًا تاني لأني حسيت نفسي اتكسرت،

ما كانشي ممكن كمان أرجع ألعب مع الهواة تاني.. بطلت خالص، ومن يومها وأنا ما بحبش ألعب شطرنج».

«بس كده؟ بس دي روح مش رياضية يا «شريف».. ما بتقولشي لنفسك إنك لازم تقبل الهزيمة؟ ولا دي طبيعتك، يعني بتحب تنتصر في كل حاجة؟».

«شوية. يعني، أنا شايف برضه إنها مش لعبة رياضية، مسابقة أو تنافس ممكن.. يعني ما بحسش بموضوع الروح الرياضية وكده».

- «يعني بتحس بإهانة لذكائك مثلًا لما تتغلب؟».

- «مش قوي كده، بس الدنيا مش ناقصة..».

- «يعني إيه؟».

- «سيبك من الكلام ده دلوقتي.. انتي بتلعبي شطرنج؟».

ردت في دلال، وهي تشيح بيدها نحو الفضاء بخفة: «على خفيف، ما بحبش أتغلب، والحكم لما برق لي بعينيه كده مرة، اتكسفت مووووت.. ومن يومها..».

- «ماشي ماشي.. ما قلنا بنتكلم جد».

- «خفيف باقول لك..».

شرد ببصره للحظة وقال ببساطة: «تعرفي، الشطرنج مش لعبة جافة ولا مملة زي ما كتير بيفتكروه.. الشطرنج فيه حاجات جميلة، تمام زي المزيكا.. بس مش الشطرنج التنافسي بتاع البطولات.. الدور بيبقى عامل زي النشيد الوطني كده، حاجة رسمية ومكررة

ومافيهاش ابتسامة ولا مفاجآت.. ومضطرة تقفي وانتي بتسمعيها وتحترميها وتركزي فيها حتى لو بتفكري في حاجة تانية، أو مخك مشغول بألف مشكلة..».

- «شيء محترم، لعبة بس فيها لمسة جمال.. النشيد الوطني بيبقى برضه حتة مزيكا تقيلة.. فيها تعبير وتراث ومش سهلة يعني..».

- «أكيد شيء محترم، بس مش ممتع.. ولا حد من الناس بيسمع النشيد الوطني، ولا الجمال اللي فيه بيملا ودانه..».

- «وانت بقى غير الناس؟».

- «تقدري تقولي، إني بقى لقيت مواطن الجمال اللي بتقولي عليها في اللحن ده، مش أي حد بيشوفها، ما يهمنيش الفوز ولا الهزيمة، أنا ممكن أضحي بأي دور في سبيل إني أرقي عسكري، بجد.. باحب قوي العساكر لما يوصلوا لآخر السباق، باحس إنه عمل اللي عليه، وآن الأوان يستريح، ويترقى.. باحب قوي اللحظة اللي بيبقى فيها وزير، بس عارفة إيه بقى المشكلة اللي بتنغص عليّا المتعة دي؟».

- «إيه؟».

أشار إليها بسبابته في ثقة وقال: «إن العسكري مش لازم لما يترقى يبقى وزير».

- «بس الوزير أقوى قطعة في الشطرنج».

- «ماشي.. بس ممكن تلاقي العسكري أحسن حاجة في الموقف ده إنه يبقى حصان، أو طابية، أو فيل مثلًا.. على حسب انتي عايزة

إيه منه، وأنا ما ببقاش عايز منه حاجة.. مش فارقة معايا إنه يكسبني الدور، أنا عايزُه ياخد المتعة البريئة دي بس.. بس ساعات غصب عنك لازم يبقى حاجة تانية..».

قلبت كفيها في حيرة وهي تقول: «يعني هم علشان في إيدك مصيرهم، ساعة لما ربنا يفتح عليهم تعمل فيهم كده؟ أكيد طموحهم مش محدد، وعايزين يبقوا حاجة كبيرة، المسألة دي نفسها مش بتحصل كل يوم ولا كل دور.. حتخسر إيه لما تخليه وزير..؟».

- «مش حخسر، بس ساعات ده ما بيبقاش مناسب لظرف الدور يعني.. وده بيحيرني ساعات.. أكسب بلعب مش ممتع، ولا أخسر من خصم أضعف مني، ويفتكر إنه كسرني، بس أعمل اللي نفسي فيه؟».

- «انت يفرق معاك رأي خصمك ولا الناس اللي بتتفرج عليك في قرارك ده؟ ما تنبسط حتى لو حتخسر؟».

- «وأخسر ليه؟».

- «هو مكسب متعتك مش كفاية؟».

«مش عارف.. متهيألي إني لو حكسب اللمحة الجمالية دي بالترقية من غير ما اهتم ببقية الدور والتنافس الضيق اللي على الملك، يبقى لازم أكون على الأقل حققت الحتة البسيطة بتاعتي ونزلت وزير على الرقعة.. وأخسر بعدها مش مهم.. ساعات بقى بتلاقي الدور فيه أمل كبير بترقية تانية ممكن تضمن لك فوز كمان.. تسيبيها يعني؟ وعذاب الندم على الدور يفضل يطاردك بقى؟».

- «يبقى انت مش عايز المتعة بس..».

- «وهو الفوز عذاب؟».

«يعني انت لما بتاخد متعتك مش كاملة، يعني من غير ترقية، بس كسبت الفوز التقليدي المكرر ده.. بتحسب نفسك خسرت، ولا فزت؟».

سكت ونظر في عينيها كأنه يحاول فهم ما ترمي إليه، ثم قال في استسلام: «ماعرفش. لكن اللي أعرفه إن الموقف ده دايمًا بيخليني أفكر إن الدنيا كده.. مش دايمًا بتبقي اللي انتي عايزاه.. وفي الفترة اللي فاتت ابتديت أسأل نفسي بجد: هو أنا اللي عايز ولا العسكري؟»

قالها وسهمت نظراته بعيدًا عنها وهو يتأمل النيل من خلفها، شراع أبيض مهترئ تسبح قمته في هدوء، بينما تلمع صاريته الخشبية برأس معدني تحت شمس تسللت أشعتها لتنكسر على إطار النافذة من خلفها في المقهى الأنيق الذي جلس إليها فيه.. نظرت له في إمعان عبر المائدة بينهما، دون أن يدري بها إلا وهي تسأله في رقة: ««عمر» أخباره إيه؟».

كادت تلمح في عينيه دمعة تولد على مهل، وكأنها كانت تنتظر تلك الكلمات لتعلن عن وجودها.. لكنه استجمع صلابته وأطرق برأسه لثوان، ابتلع لعابه وتظاهر للحظة كأنه يفرك عينيه بأصابعه ليقتل دمعته في مهدها، فضحه احمرار عينيه عندما رفعهما مجددًا إليها، ليجدها ترمقه بنظرة ملؤها العطف.. فأيقن أن أمره افتضح..

امتلك صوته ثباتًا وهو يرد بحيادية: «لو سألتيه هو حيقول لك إنه كويس الحمدلله. أنا بس اللي رأيي مختلف..».

استجمعت شجاعتها وقوتها لإخراج النصل من قلبها.. ورسمت الهدوء على وجهها.. وقالت بلهجة من يبدأ حديثًا متعقلًا طويلًا: «من اللي سمعته، واضح ياحبيبي إنك بتحب العساكر بتوعك...».

- «إنتي بتتريقي عليًا؟».

بصدق أجابته: «لأ طبعًا.. لا يمكن يا «شريف» أعمل كده..».

صمت للحظات وهو يستجمع هدوءه.. قال وهو يسرح ببصره بعيدًا مع الشراع العابر لصفحة الفضة المترقرقة أمامه، و«أسيل» ترمق لمعة عينيه في قلق وود: «عارفة.. أنا أكتر حاجة بتضايقني في موضوع الشركة و«عمر» إيه؟ إنه ما قالشي لأمه..».

«مش فاهمة!».

«البيه بيتستر عليًا.. صعب قوي إنك تعيش مع شعور إن ابنك بيداري عليك، وإنك ما بقيتشي بالنسبة له الأب اللي ما بيغلطش، القدوة.. اللي ما بيقولشي إلا حكمة، ومابينطقشي إلا صح.. كان نفسي يروح يقول لأمه، ساعتها كنت حاقول عليه عيل وندل، بس ما كنتش حاتضايق.. كان حيبقى رد فعل طبيعي، وكنت حاسامحه كمان. كنت حازعق له وأمسح بيه الأرض، وبعدين آخده في حضني وأسامحه وأقول له: اعمل اللي انت عايزه، عاوز تلعب مزيكا ولا أي هباب انت حر، عاوز تسيب الجامعة كمان انت حر.. وأنا حاساعدك كمان..».

«وكنت حتوافق على كل اللي انت رافضه؟».

«أنا المفروض أبقى كده، أبوه اللي واقف في ضهره. هو أنا يعني شغلته معايا في الشركة ليه من الأساس؟ مش علشان يكبر ويورث الشغل ده من بعدي؟ ولا يعني غاوي تعب؟ ولا حنبسط لما أشوف ابني بيتلطم زي ولاد الناس ومالوش مستقبل؟».

«يعني انت كنت تفضل إنه يفضحك عند «منى».. ويقول لها بتعمل إيه في الشركة، عن إنه يطلع راجل ويسكت؟».

«وأنا اللي أطلع صغير يعني، وكمان غشاش ومحتال قدام ابني؟ وبعدين لما يطلع زي ما أنا ربيته، ويفضل يحترمني ويسمع كلامي، ما هو برضه حيطلع راجل..»

قالتها وفي حلقها غصة لم يلحظها، وكأن ذكر اسم غريمتها يوترها «.. ومنى؟».

- ««منى» أمرها سهل، كلمتين كنت حاقولهم لها، عن إن ده مش صحيح، وألِم الدور معاها ومع «عمر»، دا أنا حتى كنت ممكن أخليه يقول لها إنه فهم غلط..».

التقطت الهواء الثقيل بينهما دفعة واحدة، وكأن الحديث عاد للوجهة التي ترتاح معها في الاستمرار.. وقالت وهي تحاول ألا تثيره نبرتها ولا كلماتها: «أنا مش عايزاك تزعل.. بس أنا حاقول لك رأيي، حبيبي بصراحة انت بتتعامل مع «عمر» زي الشطرنج، يعني انت مهموم بمنظرك وانت بتتغلب، وممكن تسيب الدور علشان ما تسمعش كش مات.. بس برضه رافض تنكس الملك، ورغم إنك

فاهم ضرورة الترقية حسب انت محتاج من العسكري بتاعك إيه، لكنك برضه بتعمل كده بشكل عقلاني بيضايقك..».

ابتسم رغمًا عنه، رمقها بإعجاب فضحكت لنظرته الوالهة وقالت في دلال: «بطل شقاوة..».

أشار لها بالاستمرار وهو يغالب ابتسامته، فرمشت بعينيها في خجل ثم قالت مجاهدة إحراجها: «إنت محتاج تغير تفكيرك، علشان ترتاح..».

انقلب وجهه فجأة إلى غيظ وقال بحدة: «أظن حتقولي لي لازم أفهمه وأتكلم معاه؟ ليه كلكم شايفين إن العيب مني أنا؟ ليه محدش شايف إن من حقي أجنبه يضيع نفسه؟ أقف جنبه لحد ما يكبر ويبقى راجل ويعتمد على نفسه.. وإن فيه طريقة إني أعمل كده من غير ما لازم أوافق على كل سلوكياته، أو أتغير علشان أفهمه؟ مين اللي يتغير؟ أنا اللي عديت الأربعين سنة، ولا هو اللي عايش في الوهم وغرقان فيه لحد شوشته؟».

أمسكت بيده في حنان، تلقفت راحته براحتها الصغيرة وهي تربت على كتفه قائلة: ««شريف» أنا مش قصدي كده خالص.. أنا باقول إنك لازم تفكر بطريقة واحدة مش طريقتين، ما تفكرش بشكل عاطفي إنك عاوز تفهمه وتعمل له اللي هو عاوزه، وماتفكرش برضه بشكل منطقي إنه لازم يسيب اللي في إيده..».

- «هو يعني، غير إن ما فيش حاجة غير الاختيارين دول أساسًا قدامي.. هو فيه طريقة تالتة؟».

- «إنت على طول عايز اختيار تالت؟ لكن عمومًا أيوه، فيه طبعًا طريقة تالتة..».

- ««أسيل»، الولد بيقول لي صراحة: أنا مش محتاجلك.. يعني لو وقفت جنبه أو عارضته مش حتفرق معاه..».

- «لو احتاج لك.. ولقاك جنبه، مش حيقول كده.. بالعكس، حتكبر في نظره، وأنا متأكدة ساعتها إنك ممكن تقف جنبه في مشروعه من غير ما تتضايق..».

- «أنا مشروعه ده اللي مضايقني..».

- «لأ.. إنت اللي مضايقك إنه خرج من طوعك، و نظرته ليك إنه مش مقدرك ولا بيحترمك.. عسكري بينقي على مزاجه.. مش بيقبل الاختيار اللي انت عاوزه في الدور، مع إنك انت اللي أدرى بالدور والمشاكل والقطع اللي قدامك والخطر جاي منين، وانت عارف إنه حيؤذي نفسه ومش عارف تساعده.. لو إنه بيسمع الكلام وبيحترمك، ومحسسك إنه عاوز يعرف رأيك أو محتاج مساعدتك، أكيد نفسيتك حتتحسن، وكمان حيفضل جنبك على طول، حتى لو ما عملشي اللي انت عايزه. بس علشان كل الكلام ده يتحقق.. لازم يحتاج لك الأول..».

- «ودي حاعملها إزاي دي؟ أمنع عنه المصروف؟ بياخد من «منى»، وهي أول ما بتشم خبر إني مانع عنه حاجة بتديهاله وبيصعب عليها، بترجع تتخانق معايا كمان، ولو ما خدشي منها خالص، بياخد من جدته..».

«لازم يقع في مشكلة وانت تبقى الوحيد اللي ينجده منها..».

«أروح أرمي مولوتوف على وش البنت السمرا اللي بيحبها دي وأجمع الشاش من الأجزاخانات يعني، وأظهر بقى كده وأنا محضر باكتة شاش في جيبي؟ أعمل إيه يعني يا أسيل؟».

قالت بوجه جاد أدهشه أنها تخفي سخرية كلماتها خلفه: «كل الحلول العبقرية دي حلوة.. بس عيبها حاجة واحدة: إن واضح إنك انت المتسبب في المشكلة، وإحنا عايزين إنك ما تبقاش باين في الصورة، إلا في اللحظة المناسبة بس..».

«وبعدين؟ عندك حل أعمله فعلًا، ولا انتي بس بتفكري بصوت عالي؟».

ربتت على كتفه.. صوبت له نظرة بعينين لامعتين من الحماس، وقالت بثقة من حسم أمره: «أيوه طبعًا عندي حل، وحنعمله مع بعض..، أنا بس قصدي إنه ما ينفعش يفهم انك انت اللي ورا الموضوع ده.. عمومًا.. عايزة اقول لك إني مش حسيبك تعيش متضايق تاني يا حبيبي.. ولو بتحب العسكري قوي كده، حخليه يسمع كلامك.. وانت اللي حتقول كش مات وحفكرك.. سيب الموضوع ده عليّا..».

(21)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 13

الخطر قد لا يأتيك فقط من ضعف حصون حول مليكك.. الخطر قد يأتيك من هجومك الذي تكسر تحت صخرة دفاع خصمك القوي.

دق هاتفه المحمول وهو يقترب من الحي الذي يسكن به.. فضغط زرًّا بالمقود، يمكنه من الإنصات للمكالمة عبر فراغ السيارة دون لمس الهاتف.. قال بتلقائية ملول: «عندك إيه؟».

أجابه صوت «شادي» بتلقائية ومرح جعلاه يقارن بين ذهنه المشغول المهموم وبين «شادي» الذي يبدو دائمًا وكأنه لا يحمل همًّا:

«ياريس.. إنت فين؟».

- «مش حتفرق.. قول بس، عندك حاجة تانية من خيالاتك عن اللي اسمها «حورية» ولا إيه؟».

ضحك مجلجلًا وقال: «لا مش «حورية» خالص.. ياريس أروح من لسانك فين بس، أنا بعرَّفك كل حاجة أول بأول، ولو خيالات حبقى اتغطى وأنا نايم بس أخاف تقول لي ما قلتش ليه..».

ابتسم مرغمًا في ارتياح لزوال قلقه من تلك النقطة وتابع في ثقة: «لا ما تقلقش.. عندك إيه بقى».

- «موضوع تاني.. شوية حاجات عامة عن «أسيل»..».

احتقن وجه «شريف» في غضب وهو يقول: «أنا مش قلت لك مالكش دعوة بيها؟ إنت قلت لي حاشوف وقلت لك لأ.. إيه، فاكرني عيل صغير مش حعرف أحمي نفسي ولا مش حاعرف أدور على معلومات عن عيلة صغيرة في دور عيالي؟ إنت نسيت نفسك يا «شادي»؟ ها؟ بتراقبنا بقى يا بيه ولا تلاقيك عملت لنا صور، فاكرها قضية بتحقق فيها، إنت بتشتغل من دماغك ولا إيه؟».

بصوت متهدج من الخوف قال: «اهدى شوية يا «شريف»، إنت سايق، أنا سامع صوت العربيات حواليك.. اهدى واسمعني.. أنا ماليش دعوة بيكم بتتقابلوا فين ولا بتعملوا إيه، أنا قلت لك إني مش مرتاح للبنت دي وظهورها المفاجئ في حياتك..».

- «لا هِيَّ أول واحدة ظهرت يا «شادي».. ولا..».

قطع جملته بنفسه، وتعالت أنفاسه في مشاعر مكتومة، جاءه صوت «شادي» من الجانب الآخر يحمل نغمة ظفر حذرة: «شفت انت سكتّ ليه؟».

قال بدهشة حقيقية، شابها ضعف وقد بدأ يدرك ما يرمي إليه صديقه: «ماتخليك في الموضوع يا «شادي»».

- «هو ده الموضوع يا «شريف».. إنت مش قادر تقول، ولو على سبيل إنك تخليني أسكت، إنها مش حتكون آخر واحدة.. عقلك الباطن رفض المعنى بشكل تلقائي رغم إنه لا تعهد ولا وعد منك.. لكن انت بتحبها بجد يا «شريف»، انبهارك بيها غير كل واحدة تانية شفتها معاك، علشان كده انت لا حتدور على حاجة ولا حتفتش على شيء، وحتى لو دورت ولا سألت، حتسأل وانت عايز تسمع كلام يطمنك..أنا عملت كده علشان احميك.. حتى لو حتزعل مني إني ما سمعتش كلامك..».

ران صمت على فراغ السيارة و«شريف» ينصت لأبواق السيارات من خلفه وحوله، وينعطف نحو شارع منزله الهادئ على مهل.

قطع «شادي» الصمت وكأنه يكمل جملته: «.. واحنا مش ريس ومرءوس يا «شريف».. إنت أخويا.. وانا مقدرش أشوفك حيحصل لك مشكلة وأسكت..».

ضغط على أسنانه وهو يوقف السيارة جانب الطريق أسفل منزله، وأغمض عينيه وقد أطفأ محركها. قال في استسلام: «طيب، لقيت إيه؟».

ضحك «شادي» في جزل: «ولا حاجة.. كله زي الفل يا ريس.. كل اللي عرفته انت عنها سواء منها أو من غيرها صح..».

ضحك «شريف» مرغمًا وهو يقول: «أنا حاموتك في يوم من الأيام يا شادي».

كاد يلمح صديقه وهو يغمز بعين وسط وجه ضحوك مكتنز قائلًا بمرح: «عِيش يا ريس.. عِيش».

ابتسمت لنفسها في سعادة.

«شريف» أنهى نزهته الطويلة معها بقبلة على خدها القريب منه، خطفها في غفلة منها.. لكزته في جانب كتفه بعنف ولدته المفاجأة والخجل.. لكن غضبها كان مصطنعًا، تمامًا كالخطوتين اللتين تراجع بهما وكأنهما من أثر الضربة، أو كتأوهاته التي أصدرها ممسكًا كتفه بألم وهو يهبط الدرج نحو سيارته ويغمز لها مبتسمًا.

لم يكن شعورها لتخطئه العين.. تبتسم لنفسها لخاطرة ما، قهوتها تبرد فتعيد الكرة لتجهز قدحًا جديدًا.. شاردة هي في شيء ما.. شيء يبهرها ويخطف أنفاسها.. شيء تشعر بحلاوته في دفء معدتها، والخدر الذي يحيط بكتفيها، واليقظة التي تشعر بها برغم تأخر الوقت.

هل تحبه؟ هي التي تعودت العزلة، هي التي تمنت الوليف زمنًا، تكاد تجده في «شريف».. لكنها تكبلها القيود، أقلها وحدتها.. نفورها من الأب الذي يضيع أسرته لخلاف على الألفة بينه وبين شريكته، تمامًا كأبيها..

لكنها ليست مثل أمها.. هي تستطيع أن تضحي بأشياء كثيرة من أجل سعادته.. تأخذ بيده في أعماله، تدعمه في قراراته، تخبره كم هو رائع، جريء، وساحر.

هل ستكون هي الأخيرة؟ هل تهتم هي حقًّا الآن لذلك؟ عيناه تطاردان روحها، وغمزته الأخيرة تدفعها للضحك رغمًا عنها.. مأخوذة؟ مسحورة؟ لا تبالي.

لكنها الآن تلتقط هاتفها.. فعليها إجراء مكالمات ما.. ولديها غدًا أمر هام لتنجزه.

من أجله.

(22)

فرك «عمر» يديه وهو يقول بفخر، ملوحًا بهاتفه المحمول في دائرة: «المقطوعة تقريبًا خلصت.. أنا سجلت امبارح تلات أرباعها على الموبايل.. فاضل لي شوية كده، بس كلها في دماغي خلاص..».

ابتسمت «جيهان» في حنان وهي ترمقه بسعادة بعينين تضيقان من ابتسامة تحفها شفتان غليظتان، وكاد سمارها الهادئ يلتمع من سعادة داخلتها لمرأى وجه «عمر» الواثق، بينما علقت «سارة» من مجلسها على الأريكة الجلدية في ضجر: «ما احنا بقالنا بنسمع كده كتير يا «عمر».. انت واخد راحتك على الآخر وأنا زهقت، بصراحة حاسة إني ضيفة تقيلة، تقيلة مش علشان كلبوظة يعني وكده، لكن برضه احنا نفسنا نخلص بقى..».

ابتسمت «جيهان» ابتسامة خبيثة وهي تضرب رفيقتها بكف حنون على ركبتها، بينما لم يبتسم «عمر» لكلامها، واقترب من موضعهما «هيثم»، معدلًا ضفيرة شعره في توتر بينما يمسك بكوب من الشاي بيده الأخرى، وهو يتقدم نحو منتصف القاعة التي تتوسط بهو الفيللا.. ويستلم موقعه واقفًا بجانب «عمر»، في مواجهة الفتاتين، وقال في هدوء: «ماتنجزي يا «سارة»، هو إيه اللي وراكي يعني؟ شوية الملاليم اللي بناخدها من حفلات الجامعة؟ ولا الفرحين

اللي بيجولنا كل فين وفين؟ حيعمل إيه يعني؟ ماهو بيقول لك قرب يخلص خلاص..».

- «شهرين واحنا في بروفات.. ما تزعلش مني يا «عمر».. أنا نفسي بقى نعزف اللحن كله على بعضه..».

انفرجت أسارير «عمر» لاعتذارها المبطن.. وسحب نفسًا عميقًا قبل أن يقول في حسم وبلهجة المختنق من ضغط نفسي واقع عليه: «معلش يا «سارة»، معلش يا جماعة.. أبويا مزنق عليّا وكل يوم والتاني خناق ومناقشات، لكن والله هانت.. ».

قاطعه «هيثم» في ثقة وقال مربتًا على كتفه: «يا معلم ولا يهمك، احنا مش قلقانين، طالما السهرة عليك والمكان زي الفل، وكمان بنعمل اللي بنحبه، احنا اشتكينا؟ هي «سارة» مدب كده بس، طول عمرها».

قالت في صدق: «آه والله مدب، ما تزعلش يا «عمر»، والنعمة من استعجالي علشان الشغل يطلع للنور بقى..».

ابتسم «عمر» في سلاسة، بينما قالت «جيهان» في ثقة قصدت أن تصله منها نفحة: «احنا ماشيين كويس يا جماعة، واللحن «عمر» سمعني منه جزء إمبارح، وحيطلع حاجة عظيمة فعلًا. «عمر»، مش حتقول لهم ناوي على إيه؟».

صوب «هيثم» و«سارة» أنظارهما نحوه فاحمر وجهه قليلًا، اتسعت ابتسامته وقال بأنفاس متسارعة:

«فيه بروفة شبه نهائية الأسبوع الجاي، علشان عندنا مشاريع مهمة حندخلها باللحن ده. أنا تقريبًا عملت التوزيع خلاص، بكرة مفيش بروفة، أنا عندي ضيوف في الفيلا بس مش حتقدروا تكونوا موجودين..».

ابتسما لحديثه، إلا أن «جيهان» رفعت حاجبًا في دهشة، حاستها الأنثوية أنبأتها بأن هناك ما يخفيه عنها. زامت بفمها الغليظ للحظة، قبل أن تقول في دهشة: «ضيوف إيه يا عمر؟ أنا أول مرة أسمع بالحكاية دي..».

تجاهل ملحوظتها. تعامل مع كلماتها وكأنها تحاول الزج بنفسها في حديثه، فواصل ببساطة كأنها لم تقاطعه: «لسه مخلصها بالليل، صحيت في نص الليل وجربت كام حاجة كده.. وحتبقى تمام إن شاء الله..».

قالت وهي تمنع نفسها من استخدام لهجة لائمة صريحة: «أنا ما كانشي قصدي على الحكاية دي.. ».

هز كتفيه في بساطة وقال: «لو قصدك على موضوع الأوبرا، ماشي..».

قاطعته «سارة» وهي تصفق بيديها في مرح طفولي قائلة في حبور: «أوبرا؟ بجد يا «عمر»؟ حنعزفه في الأوبرا؟».

هز رأسه لأعلى ولأسفل بينما «هيثم» يطوح قبضته المضمومة في الهواء موحيًا بالنصر، و«عمر» يتابع: «مش كلام نهائي يعني، بس الحكاية تستاهل، من كام يوم قابلت واحد من الكبار اللي كانوا

بيتعاملوا مع أبويا في الشركة، كنت شفته كذا مرة وهو بيتردد على الموظفين هناك أيام ما كنت باشتغل، الراجل بيشتغل في وزارة الثقافة، وله علاقات كويسة جدًّا بالإدارة في الأوبرا وبتوع الساقية، المهم عرفني وقعدنا نشرب قهوة.. سمعته التسجيل بتاع الشغل.. قال لي إنت شغلك باين عليه كويس.. ووعدني إذا خلصنا في خلال شهر، يساعدنا في دخول مسابقة الشباب، ويمكن نشترك في ليلة من ليالي الأوبرا كمان، والتليفزيون حيذيعها والوزير حيكون موجود، والموضوع ممكن يكبر ونقدر نلاقي حد يمول القناة الفضائية اللي باحلم بيها..».

بينما تهلل وجه «هيثم» و«سارة»، عبست «جيهان» للحظة ثم تمتمت في خفوت محاولة إضفاء أكبر انكسار ممكن على لهجتها «كل دي أخبار ما نعرفهاش إلا دلوقتي؟».

هتف «هيثم» في انتصار: «دي عايزة احتفال لوحدها دي يا شقيق.. بص أنا حطلب دليفري من محل البيتزا بتاع المرة اللي فاتت، كان جامد..».

ابتسمت «سارة» مرغمة لسماعها سيرة الطعام في الأجواء، لكنها قالت في تحرج وهي تنقل بصرها بينهم: «يا «هيثم»، ما نجيب كشري وخلاص.. ما المصاريف دي كتير ولّا إيه؟».

قال وهو يضع ذراعه حول عنق «عمر» ممازحًا: «يابنتي جيب السبع ما يخلاش.. هو «عمر» حيسيبنا ناكل كشري برضه؟».

ابتسم وهو ينسل من ذراعه وينتحي بـ «جيهان» العابسة جانبًا، تاركًا «هيثم» يبدأ اتصاله بمحل الطعام. مدركًا أنها غاضبة، مداريًا

فهمه عنها، سألها بمرح ليكسر غضبها: «مالك؟ مش حاسك مبسوطة؟».

قالت وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها في غيظ مكتوم: «ما قلتليش يعني؟».

- «لسه الموضوع جديد..، وأنا مشغول باللحن والاتفاق اللي باقول لكم عليه..».

- «وضيوف إيه دي بقى؟ ومين؟».

ارتبك، إذ لم يتوقع مباشرتها له بهذا الشكل، لكنه هز كتفيه ببساطة وقال محاولًا إبعاد تركيزها عن تلك النقطة: «ماتشغليش بالك، ناس ما تعرفيهمش..».

في غيظ جاوبته: «فيهم بنات طبعًا..».

ببرود قال محاولًا إعطاءها جملًا لا تنساها: «فيهم ولا ما فيهمش.. مش شغلك يا جيهان.. أنا بعمل اللي بحبه وبشوف اللي بحبه..».

جاوبته في حدة من يلقي بنفسه من النافدة قبل أن يفقد شجاعة الانتحار: «يعني إيه؟ ما ليش دعوة ولّا إيه؟».

- «ماتخليناش نخرج عن حدود الصداقة أبعد من كده، وخلينا مع بعض بالراحة، ما تستعجليش الخناقات، احنا في شغل وفي مرحلة مهمة منه.. يعني التوتر والشد والجذب جاي، جاي.. أنا سألتك حاجة شخصية قبل كده؟».

ابتلعت ملحوظته في صعوبة دون أن تعلق، لكنها جاوبته بعصبية أنبأته أنها فهمت تلميحه «ما تسأل طيب هو أنا منعتك؟».

- «مش عاوز، مش عاوز يا جيهان..».

نظرتها التي تحاول استكشاف ما يخفيه في صدره، اصطدمت بعينيه الباردتين، مقلتين ثابتتين يظلهما صفان من الرموش القعيدة، راقبتا وجهها في ثبات.. حتى انكسرت نظرتها تحت نداء قلبها أن تتوقف ها هنا، أن تفدي دموعه بعنق كرامتها، ربما لوهلة.. لفترة.. ريثما تعيد تفكيرها فيما حدث.. فخفضت بصرها.

وكأن هذا كان إشارة له ينتظرها، فبشبح ابتسامة على طرف فمه، أدار لها ظهره منهمكًا في طرفة مع «هيثم».. وقاصدًا تركها في خيبة أملها التي كاد أن يراها بعيني ظهره.

(23)

- «ولا بيحبها ولا حاجة، الواد طالع براوي وعينه زايغة زي أبوه..».

- «أمال إيه بس؟ مش بتقولي بتحبه، وهو كمان بيعاملها كأنها صاحبته؟».

- «أنا سألته يا حسناء، مفيش حاجة خالص، هي المطربة بتاعة الفرقة، لازم يدلعها شوية، بيقول لي أنا مش مسئول عن إنها فيه في دماغها حاجات، وبرضه مش حاصُدًّها يعني ولا أقفش معاها.. ده شغل وإحنا لازم نراعي بعض..».

بدهشة قالت حسناء: «ده عمر؟ هو سنه كام علشان يتكلم كده؟».

- «إنتي فاكرة عمر ده سهل؟ ماهو ما جمَّع إلا ما وفق فعلًا، يعني خناقاته مع أبوه دي مش من فراغ، نفس الدماغ حتى لو كنتي مش واخدة بالك.. أنا ما بروحش الفيلا إلا لما يكون فيه تدريب أو بروفة، وبشرط عمر يسمح لي كمان، وساعات كتير برضه، لا بيبقى فيه بروفة ولا يحزنون، وما بيردش على اتصالاتي.. لكن أنا ببقى عارفة إنه في الفيلا.. ومش لوحده..».

- «عارفة إيه؟ منى!! ما تهزريش..».

- «طيب مش حهزر.. بطلي يا حسناء الهبل اللي انتي فيه ده، علشان خاطر النبي.. يعني ولد، وحليوة، ومعاه فلوس وعربية وفيلا.. خير؟ حيقعد جنبي يلعب بعرايس باربي والا يساعدني في تقشير الكوسة؟».

بوجه شابته حمرة خفيفة تناسب دهشة مغموسة بالحنق قالت «حسناء»: «يانهار أبيض!! في السن ده؟ هم كلهم كده؟ إلا يا ربي ما فيهم واحد يوحد ربنا يتعامل بنضافة، ده إيه الغلب ده! ده أنا..».

قاطعتها في حنق مسددة نظرة لائمة لها: «وبعدين بقى؟ لاحظي إنه ابني ده اللي بتتغزلي في شتيمته دلوقتي.. وبعدين انسي شوية الغل اللي جواكي ناحية الرجالة وخليكي في البلوة اللي أنا فيها..».

قالت في حنق مكتوم: «ماشي، علشان ابنك طبعًا ماعندكيش مانع.. طيب، أفهم بقى.. بلوة إيه تاني؟ ومتضايقة ليه أساسًا؟».

- «إنتي شايفة إن الأسلوب اللي عاملني بيه شريف في النادي، قدامكم كلكم.. ويوم عيد ميلاده، كل ده ما فيهوش حاجة؟!».

- «سيبك انتي من الكلام ده يا مُنى.. كل ده يضايق طبعًا، بس يعني احنا كلنا أصحابك، فمش حتفرق معانا وما فيهاش كسوف يعني، قلت لك ميت مرة، هو ما كانش عامل حسابه إنك جاية ومعاكي الشلة كلها، ما كانش مظبط رد فعله يعني..».

- «طيب واللي مش بتشوفوه؟ واحنا لوحدنا؟ واللي بحكيلك عليه؟».

في نفس اللحظة، جلسا بمواجهة بعضهما البعض في حجرة المكتب المتهالكة.

عيناهما مركزتان على رقعة شطرنج خشبية أنيقة.. «رأفت» يداعب ذقنه النابت وهو يزفر كمن يثقل صدره تفكير عميق، وينقل قطعة في تردد واضح لمربع على يسار الرقعة.. بينما يعود بظهره ليتكئ على ظهر المسند، كمن يريحه من التوتر.. رفع عينيه لوجه «شريف» فانتبه إلى أن عينيه تراقبانه في غير كلل.. ابتسم وسأله في دهشة: «إنت بتبص لي ليه يا ريس؟ حتلاقي لها حل، ما تخافش..».

قال في جدية ببطء كمن ينتقي كلماته: «شادي قال لي كلام يخوف النهارده يا رأفت».

بقلق انتقل لملامح وجهه، سأله: «موضوع الراجل بتاع التطبيق ده تاني؟ هو مش حيبطل بقى؟».

هز رأسه نافيًا وقال في حسم: «لأ.. الموضوع ده خلاص، أنا بتكلم عن حورية.. بيقول إنها لسه عايشة..».

تلفت «رأفت» حوله في قلق وقال بصوت خفيض: «وطي صوتك.. منى وحسناء يسمعونا..».

قال في ثقة: «ما تقلقش.. هم لما بيندمجوا في الكلام ما بيسمعوش حد.. أنا بس حبيت اسألك.. إنت اتأكدت بنفسك إنها ماتت والا لأ؟».

- «بعد السنين دي كلها؟».

نقل قطعة بثقة في منتصف الرقعة وهو يتابع: «أيوه بعد السنين دي كلها.. أنا كنت مسافر، وماكنشي عندي الوقت إني اتأكد من حاجة..».

أمسك «رأفت» بقطعة من قطع خصمه وهو ينقلها خارج الرقعة، ويضع قطعة من قطعه مكانها، وهو يجاوبه بثقة: «حورية ماتت يا شريف.. وقعت من البلكونة، ولا أنا حفكرك؟».

- «ماتت واتدفنت؟».

- «أمال ماتت وحنطوها؟».

- «حضرت العزا زي ما قلت لي؟».

- «هو فيه إيه يا شريف»؟

حملق فيه بدهشة.. فقال «شريف» وذقنه يتوسد راحة يده في تفكير: «شادي بيلاقي سيرة حورية في كل حاجة، من ساعة ما ابتدى يدور على علاقات رمزي وهي بتطلع له في كل خرابة.. صور، ومعلومات، جايز كمان فيه حد يعرف إيه اللي حصل، وبيحاول يفضحني، ويثبت علاقتي بموتها أو إني أخدت فلوسها، ويئذيني في موضوع الوزارة.. ويبقى تحقيق رمزي ده كله ستار، واللي وراه حورية..».

عقد «رأفت» حاجبيه في تفكير.. وقال بعد لحظات: «شوف.. هي ماتت، وشبعت موت. العزا والدفن حضرتهم بنفسي زي ما قلت لك.. أما إن حد يلاعبك بالموضوع ده.. يعني يدس معلومات غلط

على شادي.. صعب، لأن شادي مش عبيط، ويعرف يميز اللعب ده كويس..».

- «ماهو كلامك ده اللي بيقلقني.. يعني الموضوع بجد وهي ممكن تكون عايشة..؟».

حك ذقنه في حيرة وهو يقول: «مش ماشية برضه.. أنا بفكر في حاجة تانية..».

قام من مقعده ودار حول المائدة ومال بجذعه على أذن «شريف» قائلًا في خطورة: «موضوع تحقيق رمزي ده في حد ذاته مشكلة.. انت ممكن تكون بتلعب مع الراجل نفسه، أو مع حد أخطر منه وانت مش عارف.. لو الصور اللي شافها شادي دي، أوالمعلومات دي كلها.. لو كل ده حقيقي، يبقى فيه شخص بيلاعبك، أو بتعبير أدق يعني.. شخص بيجمع عنك معلومة معينة، عن طريق إنه يزقك بنفسك على تحقيق زي ده..».

- «ولو الشخص ده مش رمزي، يبقى مين؟ رمزي شافني في الحفلة بتاعته، لما رحت مع أسيل.. وما ظهرش عليه إنه يعرفني، ولا إنه مهتم إني موجود ولا مندهش أصلًا.. بعكس عزة مراته مثلًا..».

- «سيبك من عزة، أنا بتكلم عن شخص بيحاول يخوفك بالماضي.. بيعمل كده ليه؟ وهدفه إيه؟».

نظر إليه في حيرة وقلب كفيه قائلًا: «إنت بتحيرني أكتر.. أنا لو أعرف هدفه إيه والا هو مين ما كنتش سألتك..».

أشار له بسبابته في حسم من وصل لقناعة: «ومن غير ما تعرف يا شريف.. بناقص التحقيق ده، إنت بتلعب في حتة خطر..».

في تبرم أشاح «شريف» ببصره بعيدًا وقال شاردًا في رقعة الشطرنج كأنه يتجنب عينيه: «حتقول لي أسيل برضه؟».

عاد لاتخاذ موقعه أمامه وهو يركز ببصره في عينيه مجددًا: «هو انت مش شايف يا شريف؟ فيه مصدر معلومة معين أعطى الإيحاء لشادي إن حورية سافرت.. فيه مصادر تانية معلومات إن لها علاقة مع شخص نفوذه كبير، وإيده طايلة.. الشخص ده إنت بتعاديه بشكل غير مباشر، وبتحاول تفضحه قدام مراته وقدام الناس.. في وقت هو مرشح لمنصب كبير.. إنت كمان مرشح له.. إنت خصم وبتحاربه حتى لو مش واخد بالك، وإذا كنت مش شايف إن المعركة بدأت تبقى عمرك ما حاتشوف، مستني الخطوة الجاية والا مش حاسس بيها؟ مش فاضل غير إن فجأة يتعرف إنك كنت متجوز واحدة زمان، خلفت منها عيل، هربت بيه، وهي ماتت، وفيه شك انها اتقتلت.. وانت سجلت الولد باسم واحدة تانية.. كل ده يتعرف في الوقت ده بالذات.. وانت تخسر كل حاجة. لو مش فاهم ده كله، يبقى مش حتفهم إلا لما الدور يخلص فجأة..».

ونقل قطعة من قطعه إلى جوار ملك خصمه قائلًا في استفزاز: «كش مات..».

زفر «شريف» في غيظ لتلك النقلة، لكنه رفع عينيه بسرعة عن الرقعة وقال: «طيب المصدر اللي شادي أخد منه المعلومة دي، أو

دسها عليه، ما بيهددنيش بيها ليه؟ بيسيبني أنا اللي أكتشف المعلومات دي ليه؟».

قال في تأمل: «ليك حق. بس يمكن هو بيخوفك.. يمكن لسه حيهددك..».

- «في الحالة دي لازم أركز أكتر مع أسيل.. مش أبعد عنها..».

ابتسم «رأفت» في خبث وقال: «اعمل اللي انت عايزه، بس شيل موضوع حورية من دماغك.. لو هي موجودة، حتظهر.. أكيد حتظهر.. ولو حد بيلاعبك، أكيد حيهددك صراحة، وبرضه حتعرف كل حاجة.. بس أكتر حاجة مهمة دلوقتي إنك تخللي شادي يوقف التحقيق.. مالوش لازمة انك تستمر في السكة الخطر دي، ما تستفزش حد إنت ما تعرفوش.. وخصوصًا إنك لسه مش فاهم مين اللي ورا الموضوع..».

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 14

التضحية المحسوبة بقطعة كبيرة.. خطوة مهمة لتحقيق انتصار كبير، لكن هناك شروط أخرى مهمة لذلك الانتصار.

«كله تمام يا قمر؟».

- «أحسن من التمام يا حبيبي.. ما تشيلش هم..».
- «النهارده خلاص؟».
- «النهارده..».
- «معاكي الفلوس والعنوان وجهزتي الدنيا؟».
- «قلت لك ما تشيلش هم..».
- «أسيل.. المكان ده نضيف، ولا حيتعب فيه؟».
- «كأنه في بيته.. حتى الأكل والشرب عاملين حسابه..».
- «مش حشوفك طيب؟».

- «ما انا جيت لك الشركة من شوية بس إنت كنت بتتغدى بره، ما عرفش يا شريف إنك بتريح الضهر..».

- «وحشتك صح؟، ده حتى النهارده الفلانتاين..».

- «لأ كنت عايزة أضربك زي امبارح.. بمناسبة الفلانتاين يعني..».

- «يبقى وحشتك..».

- «سلام يا مغرور إنت.. حكلمك تاني بالليل أطمنك..».

- «حيكون معايا ناس، لزوم إن الأمور تبقى طبيعي وكده. بس حستنى مكالمتك..».

(24)

جلسوا في المقهى الراقي في حي «المهندسين». كانت «حسناء» هي أول من وصل، ولم تنسَ، وهي تحكم من غطاء رأسها المزركش، أن تبدي دهشتها من وجود «شريف» بينهم في ليلة كهذه. تبعها «شادي» لينقذه من أسئلتها المتتالية، جلس على المقعد الوثير الذي احتواه بالكاد وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة في استمتاع، مسح عرقه بمنديل ورقي التقطه في سعادة من على المائدة وقال شيئًا عن حضور «شريف» «اللي نورنا النهارده والله». «شريف» آثر أن يقطع التوتر الماثل كهواء رطب ثقيل، والذي خلفته جملة «حسناء» المتعجبة، وغذتها نظراتها المستفسرة، والتي اختلطت باختلاجة متكررة من رموشها حاولت بها مداراة انفعالها الذي خلفته جلستها مع «منى» عصر اليوم، فقال وهو يشرد في المناضد اللامعة الرخامية التي امتلأ بها المكان في تناسق، وفي الفتاة الرشيقة التي انسلت بين المقاعد السوداء المخملية لتسأل الجالسين عن طلباتهم في رقة وتهذيب، وفي الأزواج الذين جلسوا إلى المناضد من حولهم مقربين رءوسهم من بعضهم، النظرات الخجلى والجريئة، الابتسامات الماكرة والمفتعلة، التهذيب المرسوم والهمس المشتاق، الألوان الحمراء وعبوات الهدايا الملونة المزدانة بشرائط مموجة الألوان، ومن بين نغمات «الجاز» التي صدحت بها أجواء المكان في تؤدة: «أنا عرفت

النهارده من «شادي» إنكم خارجين مع بعض، قعدة «سناجل» وكده علشان الفالانتاين.. يعني، حبيت أكون معاكم علشان أغير شوية من جو الشغل، وكمان ما تتضايقوش لوحدكم وماتقلبوهاش نكد».. قالها، فواجهته نظرة «شادي» الودودة وهو يربت على كتفه ضاحكًا ضحكة طفولية وهو يقول: «يا حبيبي يا «شريف»، والله إنت عسل فكرت فينا في يوم زي ده بدل ما تكون مع مراتك؟ ربنا يخليك يا كبير. خلاص القعدة بتاعتك عليَّا الليلة دي».. حملقت «حسناء» فيه بجدية يمقتها، ومقلتاها تتراقصان على وجهه قائلة بهدوء حذر وهي تفرك يديها: «و«منى»؟ يعني تفتكر مش حاتزعل كده منك يا «شريف»؟».. همَّ بالرد قبل أن يقاطعه صوت «رأفت» المجلجل من خلفه وهو يستعد للجلوس إليهم قائلًا في مرح: «إنت إيه اللي جابك يا شريف في قعدة «السناجل» هي تماحيك وخلاص؟ باقول لك إيه احنا مش طالبة معانا نكد الليلة دي، اوعى تكون ضارب خناقة وجاي؟».

نهره «شادي» لكن «شريف» قال في بساطة: «لا والله، «مُنى» قالت لي بلاش نصرف فلوس ما لهاش لازمة، و«عمر» في الفيللا بيذاكر مزيكا، وحماتي بتزورنا، لقيت نفسي فاضي قلت أنزل معاكم أغير جو شوية».

«حسناء» بدا عليها عدم الاقتناع إلا أنها آثرت الصمت، أما «شادي» فقد انفرد بالفتاة الرشيقة التي تتولى طلبات الزبائن، وأخذ يملي عليها قائمة طويلة من الأطباق لنفسه، وثلثًا مثلها للباقين، مضيفًا في مرح، انتزع به ضحكة مجلجلة من الفتاة صاحبتها نظرة

إعجاب خاطفة: «باقول لك إيه؟ ما تجيبي القلم اللي في إيدك ده وأنا أعلم لك على سطرين تلاتة كده أشطبهم لك من المنيو، والباقي هاتيه كله عادي؟».. أتبعها بنظرة هائمة على إثر ضحكتها الرقيقة.. انتفضت معها مسددة له نظرة باردة وهي تتمتم في آلية: «تحت أمرك يافندم.. دقايق والأوردر يكون عند حضرتك».. تبادل «رأفت» و«شريف» ابتسامة خبيثة وهما يرمقان خيبة أمل «شادي» التي نقشتها قسماته.. ولم يلبث أن تابع «شريف»، ليمنع هجومه على تفسيره، قائلًا: «وإنت عامل نفسك «سنجل» يا «رأفت»؟ إنت مش عندك ولد وبنت بتصرف عليهم؟ مش ناقص غير تلبس أحمر وتجيب دباديب معاك!».

انبرت «حسناء» قائلة في تهكم وكأنها كانت تتحين فرصتها: «هو ده بيهمه؟ خليهم ياعيني مرميين قدام التليفزيون، لحد ما يرجع آخر الليل يلمهم من على الكنبة ويحطهم في السرير، ما هي المحروسة أمهم أكيد بتتنطط هنا ولا هنا في الفلانتاين، وسايباهم للبيه».

ضحك لكلامها وجلس فاردًا ساقيه أمامه في ارتياح وهو يتظاهر بالتمطع: «لا ياختي، العيال عند جدتهم، وبعدين زعلانة ليه، أمهم لسه شابة وبتلف نادي الصيد على صباعها في خمس دقايق، أنا أنكر يعني؟ من حق الحلو يتدلع يا بنتي.. خصوصًا لما يبقى حلو وصغير، ومطلقة وبتاخد نفقة قد كده كل شهر..». زمت ما بين حاجبيها لفشل محاولتها ببث الغيظ في صدره، لكنه تجاهلها ونظر لـ «شريف» وقال ساخرًا: «ياريت كان فيه حد أجيب له دباديب، ما هي طفشت من عمايلي من زمان. أنا ماليش في الجواز يا معلم، أنا مرتاح كده

وزي الفل، وبعدين ما لهم يعني «السناجل»؟ أجدع ناس.. مش كده يا «حسناء»؟» قالها «رأفت» وغمز بطرف عينه لرفيقيه خفية، فاحتقن وجهها الأسمر وأوشكت على الرد لولا أن أضاف «رأفت» في بلاهة متعمدة وكأنه لا يقصد شيئًا: «هي «شيرين» مش جاية ولا إيه؟».. بدا عليها الغيظ وقالت في حدة مكتومة ببطء: ««رأفت» بَطَّل طريقتك دي، أنا مايهمنيش البتاعة دي تيجي ولا ماتجيش، مايغركش المواعيد والاشتغالات بتاعتها دي كل مرة نخرج فيها، قال يعني العرسان مابيبطلوش زيارات في صالون بيتهم، تلاقيها مش فاضية ولا حتغسل شعرها وتقعد تلعب بلايستيشن ولا راحت عليها نومة، ولا بترغي في التليفون مع صاحباتها اللي ما نعرفهمش دول واللي بتطلع من الأوضة تكلمهم علشان نفتكرهم ولاد..» عاجلها رأفت بهدوئه المستفز: «هي بتقول عندها ارتباطات مهمة، ياللا.. خلينا نفرح بيكم قريب إن شاءالله».. أشاحت بيدها في الهواء مبدية عدم اهتمام بشكل فشل في إقناعهم وقالت: «ارتباطات ولا مش ارتباطات، ياخبر النهارده بفلوس، ثم أنا مال أهلي؟».. قطع حديثها حضور قائمة الطلبات التي اضطر النادل إلى حملها على طاولتين عملاقتين، بينما كان «رأفت» يبتسم كعادته وهو يناول حسناء علبة سجائره التي تناولتها منه في بساطة قائلة في بساطة: «هات يا «سوسة» إنت، ارتحت وعصبتني؟».

كان «شادي» قد شرع بالفعل من التهام أولى شطائره وهو يقول بفم امتلأت زاويته بالطعام: «ياجماعة «شيرين» غلبانة والله».

لكن «رأفت» كان مصرًّا على الاستمتاع لأقصى مدى وقد لاحظ انطفاء جذوة غيظ «حسناء» فقال محدثًا «شريف» في لؤم: «طيب يا «شريف» إنت مش شايف برضه إن «شيرين» غلبانة ومش ناقصها حاجة علشان تصاحب حتى على الأقل؟ يعني حلوة وكيوت بصراحة، وبنت دمها خفيف وستايل، مش فاهم أنا ليه بترفض العرسان ولا عمرنا شفناها مع (بويفريند) ولا حتى أنتيم نحلف بيه؟».

همَّ بالرد، ليقطع هذا الحوار المُنذر بالغليان، لكن «حسناء» فارت من جديد وقالت في سخرية تموج بالغضب: «إنت بتصدق يابني بجد؟ بترفض مين وكيوت إيه إنت كمان؟ دي عاملة زي القطة المنفوشة ويا أرض اتهدِّي ما عليكي قدي، يا شيخ روح كده، الصيت ولا الغنى.. ولما هي الناس مموتة نفسها عليها قوي كده زي ما انت بتقول، ماشفناش ولا سمعنا ليه يعني؟».

ضحك «شادي» و«رأفت» في جذل، لأن خطته تسير كما يرجو لها، بينما تابع الأخير «ما هي لها حق تتجوز حد كويس، هي بتتجوز واحد وخلاص ولا مش لاقيه؟».

رفعت كوب العصير من أمامها ولوحت به ناحيته في رفق يحمل تهديدًا واضحًا: «حاخليك فرجة في المحل يا «رأفت» والله العظيم، لو مابطلتش حادلق العصير على دماغك، احنا يعني اللي مش لاقيين، ولا علشان سكتنالك يعني؟».

ضحك في استمتاع مجلجلًا، فخفضت كوبها مرة أخرى، بينما قال «شادي» شيئًا عن «رذالته»، لكن «رأفت» قاطع ضحكاته وهو

يضيف بلهجة ذات مغزى وهو ينظر في عينيها مباشرة: «والله إنتو ما يعجبكمشي العجب، ما يملاش عينكم إلا التراب».

احتدت عليه قائلة بعصبيتها المعتادة: «بطل بقى تلميحاتك السخيفة دي.. أنا عندي كرامة، إنت فاكر نفسك مين يعني؟».

حتى «شادي» بدا عليه الذهول، وهو يجاهد للتظاهر بعكس ذلك حتى لا يقع أحدهم في الحرج، المناضد المحيطة بهم ران عليها صمت، الفتاة الرشيقة التي تخط طلبًا لعاشقين يجلسان خلف مجلسهم، تحجرت يدها الممسكة بالقلم وصوبت لهم نظرة ملأى بالاتهام كأنها تسألهم، ماذا فعلوا بـ «حسناء»، ثم سرعان ما تحركت أهدابها عدة مرات في سرعة وهي تعاود التظاهر بالكتابة خافضة عينيها كما فعل رواد المناضد، في تكلف من يريد أن يبدو بمظهر غير المتابع لما يجري، حتى «رأفت» و«شريف» تبادلا نظرة ذاهلة قبل أن يتمتم الأول في أسف ولوم: «يا «حسناء» أنا مش بتكلم عليكي خالص، احنا بنهزر يا بنتي مالك؟!»، لكنها كانت كمن استشعر نصلًا في قلبه فلم يعد قادرًا على كبت صرخته: «إنت عارف كويس إنك تقصد..».

قامت من جلستها بسرعة دون أن تعطي أيهم فرصة للتدخل، انتزعت حقيبة يدها من خلفها وتناولت معطفها و«رأفت» يعاود التأكيد بعد الآخر أنه لم يقصد شيئًا، لكنها قامت بتحية «شريف» و«شادي» دون «رأفت»، وتوقفت عند الأول قائلة بغيظ مقتضب لم يفهم له كنهًا: «تحياتي لــ «منى» ولـ «عمر» يا «شريف»».

حاول «رأفت» أن يثنيها عن رحيلها داعيًا إياها للتمهل والجلوس قليلًا، لكنها دارت بمقلتيها الواسعتين نصف دورة لأعلى معلنة مللها في عصبية، وهي تزوم وتنطلق مبتعدة، وكعباها يدقان الأرضية المصقولة في عنف أثار حملقة الجالسين.

لكنه انتحى جانبًا ليجيب هاتفه الذي ازدانت شاشته بحروف اسمها الذي اختلج قلبه لمرآه.

«خلاص؟».

- «كله تمام..».

- «أنا قاعد مع الجماعة في كافيه هنا.. مش حقدر أشوفك الليلة دي.. حرجع لهم بعد ما أقفل معاكي..».

- «ولا يهمك.. خللي بالك من نفسك.. وماتخافش على «عمر»..».

- «بحبك..».

- «بطَّل دلع..».

لم يكد يعود أدراجه ويستلم مقعده.. حتى سمع «شادي» وهو يقول في مرح:

- «خلاص يا جماعة، سيبكم من النكد ده بقى.. ياللا الحلو نزل أهو مدوا ايديكم بالهنا والشفا..».

فرك «شادي» يديه بعد أن خرجت تلك الكلمات منه بلهجة من يريد إضفاء المرح على الجلسة المتوترة، بعد انقشاع الزوبعة التي

أثارها رحيل «حسناء»، وبعد اكتمال الجلسة بعودة «شريف» إثر إنهائه المحادثة الهاتفية التي قام بسببها مختليًا بمحموله في ركن بعيد عنهما.. لكن مرح «شادي» لم يقابله رفيقاه بما يوازيه من حبور.. إذ زفر «رأفت» بغيظ وهو يقول: «مجنونة.. والله العظيم مش طبيعية..».

بصوت هادئ قال «شريف»: «إنت برضه بتنرفزها يا رأفت.. وبعدين إيه حكايتكم بقى؟».

- «هي دايمًا على نار كده، وقاعدة لي على الواحدة، وكأني لازم آخد خطوة في أقرب فرصة.. وإلا أبقى لعبي وبصباص وباتسلى.. حاولت 100 مرة أفهمها إني مديون، وبدفع نفقة وشغلانة.. فهمت إني باتهرب، وإني معتبرها بترمي نفسها عليًا، علشان كده أنا برذل عليها، نفسي تحل عني بدل ما محسساني إني السبب في وقف حالها كده، أنا مانكرشي إنها لطيفة، وجدعة.. لما بتبقى هادية يعني، والولاد بيحبوها فعلًا وهي معاهم محصلتش.. بس أنا مش فاهم هي ليه مستعجلة.. إيش حال لو ماكانتش جربت الجواز، وداقت النار زيي..».

قام «شادي» ليدفع فاتورة جلستهم، وهو يتمنع على كل محاولات زميليه بمشاركتهما له. مالبث أن ابتعد، فصوب «شريف» نظرة خاصة لرفيقه، غرقا معها في ضحكة ساخرة جماعية، وكفَّاهما تتلاقيان في جذل.. و«شريف» يقول بلهجة مرحة تشوبها جدية:

«إنت كده من زمان، متهور وبتاع نزواتك وبس، والبنت حاسة بكده، فماتلومهاش قوي يعني..».

بابتسامة ساخرة أجابه مستنكرًا: «نزواتي؟ أنا برضه؟ احنا دافنينه سوا يا كبير..».

«تلفت حوله في ذعر وهو ينظر له بلوم جاد.. إلا أن «رأفت» طمأنه بحركة من يده، متابعًا في جدية: «مالك؟ فيه قطة جديدة ولّا إيه؟، ولا القطة هي هي برضه؟».

ابتسم لتلميح صديقه وهو لا يعلق.. لكنه قال عندما اكتسى وجهه بمسحة الجدية الملائمة: «عارف أنا مش بكره «منى»، بس.. أنا زي ما أكون مضطر أكون معاها، علشان هي مراتي، ولازم أحبها».

- «وإيه اللي يخليك تفكر في حاجة زي دي؟ يعني ما كل اتنين عايشين مع بعض مكملين، بيحبوا بعض ولا هو تعود ولا احتياج.. ماحدش بيفكر كده..».

«ماعرفش. فجأة لقيت نفسي بفكر، وبفتكر. أنا اتجوزتها وكنت بحبها، طيب إيه اللي غَيَّر دا دلوقتي؟ اتعودت عليها، ولا زهقت منها؟ طيب إيه اللي يزهق؟ هي بتعمل لي كل اللي انا عايزه وشايفاني دايمًا على حق، زعلي من «عمر» بتلاقيله سبب حتى لو مش موافقة عليه، تشجيعي للفريق الخيبان اللي بحبه بتسميه تميز وإخلاص، الشركة اللي عمري ماغيرتها ولا وافقت أطلع أشتغل في الخليج ولا غيره، البيت اللي ماحبتش أغيره، حتى روتين الحياة اللي بشتكي منه، شايفاه التزام واحترام وشخصية. زمان كنت منبهرًا بيها وبتقديرها لكل حاجة فيَّا، دلوقتي حاسس إن ده اتغير جوايا.. مابقاش مهم زي الأول..».

- «يمكن مشغولة عنك في الشغل ومشاكله؟».

- «مش عارف. «منى» بقت بتفكر في حاجات غريبة، واهتماماتها بقت غير زمان.. ابتديت أحس إن مفيش حاجة فيَّا عجباها زي زمان، بس مش بتقول، وإن كل كلامها مجاملة..».

- «وانت يعني كده، لقيت اللي عاوزها يا «شريف»؟».

- «قصدك مين؟».

- «لو إنت مش عارف كنت سألتني قصدك إيه؟ مش قصدك مين؟.. أقول لك أنا: القطة اللي كانت في الشركة بتاعة القضية الجديدة.. «أسيل»؟ صح؟».

- «مالكش دعوة بيها يا «رأفت»..».

- «ياسيدي وأنا مالي، ربنا يسعدك، أنا ما قلتلكش زي «شادي» إنك تبعد عنها، أنا قلت لك بس حاسب من التحقيق بتاعها، لكن تعال هنا: إنت مش خايف «منى» تقفشك زي كل مرة؟ ما انت الحاجات دي بتجربها كام أسبوع، وعمرك ما ارتحت..».

- «والمفروض كنت أرتاح ازاي؟».

- «عمرك ماكنت عايز من واحدة غير جمالها وجسمها، ولا استفدت حاجة إلا المغامرة اللي بتخليك منعنش كده ومبسوط شوية.. وبتتفقس في الآخر، وتعيش شهر بتصالح «منى»، وحياتك تقلب غم. شفت الميزة في اللي أنا فيه يا صديقي؟ وتقول لي حدد موقفك؟».

صمت للحظات قبل أن يجاوب قلق صديقه في تردد شارد: «مش عارف يا «رأفت»، المرة دي مش زي كل مرة. أنا كل يوم بيعدِّي عليَّا،

باحس إن «أسيل» مختلفة، وإن المرة دي جد.. ومش نهاية زي كل نهاية زي ما إنت بتقول..».

- «طيب خلاص دلوقتي، «شادي» راجع أهو.. نكمل كلامنا بعدين..».

(25)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 14 (استكمال)

التضحية المحسوبة بقطعة كبيرة.. خطوة مهمة لتحقيق انتصار كبير، لكنْ هناك شروط مهمة لذلك الانتصار.. أهمها أن تكون قد أعددت حساباتك جيدًا.. الخطأ هنا قد يتسبب في كارثة.

انصرفوا كلٌّ إلى حاله.

عقارب ساعته تشير إلى العاشرة والنصف.. ساعة واحدة ويتم كل شيء.. كما وعدته «أسيل».

ساعة واحدة ويقدم بيده على أغرب خطة يضعها أب ليستعيد ابنه..

يستعيده بأن يفقده أولًا.

شرد في طريقه، جالسًا خلف مقود سيارته، سأل نفسه.. هل بالفعل لم يسلك كل الطرق التي يقترب بها من «عمر» سوى هذا الطريق؟

لماذا لا يدعه وشأنه.. «مزيكا»، أصدقاء.. مرح وانطلاق الشباب.. حياة يعيشها أو تعيشه، بلهو وبساطة.. ربما كانت سن «عمر» الغضة، ربما كان دفء دفقات دمه الشابة، ربما هي روحه التي يخشى عليها «شريف» من التهشم، كأوراق الخريف الهشة تحت وطأة أقدام زمن عانى منه هو كثيرًا؟

فهل يبالغ في الخوف عليه؟

وأي أب لا يفعل؟

لكن هل كلهم محقون؟

قال له ذات مرة وهما يجلسان إلى طاولة الإفطار في المنزل، بعد أن قاربت مراسم الإفطار السريعة على الانتهاء، وبدأت «منى» تُهرع لإعادة الأطباق إلى المطبخ، وقدح القهوة يتناوب بين شفتيه وبين راحة يده.. قال بينما هو يعلم أن «عمر» يتشاغل عنه بالعبث في حقيبته الجلدية التي يصحبها إلى الجامعة: «تفتكر أنا عاوزك تطلع شبهي وبس ولا عاوزك تطلع مبسوط وناجح؟».

دون أن يرفع عينيه إلى أبيه قال وكأنه ينتظر السؤال مغمغمًا: «كويس وناجح، بس زيك».

- «ولو بقيت بني آدم ناجح بس مختلف، تفتكر يعني أنا حزعل؟».

- «بس إنت شايف إن ده خيال علمي، إزاي مامشيش زي ما إنت عايز وأبقى ناجح؟ إنت نفسك مش مصدق اللي بتقوله..».

- «ليه؟ هوأنا أعرف الغيب؟ ماتعمل اللي إنت عاوزه، حتى لو مختلف ولو غيري..».

- «قصدك أمشي على خطتك.. أخلص الكلية وأنجح كل سنة، وأمسك الشركة وأمشي في نفس الكارير، أحب نفس الحاجات وأكره كل اللي بتكرهه.. ولو عاوز بعد كده أكون مختلف مافيش مشكلة، لو عاوز بعد كده أعمل قناة فضائية للموسيقى أعملها، بس طبعًا حيبقى سني وصل خمسين سنة.. ده اللي هو إزاي يعني؟».

- «قناة فضائية؟ إنت لسه الموضوع ده بتتكلم فيه؟».

- «شفت!!»

- «إنت علشان بتلعب مزيكا، حتفتح قناة مزيكا؟».

- «اللي بفهم فيه، وبحبه..».

- «يابني الناس مش عايزة اللي إنت بتحبه.. ألحان ومزيكا وناس بتتكلم على الميلودي والمقطوعات.. مش ده اللي ماشي، ده بقى هو اللي خيال علمي بجد..»

كان هذا اليوم قبيل الصيف الأخير الذي اصطحبه فيه للعمل معه، والذي تفاقمت بعده الأمور.. فلم يعد فقط يكره الاستماع إليه لكنه أيضًا اطلع على طبيعة عمله فكرهها.. ولم يعد يطيق له ولاية، ولا يحترم له رأيًا.

عض على شفته السفلى قهرًا وهو يعاود التركيز في طريقه..

هذه الحياة التي اختارها.. تلك الشركة التي أفنى عمره لها وبها.. ولعمر ولمستقبله.. هي التي باعدت بينه وبين ولده.. أو هكذا يبدو له الآن.

لكنه سيستعيده.. سيستعيده ولو كان ذلك هو آخر شيء يفعله..

خطة «أسيل» محكمة بشكل جيد. تدعوه أن يدع القلق جانبًا، تسر إليه بأن كل شيء محسوب بدقة، وأن لا سبب هنالك أن يشغل تفكيره بأية تفاصيل.. لكنه يعرف أفضل.

هو.. صاحب الصولات في المراقبة والتتبع، بطل التنصت وجمع المعلومة.. اللاعب الماهر على رقعة المهمات الصعبة.. هو.. لن يترك ابنه أبدًا فريسة لخطة تدبر بليل، وتحاك في الظلام وتنفذ في الخفاء، حتى لو كان هو من وراءها، دون أن يكون شاهدًا بنفسه، مراقبًا بعين الأب، ملاحظًا بقلب الراعي والولي.

اختار بعناية بقعة بعيدة عن الأعين.. جانب الطريق الضيق الذي تقع به الفيللا الأنيقة.. تحيط بمبناها المكون من أحجار فاتحة، فروع أشجار قصيرة لا تحجب بابها عن ناظريه.. أوقف سيارته بحيث لا تكشفها أشعة المصابيح الباهتة التي تضيء الشارع الهادئ.. أطفأ محركها وانتظر، حتى تأكد من أن أحدًا لا يراقبه.

هكذا سيرى بنفسه ما سيحدث.. لن يقلقه ضميره ولن تلعب به الظنون..

هي عدة ساعات ويعيده سالمًا، لكنه رغمًا عنه لا يعتبر المهمة كاملة دون أن يتواجد بها منذ ضربة البداية.

عشر دقائق، ويحين الموعد المتفق عليه.

كان هذا، عندما عكست مرآة سيارته الأمامية فجأة ضوء مصابيح سيارة آتية من بعيد.. لم يخف على حاسته أن قائدها يدور ببطء،

وبخفة.. من حول الفيللا لكيلا يلاحظه أحد، وكأنه يتأكد أولًا من عدم وجود عيون تراقب وصوله أو الفيللا، قبل أن يقترب بنفسه منها.

غطس بجسده في مقعده بحيث لا يظهر منه شيء وراقب السيارة وهي تختار لنفسها موقعًا مثاليًا، في بقعة أحاط بها ظلام دامس قبالة الفيللا.. وكيف أن جسدًا رقيقًا هبط منها في سرعة، تلفت الجسد حوله في سرعة، وهو يضم ياقة معطف حول رقبته الدقيقة يتقي بردًا وهميًا.. ثم عبرت الساقان المسافة الفاصلة في سرعة.. راقب «شريف» ما يحدث بأنفاس متقطعة والزائر يصعد الدرج القصير المؤدي لباب الفيللا.. واتسعت عيناه في دهشة عارمة، في تناسق وتناغم مذهل مع اتساع عيني «عمر» حينما أضاء مصباح الفيللا وجه القادم بليل، لدى انفتاح الباب على مصراعيه استجابة للدقات القصيرة عليه، من أنامل مرتعشة، خائفة.

كان الأب وابنه على نفس درجة الدهشة لرؤية وجه «شيرين» المضطرب يقف أمام باب الفيللا في تلك الساعة من الليل.

دق هاتفه فكتم صوته بلهفة، لم يلحظ «عمر» و«شيرين» ما حدث.. بدت حركات جسديهما لا تعبر إلا عن دهشة وتوتر طرف يمسك بطرف الباب ليبقيه مفتوحًا، ويجاهد لحفر بسمة ترحيب على قسمات وجهه، وعن خجل وخوف طرف آخر، ووجهها الوضاء يزيده ضوء ردهة الفيللا المنعكس عليه من خلف كتفي الواقف أمامها ضياءً، وهي تخطو داخل الفيللا ترقب وجهه في شغف ممزوج بتساؤل.. حتى انغلق الباب وراءهما فالتقط هاتفه وهو يرد بنفاد صبر: «أيوه يا «منى».. خير؟».

- «خير إيه يا «شريف»؟ الساعة بقت داخلة على نص الليل.. وإنت بره من الصبح.. و«عمر» راح يذاكر في الفيللا مع أصحابه من بدري وأنا لوحدي.. انت مش جاي بقى؟».

- «لسه شوية يا «منى».. ورايا شغل.. انتي بتتصلي بيَّا علشان «عمر» نزل وإنتي لوحدك ولا علشان أنا اتأخرت؟».

- «علشان خايفة.. أنا شفت كابوس وحش قوي يا «شريف»..».

خفض من حدة توتر نبرة صوته وهو يقول بهدوء حانٍ: «اللهم اجعله خير.. روَّقي بس وافتحي حاجة في التليفزيون، فيلم رعب ولا حاجة حلوة كده لحد ما آجي..».

- «باقول لك شفت كابوس وخايفة.. تقول لي شوفي فيلم رعب؟.. أنا عاوزة أحكيهولك.. تعالى بقى بسرعة..».

- «مش حينفع يا «منى».. أنا لسه قدامي بتاع ساعتين.. يا تنامي، يا تسلي نفسك بفيلم رعب يخليكي ماتعرفيش تنامي لحد ما آجيلك..».

كان ينقل عينيه في ترقب بين باب الفيللا ومدخل الشارع، لئلا يلمحه أي من المارة الذين قد يتصادف مرورهم لأسباب لا يسعها العقل في ذلك البهيم من ليل القاهرة.. بينما تواصل «منى» في إصرار: «مش حعرف أنام يا «شريف».. بص، أنا ححكيلك الكابوس وخلاص..».

بدهشة هتف بها، وهو موقن أن لا فائدة ترجى من مقاطعتها: «لأ.. تحكيلي إيه دلوقتي..؟».

لكنها واصلت وكأنها لم تلحظ مقاطعته: «شوف، أنا وانت كنا في البيت مع بعض.. وبندور على «عمر» حبيبي.. وانت بتقول لي هو في الجامعة واتأخر شوية ماتقلقيش.. بس أنا قلقانة مش عارفة مالي.. وفجأة.. لقيت البيت كله اتملا تماسيح.. تماسيح صغيرة وسودة.. وتماسيح كبيرة وخضرا وغامقة.. طالعة من كل الإوض.. وماشيه على أرضية الصالة.. أنا مسكت فيك جامد وقعدت أقول لك: الحقني يا «شريف».. تماسيح يا «شريف»..».

كظم غيظًا تجمع في صدره وهو يضبط مخارج كلماته كي لا يضطر لرفع صوته أكثر وقال من بين أسنانه: ««منى».. أنا فعلًا ورايا شغل ومش عارف أركز معاكي».

- «استنى بس.. المهم إنت ماكنتش شايف التماسيح وعمال تلعب شطرنج مع واحدة أنا معرفهاش.. ومبسوط قوي لأنك بتغلب وماشي حلو في الدور.. مش فاكرة مين.. وكل ما اقول لك التماسيح يا «شريف» الحقني، تقول لي هي فين التماسيح دي، وتكمل لعب، المهم أنا جريت بره الشقة.. وخبطت على شقة مامي..».

- «أمك مش ساكنة جنبنا يا «منى».. عرفتي إنها تخاريف ولّا لسه؟ ياللا اقفلي لحد ما آجيلك..».

- «لا يا «شريف» إنت مش فاهم.. في الأحلام أي حاجة ممكنة.. يعني مش لازم أروح لماما شقتها بجد.. هي أكيد شقتها جنبنا في الحلم علشان هي حاسة بيًا وبالمشكلة اللي أنا فيها..».

- «مشكلة إيه؟»..

«مشكلة التماسيح..».

صاح في غيظ حقيقي: ««منى»..ماينفعشي كده بجد..».

- «استنى بس.. المهم، خبطت على ماما وأنا خايفة جدًّا، فتحت لي شافتني مخضوضة كده، على طول سألتني: مالك؟ قلتلها: «تماسيح».. قامت قالت لي ادخلي بسرعة.. وقفلت الباب ورايا.. بس!! مش فاكرة حاجة تانية خالص.. إيه رأيك يا شريف؟ تفسيره إيه ده؟ والأهم من كده، مين الست اللي معاك دي يا «شريف»؟».

ارتسمت على شفته ابتسامة سخرية مريرة، بعد التوتر الذي اجتاحه ما بين تمزقه في الاستماع لرتابة وتيرة قصتها، والمراقبة لباب الفيللا.. وقال في مرارة ممزوجة بفكاهة:

«يعني الست اللي معايا دي هي الحاجة الغريبة اللي لفتت نظرك يا «منى»؟ مالفتش نظرك إن أمك أول ما سمعتك بتقولي إن فيه تماسيح في الشقة.. قالت لك ياللا خشي على طول، وقفلت الباب؟ عادي كده؟».

- «ماما خايفة عليَّا.. مش زيك، مش مهتم وكمان قاعد بتلعب وسايبني.. ويمكن بتخونني زي عوايدك..».

- «استني بس سيبك مني أنا.. خلينا في أمك شوية.. يعني إن الواحد يبقى فيه في بيته تماسيح ده خبر عادي قوي كده؟ هو انتي كنتي بتقولي لها فيه برص في البلكونة ولا صراصير في الحمام؟ ولا دهشة ولا سؤال حتى: يعني مثلًا تسألك: «تماسيح يعني إيه؟.. في البيت إزاي؟.. مالك انتي شاربة حاجة ولَّا إيه؟..» أي حاجة

شبه كده، إنما لأ.. بتقول لك ادخللي بسرعة، يالَّا كلنا نتجمع في الصالون ونستخبى من التماسيح ونلبس أخضر في اسود علشان يفتكرونا تماسيح زيهم، ومايجوش جنبنا..».

لم تستطع كتمان ابتسامتها لسخريته، فظهرت على ارتعاش حروف كلماتها التي حاولت جاهدة ألا تفلت رغمًا عنها في ضحكة عالية، وقالت بأشد درجات الحزم الذي استطاعت الإتيان به: «على الأقل خايفة عليًا.. عايزة تحميني مش زيك، قاعد مع البنت الصايعة دي وبتلعب شطرنج ولا همك..».

- «إيه يا «منى»، هي أمك كانت عايشة في أدغال إفريقيا ولَّا إيه؟ عادي يعني كانت التماسيح داخلة طالعة في بيتها وهي قدك كده ولَّا إيه؟ صباح الفل يا حاجة.. صباح النور ياتماسيحو، ازي العيال عاملين إيه؟ والله ياست الكل بيبوسو إيديكي، الواد الكبير صدره اتدفى خالص من ساعة ما بقى بيلبس التيشيرتات اللي إديتيهالو بتاعة البيه الكبير، والبت بقت بتحب الخضار وحتبطل تعض بني آدمين من دلوقتي بعد ما اتكلمتي معاها ربنا ياركلك.. إيه؟ مافيش اندهاش إطلاقًا؟».

أفلتت على الرغم منها ضحكة وهي تجاوبه في يأس: «يعني كل ده علشان قلت لك خايفة وتعال؟».

- «حاجي يا «منى».. اصبري شوية بقى، سلام دلوقتي.. سلام حاكلمك تاني..».

سارع بإغلاق الخط دون أن يستمع حتى لإجابتها.. إذ تحرك باب الفيللا ليكشف عن «عمر» وهو يودع «شيرين».. قبلها على جانب

وجنتها في تعجل.. هبطت السلم بجسد تشي حركته بخيبة أمل.. أغلق الباب مسرعًا بينما ابتعدت هي في خطوات مترددة.. تتوقف قدماها للحظة وتدوران على عقبيهما، تنظر وراءها للفيللا.. تتردد لثوان كأنها تبغي العودة، أو تتمناها.. في النهاية تجر جسدًا متشبثًا بالمكان إلى سيارتها.. تديرها في هدوء.. تبتعد مسرعة وكأنها تبغي لصوت صرير سيارتها الغاضب أن يصك مسامع ذلك الذي لم يحتفظ برفقتها معه في الداخل بأكثر من دقائق.

سأل نفسه محنقًا.. ماذا يحدث؟

فيم كان مجيئها وفيم كان الرحيل؟ ساعته تشير إلى تأخر الموعد المضروب قليلًا.. لكن مازالت الأمور في حدود المعقول.. ثم السؤال الأهم.

«عمر» و«شيرين»؟

لم يكن ليخطر بأعجب أفكاره أن يكونا معًا تحت أي مسمى.. الثقة التي تخطو بها نحو الفيللا، اندهاشها من بروده، لمعة عينيها وهي تبحث في وجهه عن لمحة شيء ما، حميمية، لمعة عين ملهوف أو انكسار عاشق، شيء ما يضغطه هو أيضًا بقلبه فتجمد ملامحه وكأنه لا يرغب بإظهاره، في لمحة أدرك معها «شريف» أن شيئًا ما هنالك يدور خلف الأكمة، شيء تتمناه، ويقاومه.. هو يعرف تلك الإشارات، ويعرف ما خلفها.

لم يكن ينكر عليهما ما رآه، وما وراءه من مشاعر، لكنه كان يشعر بشعور هو مزيج من الغرابة، وغياب الألفة.. أحس كمن سمح له القدر أن يسترق البصر لتفصيلة دقيقة في حياة «عمر».. ووجد أنه

نفسه يسأل ما إذا كان ذلك نعمة، يرفل بها ويسعد لما شاهد، أم أنها نقمة الأب الذي لا ولن يعلم عن حياة ابنه الخفية شيئًا.. هل يسعد بأن علم عن تفاصيله شيئًا.. ولده الذي شب عن الطوق وصار لقلبه هوى، ولنفسه وليف.. أم يتعس بأنه كشف هذا الستار عن حياة ولده بصدفة لم يخطط لها، ولم يفلح حرص «عمر» في حجبها عنه؟.. هل هو هوى القلب الوليد، أم أنها نزوة الشباب، وفورة القوة حينما تمتزج بالمال والعقل العنيد؟ هل هو سر أبيه، الذي يطرب لجمال الورود فلا يكتفي منها بواحدة، ولا يشبعه رحيق اللاتي يقتطعهن من جذورهن قبل أن يدوسهن بقدمه، أم هو الحب المصفى الذي يدفعه لرعاية وردته وسقياها؟

هل تعرف «منى» شيئًا عما يدور هنا؟

لماذا تأخر هؤلاء القادمون لإنجاز ما اتفقوا عليه؟

أفكاره تهدر في عقله في صمت.. هدوء يغلف المكان.. لا صوت إلا صوت حفيف شجر قصير يصطف كحراس على جانبي الشارع، وأزيز المصباح الباهت القريب منه.

ودقات محموله مرة أخرى.. تدفعه للانتفاض فزعًا.

- «يا «منى» مش كل خمس دقايق بقى.. قلت جاي..».

- «أنا مش «منى» يا «شريف».. أنا حماتك.. تعال حالًا يا «شريف».. «منى» المغص زاد عليها وإحنا نازلين المستشفى دلوقتي..».

أطلق سبة بذيئة في سره.. الآن قضي الأمر.. حماته لن تهدأ حتى تراه أمامها، «منى» يبدو أنها مصممة على إفساد ليلته حتى دون أن تدري ولا تقصد، لم يعد ممكنًا أن يستمر لأكثر من هذا.. حزم أمره، لكنه طمأن نفسه بأن كل شيء على مايرام.. «منى» لن يكون بها شيء.. والخطة ستسير كما هي.. وما الأمر إلا بضع ساعات وسوف ينتهي على مايرام.

انطلق بسيارته نحو المستشفى.. الذي سيعودون منه نحو المنزل أصحاء حاملين بعض الوصفات الطبية بعد ساعتين لا أكثر.. حيث يغيب «عمر» عن العودة للمنزل في الصباح.. وبعد الظهر يقص على «منى» خبر المكالمة الوهمية التي جاءته تخبره بعنوان المخزن.

(26)

.. هكذا، وفي اليوم التالي، وبعد أن قارب النهار على الاحتضار، وانتفت أسباب الأمل في عودة «عمر».. وجاءته المكالمة المزعومة والتي بموجبها سارع بإبلاغ البوليس.. أخد بيد «منى» المكلومة التي تراوح رد فعلها بين الذهول، الفرحة والخوف.

سألته ألف مرة، وبكت ألف مرة، واهتز جسدها مرتعشًا وهي تكتم البكاء والدمع بعد أن نهرها لأنه لا يستطيع التركيز في قيادة سيارته بسرعة جنونية كافية نحو المخزن المنشود.

عندما وصلا بسيارته إلى المكان الذي أخبرها عنه.. كانت قد طوت بضع صفحات من مصحف صغير في يديها، عيناها المغرورقتان بالدموع، أنفاسها المتسارعة، دقات قلبها التي ترتعش وكأنها تصارع الرغبة في التوقف عن عمل لم يعد يُجدي، يقطعها كل فينة وأخرى شهقة من بكى لفترة طويلة.

عض على أسنانه في لوم لنفسه.

ربما تسرع في الحل الذي اختاره؟ أتراه بالغ في شططه؟..

أيًا ما كان، لينته الأمر سريعًا الآن.. لقد تأخر الوقت لمثل ذلك التفكير.. هكذا قال لنفسه.

ترجلا من السيارة، هو.. بثقة المنتصر الذي لم تعد تفصله عن النصر سوى دقائق، وهي.. بانكسار من لا يدري حقًّا، أيُساق إلى المشنقة أم إلى خلاص..

بلهفة.. وكأنها أول مرة، تعيد سؤاله عما إذا كان متأكدًا من العنوان.. طمأنها بهدوء يحاول به مداراة إحساسه بالذنب، ويغلفه بشعور من التفهم لحالتها وكأنه يصارع نفس المشاعر، لكن بهدوء الرجل وجسارة نفس الأب الذي تُشع لفتاته طمأنينة.. أربع سيارات قاربت على محل وقوفهما.. اصطفت وتقاطعت في محيط المخزن.. ترجل منها رجلان.. وفتاتان.. المكان يضيق من حولهما بالحشد من أصحاب المحال على الرصيف الضيق المقابل، والعابرين للزقاق الضيق الذي تدهش أنه يحوي مساحة كافية تبتلع تلك السيارات وهذا الحشد.. الهمهمات تتصاعد.. بينما يواجهون مخزنًا مغلقًا، بعيون متوترة، أبصار شاخصة، وشهقات بكاء «منى» تجاوبها دموع أعين الفتاتين في صمت.

لم تمض دقائق حتى وصلت سيارة الشرطة بناقوسها المزعج وهالة الأتربة التي خلفتها عجلاتها من خلفها.. ابتعد الواقفون بغريزة من تأصلت الهيبة من الشرطة وحضورها في صدورهم.. البعض فضل الانسحاب بهدوء لقلق لم يدر كنهه.. والأغلبية ظلت في موضعها وقد جاوز الفضول في نظراتهم المدى..

ترجل ضابط نحيل تبدو على وجهه علامات الصرامة، ومن خلفه اثنان من العساكر.. فتظاهر «شريف» بالغضب وهو يستنكر قلة عددهم.. أشار إليه الضابط أن يهدأ وهو يتفرس في عينيه وكأنه يتأكد من صدق أدائه، ويمتحن صدقه.. وتَّره ذلك قليلًا لكنه واصل دور

الأب المكلوم بإقناع.. ساعده تربيت «رأفت» و«شادي» على كتفيه، واعتذار «رأفت» للضابط بأن الأعصاب منفلتة.

المخزن القديم ينتظم في صف لمخازن لا يميزها عنه شيء.. الباب الصدئ الذي ازدان مفرقه بالنقوش والكتابة.. والألوان الباهتة من فعل الزمن.. القفل ينهار تحت وطأة ضربات معول يمسك به أحد العساكر بينما يساعده زميله يمسك بطرف القفل.. «حسناء» تحتضن «منى» ودموعها تسيل قلقًا، بينما لا تكف «منى» عن الصراخ باسم «عمر»، وقولة «يارب»، «حسناء» تحتضنها وقد التصق وجهاهما ودموعهما ببعض.. «شيرين» تفرك يد «منى» بيديها وقد احمر أنفها من البكاء.. الضابط يتفرس في الوجوه غير مطمئن لشيء ما.

القفل ينهار، وتنخلع معه قلوب الواقفين، بعض المارة ممن يحملقون في المشهد انتظارًا لإماطة لثامه يصيحون بالتكبير، دون أن يفهم أيهم ما إذا كان خيرًا أم غيره.. الضابط يعيد سؤال «شريف» للمرة الثالثة عن الرقم الذي اتصل به ليعطيه المعلومة، وعن المبرر الذي جاء به إلى هنا، وعن سبب إبلاغه للشرطة دون أن يتوجه هنا بنفسه.. «شادي» يتولى الرد قائلًا بأن ««شريف» «أعصابه تعبانة يافندم، هو قال لحضرتك قبل كده الكلام ده، ولو سمحت ننقذ الولد الأول، وبعدين فيه محضر كلنا تحت أمرك فيه..».

الباب ينزاح لأعلى بيدين معروقتين للعسكري وزميله..

بصعوبة..

ببطء.

(27)

بسبب توتره وعصبيته الواضحة بعد ما حدث، تولت «حسناء» قيادة سيارة «شريف».. مصطحبة «منى» و«هيثم».. صديق «عمر» الذي ظلت «منى» تصر أنه «عمر» نفسه، بعد خروجه من المخزن.. «شادي» اصطحب «شريف» في سيارته بينما طفق الأخير يبحث عن هاتفه المحمول كالمجنون.. لم يلبث أن طلب رقم «أسيل».. واستمع في نفاد صبر للرنين المتصل على الجانب الآخر.. حتى انقطع.

في منزل «شريف» و«منى» كان المشهد مخيفًا.. «شريف» يحاول الوصول لـ «هيثم»، يجاهد بأطراف أصابعه للوصول لتلابيب ثيابه.. بينما يضاعف من حنقه، أن «منى» بنفسها تلتصق بالشاب جاعلة إياه في ظهرها، مباعدة بين ذراعيها تلامس كفاها يديه وكأنها تثبته خلفها، وتحول بينه وبين «شريف» لتحميه.. الفتاتان «حسناء» و«شيرين» تحاولان تهدئة «منى»، بينما تكيل له الاتهامات وتصيح به بجمل متتالية يزينها صراخ يمزق الأعصاب.. «شريف» يصيح: «إنت مين يابني؟ إنت صاحب «عمر» اللي كنت بتلعب معاه الزفت المزيكا دي؟.. «عمر» فين؟ وديته فين؟ إيه اللي جابك مكانه؟..».

بينما تصرخ به «منى»: «سيب الولد يا «شريف»، سيبه إنت عاوز منه إيه تاني؟ مش كفاية على طول خناق وواقف في طريقه؟ كمان بتنكر ابنك دلوقتي؟».

يصيح بها وقد احترقت أعصابه أكثر من مشهد حيلولتها بينه وبين الشاب: «يا «منى».. مش وقت هزار، إنتي اتجننتي؟ مش عارفة ابنك؟».

ـ «طول عمري باقول لك خليك حنين عليه، خلِّي بالك منه.. خده في حضنك وخليكو أصحاب، لحد ما كان حيضيع مننا أهو.. ودلوقتي بعد مارجع عايز إيه؟ عامل نفسك مش عارفه؟!!».

شفعت قولها بأن استدارت لتدفع الشاب نحو غرفة «عمر».. بينما منع «رأفت» و«شادي» صديقهما من اللحاق بالحشد الذي اندفع نحو الغرفة، والذي انضمت له «حسناء» و«شيرين».

اليوم التالي كان حافلًا.

قضى «شريف» ليلته يحاول إقناع «منى» بأن النائم في تلك الحجرة دخيل على البيت.. وهي تشيح عنه بوجهها طول الوقت.. تغضب وتصرخ في وجهه.. ثم تهدأ لتطمئنه بأن كل شيء على ما يرام وأن «انت اللي شكلك صدمة الخطف بتاعته أثرت عليك..».. يراقب وجهها في شغف ليكشف أية علامة توتر، أية علامة انهيار نفسي، أو نقش للكذب في قسماتها.. يكاد يتمنى لو أنها تصارحه أنها تمثل دورًا مرسومًا لها بعناية، لكنها تواصل مراوحتها كالفراشة الحائرة، بين البكاء والانهيار، ثم التماسك والنصح له بأن يهدأ.

إن «منى» تفقد عقلها.

لا بد أن صدمة ضياع «عمر» أكبر من احتمالها.. هي تلومه ساعة، ثم تحمد الله على عودة «عمر» ساعة.. والجميع فزعون لا يستطيعون إقناعها بشيء.

اتصلت والدتها منهارة باكية.. لأول مرة تتحدث معه بود وتدعو لهما بالفرج.. كانت عائدة من سفرها بالإسكندرية فلم تستطع زيارة ابنتها اليوم.. لكنها فزعة من صوت «منى» الهادئ، الذي لا يتناسب مع الفاجعة التي أسر بها إليها «شريف»..

إن «منى» تفقد عقلها لا محالة..

«منى» الهادئة الناعمة.. «منى» الحمول، جنت.

يكاد يتمزق بين ألمين، جزعًا من تغيب عقلها.. و تغيب «عمر».

لم ينم طول الليل.. قام في الصباح من على سريره الذي لم يشهد غفلة عين منه، لم يدرِ بنفسه إلا وقد استقل سيارته وهاتفه يعاود الاتصال مرة ومرات.

كانت سيارته قد علقت في الزحام حينما جاوبه صوتها، ناعسًا هادئًا يموج بالدلال «صباح الفل يا حبيبي..».

بصوت تفوح رائحة شياطه قال: «قفلتي موبايلك ليه؟ وديتي الولد فين؟».

تبدل صوتها للقلق، ولم يزل يرفل في إهاب من نعاس غير مبالٍ بما حوله: «هو إنت ماروحتش المخزن وطلعته؟».

بضجر تمتم: «رحت.. وكان معايا «منى»، والبوليس والشركة كلها.. ومالقيناش «عمر»..».

قالت، وقد تبخر نعاسها من صوتها دفعة واحدة، فلم يعد يلحظ سوى اختناق طبقته كمن لم يتحدث لساعات طويلة: «يعني إيه؟ إنت دخلت المخزن الصح متأكد؟..».

- «أهالي الشارع فتحولنا كل المخازن لما عرفوا الموضوع، وبعدين الحيوان اللي جوه خارج يقول إنه «عمر» عادي.. الولد فين يا أسيل؟».

- ««شريف» اهدى بس خللينا نفكر.. الرجالة راحوله الفيللا زي ما اتفقنا.. وحطوه في المكان ده وطمنوني وبعتولي الصور كمان.. وأنا بعتهالك..».

- «يعني اتبخر؟ راح فين؟ وإيه اللي جاب الولد صاحبه ده مكانه؟».

صمتت وهي لا تدري جوابًا.. أقسمت مرارًا أنها لا تفهم ما حدث.. بينما انفعل عليها.. صممت على مقابلته ليتناقشا فيما حدث.. إلا أنه أجل لقاءهما فيما بعد.

انتحى الأربعة جانبًا في داخل المطعم الإيطالي الهادئ بحي الزمالك.

«شريف» انتهى من روايته التي لم يُخفِ من تفاصيلها شيئًا، وخلالها كان قد أطفأ سيجارته الثالثة فيما لا يزيد على عشر دقائق.. كل مرة بتؤدة خاصة، تُخفي خلفها عصبية يكبح جماحها ببراعة.. إلا

أن عيني «رأفت» القلقتين التقطتا ما يحدث. نظر لـ «حسناء»، فوجدها محمرة العينين، مطرقة الرأس من أثر بكائها من هول الموقف بمنزل «شريف»، فعلم أنها لن تشاركهم كما اعتادت، بالتفكير النشط، التفت لـ «شادي» يستطلع ملامح وجهه، فما وجد إلا مشاعر تماثل مشاعره.. تنحنح، حاسمًا أمره بأن يبدأ هو بالحديث، وقال: «.. طيب زي ما انت بتقول إنك صريح معانا وعايز تعرف رأينا برضه بصراحة.. أنا شايف ده عك جامد قوي.. إنت بتبعت ناس ماتعرفهمش يخطفوا ابنك!!.. ابنك يا «شريف»؟ وده علشان إيه؟ علشان انت اللي تنجده فالواد يقول: لأ بصراحة أبويا ده طلع جامد قوي يا جماعة، لأ أنا حسمع كلامه وأبقى مؤدب بقى؟؟ في النهاية، الناس دي انت ماتعرفهمش.. لكن اللي تعرفهم وبعتهم، واحدة.. إنت لسه متعرف عليها من أسبوعين.. يعني ماتعرفهاش أساسًا!!».

قاطعه «شريف» بلهجة من يستعجل الانتهاء من تلك الفقرة الخاصة بتقريعه: «أنا عارف الملخص اللي انت بتحكيه ده يا «رأفت».. ومش ناقصاك، ولا أنا حستفاد شيء من اللي بيحصل ده.. أنا مش بتكلم علشان تبكتوني.. أنا عايز أعرف أعمل إيه في المصيبة دي..».

أشاح «شادي» بيديه علامة الاستسلام وقال في لهجة المرهق: «الجماعة اللي «أسيل» قالت عليهم بتوع خان الخليلي دول اللي استأذنتهم في موضوع خطف «عمر»،ماينفعوناش كتير.. هم رجالة تبع تاجر كبير في الخان.. المخزن ده بتاعه، والمفروض إن دي شغلانة فرداني كده من بره المعلم أو من ورا ضهره يعني.. الراجل المفروض راجل نضيف ومحترم ومالوش في الكلام ده نهائي، مع

ذلك «أسيل».. ولسبب ما، أنا مش فاهمه.. قالت لك إنها كلمت الراجل الكبير نفسه، واتفقت معاه يبعت تلاتة يثق فيهم يخلصوا الموضوع..».

ابتسامة تحمل مرارة الدنيا زينت زاوية فم «شريف» وهو يقول لـ «شادي»: «إنت مش غطست ورجعت تقول لي «أسيل» دي زي الفل؟».

رفع «شادي» سبابته أمام وجهه وقال في حزم: «لأ يا ريس.. أنا قلت لك هي مش بتكذب عليك في قصة حياتها اللي حكتها لك.. أنا باقول على موضوع ليلة امبارح وخطف «عمر».. الله أعلم اللي قالته لك حصل فعلًا ولا لأ..».

- «ما دام قالت كده يبقى حصل..».

قاطعهما «رأفت» في غيظ أفلت منه رغم جهده في السيطرة على أعصابه: «جرى إيه يا «شريف»؟ إنت لسه بتثق في البنت دي بعد اللي حصل؟ ماتسيبنا يا أخي نفكر معاك، ما دام انت مش شايف قدامك بالشكل ده».

قبل أن يتدخل «شريف» معترضًا على ما ألمحت إليه كلمات «رأفت».. قاطعه «شادي» وكأنه يواصل حديثه: «أنا وصلت للتلاتة اللي قالت لك عليهم.. الناس دي غلابة ومالهمش في أي حاجة..».

قال في غيظ مندفعًا بخيبة أمله، ومفرغًا كل ضيقه من تعليق «رأفت»: «غلابة؟ يخطفوا ويقتحموا فيللا ويكسروها، ويبقوا غلابة إزاي بس يا شادي؟».

- «خللي بالك يا «شريف».. هم بالنسبة لهم، لا كانوا بيخطفوا ولا بيقتحموا.. هم حلفولي إن المتعلقات والفلوس اللي سرقوها من الفيللا زي ما كان الاتفاق.. علشان تبقى جريمة سرقة وخطف وفدية وكده.. كلها شايلينها وما تصرفوش في حاجة منها، ومش عايزين إلا المقابل اللي اتفقت عليه معاهم «أسيل».. حتى بعد الأسئلة والقلق اللي عملته لهم.. بقوا مش عايزين حاجة..».

تدخل «رأفت» قائلًا في اهتمام: «المفتاح بتاع المخزن مع مين؟ دي أول حاجة لازم نعرفها علشان نقدر نوصل للشخص اللي خرج «عمر» من المخزن.. وبالتالي نعرف مكانه دلوقتي فين..».

حرَّك «شادي» سبابة واثقة أمام وجهه علامة النفي وقال: «بالعكس.. النقطة دي عمرنا ما حنتأكد منها، وبالتالي عمرها ما حتفيدنا في أي حاجة.. دايمًا ممكن يكون فيه أي حد معاه مفتاح، وإحنا مش حنعرفه ولا حد حيقول لنا عليه، زوجة المعلم الكبير صاحب المخزن مثلًا، أو واحدة تانية متجوزها في السر، أو نسخة احتياطي شايلها هنا ولا هنا، وشخص ما عارف مكانها أخدها ورجعها تاني وماحدش لاحظ، أو حتى نسخة ضايعة من زمان وهو ناسي.. الحاجات دي دايمًا بتحصل كده..».

بضجر اليائس قال «شريف»: «طيب نعمل إيه؟».

نظر إليه نظرة ذات مغزى وقال في بطء من يلقي قولًا ثقيلًا: «شوف.. أما مسألة إن اللي يكون عمل كده، يكون قادر يعملها ولا يعملها إزاي، دي خليها بعدين.. لكن الأهم فعلًا هو إننا نشوف مين بيكرهك، أو بيكره «عمر».. لدرجة إنه يعمل كده يا «شريف».. مين

مستعد يحرق قلبك أو قلب «منى» عليه، مين يهمه يعمل حاجة زي دي.. هو ده اللي لازم نعرفه!!».

حملق فيه «رأفت» و«شريف».. بينما واصل هو في ثبات: «احنا من اللحظة دي، الموضوع ده قضيتنا زي أي قضية من قضايا المكتب، لكن لحد ما نبدأ الجد، عندك ناس واضحة قوي في الموضوع ده لازم تبدأ بيهم.. مش هم المطلوبين لكنهم خيط بالتأكيد.. وطبعًا أنت عارف همَّ مين..».

«هيثم».. وبعدين «أسيل».

رفع سبابته في حسم مضيفًا في لهجة من يلقي قولًا حاسمًا: «مش بالسرعة دي.. «نظروا إليه في تساؤل وهو يعتدل مضيفًا بحسم آمر «فيه شخص انتم ما حسبتوش حسابه في الليلة دي كلها.. بس أنا شفتها بنفسي..».

جلس «رأفت» على حافة مقعده في تحفز وهو يعيد اسم «شيرين» الذي صرح به «شريف» لتوه، مشفوعًا بقصة زيارتها لـ «عمر» قبيل الحادث مباشرة، مدهوشًا، بينما أشاحت «حسناء» بيدها في غيظ وهي تقول: «كانت بتعمل إيه دي هناك؟ بس أنا اللي غلطانة.. إني ماخدتش بالي من زمان، أتاريها.. (أوديله أنا الفلوس.. خليك إنت يا شريف).. شغل مياصة، بنت صايعة، أنا نظرتي فيها عمرها ما خيبت أبدًا..».

حك «شادي» مؤخرة رأسه في حيرة معلقًا: «قصدك إيه يعني يا «حسناء»؟ «أسيل» هي اللي فكرت في الموضوع ده، وزي ما «شريف» بيقول، هي اللي أقنعته بالفكرة.. يمكن «شيرين» كانت

هناك بالصدفة ولًا حاجة..».. استنكرت صائحة: «صدفة؟ في الليلة اللي حيحصل فيها اللي حصل.. وتقول لي صدفة؟ تلاقيهم عصابة مع بعض..»

شرد «شريف» في منطقها وهو يطرق برأسه.. صور عديدة تتناوب على عقله.

مطرقة تضرب رأسه، حيرة تعتصر فؤاده، وكمد يعصف بروحه.

وسؤال يتردد بأنفاسه، بلا كلمات.

من أين يبدأ؟

دلف لحجرة الاستقبال الأنيقة بمنزله.. «منى» تجلس على مقعد وثير.. مغمضة العينين كمن يهرب من واقع لم تعد تريد مجابهته الآن، يدها على جانب رأسها كأنها تستند إليها.. بينما تُدنِي «حسناء» مقعدها من مجلس «منى» وهي تميل بنصفها العلوي قبالتها.. تربِّت على كتفها، مرددة بين فينة وأخرى في إخلاص: «أيوه مصدقينك يا «منى»، إهدي إنتي بس..».

لمح والدة «منى» تجلس قبالتهم على أريكة واسعة، تغطس بجسدها الرشيق الذي لا يليق بسنها، وملابسها المنتقاة بعناية لا تبدو وكأنها تعجلت اختيارها كما يليق بوقت كهذا، وسط الطنافس الملونة التي تغطي سطح الأريكة.. فتبدو وكأنها تحتكرها لنفسها. بوجه جامد من أثر الهم، وعينين بدتا تعملان كقاعدتين لإطلاق سهام التقريع في صلابة. رغمًا عنه، انتبه إلى أنها ما زالت تلك الأم القاسية، لم يعرف بأن هذا النوع من الممكن أن يتواجد في الحياة،

إلا عندما تزوج بـ «منى». كان يظن في البداية أنها لم تُطِق التعامل معه هو، زوج الابنة الذي لم تتوافق طباعه ولا اختياراته لألفاظه مع تصوراتها.. لكنه لحظ مبكرًا كيف أن «منى» نفسها تخشاها.. شيء يفوق الاحترام أو المهابة، قاسية هي، صعبة المراس، وبالتأكيد ليست هي النوع الذي ينكسر تحت وطأة حادث كالذي يمرون به الآن. احتلت موقعها في ثبات يماثل نظرتها المصوبة نحو ابنتها في مشهد أوحى له أنها لتوها قد انتهت من تعنيف ما لها..

لمحته والدة «منى».. وكأنها صارت مدفوعة بلدغة أفعى غادرة.. قامت من مملكتها الصغيرة كأي ملكة مفزوعة من أخطار تحدق بعرشها، بعينين يملؤهما الرجاء استقبلته استقبال من يلمح منقذًا في عرض البحر: «شفت يا «شريف»؟ اعمل حاجة في المصيبة دي.. «عمر» ضاع يا «شريف»..».

هنا فتحت «منى» عينيها.. اعتدلت في جلستها كقط استند بظهره إلى الحائط.. انقلبت سحنتها في شراسة لتقول بلهجة رتيبة من أثر تكرار واضح: «يا ماما أنا ألف مرة قلت بلاش الفال الوحش ده.. روحوا اكشفوا على مخكم، «عمر» رجع وقاعد حبيبي في أوضته زي الفل.. «عمر» بخير، مش عايزين تشوفوا كده انتم أحرار..».

- : «أيوه مصدقينك يا «منى».. إهدي انتي بس..».

أزاحت بيدها يد «حسناء» عن كتفها وواصلت في ملل وبرود أثار دهشة «شريف» كما أيقظ خوفه عليها: «وانتي بطَّلي تاخديني على قد عقلي.. مانتي كنتي عايمة على عومها من شويه.. وأنا كويسه مش مجنونة، ماتعاملونيش كده.. وبجد روحوا اكشفوا إنتو عند دكتور..».

سحب نفسًا عميقًا إلى صدره.. أشار لحماته أن تتبعه.. دلفا إلى حجرة مجاورة.. وبادرها بالحديث قبل أن تفعل هي، محذرًا: «شوفي حضرتك، ماتكلموهاش في الموضوع ده خالص.. «منى» بالشكل ده واضح إنها داخلة على انهيار عصبي، هي مش قادرة تصدق إن الولد اتخطف، مش عايزين نزود مشاكلنا مشكلة..».

- «انت إزاي بتقول كده؟ لازم نفهمها ونتكلم معاها.. يا إما نوديها مستشفى..».

- «طبعًا في الحالة دي هي مش حتوافق تيجي معانا، «منى» عنيدة، والأهم إنها مش شايفه إن عندها مشكلة، دي شايفانا احنا اللي عيانين.. ده غير إن أنا مراتي مش حادخلها مستشفى والجرايد تكتب بقى وتبقى فضيحة..».

- «أمال إيه؟ علشان شكلك في الجرايد مش حتعمل لها حاجة؟ حنسيبها كده..؟».

- «لأ.. مش حنسيبها، وحنفضل جنبها.. حضرتك خليكي معانا اليومين دول.. وأهي «حسناء» واخدة عليها وبتروح وتيجي عليها، ما تسيبوهاش لوحدها.. ولا مع الولد الأفاق اللي جوه ده..».

- «وحتعمل فيه إيه ده كمان؟ لا يمكن يستنى في البيت ثانية واحدة.. و«عمر» فين؟ البوليس فين يا «شريف»؟».

كانت قد بلغت حدًّا من التوتر لم يرها عليه من قبل.. لكنه طمأنها بتربيتة على كتفها قائلًا في ثقة: «سيبك من البوليس.. أنا حتصرف وأعرف أجيب «عمر» حتى لو تحت الأرض..».

دمعت العينان الثلجيتان فأصابته الدهشة وهو يسمعها تهمس مقاومة البكاء: «قبل ما يعملوا فيه حاجة يا «شريف»..».

قال بلهجة صادقة: «اطَّمِّني حضرتك، أنا عارف بعمل إيه.. ولو سمحتي خليكي مع «منى»، أنا حدخل أتفاهم مع البني آدم اللي جوه ده.. ما تخلوهاش تحس بحاجة لو سمحتي، وإلا حتلاقيها دخلت علينا، أنا عارفها..».

ربما هي أسابيع التي كانت تفصل «شريف» عن آخر مرة وطئت فيها قدماه حجرة «عمر»، لكنه شعر بأن كل شيء يبدو له جديدًا.. مختلفًا أو متحركًا عن موضعه.. المكتب الصغير ذو المصباح الكبير المعلق من السقف والمتدلي على سطحه، الأوراق الخاصة بالمذكرات الموسيقية التي تفترش الأرض في نظام، وقطع الملابس الملقاة بإهمال في كل مكان، على المقعد الجلدي، على السرير، وحتى في ركن الغرفة الملاصق للنافذة المغطاة بستائر ثقيلة وكأن صاحبها يخشى دخول الشمس إلى الغرفة.

في ركن مجاور للنافذة لمح هيئة الشاب الجالس موليًا إياه ظهره، يجلس على المقعد الجلدي في استرخاء، يداه ظاهرتان، رأسه مسجى للخلف كأنه مستغرق في نوم عميق.. لكنه ما إن أغلق «شريف» الباب خلفه في خفة حتى لا يشعر الجالسون بالخارج به.. حتى استدار الشاب ببطء، مسترخيًا في مقعده وبابتسامة ساخرة على زاوية فمه قال بمرح خافت: «كنت مستنيك يا بك.. اتأخرت قوي!».

ارتعش محموله في جيب بنطاله فأخرجه ليلقي نظرة سريعة على شاشته.. قطب جبينه وهو يضغط علامة حمراء على شاشته بطرف

إبهامه، لينهي ارتعاشه ولتختفي كلمة «أسيل» من على الشاشة.. أعاده إلى جيبه وهو يرفع رأسه إلى محدثه ويخطو خطوتين نحوه، يتخذ مجلسه قبالته على طرف السرير.. بنظرة ثابتة تبادلاها، دون أن يجفلا ولو لحظة.. قال بعد صمت ثوان: «كويس إننا ندخل في الموضوع على طول.. وإننا ما نقعدش نلف وندور على بعض، أول سؤال بقى، واحذر إنك تكدب عليًا: مين اللي وراك؟».

اتسعت ابتسامته وهو يقول باسترخاء: «خوفتني قوي يا باشا.. أنا بترعش من الرعب دلوقتي..».

- «اختصر..».

- «حد يكلم ابنه حبيبه كده برضه؟».

- ««عمر» فين؟ ومين اللي دخلك المخزن ده؟».

باغته بسؤال: «إنت مهتم قوي ليه بالموضوع ده يا باشا؟ مش أنا رجعت البيت أهو وخلاص؟ احنا كل فين وفين لما بنشوف بعض أساسًا. طيب، مش يمكن إنت اللي مش فاكر شكلي كويس؟ أو يمكن أعصابك مرهقة من الشغل، فيكون بيتهيألك حاجات؟».

استشاط غضبًا وهو يشير ناحيته بغضب: «انت حتستعبط؟ أنا اللي مش فاكر شكلك ولا إنت اللي نصاب؟ ولًا فاكرني مش عارف إنت مين، مش انت اللي ضمن شلة المزيكا بتاعة «عمر»؟ يا «هيثم» بيه، قبل ما تهلفط بالكلام عن أعصابي وتلف وتدور.. عايز أقول لك إن كل الناس ماعدا «منى» عارفين إنك مش «عمر» وشاهدين بكده، ولولا إن الحظ خدمك إن الموضوع مش نافع يتعمل قضية..

كان زمانك في السجن.. بس الخطوة دي حنوصل لها إن عاجلًا أو آجلًا، مسألة وقت يعني.. أنا بس بحاول أساعدك علشان ماتتورطش أكتر من كده..».

لم يبد عليه التأثر وهو يقول في تساؤل ساخر: «أساعد نفسي؟ لا ما تقلقش عليًا.. ماما عارفاني كويس، ومش معقول الأم تتوه عن ابنها.. الدور والباقي عليك إنت..».

- «ماما مين يا نصاب إنت..؟».

- «ماما «منى» يا باشا.. المهم انت متضايق ليه؟ ابنك إيه اللي إنت زعلان عليه؟ ابنك ده إنت ما تعرفوش ولا عايز تعرفه، ما تفتكرش يعني إني مش عارف المشاكل اللي بينكم..».

- «إنت بتتكلم كده ازاي؟ إنت مش في وضع يسمح لك بإنك تديني نصايح.. أنا حاوصل له بيك أو من غيرك، لكن صدقني أنا بحاول أختصر طريقك وطريقي، ولو تعاونت معايا أنا اللي ححميك..».

- «ابنك ضاع منك دلوقتي ولّا من زمان؟».

- «إنت مش بترد على سؤالي، قل لي مين وراك؟».

- «إنت ما كنتش بالنسبة له أكتر من اسم شايله غصب عنه، بيت بيرجع له مضطر وزكيبة فلوس مضطر يستحمل قرفك علشان ما يخسرهاش.. وهو ما كانش بالنسبة لك أكتر من قالب عايز تصبه على مزاجك، لو اتكسر ولا اتدمر في سبيل كده ما كانش يفرق

معاك.. جاي دلوقتي تقول ضاع ولا ماضاعش؟ ماتسيبني أعيش يومين مكانه.. بذمتك تفرق معاك في إيه؟..».

وقف «شريف» بعزم من لم يعد يحتمل كلمة من محدثه.. اقترب منه فانتزعه انتزاعًا من جلسته وهو يمسك بتلابيب قميصه فيجبره على الوقوف قبالته، عيناهما ثابتتان تحملقان في بعضهما بإصرار، ابتسامة «هيثم» الساخرة يحاول الاحتفاظ بها في صعوبة تحت وطأة وجه شريف الغاضب الذي صاحبه صياحه به في غضب هادر: «أنا ممكن أكسر عضمك لو استمريت تتكلم بالشكل ده.. كلمة ورد غطاها، مين وراك وإيه اللي جابك هنا..؟».

«حيكون إيه يعني يا باشا؟ الفلوس طبعًا. أمال جاي علشان سحنتك وحشتني؟.. أظن الرد ده مناسب للشخصية اللي بالعبها على مراتك العبيطة وعليك إنت برضه، بس إيه رأيك في أدائي؟ مش تحس كده كأن «عمر» قدامك بيكلمك؟».

«رد عليَّا.. رد عليَّا حاموتك، أنا حادفنك هنا لو ما تكلمتش..».

قاطع صياحه دقات على الباب.. صياح «منى» بهما من خارجه.. أفلته من يديه وهي تندفع لتحتضن «هيثم» في لهفة وتبتعد به عن وجه «شريف» الذي اكتسى بغضب وحيرة لم يستطع السيطرة عليهما.. صاحت به أن يبتعد.. وأن يغادر الحجرة فورًا.

حاول تهدئتها، لكنها بدأت تصرخ أن يتركهما لحالهما..

- «اهدي يا «منى».. فوقي من الجنان اللي إنتي فيه ده، ده مش ابنك.. ده مش «عمر»..».

صرخت به وهي تنتحي بنفسها بعيدًا عنهما مكانًا من الحجرة، تتراجع في بطء.. وهي تقول: «اسكت يا «شريف».. اسكت..».

جلست القرفصاء، ثنت ركبتيها على صدرها وهي تحتضنهما في هذيان مستمر أخذت تعاود تكرار الجملة في إخلاص.. «شريف» لا يدري ماذا يفعل، بينما تندفع أمها داخل الحجرة باكية، تحتضنها وتسقط أرضًا جانبها.. «حسناء» تدير بصرها في الواقفين والجالسين في أسف.. بينما يبتعد هو بظهره بخطوات مترددة، غصة تعتصر قلبه لمرأى «منى» المنهارة، سيل اللوم ينهال على أذنه من أمها.. «حسناء» تشير إليه بما معناه أن يبتعد الآن.. فلا يدري بنفسه إلا وهو يغادر هذا الجنون والمنزل كله، لا يلوي على شيء.

«رأفت» اتصل به وأخبره أنهم سيلتقون جميعًا في منزل «شادي» بعد قليل.. «حاعدي على «حسناء» وآخدها من تحت بيتك ونتقابل كلنا عند «شادي». نص ساعة كده.. بص إهدى خالص، كلنا معاك وحنقعد بس نرتب أفكارنا كده.. سوق على مهلك يابني إنت متوتر على طول وده مش كويس».

أضاءت شاشة محموله مرة أخرى.. لكنه لم يستجب.

كان مشوش الفكر، «عمر» الذي اختفى وخلف وراءه ثقلًا يجثم على صدره وشعورًا بأنه هو - أي «شريف» - الذي غرس ذلك النصل بيده في صدره.. هو الذي لم يحاول النزول على فهم «عمر» للصالح والطالح.. هو الذي احتد في كل مرة عليه، قال لنفسه إنه كانت له أسبابه، إنه أراد أن يكون ولده أفضل الناس.. لكن، ما بال هؤلاء الصغار لا يلقون بالًا إلى أبائهم الناصحين.. حتى يخطوا بأقدامهم

الصغيرة إلى حتفهم، ما بال العمر يمضي بهما فيسلب «منى» الانبهار به وبكل مايقول، ويحرم «عمر» طاعته له، وينزع عنه استمتاعه بأي شيء وكل شيء؟

لكنه لم يكن «عمر» الذي سار من تلقاء نفسه إلى هلاكه بقدمه، ولا هو الذي تلقف تلك المصيبة التي تهادت نحوه على ممشى أيامه، لكنه «شريف» الذي ورطه بأنانيته.. أقحمه في لعبة خطرة، ليكسب هو منها كسرة اعتداده برأيه، وليربح بها رصيدًا في قلبه وعقله، تعامل معه كأنه حساب بنكي مما يحرص على تأمينه ومراجعة خارجه ووارده كل شهر.. دون أن تخطر بباله خاطرة لو أن الحساب له روح تشعر بما يودعه فيها أو يسحبه منها.. فتقبل إيداعًا أو ترفض سحبًا.

أضاءت شاشة محموله مرة ثانية، لعلها المكالمة العاشرة التي تحاول فيها «أسيل» الوصول إليه.

كاد يلمس الشاشة لكنه انتبه فجأة لشيء ما.

كان قد انحرف في شارع ضيق هادئ نوعًا، تسير فيه المركبات بشكل أقل كثافة من سابق طريقه نحو منزل «شادي»، لكنه قد بدأ يلاحظ أن هذه السيارة تتبعه، يحرص قائدها على الاحتفاظ بمسافة متوسطة بينهما، تحل سيارة أو اثنتان بينهما أحيانًا، لكن السيارات تتبدل من خلفه وجانبه، وتلك السيارة لا تفتأ تتبعه. ربما لم يكن ذلك ملحوظًا منذ قليل، لكنه ولسبب ما يشتم الآن رائحة لم تعجبه في الأمر.

ولأنه اعتاد على مثل هذه المواقف، لم يتردد.. أوقف سيارته بحركة مباغتة لتدور مقدمتها قليلًا حول نفسها.. لتسد عرض الطريق

ويصدر صوت صرير عجلاتها مزعجًا.. غير أنه لم يكد يترجل منها، ويتجه في سرعة للركض نحو السيارة التي تتبعه، مزمعًا أن يستغل مفاجأة صاحبها للإمساك به، حتى بدا وكأن قائدها كان يتوقع ذلك، وفي المسافة التي تفصلهما.. توقف بشكل يحمل مهارة واضحة.. عادت السيارة أدراجها بشكل أسرع كثيرًا من ركض «شريف».. الذي لم يعد له هدف سوى اللحاق به.. لكن فارق السرعة كان أكبر من توقعه.. فلم تلبث السيارة الغريبة أن استدارت مسرعة، مولية ظهرها لـ «شريف» وسيارته.. وتندفع بصرير مزعج، هاربة من مدخل الشارع من حيث أتت.

لم يلمح في غمرة مفاجأته سوى شعر قصير مغطى بغطاء رأس رياضي، يستوي على كتفين عريضتين.. يقود سيارة لم يرها من قبل.

وقف في يأس وهو يركع للأمام ممسكًا بركبتيه.. بينما تجمع عدد من المارة وأصحاب الحوانيت المتناثرة في الشارع الهادئ في دهشة حوله وهم يستفسرون بعيونهم، بينما يربِّت البعض على ظهره ويسألونه عما إذا كان يحتاج شيئًا.. أزاح يد أقرب الواقفين إليه كمدًا، وتجاهل التعليقات التي استهجنت سلوكه، وتلك الكلمات التي صدرت عن أفواه المتحلقين حول سيارته وحوله، عن «قلة الذوق».. «سواقين آخر زمن»، واستدار ليعود لسيارته ويواصل السير بها.

في غيظ التقط محموله الذي استشعر ارتعاشته مجددًا.. هذه المرة انتوى في غمرة غيظه ولهاثه أن يعجل بالمواجهة، فطالع شاشة محموله وهو يوزع نظره بين الطريق وبينها.

لكنها لم تكن «أسيل».

ضغط على الشاشة ليتلقى الاتصال من «رقم خاص».. كما أنبأه محموله.

جاءت الكلمات واضحة.

«المرة دي انت هربت، حبيت أوريك بس إنك مش بعيد عن إيدينا، وإن المحروس ابنك عندنا.. أي هلفطة مش حتعجبنا مع البوليس ولا أي حد تقدر تنساه..».

أجاب في هدوء نجح في استعادته رغم لهاثه: «كويس إنه عندكم، مش أنا اللي تقلقوا منه، أنا أكتر واحد فاهم المسائل دي.. وأكيد انت عارف أنا مين، وبعمل إيه، وإزاي مش بحتاج بوليس في مشاكل أكبر من دي بكتير..».

- «عظيم..».

تابع في حدة: «يبقى تقول على اللي انت عايزه على طول، وأنا مش حضيع وقتك ولا وقتي في أسئلة من نوعية إنتو فين.. ولا إنتو مين والكلام ده..».

- «طيب بما إنك طلعت راجل عاقل.. يبقى تهدا كده، وطلباتنا حتوصل لك في وقتها..».

- «وليه مش دلوقتي؟».

- «أنا لسه باقول عليك راجل عاقل».

(28)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 15

لا تفرح بالنقلة الخطأ من غريمك.

فكر.. وابحث عما وراءها.

في منزل «شادي»، وفي حجرة الاستقبال التي يستخدمها كمنامة ومجلس عمل وترفيه، لضيق مساحة المكان، وسط المكان الذي بدت عليه محاولات يائسة لجعله مرتبًا، جلست «حسناء» مشدوهة وهي تستمع لقصة «شريف».. أعادت شعيرات نافرة من أسفل غطاء رأسها، وهي تغمغم في دهشة: «حيكون مين يا «شريف»؟..»

هز رأسه نافيًا: «مش ده السؤال الصح على الإطلاق.. حتى النمرة.. نمرة Private، مش بعيد لو شفنا شركة المحمول وحاولنا نوصل لصاحبها حيطلع رقم مسروق، كذلك رقم العربية، حتطلع عربية مسروقة ومتبلغ عنها، ومش حنوصل لحاجة.. المهم هم عايزين إيه، و«عمر» كويس ولَّا لأ».

حك «رأفت» ذقنه بيده قائلًا في ضيق: «وناوي على إيه؟».

قاطعهما «شادي» وهو ينهض من مجلسه ويسحب جسده الثقيل نحو الحائط المواجه لجلستهم، يزيح الغطاء الملون بخطوط عريضة عن لوح كتابة عريض معلق بالحائط، ويشير إليه قائلًا في حسم: ««شريف» معاه حق يا جماعة، هو تحول خطير في الموضوع، لكن في الحقيقة الجري وراه مايفيدناش بحاجة، بالعكس تضييع وقت، وهو ده اللي هم عايزينه..».

أمّن «شريف» على حديثه بينما واصل «شادي»، مشيرًا إلى اللوح المعلق.. وراسمًا دوائر كبيرة على اللوح يملأ كل منها بحروف يكتبها بينما يتابع: «دلوقتي احنا مش حتشغلنا الفرعيات دي.. احنا عندنا مشتبه فيهم.. وخيوط مهمة تؤدي بينا للفاعل الأصلي لو استفدنا بكل نقطة عندنا.. الدايرة الأولى «حورية».. دي ست كان «شريف» متجوزها زمان.. لما ماتت ورث فلوسها اللي كانت كتبتها باسمه وهي عايشة، وأهلها من يومها بيكرهوا «شريف» طبعًا لأنه كان نحس على «حورية».. هم اللي بيقولوا يعني مش أنا طبعًا، ولأن الفلوس راحت عليهم.. كله عارف كده خلاص؟ يا «حسناء» انتي أكيد عارفة من «مني»، مش كده؟ عظيم.. ما هو كلنا لازم نبقى واقفين على نفس الأرضية من المعلومات «واحنا بنبدأ شغل..».

حانت التفاتة من «رأفت» إلى «شريف».. حملت له كثيرًا من الطمأنة.. على الرغم من الحنق المكتوم في عيني ذلك الأخير، بينما تابع «شادي» ملء دوائره، والشرح: ««حورية» دي موضوعي أنا.. الملف خلص يا «شريف» زي ما قلت لك.. أنا بس حعمل شوية تحريات أخيرة، حاروح أماكن من اللي كانت بتروحها من عشرين

سنة، حاسأل أهلها، من غير مايحسوا إن ليك علاقة، ومن غير ما يوصل لها إن حد بيستعلم عنها.. لو فعلاً عايشة وهي اللي ورا الكلام ده..».

قال «رأفت» بضجر قصد به إنهاء ذلك الحديث الذي أحس به يبعث رعبًا غير مبرر في أوصال «شريف»، خوفًا من أن يكون الحاضرون على علم بأكثر مما قيل فيما يخص «حورية»: «ماشي خلاص.. أنا شايفك كاتب «رمزي الطويل» و«عزة المقدم».. إنت شايف إن الناس دي ممكن يعملوا عملة ناقصة زي دي؟».

- «ماتنساش إن «أسيل» طلبت من «شريف» يعمل تحقيق عن «رمزي».. وده ممكن يخلّي «رمزي» ينتقم من اللي كشفه قدام مراته..».

- «القضية لسه ما خلصتش.. فضيحة إيه اللي هو زعلان منها؟».

- «مجرد إن الناس دي يحسوا إن حد بيقلّب وراهم، بيبقى خطر، الملف زي ما انت عارف يا «شريف».. مليان علاقات نسائية للركب، والأهم.. ماتنساش إن «حورية» و«عزة» كانوا معارف من بعيد في شبابهم.. وكانوا بيظهروا مع أزواجهم في الحفلات العامة وليهم صور مع بعض.. يعني الناس دي ممكن يكونوا عارفين عن «شريف» كتير.. و«شريف» و«رمزي» عليهم العين في موضوع الوزارة ده، أي تلويث لاسم «شريف» مهم، وأي ضربة مالية بتخليه مالوش أهميته اللي فاتت، يعني يخطف الولد انتقامًا من إنه بينخور وراه، ويكلفه فدية محترمة ويضربه في السوق، ويعمل شوشرة مناسبة ويفضح

موضوع «حورية» ويساومه بيه.. ماحناش عارفين الناس دي حتطلب إيه لما يتصلوا بـ«شريف» تاني..».

قال «شريف» بعد أن استمع باهتمام لما يقصانه على بعضهما أمامه، بنفاد صبر وكأنه يريد إنهاء ذلك الحديث المطوَّل «يعني انت شايف إنهم حيساوموني على معلومة، مش على فلوس؟».

- «لو عملوا كده يبقى «رمزي» اللي ورا الموضوع، بدون جدال. لو اللي حيكلمك قال لك حنفضح إنك أخدت فلوس مراتك قبل ماتموت، يبقى عاوز يعمل لك مشاكل وسين وجيم.. مانا علشان كده حاشوف أهلها صاحيين لك ومتابعينك ولأ مش في بالهم، وهي أساسًا عايشة ولا مسافرة، ولَّا احنا مكبرين الموضوع وكل دي صدف.. ماتقلقش.. الموضوع ده حنشتغل عليه.. بس انت مطلوب منك موضوع تاني مهم يا «شريف»..».

التقط أنفاسه في عمق وهو يقول بتركيز: «في الوقت اللي احنا شغالين في الموضوع، عاوزك تقابل «رمزي».. اعمل هجوم غير متوقع، ادخل عليه في ملعبه وعرفه إنك بتعمل عنه تحقيق، بس لمح له إنك مش حتستخدم ده ضده.. وعرفه إنك فاهم إنه بيردلك التحقيق في صورة ابنك، حسسه إنك ماسك عليه حاجة كبيرة.. حاديلك ملف محترم، فيه نقط كتير ضعيفة تقدر تستخدمها ضده، وتوهمه إنك شغال عليها، وإن ده حيحرمه من الوزارة لو اتعرف، وإنك حترفض المنصب لو جالك، بس «عمر» يرجع، يادار مادخلك شر..».

- «ولو طلع نضيف؟».

- «ترجع بضهرك.. أنا برضه حعلمك يا «شريف»؟ دا أنت أستاذ في تزويق الكلام والكرانيش يا كبير..».

تردد في الرد عليه، صمت محملقًا في اللوح المعلق، بينما عيون «رأفت» المشفقة و«حسناء» الحائرة تسبر قسمات وجهه، وهم يتمنون لو أن ملامحه كانت كاشفة لمكنونه أكثر. سبحت أفكاره لتختبر كلام «شادي» وتتحسس مواطن ضعفه، لكنه بدا له تحركًا لا مناص منه، فقال في حزم، بقسمات جامدة، لا تبد رد فعل، وكأنه لم يسمع شيئًا: «طيب.. عندك حد تاني؟».

تنهد «شادي» وهو يتبادل النظر مع رفيقيه.. ثم قال بعد ما حزم أمره: «فاضل دايرة كمان، انت عارفها..».

قطَّب «شريف» حاجبيه في تركيز وقد أدرك ما يرمي إليه، بينما واصل «رأفت» مكملًا: ««أسيل» يا «شريف» هي أضعف حلقة في ده كله، أنا آسف لو كنت بجرح مشاعرك.. أنا مقدر إنك شايف فيها اللي احنا مش شايفينه، بس انت مش مجرد زميل عمل، ولا صاحبنا بس، احنا أكتر من عيلة وإخوات.. ومش حنقدر نسيبك كده من غير ما نساعدك، ونقول لك الصح والغلط اللي انت يمكن مش شايفه.. علشان كده احنا عملنا شوية شغل يكمل الشويتين اللي كان «شادي» عملهم قبل خطف «عمر».. البنت ماجالهاش ولا اتصال يوم الحادثة ولا اتصلت بحد ليلتها ولا تاني يوم.. واتصلت بيك تاني يوم علشان يبان إنه اتصال من الخاطفين، من موبايلها، بس أخفت النمرة علشان يبان عندك إنه رقم خاص والحكاية تتسبك على البوليس زي ما انت

طلبت.. اتصالاتها في اليومين اللي قبلها كلها مع نمرة واحد من الرجالة التلاتة بتوع خان الخليلي اللي خطفوا عمر من الفيللا..».

واصل تقطيب جبينه وهم بأن يقول شيئًا لولا أن قاطعته «حسناء» بحنق واضح وهي تشير بيديها: «يعني الغلبانة اللي ضيعت عمرها معاك دي تعمل فيها كده؟ والبنت اللي قد عيالك دي عرفت تضحك عليك؟ وبتحبها كمان لدرجة مش قابل عليها كلمة؟..».

صاح بها «رأفت» بحدة: ««حسناء».. مش وقته الكلام ده..».

- «طبعًا.. ماانتم كلكم واحد.. بتدافع عنه؟ ده معاه واحدة عاوزة تنور له صوابعها شمع ومش عاجبه، دي «منى» غلبت معاه ومع خياناته.. والله ده ذنبك اللي حصل مع «عمر» ده.. أنا فاكراها نزوة ولا زفت وساكتة.. لكن توصل إنك..».

صاح بها «شريف» في ضيق مكتوم ألجمها: ««ممكن تسكتي؟»».

وكأنها فوجئت بردة فعله.. استكانت تحت نظرة «رأفت» اللائمة وكأنه يذكرها أنه حاول تنبيهها ولم تستمع إليه.. لكن «شريف» واصل في صوت لمحوا تهدجه بمشاعر مختلطة من الندم والحسم: «أنا لو الأيام ترجع بيَّا كنت عملت كتير مختلف عن اللي عملته.. عمرك ماحتفهمي اللي حاقوله، أنا عمري ماحبيت إلا «منى».. ولا تصورت إني أعيش من غيرها.. ولا تخيلت إن دموعي تنزل لما انهارت الصبح في البيت وانتي شفتي بنفسك.. كون إني بحب «أسيل».. ده شيء مش بإيدي.. ومش عاوز ولا مهتم إن حد يفهمه ولا يقدر كلامي.. كل اللي أنا عايزه إن محدش يحكم عليَّا من غير

ما يعيشني، من غير ما يدخل جوايا، من غير مايشوف اللي باشوفه بعيني وأحسه بقلبي..».

صمتت لحديثه واستجمعت قواها فخرج صوتها بالرغم عنها مرتعشًا وهي تقول: «أنا آسفة يا «شريف».. بجد أنا أعصابي خانتني علشان بحبكم إنتو الاتنين، وإنت عارف إن «منى» بالنسبة لي تبقى إيه.. بيصعب عليَّا إنك مش حاسس بيها زي ما هي حاسة بيك، بس.. عمومًا أنا آسفة تاني..».

أومأ برأسه سريعًا لكنه بدا غير مهتم بدفاعها، عاد ببصره لـ «رأفت» مشيرًا له بأن يواصل حديثه.. فاندفع الأخير وكأنه وجد فرصة يتحينها لكسر التوتر القائم كنصل سكين بينهم: ««أسيل» موقفها سليم.. مش باين إنها ضحكت عليك ولا إن فيه حد تاني خطف الولد، مفيش حد تاني في الموضوع هي مخبياه عليك ولا حاجة زي ما احنا متوقعين غير اللي قالت لك عليهم.. «شادي» وصل لهم بالمناسبة ومايعرفوش أكتر من الخطف والمخزن اللي اتقفل عليه وبس، يعني.. لكن دي الحاجة التانية اللي أنا شايف إنك تكملها إنت بنفسك.. إنت اللي تقدر تبص لها وتعرف هي بتكدب ولًا لأ.. تعرف هي مخبية إيه.. حكت لك إيه وإنت نسيت تقوله.. كلمة أو جملة قالت لك عليها، ممكن تدلك على باب كبير تفهم منه حاجة مهمة..».

تململت «حسناء» حين جاء ذكر «أسيل» مرة أخرى، إلا أن «شادي» نهرها بنظرة نارية من حيث لم يلحظه «شريف» فأشارت بيدها علامة تعد بها بإغلاق فمها.. بينما قال «شريف» بتركيز: «إنت وصلت للناس اللي خدوا الولد وما قلتليش؟».

بنظرة ملتاعة قال شادي بتلعثم: «والله أنا.. كنت عايز أساعدك بس.. وهم عمومًا قصتهم زي «أسيل» ما قالت، يعني مافيش جديد..».

قاطعه هادرًا: «إنتو بتساعدوني، ولا كل واحد بيتصرف من دماغه؟.. إنت كمان مش حاطط أي اسم من أسامي الولاد دول، ولا صاحب المخزن.. اللي هو أهم واحد.. وفي إيده كل حاجة، الناس دي أنا عايز أتكلم معاها.. عايز أبص في عينيهم وأعرف بنفسي كل حاجة، أشوف بيكدبوا ولا صادقين..».

تدخل رأفت في حسم هادئ: «خلاص يا «شريف».. «شادي» مايقصدش، وعمومًا الناس دي موجوده لو عايز تتكلم معاهم..».

هدأ من روعه قليلًا، لكنه أشاح بيده في يأس مستندًا بظهره لمقعده: «هو أنا حافضل اعلمكم لغاية امتى بس؟ مفيش حاجة إلا لازم أعملها بنفسي؟».

بوجه علته كل أمارات الإحراج، جاوبه «شادي» بحروف تتعثر في بعضها: «أنا آسف يا «شريف».. أنا والله كان قصدي خير، الناس دي الحديث معاها تحصيل حاصل، صدقني.. وعلى العموم.. الراجل صاحب المخزن اسمه «عبدالحميد جلال»، فاتح محل كبير وبازار في خان الخليلي.. والعنوان عندك في الورق اللي سايبهولك عندك».

أطرق برأسه ينفث غضبه أمامه، رفع رأسًا مغمض العينين وهو يقول في تؤدة، طيب.. خلاص يا «شادي».. أنا رايح أشوفه دلوقتي..».

أشاحت «حسناء» بوجهها في ضيق وهي تغمغم: «معلش يا «شريف».. الأفندي النصاب اللي عندك في البيت، المفروض أعمل معاه إيه؟ أنا مع «منى» طول الوقت، ومامتها كمان موجودة، بس يعني إنت مش قلقان من الولد ده في حاجة؟ مش نخلص منه الأول قبل ما نتحرك في أي اتجاه تاني؟ ماتنساش إنه غريب.. والله أعلم مين وراه، ولًا ممكن يعمل في «منى» إيه.. وإحنا تلاتة في البيت صحيح.. بس يعني برضه..».

صمت لحديثها، مقلبًا الأمر في رأسه، لم يعد يدري كيف يرتب أولوياته.. تدخل «شادي» مضيفًا: «هو ده اللي كنت باقوله يا «شريف» سواء انت حتدور على الحاج «عبدالحميد» صاحب المخزن، ولًا الأولاد اللي عملوا العملة دي، مش حتفهم كتير وحتضيع وقتك بس.. لكن مفاتيح تقيلة زي «هيثم» ده، ولا «أسيل» طبعًا، و«رمزي الطويل».. دي مفاتيح مهمة، وفيه كلام كتير حتطلع منه بمقابلتهم، والكلام معاهم..».

هز رأسه بقوة معاندًا، وهو يطوي الورقة التي خط عليها «شادي» العنوان الخاص بصاحب المخزن «لأ. أنا برضه لازم أشوف الراجل ده.. حتى لو أنكر إنه يعرف أو قال إنه مالوش دعوة..».

صمت الجميع منعًا لمزيد من التوتر.. تابع وكأنه ينهي الجلسة «أنا حاروح البيت أطمن على «منى»، وحابدأ بالترتيب اللي أنا شايفه.. موضوع «رمزي» ده مهم، وحاشوفه برضه، لكن طبعًا الحاج «عبد الحميد» ده أهم خطوة دلوقتي.. ولولا إن عندي خطوة أهم منهم هم الاتنين.. كنت بدأت بيه قبل «رمزي» كمان..».

اشرأبت أعناقهم نحو وجهه في فضول، والتقت عيونهم عند وجه «شريف»، زائغ النظرات، عازم القسمات فقال بعد صمت قصير: «معلش.. سيبوني أتصرف..».

(29)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 14 (استكمال ثانٍ)

التضحية المحسوبة بقطعة كبيرة.. خطوة مهمة لتحقيق انتصار كبير، لكن هناك شروط مهمة لذلك الانتصار.. أهمها أن تكون قد أعددت حساباتك جيدًا.. الخطأ هنا قد يتسبب في كارثة.. ولكن الأكثر أهمية أن تجيب عن السؤال: هل يدفعني شيء ما، أو خصم ما لارتكاب تلك التضحية؟ هل هناك من ينتظر تلك الخطوة لينقض على الملك.. فيجهز على المباراة لصالحه؟

كان عازمًا على شيء ما.. ينهي به وجود «هيثم» في المنزل الليلة، وبأي ثمن.. لكنه حينما ولج منزله.. هاله بكاء حماته في ردهة المنزل.. كان جسدها كله يرتج، وعندما رأته أشارت له تجاه حجرة «عمر»، سألها عن «منى» فعاودت الإشارة إلى الحجرة.. فتح بابها ملهوفًا وهو يتوقع الأسوأ..

لكن الحجرة كانت خالية إلا من «منى».. جسدها متكور على سرير «عمر».. تحتضن وسادته وهي تبكي في صمت.. جلس بجانبها مبهورًا، لا يلوي على شيء.. أراحت رأسها على كتفه، بعينين شاردتين قالت في حزن: ««عمر».. «عمر» ضاع يا شريف..».

قال في تلقائية: «هيثم راح فين؟».

- «أنا طردته.. أنا فهمت كل حاجة يا «شريف»..».

جذب نفسًا عميقًا لرئتيه، مسح على شعرها في حنان وهو يتمتم بشيء عن إرادة الله التي سوف تنجدهم حتمًا.. قالت له بغتة: «فاكر الحلم اللي قلت لك عليه ليلة ما «عمر» اختفى؟».

- «فاكره.. إيه اللي فكرك دلوقتي؟».

- «أنا قريت تفسير له، التماسيح في الحلم.. معناها قرايب أو أصحاب حيعملوا خيانة، شوف انت بقى.. بعدها على طول «عمر» اتخطف..».

لم يدر بماذا يجيبها وهي على هذه الحالة، أحس بغصة في حلقه وهو يهمُّ بقول شيء ما، لكنها عاجلته بقولها: «إنت بتخونني تاني يا «شريف»؟».

بعينين محدقتين تحاولان سبر غوره حدقت فيه عن قرب.. قال في شجاعة وهو يتظاهر بالدهشة: «أنا؟ يا «منى» إحنا في إيه ولا في إيه؟».

- «علشان إنت دايمًا بتخونني.. أنا ببقى عارفة وبسكت، لكن مش معنى كده إني مش بحس، مش معناها إن معنديش كرامة.. أنا

ببقى عارفة إنك حترجع لي، زي ما رجعت لي كل مرة، زي ماعملتها زمان، بس رجعت لي بأجمل هدية في الدنيا..».

صمتت لثوانٍ وهي تكفكف دمعة أبت إلا أن تعلن عن نفسها، وواصلت برجاء: «عارف؟ من يومها وأنا بحلم إني أرد لك هديتك. من يومها وأنا نفسي أحمل منك، وأديك أخت أو حتى أخ لـ«عمر».. بس إنت عمرك ما اهتميت يا «شريف».. كلمتك كتير ومفيش فايدة.. وبدل كده، أنا عارفة إنك بره البيت بتعمل اللي انت عايزه.. يمكن مش باقول ولا بيبان عليًا، بس لما بفكر إنت ممكن تكون مع مين ولا ممكن تكون بتعمل إيه.. بانهار يا «شريف»، بخاف إني ماستحملشي..».

محاولًا أن يجعل صوته طبيعيًا، وأن يعبر تلك العثرة في حوارهما دون أن تسترسل بها قال: ««منى»، احنا تعبانين، واللي احنا فيه مش قليل.. أرجوكي ما تخليناش نتخانق ولا نفتح مواضيع مش وقتها..».

قالت وكأنها لم تسمعه: «أنا حاولت أصون الهدية، كنت مخلصة في حبك، ومخلصة كأم لـ «عمر» طول عمري، ماعملتش حاجة تزعل ربنا مني، بس تفتكر لما يحصل كده دلوقتي، ده مايبقاش غضب من ربنا؟ أكيد أنا مش بعمل حاجة غلط، يبقى مين فينا اللي ربنا بيعاقبه ولا عمايله بنتاخد بسببها في الرجلين احنا الاتنين، بإن «عمر» يضيع؟».

تململ في جلسته قليلًا، ثم حسم أمره بأن قال في لهجة من طفح به الكيل، وهو يتحكم قدر جهده في نبرة صوته: «هو ليه أنا دايمًا السبب؟ أنا اللي مش فاهم.. أنا اللي مش مقدر، أنا الشيطان اللي لو

الحياة ريحتكم منه كل حاجة حتكون أفضل.. أنا السبب في خطف «عمر»، لو مش علشان مافهمتوش وماقدرتش اللي هو عاوزه، يبقى علشان باخونك..».

- «يعني انت بتخونني يا شريف، ولّا لأ؟».

- «لأ.. ومش مهم السبب يا «منى».. خلينا نفكر حنعمل إيه، وبلاش كل حاجة نجيبها في الأحلام والإحساس وأي حاجة تبعدنا أكتر عن اللي احنا عاوزينه..».

- «بتحبني يا شريف؟».

انقلب غيظه لدهشة حقيقية.. وقد شعر لوهلة بأنها تهزل في موضع جد لا يحتمل، لكنه إذ نظر إليها بشعرها الثائر وعينيها الزائغتين، المحمرتين من أثر بكاء وسهاد طويل، قدر أنها على حافة الجنون.. فقال بلهجة اصطبغت رغمًا عنه بحنان وحب: «أنا بحبك طبعًا يا «منى».. أرجوكي اهدي.. ومايكونش عندك شك..».

ضمها لصدره في عزم، عيناها تغرورقان مرة أخرى وتهدجها يعود، بينما يواصل بحسم هادئ: «حيرجع. حتى لو حموت بعدها.. حيرجع».

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 16

الفرس الهادئ يثير الشك والحذر بأكثر من الفرس النشط.

صعد البناية القديمة في ذلك الشارع الجانبي بـ «شبرا».. محاذرًا موضع قدميه بدرجات السلم المهترئ حتى صارت أطراف سطحه ملساء من الاستخدام المفرط.. لم يكلفه العنوان شيئًا للحصول عليه، الوصول لم يكن صعبًا.. لفتت سيارته الأنظار كأي غريب يطأ منزل أسرة كبيرة دون موعد مضروب، نظرات المارة وأصحاب الحوانيت المتشككة كانت تضيف لغربة إحساسه حدة، وتراكم جبل من الهم الذي يجثم راقدًا على صدره، يحس به في أنفاسه الوالجة والخارجة، ويزداد ثقلًا كلما مرت عقارب الساعة بيده بمدارها المفضل في سرعة تثير جنونه.

فتحت له الباب أمها التي بدت بقسمات وجهها الطيبة غير المتشككة، وبكلماتها البسيطة الحذرة في ترحيب بالغريب، كنسمة رقيقة وسط هذا الأتون الذي يحياه بكل جارحة.. أدخلته عندما قدم لها نفسه باعتباره رئيس ابنتها «في الشغل»، فسارعت بتأكيد معزة

الخطوة، وعظم الزيارة.. لملمت غطاء رأسها لتداري انفعالًا واضحًا، وتطوعت بعمل مشروب للترحيب به رغم تمنعه الصادق.. ثوانٍ واستقر به المقام بجلسة «الصالون» المذهب العتيق، رائحة الغرفة التي تنم عن هواء مكتوم لندرة استقبال الغرباء أمثاله.. و«شيرين» تطأ الغرفة حاملة كوبًا من الشاي على محفة مفضضة.. تضعه أمامه وعينان حائرتان مرتعدتان تجوبان قسمات وجهه بترقب.

نظر لها طويلًا، تبرر غيابها ليومين عن الشركة بمرضها.. تستدرك لتداري مظهرها الذي لا يشي إلا بالعافية: «بس بقيت أحسن بكتير.. كنت ناوية آجي بكره والله العظيم، بس أنا عارفة الظرف اللي بتمر بيه فمالقيتش فيه داعي أتصل مخصوص وأحكيلك يعني، قلت يعني.. هو في إيه ولا في إيه..».

قال في بطء حاسم، مقررًا ألا يسمح لها بالمراوغة: «إنتي عارفة إني شفتك ليلة الحادثة، وإنتي خارجة من فيللا «عمر»؟».

أجفلت للحظة.. لم يدرِ ما إذا كانت قد فوجئت أنه يعرف، أم أنها فوجئت به يطرح الأمر بهذه المباشرة.. لكنها تحولت لرأس مشتعل كالجمر، وجسد يضم أوصاله بعضًا طلبًا للأمن والهدوء.. أطرقت بعينيها موضع قدميها، غمغمت في انكسار: «أنا و«عمر» كنا أصحاب.. أو يعني.. أهو كنا أصحاب وخلاص، أنا ماعملتش حاجة غلط..».

– «مش خايفة إني أتهمك بإنك ليكي يد في الموضوع؟.. ».

رفعت عينيها إليه وقد بان أنها لم تتوقع هذا السؤال.. قالت في دهشة حقيقية: «أنا ماليش دعوة باللي حصل.. أنا لغاية ما مشيت، كل حاجة كانت طبيعية..».

- «وبعد مامشيتي.. حصلت المصيبة دي.. إنتي آخر واحدة شافته يا «شيرين».. إيه؟ مش شايفة إن ده مش طبيعي؟ «منى» على وشك تتجنن، وأنا مش حسيب وسيلة ولا طريقة إلا لما أحاول فيها لغاية ما يرجع..».

أمسك عن الكلام للحظة، يتأملها في تركيز ليرى ردة فعلها التي لم تزد عن الترقب والخوف الجلي.. ليواصل في تهديد: «النهارده فات أكتر من 24 ساعة على اختفاء عمر، تفتكري وإحنا خلاص كده، ممكن نبلغ رسمي.. ونخلي البوليس يشتغل معانا، تفتكري إن اسمك مش واحد من الأسامي المهمة اللي البوليس لازم يدور عليها؟».

اتسعت عيناها في دهشة قائلة بتلقائية: «بس أنا ماعملتش حاجة..».

- «كنتي عنده بتعملي إيه، إنتي رحتيله الساعة حوالي 12 ونص بالليل.. دخلتي دقايق.. ونزلتي تاني..».

قالت في رجاء: «أرجوك وطي صوتك.. ماما هنا.. ولو سمعت حاجة زي دي ممكن تموت فيها.. مش لازم تتكلم عني كأني واحدة مش محترمة، متعودة تروح للرجالة في بيوتها..».

- «أمال إنتي عايزة تسمي اللي بتعمليه ده إيه؟».

قالت بحنق وجمرة رأسها تزداد اشتعالًا حتى أحس أنها بالفعل لم تعد تتحمل ضغطًا أكثر: «باسميه حب يا باشمهندس، أيوه أنا كنت بحب «عمر».. ومن ساعة ماسمعت اللي حصل، وأنا مش عارفة أتلم على بعضي، رغم إنه وراني أيام كتير كنت بكره نفسي، ورغم إنه.. لحد آخر مرة شفته، وأنا مش حاسة إني الوحيدة في قلبه.. فأرجوك بلاش تعاملني المعاملة دي..».. تلقفت أنفاسها بصعوبة، وسرحت ببصرها لثانية، ثم ركزت بصرها بوجهه قائلة في عجب: «12 ونص بالليل؟».

- «جاوبيني يا «شيرين».. أنا مش في وضع يسمح لي بالمناورات دي..».

قالت بلهجة صادقة: «أنا مش باناور يا «شريف»، أنا كنت عنده من الساعة 9 بالليل..».

- «أنا شفتك بنفسي..».

رجعت برأسها للوراء.. وبدا كما لو تذكرت شيئًا.. ثم قالت فجأة: «أنا فعلًا كنت عنده من 9 لحد الساعة اتناشر.. مشيت، بس رجعت تاني.. بعدها ممكن بنص ساعة فعلًا..».

صمت وهو يستحثها على الكلام فتابعت وكأنها تستعيد ذكرى مؤلمة، تعض على شفتها كل بضع جمل: ««عمر» كان غريب جدًّا ليلتها.. اتفقنا قبلها بكام يوم نتقابل، ولغى البروفة مع أصحابه يومها وحتى بيقول كانوا مستغربين لإنهم وراهم لحن مهم قرب يخلص، بس كان باين إنه مبسوط، ومزاجه أحسن من كل مرة.. قضينا وقت كويس، بس في الآخر حسيت إنه زي مايكون عاوزني أمشي..».

- «ليه حسيتي بكده؟».

- «هو ماقالشي حاجة، بس كان كل شويه يبص في الساعة، ولما طولت شويه في الـــShower، كان بيقول لي أخلص بسرعة، علشان هو عايز الحمام..».

نظر لها نظرة ازدراء خفضت على إثرها بصرها خجلًا، لكنها تابعت محاولة ألا تكبل لسانها من أثر نظرته: ««عمر» عينه زايغة، وماكنتش حاسة إني الوحيدة في حياته، على الأقل يعني مش آخر واحدة، سيرة الارتباط كان دايمًا يغير الكلام بعدها، وعمره ما إداني وعد صريح. أنا صبرت كتير وقلت بكره لما نعرف بعض أكتر، مسير الأمور تتغير.. لكن ماكانشي فيه حاجة بتحصل».

ظهر ترقرق عينيها بدمع وليد، لكن «شريف» نحى مشاعره جانبًا، وهو يكتم زر الصوت في هاتفه المحمول.. وهي تواصل بصوت تغالب ارتعاشه: «كتير قال لي إنه بس مستني إنك تخف عنه شويه، وينجح السنة دي، وياخد فلوس منك يعمل بيها الفضائية بتاعته، وبعدين حيخطبني رسمي.. كنت باصدقه، علشان عايزه أصدقه».

انقلب وجهها لحزن عميق وهي تطأطئ برأسها مواصلة بحزن حقيقي: «بالليل لما أروح وأقعد مع نفسي كنت باقول إني غبية، وإنه بيستغل حبي له، ويمكن بيضحك عليًا، بس عمري ما بطلت أحبه، ولا عمري بطلت يبقى عندي أمل فيه.. لكن ليلتها بقى، لما لقيته بيستعجلني قوي كده، ويقول لي إنتي اتأخرتي ووالدتك حتقلق عليكي.. وهو عمره ما اهتم بالحاجات دي.. اتأكدت إنه مستني واحدة تانية غيري معادها قرب، علشان كده لازم امشي..».

- «ومشيتي الساعة 12؟».

- «أيوه، ونسيت المحمول بتاعي عنده، بس كنت قاصده أنساه علشان أعمله حجة أرجع علشانها.. لفيت بالعربية بعيد، ولما مرت نص ساعة من وقت ما سيبته لوحده، قلت خلاص.. زمانها وصلت.. أروح بقى وأشوف بنفسي. أنا كنت خلاص، مش مستحملة، وكنت عاوزة أشوف بنفسي أنا فاهمة صح، ولا هو مابيلعبش بديله ولا حاجة، وأنا اللي ظالماه. ركنت العربية ونزلت.. لكنه اتفاجئ لما شافني، وماكانشي باين عليه غير إنه استغرب إني رجعت، واداني المحمول، لأنه كان لقاه بعد ما مشيت.. ماكانشي عنده حد، أكيد كنت حاحس لو فيه واحدة عنده.. بس كان برضه مستعجل ومش مرحب قوي.. وأنا ماشيه قال لي إنه كان خلاص حينام..».

- ««شيرين».. لما رجعتي شفتي عنده حد؟ افتكري كويس.. أي حاجة غريبة أو لفتت نظرك؟».

- «الحقيقة أنا ماشفتش عنده أي حاجة تستاهل إني أحكيهالك..».

أطرق برأسه مفكرًا.. رفع عينيه ليواجه عينيها الذاهلتين، ورأسها الذي انطفأت شعلته قليلًا، وكأنها استنزفت طاقتها في الشرح المشحون بالمشاعر.. حملت نظرته لها اشمئزازًا لم ينجح أن يخفيه.. فقالت في غيظ مكتوم: «إنت بتبص لي كده ليه؟».

- «إنتي مدركة، إن «عمر» أصغر منك بخمس سنين؟ حب إيه وهباب إيه اللي بتقولي عليه؟ طيب قولي الكلام ده لحد تاني، انتي مش العفيفة يعني ولا القطة المغمضة، ولا عمرك ما عرفتي حد، احنا

كلنا في الشركة شايفين والتريقة والهمز واللمز عليكي مابيخلصوش وبيتقالولك في وشك كمان، يعني مالقتيش إلا ابني تلعبي عليه؟».

- «أنا عارفة إني مش مثالية، ولا حتى صح.. بس كل إنسان بيغلط. أنا ماكنتش ماشية في سكة الغلط وأنا باهلل وأصقف، أنا كنت باحاول أعمل الصح، وكنت نفسي نتجوز، مافيهاش حاجة لما نحاول نبطل عك، مافيهاش حاجة لما أحاول أبقى واحدة عادية، محترمة، تناسب عيلة وتعمل بيت وأولاد..».

- «وإنتي فاكره إنه سهل عليَّا أسمع الكلام دا؟ ولا فاكرة إني فجأة كده أكتشف إن اللي بتشتغل في شركتي، رفيقة ابني، والمفروض عليَّا إني ماستغربش؟».

انقلبت سحنتها في ضيق وهتفت بصوت كتمت حدته قدر جهدها وهي تسترق النظر لخارج الحجرة، مميلة برأسها نحوه: «رفيقة ابنك إيه؟ قلت لك وطي صوتك، كفاية المشاكل اللي بتحصل لحد دلوقتي، وأرجوك ماتتكلمش عليَّا كده.. أنا عاملة حساب إنك في بيتي، وإنك رئيسي، وباقية عليك وعلى الشغل عندك، لكن أنا مش واحدة من الشارع ولا صايعة، اللي بتتكلم عليه ده ابنك ماتنساش، وأي حاجة حتقولها عليَّا، المفروض تقولها كمان عليه..».

دق محموله مرة أخرى.. فضغط زر القبول بعصبية وهو يصيح بمحدثه: «أفندم!!».

أتاه صوت أجش مألوف يقول في صرامة: «إنت مابتردش ليه يا أستاذ «شريف» على مكالماتي؟».

خفض من وتيرة انفعاله وهو يتمالك صوته: «لا يا بك مافيش حاجة، مشاغل بس مش أكتر..».

اندفع الصوت يسأل في حدة بلا مقدمات: «الورق الأصلي فين؟».

قال بدهشة حقيقية: «في العربية.. العربية رجعناها، والورق فيها، سيادتك بنفسك أكدت لي الكلام ده..».

- «أنا باتكلم عن الورق الأصلي.. الورق اللي في العربية ده كله نسخ متصورة وأثر التصوير باين على كل ورقة.. الأصلي فين؟».

- «يافندم أنا ماعرفش حضرتك بتتكلم على إيه..».

- «الورق ده، لو ما ظهرش في 24 ساعة، أنا حيكون لي حساب عسير معاك.. أنا شايفك واخد الحكاية ببساطة، أنا مش بهزر في الحاجات دي.. الورق يطلع أحسن لك، إنت سامعني؟».

كان يصرخ بأذنه، وسرعان ما أنهى المكالمة.. تاركًا «شريف» مذهولًا، متحيرًا.. ألقى نظرة على «شيرين» بوجهها البريء المصدوم من أثر حديثهما.. غمغم بكلام قصير عن الوقت الذي داهمه.. أطرقت برأسها وهو يقوم من موضعه نحو باب الغرفة.. متحاملًا على أعصابه دار حول جسده.. نظر إليها سائلًا: «فيه أي حاجة عايزة تقوليهالي قبل ما أمشي؟».

- «أنا ماعرفش غير اللي قلته.. ولو كنت أقدر أساعدك، ولا حتى أتخطف أنا مكانه..».

ثم تهدج صوتها فقطعت حديثها.. تحرك نحو الباب فصاحت به «رايح فين؟ أرجوك قل لي لو ممكن أعمل أي حاجة!».

حدجها بنظرة متوترة وأردف في بطء «رايح لـ «رمزي الطويل».. ماتتعبيش نفسك..».

اتجه خارجًا نحو باب المنزل بينما العجوز تبرز من إحدى زوايا الصالة، تتحرك خلفه وكأنها تحاول اللحاق به، صائحة في إخلاص: «ما لسه بدري يا أستاذ، اقعد اتغدى معانا..».

أتاه صوت «رأفت» عبر الهاتف حانقًا: «يا «شريف»، أنا حتجنن منك ومن «شادي».. مش فاهم ليه موضوع «حورية» بيكبر معاكم بشكل مش مفهوم كده.. إنت ماشي ورا كلامه ليه؟».

- «ولا أنا.. بس يعني عايزني أعمل إيه؟».

- «احنا مش كنا انتهينا من الموضوع ده؟ وفرنسا إيه اللي بيقول عليها؟ الست ماتت وشبعت موت من زمان..».

وجد «شريف» نفسه يسأله في فضول.

هل حقًّا المسألة بهذه البساطة؟

عاد بأفكاره لتلك الليلة منذ سبعة عشر عامًا.

خرج ليلتها مفزوعًا.. فلم يخطر بباله سوى «رأفت».

دخل عليه حانوته الصغير بـ «خان الخليلي».. فهال صديقه وجهه المحتقن فزعًا.. سارع بإغلاق الحانوت عليهما.. لم يقوَ على البوح له بكل شيء.. قال بسرعة إن «حورية» ماتت.. لم يكن قد تأكد بعد..

لكنه كان قد سمع الصراخ وهو يغادر الشارع مسارعًا بعد أن استقر الكوب المسموم بجوارها.. لم ينظر وراءه ولكنه سارع بالاختفاء في ظلام كابينة أول سيارة أجرة صادفته.

«رأفت» لم يضغط عليه.. أسرع بإجراء اتصالاته.. يحتاج إلى جواز سفر له ولـ«منى» وللمولود.. على وجه السرعة.. يحتاج لعقد عمل.. و«رأفت» يساعده بكل ما أوتي من قوة، ومعارف واتصالات.

نظر إليه بعينين مهمومتين في نهاية الليلة.. عندما قاربت جهوده على الإثمار وتلقى وعودًا أكيدة بالإنجاز في الغد على الأكثر.. وقال في جدية المحب: «فيه حاجة خايف تحصل في غيابك آخد بالي منها؟».

تخاذلت نظرته ليطرق بالأرض.. قبل أن يجيب في رعب: «قل لي.. لو جابوا اسمي في تحقيق ولا اتهموني بشيء..».

هز رأسه متفهمًا.. لم يسأله بعدها أي سؤال.

واصل «رأفت» حديثه عبر المحمول ليقطع عليه حبل ذكرياته: «المهم، إنت فين دلوقتي؟».

قاطعه ليسأل في لهفة: «طمني، حد شك في حاجة؟ يعني «شادي ولّا «حسناء» وصلوا لحاجة أكتر من اللي المفروض يعرفوه؟».

خفض «رأفت» من صوته قائلًا في تردد: «ما أظنش، بس والله يا «شريف»، المسألة بتتعقد من اتجاه تاني.. اسمعني كويس، علشان ماتفهمنيش غلط...».

بقلق استحثه على المواصلة.. فتابع بعد تنهيدة قصيرة: «فيه خبر عايز أقولهولك.. النهارده الصبح جالك تليفون في الشركة.. «حسناء» كانت هناك، علشان احنا مقسمين نفسنا، واحد كل يوم بيروح الشغل، والباقيين معاك على الخط لحد مايرجع «عمر».. بتقول إن فيه رسالة مهمة ليك..».

- «وما كلمتنيش ليه؟ فيه إيه.. الرسالة دي من مين يعني؟».

- «أنا اللي قلت لها يا «شريف» إني حاكلمك.. علشان فيه خبر تاني عايز اقولهولك بالمرة.. بس الأول الرسالة.. المكالمة اللي جاتلك في الشركة كانت من واحدة ست، سألت عليك وقالت مش عارفة تليفونك المحمول، «حسناء» رفضت تديهولها.. لما قالت لها سيبي له رسالة، قالت إنها مستنياك الساعة خمسة ونص العصر في الكازينو اللي على النيل.. أيوه اللي انت عارفه ده.. بتقول اسمها «حورية»، وإن إنت عارفها كويس..».

خفف من سرعته.. انتحى جانبًا بالسيارة ليلتقط أنفاسه من الجمل الصادمة التي استمع إليها.. ناداه «رأفت» بقلق.. فجاوبه انه ما زال هناك معه على الخط.. طمأنه بأنه سمعه جيدًا وكل شيء على مايرام.

- «اهدى يا «شريف».. كل شيء وارد، لا أنا ولا إنت حضرنا الدفن.. بس ما تمشيش ورا «شادي»، وما تتخضش من اللي سمعته دلوقتي.. الأكيد إنها ماتت.. بس فيه حد بيلعب بيك..».

- «كل شيء وارد، إنت بتقول إيه؟ يبقى «شادي» معاه حق بقى!».

- «أنا شايف إن فيه حد بيحط معلومات غلط في طريق «شادي» مخصوص، علشان يخليك تفكر في سكة معينة.. «شادي» سأل هناك في الشارع بتاعها وجاب معلومة فرنسا دي، ماحدش قال له ليه إنها ماتت؟ طيب هي سكتت ليه، وماسمعناش عنها حاجة ليه 17 سنة؟ فيه حاجة غلط.. الست اللي بتلاعبك دي الله أعلم هي مين.. بس المهم انك تبقى هادي..».

صمت «شريف» لكن «رأفت» استطرد قائلًا: «الحاجة التانية اللي عايز أقولهالك.. من شوية الراديو أعلن التغيير الوزاري.. أيوه فعلًا بدري عما توقعناه، معرفش إيه اللي حصل، بس معلش يا «شريف».. خيرها في غيرها بقى.. «رمزي الطويل» أخدها برضه..».

أطرق برأسه مفكرًا والسيارات تندفع من جانبه.. احترم «رأفت» صمته.. ولم يلبث أن قال له بلهجة من حسم أمرًا ما: «اسمعني يا «شريف».. الموضوع بيوسع.. فيه حد يهمه إن المسألة تتطور جامد.. ماتروحش المعاد ده لوحدك.. لسه تلات ساعات ونص أهو.. قل لي إنت فين وأنا آجي معاك.. مين عارف ده كمين ولا إيه بالظبط..».

بصوت بدا وكأنه ينهض من تحت أنقاض أحاقت بعالمه، من أثر الأخبار الصادمة التي أسر بها إليه: «أنا كويس يا «رأفت».. اللي عايز يعمل حاجة مش حيعملها في كازينو على النيل.. المشكلة مش في كده، المشكلة إني رايح أقابل «رمزي» دلوقتي.. وبعدها كنت حاشوف «الحاج عبدالحميد».. كده أنا حاضطر إني أروح المعاد الغريب ده..».

أتاه صوت «رأفت» متوترًا: «يا «شريف» الحاج «عبد الحميد» أهم طبعًا.. سيبك من «رمزي» دلوقتي، فيه كمان معلومة مهمة حوالين «الحاج عبدالحميد».. «شادي» قال لك إنه كان من سكان نفس الشارع بتاع «حورية» قبل ربنا ما يفتح عليه ويبقى من تجار خان الخليلي؟».

دارت المشاهد أمام عينيه للحظات.. وقال في دهشة بصوت مأخوذ: «لأ.. ما قاليش حاجة زي دي.. يعني الراجل اللي اتخطف ابني للمخزن بتاعه، كان ساكن في نفس الشارع اللي عايشة فيه طليقتي اللي أخدت فلوسها.. وبعد السنين دي بتظهر رغم أنها ماتت.. وفي الآخر تقول لي إنها لعبة يا «رأفت»؟ كل دي مش ممكن تكون صدف!».

- «ركز يا «شريف».. أبوس إيدك، «حورية» ماتت.. والجدع اللي اسمه «عبدالحميد» ده، أكيد جزء من اللعبة اللي بتتلعب عليك، سيبك من الوهم ده.. روح قابل الراجل في العنوان اللي معاك، وافهم منه كل حاجة.. سيبك من «رمزي» دلوقتي..».

- «ماينفعش.. كلها يوم ولّا اتنين وتبقى مقابلة «رمزي» صعبة ومستحيلة كمان، على الأقل هو لسه ماراحش الوزارة، وعنده شركة الواحد ممكن يلاقيه فيها.. «رمزي» برضه مفتاح مهم، ماتنساش إن كل ده بدأ من عنده، وإن سيرة «حورية» نفسها بدأت لما ظهر هو.. وأنا حقابل الاتنين النهارده.. مافيش وقت.. وبعدين «شادي» معاه حق، أنا غالبًا مش حطلع من الحاج ده بحاجة، يا إما حينكر ويطلع راجل بجح، يا إما كل اللي بيحصل، هو اللي وراه.... نشوف..».

- «طيب اسمع.. اهو خلاص فات 24 ساعة، بلغ البوليس بقى يا «شريف».. خلي البوليس معانا على الخط. يبقوا على مسافة مراقبين الدنيا، وكمان الجماعة اللي كلموك مسيرهم يكلموك تاني ونعرف طلباتهم.. خلينا مانشتغلش لوحدنا..».

- «بوليس لأ.. جرى إيه يا «رأفت»؟ بقى احنا حافظين الكتالوج ده صم.. وبنشتغل في الشغلانة دي بقالنا قد كده.. وبرضه حنغلط الغلطات الكلاسيك دي؟ حيعمل لي إيه البوليس لما يدبحوه ولّا يبعتوهولي في أكياس؟».

تنهد في يأس وقال: «طيب.. عمومًا خليك على اتصال.. طمّني أو كلم «شادي» بمجرد ماتعرف حاجة..» قاطعه «شريف» إثر إشارة من محموله.. ضغط الشاشة ليقطع المكالمة الأولى.. وأنصت لمحدثه الذي انطلق يقول: «إنت فين؟».

- «أنا لسه قافل مع «رأفت».. عرفت كل حاجة.. حاقابل «رمزي»، وبعدها حاشوف «حورية».. أو اللي بتقول إنها حورية يا «شادي»..».

صمت «شادي» مترددًا لثوانٍ.. ثم قال حازمًا أمره: «طيب انت مش زعلان مني، صح؟».

ابتسم مرغمًا وقال بإرهاق مغمضًا عينيه: «والله العظيم أنا مافياش حيل أزعل من حد..».

- «ماتضايقش نفسك».. وبحماس أضاف: «..وعلى العموم اطمن، أنا اتكهربت صحيح لما عرفت موضوع المكالمة بتاعة

«حورية» دي، لكن شوف، المسألة أكيد لعبة من حد احنا لسه مش عارفينه.. حد يعرف عنك كتير.. وبيركب الشخصيات والأماكن والصدف على بعض حلو.. علشان يهزك ويمشيك في طريق غلط.. بس العك ده كله بيعطلك.. لهدف أنا لسه مش فاهمه.. يمكن لحد ما يحددوا طلباتهم اللي عايزينها منك..».

- «أعمل إيه طيب؟».

- «مادام مصمم تروح لـ«رمزي»، فبعد إذنك يعني لو ماتضايقش، أنا حاروح أقابل الحاج «عبدالحميد» ده، المرة دي باقول لك قبلها أهو، علشان ماتزعلش تاني.. كده كده.. أنا مش متوقع كتير.. بس أنا في الشركة علشان «حسناء تعبت، ساعة كده وأتحرك على خان الخليلي..».

بغيظ من لا يجد مناصًا من الشباك التي أحاطت به بإحكام، قال: «الراجل ده لازم أتكلم معاه يا «شادي»، عايز أبص في عينيه وأشوفه بيكذب ولّا لأ..».

أجابه في حسم حنون: «إنت وقتك ضيق، وماينفعش تعمل كل ده لو عايز تكشف مين اللي بيعمل فيك كده قبل ما تضطر تعمل أي حاجة حيطلبوها منك.. ماتفكرش كتير وركز بس مع «رمزي».. حتتحل يا «شريف».. حتتحل صدقني..».

- «طيب، أنا برضه زيك، مش منتظر كتير، أنا رايح لـ «رمزي»، وعمومًا ابقى طمنني..».

(30)

جلست «شيرين» على طرف سريرها، بحجرتها بعد انصراف «شريف» منهارة.

كانت تبكي بحرقة، دموعًا ساخنة تبلل وجهها الجميل، وهالات سوداء من أثر السهر توسد أسفل عينيها.. سرحت ببصرها بعيدًا حتى تنبهت على صوت أمها تدعوها للخروج وتناول طعام الغداء.. جففت أطراف عينيها بمحرمة مزركشة، وحاولت التطلع لصورة وجهها بمرآة صغيرة بجانبها.. التقطت نفسًا عميقًا وأجابت أمها: «حالًا يا ماما، بتكلم في التليفون بس..».

وكأنها أبصرت بلمحة من زمن آتٍ.. أطلق هاتفها تنبيهًا، فأجفلت وهي تسارع بكتمان صوته، لئلا تكشف أمها كذبها.. وتناولته وهي تتأمل الرقم المكتوب على شاشته بوجه ممتقع.. أتاها الصوت حين لمست الشاشة.. فحيحًا غاضبًا في أذنها: «نزل من عندك؟».

أسندت جبهتها بيدها وكأنها تمنع رأسها من السقوط وجاوبته بالتأكيد، استمرت في الإجابة عن الأسئلة التي انهمرت عليها بلا توقف، وهي تغالب دموعها، وبلهجة المجبر المقيد إلى أصفاد، فلا يقوى على التملص من الرد: «من عشر دقايق.. رايح لرمزي..

أيوه طبعًا سألته، أمال عرفت إزاي؟!.. ماعرفش.. ماسألتوش، أنا؟ اشمعنى أنا؟.. فين؟ فين ده؟..».

ارتفع نحيبها والصوت يواصل فحيحه: «إنتي بتتكلمي كتير ليه؟ إنتي مش يهمك مصلحة «عمر»؟ تبقي تسمعي الكلام.. أنا ماليش دعوة يجرالك إيه.. لو اتكشفتي إنتي المسئولة، ولو ماعملتيش اللي بنقول عليه تقدري تنسي «عمر»..».

بصوت كالصراخ المكتوم قالت: «إنتو بتعملوا كده ليه؟».

- «مش شغلك..».

ضعفت لهجتها وكأنها تحاول ترقيق صوتها لتصل لمرادها، وبقلب يختلج كصوتها سألت «و.. «عمر» فين؟ طيب سمعني صوته بس.. أرجوك ماينفعش تعمل فيًا كده..».

- «ليكي عندي، إنك تعرفي إنه كويس، وبس!».

- «وأصدقكم ليه؟».

- «ولما ماتصدقيناش حتعملي إيه؟.. نفذي اللي بنقول عليه.. وبلاش كتر كلام..».

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 17

الفرسان المتلاصقان على الرقعة لا يهددان بعضهما.

جلس الملازم «حاتم» بأريحية مستندًا بظهره إلى المقعد الوثير بغرفة الشركة.. وتأمل في الديكور من حوله، ولم يلبث أن قلب شفته السفلى في امتعاض وهو يوجه حديثه لـ «شادي»: «قلت لي دعاية وإعلان، وتطبيقات الموبايلات؟..».

توتر «شادي» وهو يكسو صوته بثقة مصطنعة قائلًا: «أيوه يافندم.. احنا شركة معروفة، ومش فاهم حضرتك بتسأل السؤال ده كل خمس دقايق ليه؟».

ابتسم «حاتم» وهو يضع ساقًا فوق ساق، مجيلًا بصره في فضول في أنحاء الحجرة، متنقلًا بين أسطح الحواسب والشاشات، وهو يقول في غير اهتمام: «أنت أكيد فاكرني، أنا كنت معاكم يوم ما حررنا ابن الباشمهندس «شريف» من المخزن.. أنا كمان شفتك واقف هناك.. واضح إنكم مش مجرد شركة.. بدليل إنكم تكونوا موجودين جنبه في لحظة زي دي..».

- «ده أكيد..».

اعتدل بغتة في جلسته، واقترب منه بجذعه سائلًا وهو يركز عينيه بوجهه: «الباشمهندس فين دلوقتي؟ بقاله يومين ماجاش الشركة».

ابتلع «شادي» لعابه في توتر وقال بتلقائية: «أنا ماعرفش.. أكيد وراه مشاوير أو فيه عنده ظروف..».

- «وفين باقي الموظفين؟ إنتو كل يوم واحد بس اللي بييجي الشركة؟».

- «فيه حاجة معينة حضرتك عاوزها مني ياحضرة الظابط؟ أنا مش فاهم الأسئلة دي وراها إيه؟».

اعتدل مرة أخرى للخلف وهو يعاود ابتسامته المستفزة وقال: «لا أبدًا، أنا هنا مش بشكل رسمي.. بس أنا انتظرت إن الباشمهندس يعدي عليًا في القسم نقفل المحضر.. ماجاش.. كلمته على الشركة وجيت إمبارح مالقيتوش، والنهارده أهو كمان ماجاش.. مش عارف يعني، مجرد استغراب مش أكتر: بس هو الموضوع كله مش طبيعي، كان بيقول إنه الولد مش ابنه.. وكنت منتظر إنه يقلب الدنيا ويجيني القسم يفتح الموضوع زي ما اتفقنا.. ومن ساعتها ولا حس ولا خبر..».

ضحك «شادي» في افتعال قائلًا: «لا يا فندم، أكيد اللخبطة ساعة الموقف هي اللي استدعت رد فعله الغريب ده، أنا معلوماتي إن الولد في البيت عادي.. وكل شيء تمام..».

- «قاعد في البيت بيعمل إيه؟».

- «مش فاهم حضرتك!».

- «يعني مش بيروح الجامعة؟ الولد ماراحش جامعته بقاله يومين.. وده يخليني أسأل سؤال، هو مش يمكن فعلًا الباشمهندس شايف إن ده مش إبنه، علشان كده بيدور عليه؟.. تعرف أي حاجة عن الموضوع ده يا أستاذ «شادي»؟».

- «أنا معرفش إلا اللي قلت لحضرتك عليه..».

أعاد الحملقة في الشاشات المتراصة والمكاتب وقال في استنكار متخابث: «إنت عارف بيقولو على شركتكم إيه؟ كلام كتير.. مالناش دعوة صح ولا لأ.. بس عمومًا الشكل العام مش بتاع دعاية وإعلان..».

نهض من مكانه وهو يعدل من وضع بذلته وقال في هدوء: «خلي الباشمهندس يكلمني.. قل له إن ده في مصلحته، وإلا حيضطرني أتعامل بشكل رسمي..».

عندما نهضت السكرتيرة الحسناء من خلف مكتبها لتفتح له باب المكتب الخاص على مصراعيه.. عاجلها بابتسامة مصنوعة.. تخطاها في بساطة ليدلف إلى الحجرة المزدانة بأضواء هادئة.. زجاج يحول بين الحجرة ومشهد النيل بالأبنية الفارهة على شاطئه، شمس تلتمع خلف سطح مصقول يغطي الجانب الأيمن من الحجرة ممتدًا من أرضيتها إلى سقفها المنقوش بحفر مذهبة والمرصع بثريا ضخمة في منتصفه..

بعد مساحة طويلة تغطيها أرضية خشبية، تختفي بعض مساحتها تحت سجاد إيراني باهظ الثمن.. يقبع مكتب من الأبنوس البني.. استدار إليه «رمزي» من خلفه بحفاوة مصطنعة بعض الشيء.. ابتسامة واسعة تحتل نصف وجهه الذي يعلو بذلة أنيقة ورباط عنق حريريًا، صلعة رأسه تلتمع تحت ضوء الحجرة.. يقف من مجلسه مرحبًا وهو يمد يده إليه مشيرًا نحو أقرب مقعد إليه بالجلوس.. استدار من خلف مكتبه ليجلس بمواجهته كأي صديقين.

جلسا بمواجهة بعضهما.. تبادلا كلمات الترحيب بعيون متحفزة على جانب، تواجهها عيون متلهفة لأسئلة كثر.. فجأة فتح باب جانبي.. لتظهر على عتبته «عزة المقدم».. وضعت يدها على فمها بتلقائية من فوجئ أن زوجها ليس وحده، لكنه طمأنها ودعاها للدخول وسط تحرج «شريف» من مجيئها الآن بالذات.

- «تعالي يا «عزة» ما فيش حد غريب.. ده «شريف» بيه رجل الأعمال المعروف.. جاي يهنيني على الوزارة..».

ترددت قليلًا وهي تتأمل وجهه لثوانٍ، حزمت أمرها وتوجهت برشاقة لاستلام مكانها إلى جوار زوجها.. حدقت بوجه «شريف» بعينين تضيقان لتحديد ملامحه.. قالت في تلقائية لم تخلُ من عجرفتها المعهودة: «حضرتك بتقول اسمك «شريف»؟ مش حضرتك كنت عندنا من أسبوع في الفيلا، وكان اسمك «هاشم» أظن؟ أظن كمان إنك كنت مدير أعمال البنت الأرتيست اللي كانت في الحفلة، صح كده؟.. هو فيه إيه يا «رمزي»؟».

حينما انصرف «شريف» مغادرًا مكتب «رمزي».. صار أكثر هدوءًا عن ذي قبل.

أمام العينين الذاهلتين، والوجهين الفضوليين.. حكى لهما كل شيء.

كان قد خطط لتلك المواجهة طويلًا وأعاد تفاصيلها وحركاتها بكل احتمالاتها في عقله عدة مرات وهو في طريقه لملاقاتهما.. لكن تعرف «عزة» عليه ووجودها في حد ذاته.. عجلا بهجومه.

قال بسرعة من يخشى أن يفقد شجاعته، عاقدًا ذراعيه أمام صدره في تحدٍ، وضاغطًا على حروفه: «مدام «عزة».. كويس إنك حتحضري كلامي، أنا هنا علشان أعرف، ليه طلبتي من الشركة عندنا، عن طريق وسيط.. إننا نعمل تحريات شاملة عن جوزك، «رمزي» بيه؟».

كانت لعبته المفضلة دائمًا.. الظاهرة الأثيرة التي يحب أن يضعها موضع الملاحظة، ويتفنن في مراقبتها.. السكتات، لغة العيون، ارتجافات زوايا الأفواه، رعشة الشفاه، تلك العلامات التي يستشف منها تورط من أمامه، ارتباك تفكيره.. حتى في خصومه عندما يلقون بتلك القطعة من مربع لآخر.. يتظاهرون باللا مبالاة، يكسون ملامحهم بهدوء مصطنع، لكن شيئًا ما يفضحهم.. وهو ـ «شريف» ـ متربص يلتقط تلك الإشارات فورًا، فيحللها ويفهم منها الكثير مما تخفي صدور الخصوم.. كان يبحث مع «رمزي و«عزة» عن عينين قلقتين تفضحان زيف كلمة متأنقة، رعشة يد تخفي كذبًا، أو حكة أنف محمر تداري خاطرة ما.

لكن تلك المرة، كانت الإشارات مختلفة.

«رمزي» و«عزة» كانا صادقين، لم يتظاهرا بشيء، ولم يخفيا عنه خاطرة.

كانت دهشتهما حقيقية، حينما صارحهما بما كان من وساطة «أسيل» بشأن التحقيق عن «رمزي»، كان ذهولهما صادقًا، عندما أنبأهما بطبيعة عمله، وبأن ابنه قد تم اختطافه، كان استنكار «عزة» خالصًا وطبيعيًّا حينما طرح شكه بأن يكون «رمزي» وراء الاختطاف.. وكان تعقل «رمزي» الهادئ ودهشته التي أفصحت عنها ملامحه الراقية بهدوء.. غير مفتعلة.

قال له بعد إطراق قصير، من بين حاجبين معقودين في جدية: ««شريف» بك، أنا مقدر تمامًا الظرف اللي إنت فيه.. صدقني أنا حاسس كويس قوي بالمشكلة.. وإحساسي ده هو اللي مانعني من إني أثور لكرامتي قصاد اتهام غريب زي ده، لأني متفهم شعورك..».

رفع عينين جادتين إليه وتابع شارحًا وهو يشير بيديه نحوه «صدقني إنت جيت للعنوان الغلط. زي ما أنت شايف، احنا أول مرة نسمع عن اللي إنت بتقوله ده، ولو حنشك في بعض كزوجين، زي ما إنت تصورت كده إن «عزة» بتدور لي على علاقة غرامية أو كلام من ده، مش حنعملها بالأسلوب ده، يمكن لسبب بسيط هو إني ماعرفتش إنك بتشتغل في مجال زي ده إلا من شوية لما حضرتك بتحكيلي، وبعدين.. «عزة»؟ دي تعرف عني أكتر ما أنا أعرف عن نفسي!!».

ضحك في جذل مرغمًا ضحكة قصيرة، شاركته إياها «عزة» لكنها دفعته برفق ليتوقف متحرجة من فداحة الموقف، فسارع مستدركًا:

«أنا آسف يا أستاذ «شريف».. الموقف كله غريب، أنا ماقصدتش أستهتر بآلامك ولا أقلل من المعاناة اللي إنت فيها..».

انكمش «شريف» في مقعده متحرجًا، قام بغتة محاولًا الاستئذان في الانصراف.. لكن «رمزي» نهض بدوره.. أمسك بكتفه برفق وأشار لـ «عزة» بالانصراف.. وجهت نظرة حانية نحو «شريف» وهزت كتفيها مغمغمة بصوت خفيض «مش عارفة أقول لحضرتك إيه.. ربنا يرجعه لكم بالسلامة يارب، عن إذنكم».

أجلسه بإشارة ودود.. تناول سيجارًا فاخرًا من طرف مكتبه.. أشعله بينما ينظر له بطرف عينه، ثم قال «إنت صحيح عملت عني تحقيق؟».

تردد برهة قبل أن يستسلم مجيبًا «حصل يا سيادة الوزير..».

بعينين يملؤهما الفضول قال: «ولقيت إيه؟ قصدي يعني إنت كنت شايفها حاجة ليها علاقة بخيانات زوجية وكده.. وصلت لحاجة؟».

ضحك «شريف» رغمًا عنه وقال: «والله كل خير يا سيادة الوزير.. ربنا يديلك الصحة يافندم..».

ضحك في جذل، وبلمحة من فخر في العينين الذكيتين نظر إليه لبرهة بإعجاب، ثم قال «شاطر يا «شريف» بك.. كويس إن «عزة» مش حاضرة كلامنا ده..».

- «وأنا كنت مش ممكن أقول على أي تفاصيل قدامها يافندم، حتى لو قالت إنها هي اللي ورا الموضوع..».

جلجلت ضحكته أكثر، ثم قال: «طيب كويس، أستاذ «شريف».. لو عندك وقت، أنا أحب أسمع شوية تفاصيل منك، خصوصًا جزئية موضوع مدام «حورية» هانم الله يرحمها، إنت طبعًا عارف إنها كانت صديقة «عزة» زمان، لكن خلينا في تفاصيل موضوعك.. ابتدي احكيلي شوية أكتر عن اللي حصل..».

قال في تململ من لا يريد أن يبدو بمظهر غير المهذب في مواجهة رجل بهذا الثقل «مافيش أكتر من اللي حكيتهولك يا سيادة الوزير..».

- «تراهن؟ شوف لما أقول لك، انسى حكاية (سيادة الوزير) دي شوية.. أنا راجل في السوق بقالي أربعين سنة، شفت كل حاجة، وعرفت مشاكل بعدد ماتتصوروش، مش قادر أقول لك بعدد شعر راسي، لأنه زي ما إنت شايف كده..».

لم يقو إلا على ابتسامة مفتعلة، وهو يسبح بأفكاره كيف يترك المكان بأسرع وقت ليواصل بحثه.. لكن «رمزي» كان لديه المزيد: «قصتك دي مش ماشية دوغري، أو بالأصح يعني.. ماشية دوغري زيادة، فيه حاجة غلط..».

انتبه لتلك الملحوظة العابرة، تيقظ شيطان اللاعب بداخله.. فرك يديه في حيرة وقال في ضعف: «إزاي؟ أنا مابقيتش فاهم حاجة..».

أطال النظر إليه وهو ينفث دخانًا كثيفًا لأعلى الحجرة، فيتبعه بنظرة الواثق، الذي وجد الحل للنقلة التالية على الرقعة.. وقال كأنه يحادث نفسه: «المسألة محكمة قوي.. مابتحصلش كده، إنت لعيب شطرنج قديم وعارف.. ماينفعش هاوي يلاعبك بطريقة المحترف، وماينفعش محترف يمثل عليك إنه هاوي.. الاتنين بيتكشفوا.. إن

عاجلًا أو آجلًا.. قصتك من النوع ده، الناس اللي خطفوا ابنك، كانوا عارفين إنه في الفيللا في الوقت ده، كانوا ممكن يروحوا يعملوا اللي هم عايزينه، ويمشوا.. أنا مش شايف لازمة إنهم يعملوا كل اللي بتحكيه ده، يزقوا عليك واحدة تقنعك تعمل بنفسك خطة معقدة قوي كده.. إلا لو هم عايزين يقنعوك إنه كل دي أسباب..».

قطب «شريف» جبينه وقال في تركيز وهو يشرد بعيدًا: «طبيعي إني شاكك في «أسيل».. رغم إني مش قادر أحدد هي ورا الموضوع ده، ولا حد بعتهالي.. ولا هي ما تعرفش حاجة واللي خطفوا «عمر» عرفوا بشكل ما.. وعملوا الحركة دي..».

– «شايف؟ الحيرة اللي إنت فيها دي.. أنا مش شايفها متخططة كويس.. فيه حاجة مش طبيعية ولا صدفة، فيه حاجة بتمشيك في سكة غلط، غصب عنك، وإنت مش فاضي ولا رايق إنك تركز، والوضع صعب فبيخليك تمشي في الطريق الغلط أكتر، فتغلط وتتورط أكتر..».

– «كلامك مش واضح يا «رمزي بك.. أنا حاسس بيه، بس مش فاهمه.. طيب انت عاوز تقول إن ده شغل هواة ولا محترفين؟»».

– «محترفين طبعًا، بس مش مجرمين، قل لي.. انت ليك أعداء؟ فيه حد زعلته منك قريب؟»».

نظر إليه فوجد أن حيرته زادت، ابتسم في غموض وسأله في رقة: «معلش أنا مش حاخد من وقتك كتير.. مسافة ما نشرب القهوة، احكيلي شوية عن شركتك كده.. اعتبرها دردشة، أو بيزنس حتى، مش يمكن نحتاج حاجة من التطبيقات اللي بتعملوها دي؟!».

(31)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 18

لا يوجد دور ميئوس منه، لكننا نكتشف ذلك متأخرًا.

على السلم الرخامي الفسيح الهابط من شركة «رمزي الطويل»، جاءه صوت «رأفت» عبر هاتفه يسأله أين هو الآن.. أخبره في اقتضاب، ولم يكد ينتهي من مكالمته.. حتى عبر الطريق في بطء ليصل لسيارته وهو ما زال شاردًا، يفكر في الخطوة التالية..

استعد للولوج لسيارته..فاستوقفته تربيتة على كتفه.

نظر لوجه من أمامه وقال في دهشة: ««رأفت»؟ إنت بتعمل إيه هنا؟».

أجابه في لهجة من يحمل همًا: «ما أنا مش حسيبك لوحدك.. أنا كنت قريب منك، وصوتك ما عجبنيش.. قلت آجي أشوفك بنفسي.. ها؟ حسيت إيه من المقابلة؟».

لم يكد يستعد لإجابته، إلا وفوجئا بوجه يعرفانه، يقترب من موضعهما، وهو يشير بمرح مفتعل لـ «شريف».. بينما «رأفت» يهتف وكأنه يحادث نفسه: «مش ده الظابط اللي كان معانا يوم المخزن؟».

ابتسم «حاتم» في وجههما بسماجة.. وقال: «إنت روحك رياضية قوي يا باشمهندس.. معقولة جاي تهني سيادة الوزير، بوزارة إنت نفسك كنت مترشح ليها؟».

سحب «شريف» نفسًا عميقًا وهو يتلفت حوله من طرف خفي وقال في اعتذار محاولًا إنهاء الحديث بأسرع وقت: «يافندم أنا بعتذر والله، أنا ماردتيش عليك علشان كنت مشغول شوية، لكن في أقرب وقت حاجيلك القسم.. ونكمل المحضر زي ما اتفقنا..»..

واجهه بنظرة متفحصة لعينيه حتى إن التوتر أدرك «شريف» قبل أن يقول حاتم بغتة: «إنت مش شايف الموضوع ده مريب شوية يا باشمهندس؟».

- «لأ الحقيقة، أنا اتشغلت مش أكتر.. والولد رجع البيت خلاص..».

- «طيب، حط نفسك مكاني.. إنت رجل أعمال، صاحب شركة كبيرة، شخصية شبه عامة، وله علاقات بناس تقيلة في البلد، في نفس الوقت نشاط شركتك مش بيفسر ده كله.. يعني إيه اللي يوصلك للناس دي وإنت بتعمل شوية دعاية لمحلات الأكل وشوية نتايج وكشاكيل وشغل كمبيوتر وموبايلات؟ إلا إذا كنت بتعمل حاجة تانية في السر.. إنت عارف بقى كلام الناس كمان.. يعني بيقولوا إنكم بتخلصوا مهمات خاصة، وبتنجزوا قرصة ودن من ناس تقيلة ضد

بعض، وبعدين: فجأة.. ابنك يتخطف، وبعدين يرجع من غير طلبات من اللي خطفوه، بس إنت بتقول إنه مش ابنك، وفجأة بتقول إنه ابنك عادي، لما تحط الكلام ده جنب بعضه.. تفهم منه إيه؟».

- «قل لي إنت يافندم..».

ابتسم وقال بارتياح كأنه انتظر تلك الإجابة: «أقول لك أنا.. الموضوع ده شكله كده شغل عصابات، واضح إن مراتك كانت مصدومة، شكلها كان مش طبيعي وهي مصرة تاخد الولد البيت، علشان كده أنا مش مصدق رد فعلها بصراحة.. كمان إنت وكل اللي شغالين معاك كان باين عليكم الصدمة بجد، علشان كده.. لو فرضنا إن اللي لقيناه في المخزن ده مش ابنك فعلًا، مش يمكن دي يمكن قرصة ودن من حد كبير ضدك؟ يمكن إنت دست على رِجل حد، وبيعلمك الأدب؟».

توتر «شريف» وهو ينظر إليه بينما يواصل «حاتم» في هدوء منتصر: «إنت طبعًا عارف الظروف اللي البلد فيها، أي نشاط غريب مابنحبوش.. يعني الناس اللي شغالة في السر زيك كده، ممكن يكون وراهم حاجة أكبر.. وممكن تكون كمان ضد الدولة، بتشتغل في عمليات من تحت لتحت.. بصراحة، كلك على بعضك كده مش مريحني.. علشان كده عايزك تكون صادق معايا.. قل لي إنت بتشتغل في إيه بالظبط.. وأنا وعد مني..».

وانقلبت سحنته لانطباع جاد وهو يتابع: «.. إني أساعدك، لو إنت مزنوق أو فعلًا فيه حد خطف ابنك.. أنا حاعمل كل اللي في إيدي علشان أرجعه.. دي شغلتي يا ياباشمهندس.. قلت إيه؟».

تأمله في تردد.. تبادل مع «رأفت» نظرة قلقة، دار بمخيلته وجه «عمر» المهموم المرهق.. دار بمخيلته أيضًا وجه «منى» المكلوم، وصوت «رأفت» وهو يدعوه لإبلاغ البوليس.. تردد مرة أخرى وهو يتذكر كلمات المتحدث الأجش وهو يحذره من ذلك.. خفض بصره للحظة ثم رفعه لوجه «حاتم» وهو يقول في ثبات بلهجة آلية: «أنا ماعنديش حاجة أقولها.. شركتي مابتشتغلش في اللي انت بتقول عليه ده، والولد رجع البيت خلاص.. مع ذلك أنا متشكر.. متشكر جدًّا لاهتمامك ياحضرة الظابط..».

انقلبت سحنة «حاتم» في غيظ، وقال وكأنه قد تم إهانته في اعتداد: «بقى كده؟ طيب.. لو غيرت رأيك إنت عارف نمرتي.. وإلا..».

وتمهل ليعطي لجملته الأثر الذي يرجوه وتابع في لهجة مخيفة، بصوت هادئ: «وإلا بقى ماتزعلش من اللي حاعمله..».

(32)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 19

الحسم لا يأتي في نهايات الأدوار، الحسم يبدأ من منتصف الدور.. إذا كنت لا تقدر منتصف الدور حق قدره، فتوقف عن لعب الشطرنج.

أخيرًا التقاها..

كان كعادته يجلس على تلك الأريكة الخشبية المنعزلة على شاطئ النيل.. ينحرف النهر بهدوء في هذا المكان، ويتسع الكورنيش ليحتضن العابرين على طريقه، بضع أشجار موزعة بغير تنسيق.. وبضع أرائك خشبية تشقق سطحها من أثر شمس حارقة، تتوسطها أريكته الأثيرة التي لا ترى إلا لمن ينحرف بخطواته مع النهر.. باعة يجلسون في ظل الأشجار المتناثرة يعرضون بضاعتهم من حلوى وتسالٍ، وسيارات تعبر من بعيد، ووقت يقترب من مغيب الشمس.

جلست بجانبه.

ربتت على كتفه بحنان.. لكنها لمست بروده، ارتدت للوراء.. سألته عما به، فأجابها بأنه لم يصل لشيء حتى الآن.. وأن الأمور

تبدو مغلقة بوجهه.. صمتت نصف مصدقة.. ثم قالت في حسم: «طيب وحتفضل محتار كده كتير؟ الجماعة دول ماتصلوش لسه يقولوا عايزين إيه ولا حيرجعوا «عمر» امتى؟».

- «لسه..».

- «طيب ومستني إيه؟ بلغ البوليس..».

أشاح بيده في ضيق..» بوليس لأ.. وليه أساسًا، هو انتي مش شايفة الأمور ساية إزاي، وإحنا كنا بنشتغل إلا من ورا الوضع اللي ماحدش قادر يلمه في البلد؟ وبعدين.. أنا مش عاوز مخاطرة.. أنا عاوز أطلع بابني وبس..».

صمتت محنقة.. نظرت إليه مرة أخرى وكأنها لا تصدقه.. سرحت مثله بالنهر الممتد وزرقته المترقرقة في ضوء شمس تنتحر.. «وانت متضايق بس علشان كده.. ولا عايز تقول لي حاجة تانية؟».

باغتها بحدة: «مين بعتك ليَّا يا «أسيل»؟».

بلهجة مبهوتة جاوبته: «مين إيه؟».

- «لا «رمزي الطويل» ولا «عزة المقدم» طلبوا منك تعملي التحقيق ده في شركتنا، ولا حد كلفك بكده أساسًا، مين اللي بعتك؟».

ابتلعت ريقها أمام نظراته التي اخترقت روحها كسهام ثلمة النصل، وقالت بعد تردد «والمفروض إن اللي باعتني ده هو اللي خطف «عمر»؟ مش كده».

- «أنا بسألك سؤال واضح..».

بحدة أشد صرخت فيه «وأنا بجاوبك إجابة واضحة.. «عزة المقدم» اللي بعتتني يا «شريف».. وأنا ماليش دعوة هي قالت لك إيه ولا هو قال إيه.. وماليش دخل إنت بتفكر إزاي ولا فاكر فيَّا إيه..».

أشاحت بنظرها بعيدًا وهي تغمغم كأنها تحادث نفسها: «ده اللي إنت وصلت له بعد يومين بتلف ومش معبرني بتليفون حتى؟».

أشاح بوجهه بعيدًا وهو يقول في اعتداد «بقالي يومين زي ما إنتي بتقولي.. في كل لحظة أكذب نفسي وإحساسي، وأكذب المنطق اللي بيشاور عليكي.. وكل شيء بيقول لي إني حطيت ثقتي فيكي، وسمعت كلامك من غير ما أتأكد من أي حاجة..».

صاحت في قنوط: «وأنا فين؟ مابتكلمنيش ولا ترد عليَّا ليه؟ بترجاك تكلمني، أجيلك، أساعدك.. وفي الآخر بتفكر أنا أجرمت إزاي.. حققت مع العيال اللي دخلوا عليه الفيللا ولا لسه؟ ولا حكايتهم غير حكايتي؟».

بصوت خفيض غمغم «لأ، «شادي» كلمهم وأكد كلامك.. وإنتي كمان مكالماتك كلها ليهم ومنهم.. و..».

قطع حديثه لما تنبه من نظرتها المذهولة واتساع عينيها.. فقالت وهي تردد كلماته بدهشة: «مكالماتك؟ إنت مش واثق خالص فيَّا.. ولا مصدق أي حاجة من اللي قلتها.. لدرجة إنك بتراقب مكالماتي؟».

أجاب بحدة: «كان لازم أتأكد من كل حاجة بنفسي، أنا ما قدرتش أحضر الخطف بنفسي، واضطريت أمشي قبلها غصب عني..».

- «إنت كمان ماكنتش مطمن لي، لدرجة إنك كنت بتراقب الفيللا؟».

- «أمال أسيب ابني يتعمل فيه كده، وأنام أنا في البيت؟».

قالت متهكمة: «آآآآآه.. يعني مش عدم ثقة ولا حاجة، لأ، ما هو باين جدًّا من شكك فيَّا دلوقتي، ومراقبة مكالماتي، وحتى التحقيق مع العيال دي.. لأ والمصيبة إنك مش عايز تبلغ البوليس.. لكن أنا، تفصصني وتحلل خطواتي واحدة واحدة.. طيب، ومشيت ليه بدري يا ترى.. ماكنت تكمل مراقبة وتشوف بنفسك، بضحك عليك ولا إيه؟».

- «منى»، اتصلت بيَّا وكانت خايفة تقعد لوحدها، وكمان تعبت وجالها مغص.. كان لازم أروح..».

رفعت حاجبًا غاضبًا واستشاطت قائلة: «طبعًا، كان لازم تسيب المهمة المقدسة اللي ماينفعش تسيبها في إيدي أعملها لوحدي، لكن تسيبها عادي جدًّا علشان الست هانم جالها كابوس.. وبتدلع عليك وبطنها فيها «واوا».. لأ، وطلع إيه المغص ده ياقلبي؟ حامل ياترى؟ ولا إنت بتحب اللي بيستعبط عليك.. ومابتشكش إلا في اللي بيقف في صفك؟ أقنعتني.. حقيقي أقنعتني..».

- «إنتي بتلفي وتدوري برضه..».

استدارت إليه وقالت بغيظ وحنق باديين: «فاكر يا «شريف»، لما قلت لي إنك ممكن تخسر دور الشطرنج عادي جدًّا في سبيل بس إن العسكري بتاعك يترقى؟ أنا ساعتها حسيت إنك أنت رومانسي

يا «شريف»، وإحساسك مرهف وإن أهم حاجة عندك الاستمتاع بالجمال، جمال اللعبة اللي بتلعبها، وأجمل حاجة فيها إنك تكسب التحدي الخاص الصغير ده، اللي هو في حقيقته الحاجة الوحيدة اللي فيها روح وعاطفة.. الشطرنج لعبة مافيهاش قلب، لكن إنت عرفت تلاقي فيها اللقطة الجميلة دي وتحبها، شفت كمان كلامك عن إنك بترقي العسكري وعايز تخليه أحسن حاجة، ومرة تانية لقيته كلام واحد بيحب الدنيا.. عايز منها كل حاجة.. طفل جميل بيحب ويعشق وبيفكر وبيلعب بعينيه وودانه وقلبه، بيحب الموسيقى والجمال والمتعة.. مابيحسبهاش، قلت ده إنسان بيفرح بالحاجات البسيطة، وبيعرف معنى الحاجة الحلوة، بيعيشها وتعيشه، بيخرج عن القالب المحطوط لكل الناس، لقيتك فعلًا بتتصرف دايما بطريقة مختلفة.. في حفلة «رمزي الطويل» و«عزة المقدم»، أو لما كنت تحت الأتيليه وقعدت في عربيتك تفكر.. إنت مختلف يا «شريف».. ده الإيحاء اللي إنت أعطيته لي..».

صمتت وكأن طاقة الكلمات قد نفدت لديها فجأة.. وتحركت عيناها بين كفيها اللتين يفركان بعضهما في نشاط من يتدفأ من برودة مصطنعة، وبين وجهه المشدوه.. ورفعت ذقنها فجأة وهي تقول بلهجة فيها اعتداد غير مبرر.. لتصدم أذني «شريف» بجمل متسارعة بنغمة وتر موسيقي مشدود متوتر: «فاكر لما كنت بتقول عليَّا جبانة علشان مترددة اللي بيننا ده آخره إيه؟ كنت ساعتها بتبص لانطلاقك وجرأتك طبعًا، وبتقارنها بيَّا وشايف إني قافلة على قلبي، صح؟.. الحقيقة يا «شريف» إن إنت اللي جبان، بساطتك وحبك للحياة،

قشرة بس.. قشرة مافيش تحتيها أساس.. بس دي طبيعتك اللي حافظت عليها سنين، وشكلك اللي بتظهره ليًا، علشان تكسب قلبي وتقرب مني.. إنت مش أكتر من واحد بيطارد الحاجات الحلوة.. من غير مايبقي عايز يتحمل مسئوليتها ولا يتعب في حياته علشان ياخد في المقابل. دلوقتي بتدور على حجة تخلص بيها من المتعة، ومن العلاقة الجديدة اللي في حياتك، دلوقتي بترمي عليًا كل الذنب، وعايز تتخلص مني علشان أنا الغلطة، أنا النقلة الغلط اللي بوظت لك الدور؟!».

حاول مقاطعتها لكنها أشارت له بالصمت مواصلة في مرارة: «يا «شريف».. العسكري اللي مستعد تخسر الدور علشان ترقيه ده، شيء أسهل بالنسبة لك من إنك تواجه عقل خصمك وتغلبه، ومغامرة ألطف في تبرير فشلها قدام نفسك، من تبرير فشلك في الفوز بالدور أو المباراة.. العسكري اللي إنت شايف غاية أمنيتك من الدور إنه يترقى، زي بالظبط اللي كنت عايزه من شغلك، ومن جوازتك، ومن ابنك، وحتى مني أنا كمان يا «شريف».. مزاجك وانبساطك وفايدتك وبس.. وساعات كل ده مع بعضه.. لكن التعب والمسئولية لأ.. الحياة عندك ترقية تفرح بيها وتتنطط، علشان طعمها حلو، وتوهم نفسك إنك كسبت، بينما إنت خسرت الدور من زمان، وعايش في الوهم.. بس صدقني، الحياة مش كده..».

- ««أسيل» أنا مش فاهم حاجة من اللي بتقوليه..».

واصلت وكأنها لم تسمعه بعد تنهيدة قصيرة خرجت ساخنة، كمن تتداعى عليها ذكريات ما: ««شريف».. أنا حبيتك.. حبيتك

بجد علشان افتكرتك مختلف، عايز تبقى غير الناس، شفتك بالعين اللي كنت عاوزني أشوفك بيها.. بس أنا دلوقتي باسأل نفسي، هل انت كمان مصدق نفسك؟ إنت فعلا فاهم إنك غير الناس؟ الإنسان الراقي الحساس، ولا رجل الأعمال اللي بينجح في الحاجات غير التقليدية بس، علشان دماغه جبارة؟».

احتقنت قسماته وقال بصوت جعله هادئًا بالكاد: «"أسيل".. "عمر" فين؟».

رفعت إصبعها في وجهه كأنها تنبهه أنها لم تنه حديثها بعد وتابعت بنفس التوتر الحاد: «أنا أعرف منين هو فين؟ إنت مش عاوز ليه تفهم، إنه ضاع منك قبل الموضوع ده بكتير؟ مش عاوز تشوف الحقيقة ليه؟».

أشاح بوجهه مغاضبًا وزفر في غيظ: «خلاص، لو معندكيش حاجة تقوليها.. سيبيني لوحدي دلوقتي..».

وضعت يديها في خاصرتها وقالت في عناد: «مش قبل ما أفهم.. أنا إيه بالنسبة لك بالظبط؟ برضه مشروع من مشاريعك الفاشلة؟ ولا حاجة، متعتها خلصت ومابقاش لها لازمة عندك؟ زي كل حاجة عندك؟ حتى وإنت شاكك فيَّا، مش عاوز تواجهني ليه؟ ليه التهريج عندك سهل.. لدرجة إنه حياتك بقت كلها تهريج؟ أيام كلها مش جد.. مليانة بالسهل اللذيذ اللي يبسطك من غير مجهود؟ الشطرنج.. بقيت حكم تؤمر وتنهي في اللعبة بدل ماتواجه اللعيبة دول في ماتشات بجد وتغلبهم أو يغلبوك، مهمل في بيتك ومراتك بحجة إنك زهقت وإنها راحت أيامها، بدل ماتتعب شوية كالعادة تعمل حاجة

تاني.. تدور على نزوة كده ولا كده، بتحب البنات الصغيرة والحلوة والشقية.. تاخد أحلى ما في الست وأجمل ما في العلاقة، بس دايمًا ماعندكش جرأة تكمل، حتى الشغلانة اللي اخترتها بتدور على فضايح من غير ماتجيب السبب ولا التفاصيل، أو بتلاقي اللي ضايع من الناس من غير ماتتعب وتمسك الحرامي أو تقدم دليل، حتى ابنك اللي ضاع منك كنت مش عايزه يتعلم مزيكا ولا يعمل حاجة من وجهة نظرك مش مضمونة.. عايزه بس يمشي في المضمون.. شهادة ويكمل معاك في الشركة وخلاص.. «عمر» كان عنده حق يبعد عنك ويقاطعك.. إنت جبان وكمان نصاب يا «شريف»..».

صرخ في انهيار وهو يعتصر قميصه من قُبُـل، كأنه ينتزع قلبه كمدًا: «وأنا أخدت إيه من الجد، علشان التهريج يبقى عيب؟ اللي مش عاجبك ده، هو أحسن حاجة ممكن تعمليها في الزمن اللي احنا فيه.. مانا اشتغلت وتعبت، كنت زوج مخلص ومؤدب ومش بابص بره، حصل إيه؟ لا بقى معايا فلوس ولا عيال، إلا لما عملت اللي بتشتميني علشانه ده.. ساعتها عرفت أغنى ناس، وأجمل ستات، ورجالة من اللي بيلفوا البلد حوالين صوابعهم، وبقيت واحد منهم، وكنت حبقى وزير كمان.. احنا كده، بلدنا كده، انت مابتشوفيش؟ طيب يبقى مانهزرش ونهرج ليه بقى، ما دام اللي بياخدها جد، بيخسر.. وأنا مابحبش أخسر..».

أطرق برأسه، وبدا وكأنه تذكر شيئًا، فعاد يقول في غيظ «.. ثم، انتي بتغيري الموضوع ليه؟ انتي فاكرة إن بعد اللي سمعته وبعد اللي

بيحصل لي ده كله، لسه عندي وقت أفكر في نفسي، ده وقته؟ انتي مش شايفة اللي بيحصل لي؟.. ابني فين؟».

ابتعدت عنه خطوة للخلف لكنه تحرك ناحيتها بخفة وأمسك كوعها بيده في قسوة.. وواصل بأنفاس مبهورة: «انتي بتعذبيني دلوقتي بالتفاصيل دي ليه؟ أنا مش ناقص الكلام ده..!!».

كان عقله تتناوب عليه من الصور والأفكار ما ينوء فكره بحمله.. لم يعد يعرف بمن يثق أو بمن يشك.. حتى في تلك اللحظة خيل إليه أنه التقط نغمة شاذة في حديث «أسيل»، لكنه لم يكن يعلم إلام تقوده.. تلعثم وهو يحاول إفساح الطريق للحروف التي تتراكم على طرف لسانه، لكن عقله لم يعرف بالضبط كيف يصوغها لكلمات، ولم يدرِ هو بماذا يأمره.

لمحت عينيه تضطربان، باحثتين عن شيء ما في وجهها، فهمت حيرته، انطفأت نار غضبها المتأجج.. لم تشعر بنفسها، إلا وهي تحتوي صدره فجأة في عناق مجنون مخملي..

أرخى قبضته حول مرفقها في استسلام.. همست له وسط دموعها: «أنا آسفة يا «شريف»، سامحني.. أنا بحبك، بحبك بجد..».

مسح على شعرها، وهو لا يعلم بم يرد.. البئر السوداء التي يسقط فيها تزداد عمقًا، والهوة السحيقة التي يسبح في مياهها متجهًا نحو القاع لا يبدو لها قرار.. ولا يظهر منها مهرب.. من بين حلق جاف وشفاه بللتها دموعها، همس في لهجة مهزومة: «أنا مابقيتش فاهم حاجة، ابني ضاع، ومش فاهم مين معايا، ومين ضدي.. مش فاهم حتى إيه اللي بيحصل حواليا..».

- «أنا معاك يا حبيبي.. أنا حفضل دايمًا معاك، أنا كل اللي قلته لك علشان صعبان عليَّا منك.. وعايزاك تبقى أحسن واحد في الدنيا..».

(33)

على باب الكازينو توقف بسيارته.. مترجلًا منها وسارا معًا وهي تسأله في حيرة للمرة الثالثة منذ أن انطلقا معًا: «أنا فايدتي إيه معاك برضه؟ مش فاهمة حاجة..».

أجابها وهو يهبط السلم الرخامي الكبير المؤدي للكورنيش بأسفل، والذي تزدان أطرافه بالمناضد ذات المفارش الزاهية، تحت شماس صفراء فاقعة.. «حتعرفي دلوقتي.. أنا عايزك جنبي وخلاص.. المعاد هنا بعد عشر دقايق.. محتاج حد يسمع معايا ويفكر معايا.. ومش حلاقي أحسن منك..».

ما كادا يجلسان إلى المنضدة التي تطل على سطح النهر.. حتى ارتفع رنين هاتفه مرة أخرى.. صدمت أذنه لهجة الصوت الأجش مرة أخرى «عملت إيه يا أستاذ «شريف»..؟».

تنبه إلى أنه نسي الأمر برمته، في غمار لهاثه طوال اليوم.. تمالك أعصابه وقال بتؤدة: «في الطريق يا فندم.. كل شيء حيتحل بإذن الله..».

ارتفع الصوت بشراسة بالغة وهو يقول: «أنا مش عايز تطييب خواطر.. الورق فين؟».

- «حاضر يافندم.. بكره إن شاء الله يكون عندي أخبار كويسة..».

صمت الصوت فجأة.. ومالت لهجته لهدوء مخيف وهو يقول ببرود: «هو إنت لسه ما فهمتش حاجة من اللي بيحصل لك؟».

اقشعر بدنه فجأة وقد بدا له أنه فهم إلام يرمي..

قال من بين توتر عضلات وجهه في فحيح: «إنت؟».. بينما واصل الصوت الأجش قائلًا: «اللي بتدور عليه يمكن ما تلاقيهوش أبدًا، ويمكن كمان تلاقيه، بس يكون الوقت فات.. إنت فاهمني طبعًا؟».

ابتلع ريقه بصعوبة وقد لاحظت «أسيل» تجمع العرق على جبهته وتسارع أنفاسه فنظرت إليه بقلق تستفسر بنظراتها، لكنه أشار إليها بالصمت، وقال بخفوت من بين أنفاسه المتسارعة: «فاهم حضرتك بكل تأكيد.. ثق وتأكد إني حعمل كل اللي إنت عايزه.. المهم، هو كويس؟».

- «لحد دلوقتي آه، الجماعة حيتصلوا بيك.. إنت في الكازينو؟».

نظر حوله بقلق.. مناضد خالية.. حبيبان يجلسان على بعد متشابكي الأيدي.. نادل صامت يرقب انتهاءه من مكالمته لينقض بوريقاته وقلمه ليكتب ما يملى عليه من الضيفين..

جاوبه بالإيجاب.. فسمع جملة أجشة أخيرة وهو يقول: «طيب.. تخلص وتجيني على العنوان اللي حيوصل لك مني..».

انقطع الاتصال.. لم يكد يخفض الهاتف من يده.. ويرفع بصره، حتى أبصرها أعلى السلم الرخامي من حيث أتيا منذ قليل..

كانت تقف متلفتة حولها كأنها تبحث عن شيء ما.. أو عن شخص ما.

القوام الرشيق، النظرة الحالمة.

الشامة الكبيرة بجانب أنفها.. لم تفلح في إخفائها وهي ترتدي عباءة سوداء، وغطاء وجه يزينه قصب معدني، يغطي نصف وجهها كما تفعل بعض نساء الخليج.

كانت تقف على مسافة بعيدة نسبيًا عنه، لكنها كانت هي، تتلفت حولها وتجيل بصرها.

«حورية» لم تتغير بعد كل هذه السنوات.

لم يفلح حتى الموت في تغييرها..!

لكنها لم تكد تلمحه.. حتى استدارت في حدة.. وأسرعت بالابتعاد.

قام من مكانه كالملسوع.. أزاح «أسيل» عن طريقه، إذ حاولت إمساكه من مرفقه تهتف به أن يهدأ، وتسأله أين يذهب.. صوتها يخفت في أذنيه وهو يركض بأسرع قوته.. يصعد الدرج بأقصى ما تسمح به قدماه.. يتعثر، لكنه ينهض.. سيارة مألوفة، نفس التي طاردته من قبل، مسرعة تطلق صريرًا مزعجًا، تعبر الطريق من أمامه وتبتعد مهيلة عاصفة من التراب خلفها.. يلهث وهو يتوقف حائرًا.. محموله يصرخ مرة أخرى.. يتناوله ليجيبه صوت يألفه، يقول بسماجة وبرود: «إيه اللي جبتها معاك دي؟ إنت مش قلت إنك راجل عاقل؟».

من بين لهاث أنفاسه خرج صراخه يحمل مرارته «إنتو عايزين مني إيه؟ إنتو مين بالظبط؟ بتعملوا كده ليه؟ ماتقولوا إنتو عايزين إيه وتريحوني.. فيه إيه؟».

- «احنا نتفق الأول إنك تهدى، كل الصريخ والعصبية دي مش حيفيدك، ومش حيفرق معانا من الأساس.. البيه كلمك؟».

- «بيه مين اللي كلمني؟ ماتوضحوا كلامكم أنا تعبت، أنا مابقيتش فاهم حاجة.. مين اللي مشيت دلوقتي دي؟ ومين اللي اتصلت الصبح؟ ومشيت ليه؟».

- «على قد اللي مسموح لك تعرفه.. حاجاوبك.. البيه اللي رجعتوله عربيته، بس سرقتوا الورق بتاعه.. كلمك ولا لسه؟».

- «وإنت بتسألني؟ إنت مش عارف يعني؟ عايزين إيه، ماتتكلم دوغري؟».

- «عايزين الورق.. وعايزين حاجات تانية حيقول لك البيه عليها لما يشوفك..».

كانت «أسيل» قد لحقت به مسرعة عبر الدرج.. تعلقت بذراعه غير الممسكة بالهاتف، وظلت تربت على كتفه وهو يصرخ بمحدثه: «ورق إيه وزفت إيه؟ بطل تكلمني بالألغاز دي..».

- «عنوان الباشا حيوصل لك من البنت اللي معاك دي.. الجرسون أعطاه ليها دلوقتي، احنا حواليك في كل حتة، وطبعًا مش محتاجين نقول لك حنعمل إيه لو لعبت بديلك.. لا بوليس ولا غيره حينفعك.. الساعة في إيدك كام؟».

نظر بساعته، ولكن محدثه لم يمهله وتابع: «بعد ساعة واحدة في العنوان اللي حتديهولك.. حاول متتأخرش، علشان مصلحتك..».

(34)

- «يا «شريف» وإنت إزاي ما تقولليش إن الراجل ده بيكلمك من زمان في الموضوع ده؟».

استشاط غضبه، وهتف به عبر هاتفه: «يا «شادي» مين اللي بيلوم مين دلوقتي؟ موضوع العربية المسروقة ده، إنت اللي كنت ماسكه من الألف للياء.. ورق إيه اللي بيتكلم عليه؟ إنت قلت لي القضية إنه الورق مهم، أهم من العربية نفسها.. والمفروض إن كل حاجة رجعت له..».

- «هدِّي نفسك بس ياكبير، ده حرامي لا طلع ولا نزل.. ماله هو ومال الورق؟ أصلي ولا تقليد بقى هو مش رجع له؟ عايز إيه؟».

- «وإحنا مال أهلنا يا «شادي» هوعايز إيه؟ بقى بتصور ورقه، وترجع له الصور؟ يعني حرامي وغبي كمان؟ وبتحطني في الوش وعامل إنك بتساعدني؟!».

- «مانا بعمل كده ياكبير علشانك برضه.. أنا أعرف منين إنه مجرم للدرجة دي، وحيعمل العملة السودا دي.. ما إنت لو قلت لي من زمان إن فيه مشاكل، كنا لمينا الدور..».

- «فيه إيه الورق ده مهم للدرجة دي يا «شادي»؟».

بلهجة مترددة كمن يتحرج من قول ثقيل أجابه «شادي»: «فيه جداول استيراد حاجات وأسعار حاجات أساسية في السوق، امتى حتغلى جماركها وأسعارها.. جداول، جداول.. مش مصيبة يعني..».

صاح في حنق: «مش مصيبة؟ انت بتستهبل؟ دي معلومات بيتدفع فيها ملايين..».

- «أيوه ماختلفناش.. أنا ماعرفش إيه اللي خلاني غلطت، ورجعتله الصور بدل الأصل، وطبعًا أكيد الصور واضحة جدًّا إنها متصورة، دي حتى أبيض وأسود.. مش فاهم بجد، عدت عليًا إزاي.. بس هو زعلان قوي كده ليه.. هو بالكتير يخاف إنه نبيع المعلومة لحد قبله ونقبض احنا.. عايز الأصل وحارقه ليه؟».

- «لأن الأصل يبدو إنه مافيش حد عنده غيره، فالحكاية لابساه لو وقع الورق في إيد حد.. وكمان الأصل يخللي معلومته فيها ثقة من المشتري.. فهمت يا غبي؟ فهمت ولا لسه؟».

صمت «شادي»، وقد بدا واضحًا أن قدرته على الدفاع عن موقفه تضعف.. لكنه قال بصوت منكسر مليء بندم حقيقي: «والله العظيم أنا قلت سبوبة ناكل منها عيش.. يعني كام مكالمة تليفون، على مقابلتين تلاتة، وناخد قرشين لوز، هو احنا مش أولى برضه؟ يعني أكل القطط مثلًا حيغلى، وأنا بالذات كل اللي شغالين في الموضوع ده عارفهم، لعلمك أنا كنت ناوي أقول لك، بس موضوع «عمر» ده لخبط الدنيا خالص..».

زفر «شريف» زفرة حارة، أتبعها بأن قال في حسم: ««شادي»، أنا مصدقك، وعارف إنك قصدك كان خير.. بس الموقف اتعقد بشكل

فظيع.. البيه ده خاطف «عمر».. خلاص قالهالي شبه رسمي.. والجماعة اللي اتصلوا بيًا كلموني.. حابعتلك العنوان رسالة دلوقتي.. تيجي تحط لي الورق في الاستقبال باسمي..».

- «ماتقلقش.. كنت عايز أقول لك على الحاج «عبد الحميد»..».

- «طلعت منه بحاجة؟».

- «لأ.. قعدنا نرغي ونتكلم ساعتين، الراجل لا عايز يتكلم، وفي نفس الوقت مش باين عليه ملاوع، هو بس الموضوع من وجهة نظره عيب في حقه، ومش عايز يتكلم فيه، وسمعته واجعاه إن يحصل كده في مخزن من مخازنه، لكن ماعندوش أي فكرة مين اللي ممكن يكون عمل كده..».

زفر في استسلام وهو ينهي حديثه بتوتر ملحوظ: «طيب مش وقته عامة.. ماتتأخرش..».

(35)

من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 20

كن مستعدًا للمفاجآت، دعك من القواعد، والذين يملون عليك القواعد.

كما اتفق معها، جلسا في موضعين متباعدين ببهو الفندق الفاخر الذي اتفق مع محدثه على اللقاء به.. كأنهما لم يدخلاه معًا.

قالت له قبل ولوجهما: «طيب أنا خايفة يا «شريف».. إنت مش راضي ليه تفهمني؟».

سألها بجدية من يخفي خوفه خلف قناع شجاعة سميك: «عايزة تسيبيني وتمشي؟».

رقصت مقلتاها الواسعتان وهما تتأملان وجهه في إشفاق، لكنها قالت في تردد «أنا عايزة بس أفهم.. احنا حنعمل إيه هنا؟ ليه الست دي هربت مننا؟ وإيه اللي حيحصل؟».

- «أنا حاقابل اللي خاطف «عمر»، وانتي حتستني علشان لو حصل لي حاجة.. تبلغي «منى».. و«رأفت» أو «شادي» أو «حسناء».. كل النمر في الموبايل عندي.. تقدري تاخديها بسهولة..».

تردد لثوانٍ.. ثم أردف وهو يطالع شاشة محموله وينقر عليها سريعًا: «ولّا أقول لك.. أنا حبعتهم لك دلوقتي في رسالة..».

ابتعد عنها ليجلس في طرف بعيد.. تاركًا خلفه جبلًا من الحيرة.. وعينين دامعتين.

لم يكد يستقر في مكانه، حتى أضاءت شاشة محموله مرة أخرى، ألفاها حماته.. تصرخ به في انهيار: «الحقنا يا «شريف».. إنت فين، وسايبنا بنتبهدل ليه كده؟».

قالت له إن اثنين من الملثمين قد اقتحما المنزل بعد الغروب.. وقلباه رأسًا على عقب، وهما يصيحان بها وبـ «منى» أن يبتعدا عن طريقهما، كل هذا وصراخ «منى» لم ينقطع.. في النهاية احتجزاهما في الغرفة الصغيرة بالداخل.

«ماقالوش عايزين إيه، ولا فهمنا كانوا بيدوروا ده كله على إيه، بس قالولي: قولي للبيه لما يرجع، يسمع الكلام.. والمرة الجاية حناخدكم معانا.. ومش حيشوفكم تاني، ولا حيشوف ابنه..».

- «إديني «منى» أكلمها..».

- «إنت ده كل اللي عندك؟ الناس دي مين؟ وعايزين مننا إيه؟ وإنت فين وبتعمل إيه؟».

صاح بها وقد فقد أعصابه: «يعني إيه فين وباعمل إيه؟ أنا بدور على الولد اللي حيضيع مني.. ولوأعرف الناس دي مين، ماكنتش حسمح يعملوا كده أساسًا.. إدِيني «منى» باقولّك..».

جاءه صوتها مرتعدًا وهي تقول من بين دموعها: «انت فين يا «شريف» أنا خايفة.. عايزة «عمر» يا شريف.. إنت مش عاوز ترجعه تاني علشان زعلان مني؟ أنا عارفة إني ضايقتك كتير يا «شريف»؟ أبوس إيدك يا «شريف».. خلاص أنا مش حاعمل أي حاجة تضايقك تاني.. بس أنا عايزة «عمر» يرجع لي..».

منع دمعة من مغادرة مقلته، صمت وغمغم ببضع كلمات ليهدئ من روعها.. وكان آخر ما قاله وهو يغلق الخط معها، مرتعدًا من الغضب: «حجيبه يا «منى» زي ما وعدتك.. واللي عمل كده حيدفع التمن.. صدقيني..».

اقتاده أمامه بهدوء صارم، رجل مفتول العضلات، لم يفلح قميصه في إخفائها.. سأله برقة تتناقض مع مظهره الشرس عما إذا كان هو «شريف».. ثم أخبره بأن يتبعه ليلتقي بـ «عصام»بك.

ردهات افترشتها سجاجيد باهظة، وزينت جدرانها إضاءات خافتة أنيقة.. حجرة «بهو رجال الأعمال» كما أطلق عليها.. والتي لم يكادا يصلان إلى بابها، حتى التفت إليه العملاق مرة أخيرة.. تحسس ملابسه كأنه يبحث عن سلاح ما، أفسح له الطريق، طرق الباب، وأشار إليه بالدخول.

منضدة فاخرة واحدة في ركن المكان الأنيق، تتوسطها كومة أوراق بحافظة جلدية، ويقبع خلفها رجل في العقد الخامس، ضخم

الجثة، يلبس بدلة رسمية داكنة، له سمت رجال الأمن بتجهمهم الهادئ، وشاربه الكث، وعينيه الملونتين المخيفتين بما تحملانه من موات، ونظراته الثاقبة، وصمته.

جلس قبالته على مقعد احتواه رغم برودته، وأغلق العملاق الذي اقتاده الباب خلفهما.. فصارا وحدهما.

قال محدثه دون أن يرمش له جفن، بالصوت الأجش والنظرة الثاقبة الثابتة، والموات في العينين: «وإنت شايف إيه؟».

- «مش فاهم..».

- «يعني إن «عمر» يرجع أو ما يرجعش.. ده متوقف عليك.. مش عليًا. أظن إنت شفت إحنا ممكن نعمل إيه؟ مراتك أكيد حكت لك اللي حصل.. علشان بس ماتفكرش تتكلم مع البوليس تاني، زي ماحصل العصرية النهارده.. مظبوط كده؟ ولا إنت فاكر علشان اتقابلتوا إنت وزميلك مع الظابط بره، مش في قسم شرطة يعني ورسمي وكده، إننا ماكناش حنعرف؟».

ابتلع غيظه وجرح كرامته وقال بشكل جعله هادئًا قدر استطاعته: «طلباتك يا «عصام» بيه..».

- «شركتك..».

- «نعم؟».

- «فكرة شركتك كويسة.. الداخلية كتير عليها قوي التعامل مع المجرمين والبلطجية، نص الشعب بقى بلطجية وحرامية، وواحد زيك.. كتير عليه يلعب في ملايين ممكن تجيبها شركة زي دي،

خصوصًا لو ماسكها واحد بيفهم السوق وعنده حس أمني عالي، زيي أنا مثلًا، واحد يعرف يشغلها صح.. وما دام إنت مش عارف، يبقى شركتك تلزمني..».

أجابه في سخرية: «ومش عايز مليون جنيه مني بالمرة؟».

«ما تستعجلشي يا أستاذ «شريف»، أكيد طلباتي ما خلصتشي كده. الجماعة اللي أنا استعنت بيهم برضه عايزين عشرة مليون تانيين، بس دول تدبرهم بمعرفتك بقى..».

ابتلع لعابه بصعوبة وهو يسأله: «وانت متوقع مني، إني أبيع لك الشركة ببلاش، وأتبرع لك فوق كده كمان بعشرة مليون، علشان ابني يرجع؟».

- «لأ، أنا مش متوقع، أنا عارف، ومتأكد إنك حتعمل كده..».

أشار للحافظة الجلدية التي أمامه، بطرف إصبعه.. في إشارة ملؤها العجرفة.. وقال ببساطة «مافيش قدامك اختيار تاني يا باشمهندس.. العقد قدامك أهو، دا لو عايز تقراه، بس تمضي على كل ورقة لو سمحت.. أنا راجل باعمل شغلي بالأصول..».

في تردد ولدته المفاجأة، تأمل «شريف» في أوراق العقد المضفرة من جانبها بضفيرة أنيقة من الجلد.. يقلبها بمقلتين متراقصتين في توتر، وأصابع باردة، ليحيط ببنودها على عجل، يتجمد بصره عند الصفحة الأخيرة.. موضع توقيعه، ثم موضع توقيع «عصام»..تاريخ البيع وهو يحمل تاريخ اليوم، يرفع عينيه للرابض أمامه يرمقه بعينين زجاجيتين، يرفع كتفين مهدلتين كأنه يستفيق من سبات، ويقول بلهجة

من حسم ترددًا قصيرًا: «أنا موافق يافندم.. العقد ده أنا حامضيه، بس أنا عايزك الأول تديني مهلة لحد بكره، حارجع لك بعدها.. ونتمم كل حاجة.. أنا بس محتاج أقرا العقد كويس وبراحتي..».

انتفخت أوداج «عصام» بمزيج من غضب وارتياح وهو يسأل في وقار: «ليه مش دلوقتي؟ إياك تكون بتعمل عليًا دور، ولا فاكر نفسك حتهرب مني؟».

رد بتلقائية وهو يقول بصدق مشيرًا براحة كفه المفتوحة نحو صدره: «لا يمكن أفكر كده.. بس أنا ليًا طلب عندك.. الورق اللي إنت طلبته أهو، أنا شفته، وعايزك تتأكد من حاجة مهمة فيه.. لمصلحتك».

- «الكلام ده مالوش داعي، إنت بتضيع وقتك يا باشمهندس.. ده مش كويس علشانك ولا علشان ابنك.. اتفضل، يا تمضي دلوقتي يا تاخد العقد وترجع علشان تلحقني.. هي ساعة واحدة بس..».

- «إديني نسختي.. حاقراها وارجع لك في الوقت اللي إنت عايزه.. بس راجع أوراقك الأول.. اسمع كلامي بس.. أنا قاعد لحد ما تقول لي تمام، علشان بعد كده ما يحصلش غلط تاني.. ولَّا ترجع تقول الورق مش مظبوط..».

لم يكد يغادر المكان، ويودع «أسيل».. حتى انطلق نحو منزله، قلبه تعتصره يد باردة ثقيلة، وأفكاره تسرح بكل اتجاه.

عاد لحديثه مع «رمزي» عصر اليوم.

بعد أن استمع لقصة «شريف».. أطرق «رمزي» وكأنه يستجمع أفكاره، ليواصل في بطء: «أول سؤال يخطر على بالي وأنا بسمع الكلام ده، هو مين يهمه يثبت إنك خاين؟ إنت قلت لي إن مافيش حد عاوز يوقع بينك وبين مراتك.. وحتى لو حد عاوز، تليفون صغير ممكن يحقق الغرض.. لكن واضح إن اللي عايز ياخد الولد منك عايز ياخده كده.. عايز ياخده من تحت لعبك بديلك، وعايز يحسسك إن ده السبب، أو يثبت عليك العملة دي.. لو عايز رأيي، المسألة دي شغل ستات.. الستات هم اللي بدل مايمشوا في خط مستقيم، بيعقدوا الدنيا والطريق لحد مايوصلوا آخره.. الستات هم اللي بدل مايوقعوا بينك وبين مراتك، علشان يحطموك، يخلوك تحطم نفسك بنفسك، ويحطوا خطط معقدة تؤدي لهدف بسيط.. مش مستاهل كل التعب ده!».

جاءه الصوت هذه المرة عبر سماعة السيارة المتصلة بمحموله: «إيه اللي انت بتعمله ده؟ إنت إتجننت؟».

بحنق الدنيا صاح به: «إنتو اللي بتعملوا إيه؟ مال «منى» وحماتي ومال الاتفاق اللي بيننا؟ بتهاجموا بيتي؟».

- «إنت أخليت بالاتفاق يا باشمهندس؟».

- «اتفاق إيه؟».

- «إنت بلغت البوليس».

بدهشة حقيقية قال في غيظ: «إنت بتألف من دماغك؟ بوليس إيه اللي أنا بلغته وإمتى؟».

- «إنت تحت عينينا يا باشمهندس.. الظابط اللي اسمه «حاتم»، بقاله يومين بيتردد على شركتك، والنهارده اتكلم معاك قدام مكتب «رمزي الطويل».. وكمان هو عندك في البيت دلوقتي..».

دار المشهد أمامه بعنف وهو يتمتم في دهشة: «عندي في البيت؟».

جاوبه الصوت في تشفٍّ: «أنا قلت لك إننا ماحدش يلعب معانا، ولا نسيت أقولها دي؟ عمومًا، احنا بس حبينا نوريك للمرة الألف إنك في إيدينا.. وإننا نقدر نعمل اللي احنا عاوزينه..».

غمغم بانهيار، ضاربًا مقود القيادة بيده في قنوط: «إياك تكونوا جيتو جنب شعرة منها.. يا مجرمين..».

ضحك الصوت في شماتة وهو يقول: «لا خوفتني يا باشمهندس، إنت أكيد كلمتها ولا كلمتك.. وعارف إننا هددناها بس.. اسمعني بقى كويس..».

وواصل في لهجة مخيفة: «البوليس تلم الدور معاه.. تنكر إنك تعرف مين اللي هجموا على البيت، وحسك عينك الموضوع يوسع عن كده.. الحاجة التانية بقى.. مامضيتش العقد ليه؟».

قال في تبرم: «يعني أمضي من غير ما أقرا كمان؟ اطَّمن.. حاشوف «منى» بس.. وأرجع له على طول..».

كان قد وصل بيته، وصعد درج المنزل.. فإذا بالصوت الأجش يدق مسامعه أخرى أخرى قائلًا في حسم: «اعمل اللي انت عايزه.. بس احنا مش بنهزر.. الليلة دي يخلص الموضوع.. بعدها حتلاقينا

بنكلمك ونقول لك معاد ومكان تسليم الفلوس، وإلَّا مش حتشوف ابنك تاني.. وعلى فكرة..».

وضحك ضحكة مفتعلة: «احنا مؤقتًا كده استلفنا الجدع التخين اللي شغال معاك في الشركة ده، هو صحيح كان طمعان في الورق.. وانت صلحت غلطته، بس ده مايمنعش إنه قعد مع الظابط في شركتك وربنا يعلم بقى قال له إيه.. هو دلوقتي عندنا.. ».

- «شادي؟» قالها وهو يلج من باب المنزل المحطم.. وقدماه تتوسطان الصالة التي يقف بها الملازم «حاتم»، «منى» وحماته، وثلاثتهم يحدقون بوجهه في دهشة لملامح الفزع التي تتجلى بقسماته المرهقة.

- «أيوه هو.. وزي ما خبى عليك إنه معاه الورق، يجوز يكلم الظابط من وراك ويقول له على حاجة كده و لا كده.. معلش احنا بنحميك من نفسك، ومن صحابك كمان يا باشمهندس».

أعقب جملته بضحكة ساخرة شامتة مجلجلة.. قبل أن يغلق الخط.

(36)

تقدم الملازم «حاتم» نحوه خطوتين وهو يشير بكفي يديه المبسوطتين لأسفل، وطلب منه الهدوء.. اقتاده وكأنه يقتاد ضيفًا عزيزًا ودعاه للجلوس على الأريكة التي تتوسط المنزل.. بينما تجلس «منى» وحماته قبالته.. وجلس إلى جانبه ببساطة.. قائلًا بلهجة ودود: «مافيش داعي للقلق يا باشمهندس.. كل شيء تمام، الولاد دول احنا حنجيبهم، معلش البلطجة بقت حرفة.. أيام ما يعلم بيها إلا ربنا..».

غمغم «شريف» بما معناه أنه يتمنى ذلك بالفعل.. ناقلًا بصره في توتر ولوم بين وجه «منى» الذي ملأه الفزع، حماته التي تجلس ترمقه بنظرة حادة قوامها الحنق والضيق، وهي تتمنى الانفجار بالصياح في وجهه.. قلب وجهه فيما حوله، مقعد مقلوب في طرف الغرفة وقنينة خزفية مهشمة بجانبه.. انكمشت «منى» في مكانها وكأنها فهمت من نظرة «شريف» ما يرمي إليه.. ولم تلبث أن قالت بصوت مرتعد، وعيناها تتفحصان قسماته: «موبايلك كان مش لاقط.. ماكنتش عارفة أعمل إيه.. أول حاجة جت في بالي أكلم حضرة الظابط.. أنا كنت خايفة قوي.. وكنت خايفة على ماما.. ».

وكأن كلماتها كانت حلًا للجام لسان أمها.. فاندفعت في حنق لتنهرها مراوحة نظراتها بين وجهها ووجه «شريف»: «إنتي بتتأسفي على إيه؟ واحنا كنا حنعمل إيه تاني غير كده؟ مش كفاية البيه سايبنا طول النهار في الحوسة اللي احنا فيها دي، ولما نعوزه مانلاقيهوش كمان؟ ويا ريت بفايدة!».

لمح نظرات «حاتم» المتفحصة لوجهه وهو يشاركه الأريكة، تظاهر بعدم الاهتمام بفحوى تلميحها، وجاوبها في غضب مكتوم مصوبًا نظرة محذرة لـ «منى» من طرف خفي: «خلاص يا طنط.. مش وقت الكلام ده، نتعاتب بعدين. الحمد لله، ربنا سترها، وأهم حاجة إنكم بخير..».

التقط «حاتم» طرف الخيط.. واعتدل في جلسته موجهًا حديثه إلى «منى» التي غرق وجهها في آثار دموع.. سائلًا بنفس اللهجة الودود: «مدام «منى» تسمحي نكمل كلامنا؟ كنت بسأل حضرتك على ابنك «عمر».. هو فين مش قاعد معانا ليه دلوقتي؟ إن شا الله يكون بخير..».

تدخل «شريف» في حسم مقاطعًا: «حضرة الظابط اسمح لي.. إنت شايف الوقت والظرف مناسبين للأسئلة دي؟».

نظر «حاتم» لـ «منى» التي تحاشت نظرته، فأدرك ألا فائدة من تكرار السؤال.. واصل قائلًا: «طيب ما تعرفش مين ممكن يكون له مصلحة يعمل كده؟».

قاطعه في حدة أكثر هذه المرة: «مش باقول لحضرتك.. إنت مش حاسس يعني بالتعب واللخبطة اللي احنا فيها؟ طبعًا أنا متشكر جدًا

إنك جيت وتعبت نفسك، لكن أظن.. إن لا مكانه ولا زمانه السين والجيم دا كله..».

ابتسم لتعليقه في سخرية وقال: «والله أنا لا تعبت نفسي ولا يحزنون، أنا في شغل يا باشمهندس، يعني تقدر تعتبر كده.. إن السين والجيم دول مكانهم هنا، ووقتهم كمان. بس عمومًا.. بلاش دي..».

ابتسم «حاتم» في سماجة، حتى أحس «شريف» بالدم يغلي في رأسه، ولم يلبث «حاتم» أن قال في برود نزل كالصاعقة عليه وعلى «منى»: «هي البنت اللي كانت معاك النهارده في الفندق، دي مين يا باشمهندس؟».

دقت حماته براحة يدها على فخذها في حنق قائلة: «اتفضلي.. آدي المستوى اللي انتي متجوزاه.. عرفتي بيعمل إيه بره البيت؟ ويقول لك بادور على الولد؟».

اتسعت عينا «منى» وصوتها يأتي ذاهلًا: «بنت؟.. أنا قلبي كان حاسس..».

صاح بها أن تصمت.. ووجه نظره لـ «حاتم» الذي بدا متشفيًا، ينقل بصره بينهما في ترقب، وقال: «أظن مايصحش إنك ترمي كلام متغطي بالشكل ده يا حضرة الظابط، أنا كان معايا عميلة وكنت باقابلها في فندق.. وواضح إنك شفتنا داخلين مع بعض.. واضح كمان إن الداخلية بقت فاضية وسايبة البيوت بيتهجم عليها من شوية بلطجية، ومافيش وراها غير مراقبة الفنادق والتوقيع بين الراجل ومراته..».

نهض من جلسته بجانبه وهو يشد قامته، مد يده إليه كأنه يصافحه وقال بجفاء: «أنا باشكرك على اهتمامك يا «حاتم» بيه.. شرفتنا».

لم يمد يده إليه، واصل التبسم بنفس السماجة، ونهض من مكانه قائلًا في حزم ومشيرًا لأحد رجاله، الذي احتل ركن الغرفة منذ بداية الحديث وأجفل «شريف» لمرآه.. مردفًا في بساطة: «أنا حامشي دلوقتي.. ومنتظرك يا باشمهندس تيجي القسم، علشان نقفل المحضر..» وابتسم لنفسه وهو يواصل متهكمًا: «.. قصدي المحاضر.. لسه محضر موضوع «عمر» ده احنا لسه ما خلصناهوش لحد دلوقتي.. بعد إذنكم..».

استدار متجهًا لباب المنزل.. و«شريف» يتبعه.. لم يكادا يصلان إلى موضع الباب، ويصبحان خارج مجال سمع المرأتين بالداخل حتى استدار إليه «حاتم»، تلاقت أعينهما في تحدٍّ وقال الأول في خفوت شرس: «لسه بتخبي عليَّا اللي بيحصل؟ مش عايز برضه تقول لي حاجة؟ أنا قلت لك، كلمني.. احكيلي إيه المشكلة، وإلا مش حعرف أساعدك..».

- «أنا مش مخبي عليك حاجة يافندم..».

بغضب مكتوم سأله: «وبعدين يا باشمهندس، المشاكل وصلت جوه بيتك.. حتفضل تعند لحد إمتى؟».

رسم ابتسامة ساخرة على وجهه بتكلف أرهقه، وقال: «ما كفاية اللي انت عارفه..».

- «بتتريق؟ يا باشمهندس أنا خايف عليك..».

- «ما تخافشي يافندم.. ما تخافشي عليًا..».

- «مين «شادي»؟».

باغته السؤال.. حتى إنه توتر بشكل لم يستطع إخفاءه.. ومال صوته للارتعاش وهو يعاود الاسم في صورة سؤال.. قبل أن يعاجله «حاتم» قائلًا في لهجة من اقترب من هدفه: «وانت داخل البيت من شوية.. كنت بتتكلم في التليفون.. كنت بتسأل وانت مخضوض كده.. «شادي»؟ مش ده اسم المساعد بتاعك؟ أنا قابلته من يومين.. خير؟ حصل له حاجة؟».

ازدرد لعابه في توتر حقيقي.. وقال بصوت مبحوح: «فيه أسئلة تاني يافندم؟ اعذرني لقلة ذوقي، بس أنا راجع تعبان.. ومراتي محتاجة أكون جنبها..».

خطا بعيدًا عنه.. ولم يكد يتوسط ردهة السلم خارج المنزل.. حتى استدار إليه وقال بنظرة حادة وكلمات باردة: «ما هو حاجة من اتنين، مالهمش تالت.. يا إما انت مش مدرك للمشاكل اللي انت فيها.. يا إما زي ما هو باين ليًا لحد دلوقتي.. إنك متورط في مصايب أكبر مما أنا متخيل، وعايز أفكرك تاني.. أنا مستنيك تعقل وتحكيلي على كل حاجة، يا إما ما تزعلش لما أتصرف.. ما ترجعش تعيط من اللي حيحصل..».

لم تمض نصف ساعة على رحيل الملازم «حاتم»، حتى كانت والدة «منى» قد انسحبت لحجرتها التي خصصتها «منى» لها، بينما غرقت «منى» في بكاء عنيف.. قالت من بين نحيبها وشهقاتها: «يعني مفيش فايدة يا «شريف».. كل ده ومش لاقي الولد؟».

محاولًا أن يستمسك برباطة جأشه، أجابها: «المسألة بتتعقد.. الناس حيبيَّعوني اللي ورايا واللي قدامي يا «منى».. ويا ريت ضامن إنهم يوفوا بكلمتهم..».

وضعت يديها على جانبي رأسها وهي تولول: «يا بني يا حبيبي، أنا ما طلعتش بغيره من الدنيا.. ابني اللي ربنا بعتهولي علشان يعوضني عن اللي ما عرفتش أجيبه من بطني، دلوقتي ياخدوه مني كده؟ بالبساطة دي.. الناس دي مين يا شريف؟ وعايزين الشركة منك ليه؟ وفلوس إيه اللي عايزينها؟ وكام؟».

- «ما تصعبيش الدنيا عليَّا يا «منى».. التفاصيل حاقولهالك، كلها ساعتين وارجع من المشوار بتاعي..».

صاحت في غضب هادر: «إنت نازل تاني؟ نازل تاني وسايبني.. أنا رجلي على رجلك، مش حسيبك، رايح فين المرة دي؟ رايح تقابلها طبعًا! مين دي؟ وحشتك قوي؟ ومش لاقي وقت غير الظروف اللي احنا فيها دي؟ مش قادر تمسك نفسك شوية وتبقى محترم؟».

أمسك بها من كتفيها، وقلبه يعتصره الحزن على دموعها: ««منى».. مش حقدر أشرح كل حاجة دلوقتي علشان الوقت مش في صالحي.. أنا مش باخونك.. أنا مسحول بالمعنى الحرفي للكلمة..».

انهمرت دموعها وهي تغمغم في ألم: «أمال مين البنت دي يا «شريف»؟ واشمعنى دلوقتي؟ ما قلتليش عليها ليه؟ يمكن دي اللي أنا شفتها في الحلم؟.. ومش عايزني آجي معاك ليه لما إنت بريء؟ أبوس إيدك.. مش قادرة أستحمل خلاص..».

- «ما ينفعش.. «منى»، أنا مش عارف راجع ولا لأ، لما أسلمهم اللي هم عايزينه، حيصدقوا في كلامهم، ويرجعولنا «عمر»، ولا حيخلصوا مني.. وكل اللي باعمله إني بحاول أنقذ «عمر» ولو على حساب حياتي نفسها.. إنتي لازم تفضلي هنا.. ما تعمليش حاجة إلا لما أتصل بيكي، أو ما تسمعيش عني حاجة لحد بكره الصبح.. ساعتها تتصلي بالبوليس.. وتحكيلهم كل حاجة، و«رأفت» حيساعدك ويكمل الحاجات اللي ماتعرفيهاش..».

تنصلت من بين يديه وهي تمسح وجهها بكفيها قائلة في حنق: ««رأفت»؟ فيه إيه تاني ما عرفوش يا «شريف»؟ إنت بتحكي حاجات لـ «رأفت» وما بتقوليش على حاجة؟»

- «أنا حعرفك كل حاجة في الوقت المناسب.. أهم حاجة ما تتصرفيش من دماغك.. وتحت أي ظرف ما تبلغيش البوليس إلا لما أقول لك، ساعتها حتكون خربت خالص وأنا غالبًا.. يا جرالي حاجة، يا فقدت الأمل إني أرجع «عمر»».

- «طيب ما نخلي البوليس في الصورة يا «شريف»؟.. حرام عليك، ريحني..».

ضاغطًا على نواجذه قال في بطء: «ركزي يا «منى»، اللي اسمه «حاتم» ده ممكن يبوظ لنا الدنيا لو الجماعة دول شموا خبر، سيبيني أنا اللي أحدد لك الوقت المناسب.. علشان ما نبوظش الدنيا».

استدارا ليقابلهما صوت «حسناء» الآتي من اتجاه باب المنزل الذي لم يزل مفتوحًا على مصراعيه.. كانت ملامح وجهها الشاحبة

وقسماتها المأخوذة تنبئ بشيء ما دفع «شريف» لأن يستحثها: «ادخلي يا «حسناء».. خير، إنتي إيه اللي جابك؟».

ترددت وهي تقترب من «منى».. توسطت موقعًا بينهما وهي تخفض بصرها للأرض كمن لا يعرف من أين يبدأ حديثه.. ثم بدا وكأنها غلبت ترددها لتهمس: ««رأفت» يا «شريف».. «رأفت» خبطته عربية.. وهو في المستشفى دلوقتي..».

(37)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 21

النقلة الخطأ قد نندم عليها طول الدور.. لكن الأهم، أنها تعطي خصمك فكرة عمن تكون، عن أي نوع من اللاعبين أنت.. فكن مخطئًا مفتوح الأعين.. منتبهًا وصبورًا.. إنه خطؤك في النهاية، فتحمله كالرجال!

باتوا ليلتهم مفتوحي الأعين.. «منى» كانت تبكي في صمت، ولم تستدر تجاه «شريف» مرة واحدة طول الليل.

كانت تفكر في حبها الذي أهدته له غير مشروط.. في قلقها الدائم عليه كلما راح أو جاء.. في أوقات عودته من عمله التي لم تكن ثابتة.. في حياتها، التي خالتها تنهار فجأة فوق رأسها كسماء رحبة، ضاقت على صدرها فجثمت كحجر، لا تدري أيهما أوجب، أيكون الخلاص من ذلك الحب، أم احتضانه.. في شوق إلى سيرته الأولى الدافئة الحنون، المحتوية الرءوم؟

«شريف» لا يزال يخونها بعد كل تلك السنوات.. اعتادت على تلك الأفاعيل.. بيت أمها كان دائمًا ملاذها، لكنها لم تعد تفعل.. «الحدوتة باخت» قالتها أمها لها مرة، حينما راحت إليها مغاضبة لفعلة من أفاعيله.. «مش أد الجواز بتتجوزي ليه؟ أنا قلت لك عليه من زمان إنه واطي.. كويس إنك ليكي فلوسك وحسابك بعيد عنه.. ساعة الجد تخلعيه، لكن طول مانتي مش قد الكلام ده، ماتجيش تعيطي كل شوية زي العيال..».

- «يعني أعمل إيه يا ماما؟».

- «تحاوطي على ابنك، وتخلي بالك منه، مالكيش في الدنيا، ولا طلعتي منها بغيره.. سيبيه هو يعك بعيد عنكم، وخدي الفلوس حوشيها، واطلبي بيت وعربية، ومتعي نفسك، لا ديل الكلب حايتعدل، ولا انتي عندك كرامة.. يبقى على الأقل عيشي كويس واكسبي من وراه اللي تقدري عليه..».

- «ودي تبقى عيشة يا ماما؟».

- «لأ عيشتك دي اللي عيشة.. ده إيه الفشل ده يا ربي!!».

كفكفت دموعها..

ليت أباها يراها الآن، ماذا كان ليكون رأيه.. هو الذي منحها الحنان الذي لم يمنحها إياه رجل.. الثقة التي لا تجدها حتى مع أمها.. ما عساه كان يقول وقد انهارت أركان حياتها؟ لا تقوى على الطلاق.. ولا تستطيع الحفاظ على ابنها.. أين «عمر» الآن؟ هل أضاعته؟ كيف تركت له العنان حتى سار غيابه عاديًا وبياته بعيدًا عنها

دون داعٍ حقيقي غير مستهجن، هل «شريف» على حق، إذ يلومها أنها تبالغ فيّ تدليله؟ هل هي فاشلة، هل أمها على حق في ذلك أيضًا؟.

أما «شريف».. بظهره الملاصق لظهرها في نومته.. فكان عقله يعمل بسرعة.

من بين أسنان تقبض على الغيظ وتلجمه بصعوبة.. سألته «منى» قبل أن يدلفا إلى السرير في يأس.. لم لا يتحرك الآن لتسليمهم العقد؟ نظر من النافذة بقلق.. أشار إليها من خلف الستائر أن تنظر للواقفين بأسفل المنزل.. كان الرجل الذي حضر مع «حاتم»، على وجهه سمت الشرطي، يقف مستندًا لسيارة «شريف».. ينظر حوله بتراخٍ.. لكنه لا يبرح مكانه.

أخبرها أنه سيتوجه في الصباح إلى «عصام»، صمتت ولم تعلق.. لم يقوَ على سؤالها: «لم لم تبد قلقًا لوشك ضياع شركته بهذا الشكل؟». لكن السؤال بدا له غبيًّا.. وعودة «عمر» على المحك.. لكنه، وهو يستلقي بسريره، منتظرًا بزوغ الصباح وانشغال المراقبين بأسفل البيت في تبديل أدوارهم، للخروج لهدفه دون أن يتبعه أحد..

غرق في شعور مبهم بالشك.

هناك شيء ما ليس على ما يرام.

لقد أنهكته حوادث الساعات الطوال، حتى اتصل به «عصام».. فطلب وقتًا ليقرأ العقد مرة أخرى.. أزبد الرجل وأرغى.. لكنه وعده بالتبكير في صباح الغد، وبعدها يتسلم «عمر»، طمأن نفسه بأنه لا بد أن «عصام» هذا ومن معه، لديهم من الصبر ما يبقيهم هادئين، طمعًا

في الفوز بالمال والشركة.. لن يؤذوا «عمر» فيخسروا كل شيء، فقط من أجل تأخير لبضع ساعات.. جلس لحجرة مكتبه يراجع العقد وكل سطر يعمق نصل الخنجر في قلبه، جلس لنفسه يقرأ أوراقًا ويراجع العقد.. عبثًا يشرد ليجمع أفكاره.

لكن شيئًا ما لا يزال يقلقه.

هناك كلمة ما في غير موضعها.. جملة هنا أو هناك.

راجع كثيرًا من الأحداث، نقلة.. نقلة، كنقلات الشطرنج: افتتاحية عاصفة.. بيادق في كل مكان.. أفراس تثب في رشاقة ويملأ صهيلها الأجواء، أفيال ثقيلة تركض فتهتز لها الأرض، ويملأ غبار المعركة الآفاق، الرخ يناور من بعيد.. الوزيران يتواجهان في تنمر، يدوران حول بعضهما في تحفز، يد كل منهما تتوتر على نصل سيفه.. بينما الملك يرقد في الخلف، على أريكة مخملية يفرد ساقيه في استرخاء، حبات عنب زاهٍ يقطرها في فمه، يحاول «شريف» اختلاس نظرة إلى وجه الملك.. لكنه يخفض ذقنه لأسفل ليخفي وجهه، وتحجبه بيادقه في إخلاص وهي تلصق أكتافها ببعض، يعود ليهدي المعركة انتباهه، الوزيران يتنمران.. «شريف» يلبس ثياب وزير منهما، بينما تتغير عليه وجوه عديدة لتشغل وجه خصمه الوزير: وجه «أسيل» البريء.. ينظر له بعينين ناعستين تملؤهما البراءة.. فيرخي قبضته المضمومة تحفزًا، مبهورًا بها.. غير أن وجهها يتغير ليصير وجه «حورية» الفاتن، نظرتها المليئة بالغنج، نفخة من زاوية فمها تدفع بالهواء لأعلى ليداعب خصلة نافرة.. وعين تغمز فلا يدري أهو وعد أم تهديد خفي؟ يستحيل وجهها وجه «منى» التي تصيح به

بعينين باكيتين، تنعته بالخائن حتى يسد أذنيه، تنقلب ملامحها بشكل مخيف لتزحف تجاعيد أنيقة على زوايا فمها وجبهتها، وشعيرات بيضاء في مفرقها، ليطالعه وجه «عزة المقدم» في فحيح مستنكر تصيح به: «إنت مين؟ «علي هاشم» ولّا «شريف»؟ لو ما مشتش دلوقتي أنا حبلغ البوليس». ثم يصير وجهها وجه «رمزي» نفسه وهو يعيد عليه عبارته: «دا شغل ستات.. اللي عمل كده يعرفك.. ويعرف إنك نسوانجي بطبعك..».

فزع من كابوسه.. اعتدل جالسًا والعرق يغمر وجهه ويسيل خلف أذنه.

نظر لساعة يده التي لم يخلعها.

لم يدر متى وكيف ارتدى ملابسه.. انطلق والعقد في يده.. والقلق لم يزل عنوان المعركة.

كان يدلف مرة أخرى لردهة الفندق.. وهو يحادث «رأفت» في سماعة المحمول.

قال «رأفت» بصوت مبحوح من الألم: «معلش يا «شريف».. أنا مش فاهم بيحصل لنا ليه ده كله.. أنا آسف والله، بس أنا ما لحقتش اروح للحاج «عبد الحميد» زي ما وعدتك.. وعلى العموم».

باهتمام سأله: «العربية اللي خبطتك شفتها يا «رأفت»..؟»

- «هي يا «شريف»، هي اللي جريت وراك، نفس النمر.. ونفس السواق أبو طاقيه ده..».

ضغط على أسنانه غيظًا وهو يغمغم: «أنا اللي مجنني، هم بيعملوا الحاجات دي ازاي. «شادي» لقطوه بعد ما جاب لي الحاجات في الأوتيل، وأنا اللي كلمته يجيبهالي.. وانت كنت رايح للحاج «عبد الحميد»، الناس دي مراقبين تليفوني ولّا إيه؟».

- «يمكن يا «شريف»، ما عرفش، بس الواضح إنهم مش ناس سهلة.. وما دام وراهم الراجل اللي انت قابلته ده، ما تستبعدش أي حاجة.. قل لي المهم، إنت قابلت «حورية»، ولا ما جاتش في المعاد؟».

زفر في غيظ وكأنه لم يكن يتمنى تذكر هذا الخاطر مرة أخرى، أشاح بيده في ضيق وقال: «الحكاية دي أنا مش فاهمها.. أنا كنت من الأول مش مصدق إنها ممكن تكون عايشة لحد دلوقتي، أنا صحيح ما حضرتش الدفن، بس شغل الأفلام الهندي دا كتير على مخي شويتين..».

- «يعني شفتها؟».

- «أنا شفت واحدة شكلها وجسمها، من بعيد، ووشها مش باين..».

- «ممكن حد تاني بيلعب عليك، وعايزك تفهم إنها حورية؟.. ممكن «أسيل» يا شريف؟».

- ««أسيل» كانت معايا.. «حورية» هربت في نفس العربية اللي طاردتني قبل كده، وخبطتك النهارده، أول ما شافتني جريت وما حصلتهاش..».

- «طيب كده الحكاية بتتأكد أكتر يا «شريف»، «حورية» هي اللي ورا الموضوع ده فعلًا.. والحاج «عبد الحميد» كده يبقى عارف كانوا صبيانه بيعملوا إيه.. وتلاقي «أسيل» برضه معاهم..».

- ««أسيل» أنا اتصلت بيها مخصوص وأصريت آخدها معايا، بس علشان الشك اللي حواليها ده يروح.. بس برضه الحكاية مش ماشية..».

- «إيه اللي مش عاجبك؟».

- ««حورية» عايزة تخطف ابنها بعد السنين دي كلها، على فرض إنها عايشة يعني.. طيب ليه تديني معاد وتهرب تاني؟ اتصلت بيَّا ليه؟ عايزه إيه؟».

- «يمكن لما شافت معاك «أسيل».. خافت، أو غارت عليك..».

- «ما أنا متجوز غيرها بقالي 17 سنة.. غيرة إيه؟ وبعدين مش هي اللي حطت «أسيل» في طريقي علشان تخطف «عمر»؟ تخاف منها ليه؟ وتطلب فدية ليه؟ ماتاخد الولد وتهرب بيه على أي حتة؟».

صمت لوهلة، ثم تابع في قنوط: «هي مش المفروض ماتت؟».

تنحنح «رأفت» في حرج وهو يقول: «ما احنا مش فاهمين لسه حاجة يا «شريف».. حسب نعي الجرنان أيامها.. والجنازة اللي اتعملت، آه، وشبعت موت كمان.. بس أنا مش لاقي زيك معنى للي بيحصل ده..».

أجابه في هدوء المنهك: «الحكاية معقدة قوي يا «رأفت».. أنا ما بقتش فاهم حاجة..».

سرح «شريف» بخياله، ليتذكر بقية حديث «رمزي» إليه اليوم:

«اللي عمل الموضوع ده شخص قريب منك، يعرفك كويس.. حط في طريقك «أسيل» لأنك بطبعك نسوانجي.. الشخص اللي عمل الكلام ده بالتأكيد ست.. دي طريقة ستات، وهي كمان من القوة والدهاء،إنها تنظم ده كله. دورك بقى، إنك تركز.. مين الست دي؟ ويا ترى، مين بيساعدها؟».

غمغم وكأنه يحادث أفكاره: «يعني «حورية» و«عبد الحميد»؟».

جاءه صوت «رأفت» قلقًا بلهجة من يعيد تكرار الجملة عدة مرات: ««شريف».. سامعني؟ باقول لك الحكاية صحيح مش أكيدة، بس انت اطلع منها بأقل الخساير.. إنت شايف بيحصل لنا إيه..».

تنهد «شريف» مثقلًا بهمٍّ جاثم وهو يقول: «تمام، المشكلة في وسط ده كله، يطلع لي اللي اسمه «حاتم» ده، ده اللي كان ناقصني فعلًا.. واضح إن تدخل البوليس بالنسبة لهم شيء مش ممكن يسمحوا بيه أبدًا.. وطالما الجدع بتاع الجهة الأمنية اللي أنا قابلته ده له يد فيها، يبقى هو كمان مش عايز شوشرة، علشان كده ممكن يلاعبوني ويهددوني بإنهم حيئذوا «منى»، و«شادي» جايز كمان، لكن إنت ذنبك إيه؟ يعملوا فيك كده ليه؟».

بحيرة جاوبه «رأفت»: «لاحظ إن أنا و«شادي» حاولنا نكلم «عبد الحميد».. ويمكن استنى اللحظة المناسبة، خطف «شادي».. وكان ناوي يخلص عليًا أنا كمان.. ».

واصل «شريف» تساؤلاته الشاردة وهو يقول كمن يجاوب نفسه: «أنا بس لو أفهم إيه سر اهتمام «حاتم» ده بالموضوع قوي كده، ده شكله متأكد إنه فيه حاجة.. بينخور ورا الشركة، وورايا أنا شخصيًّا..».

صمت متوقعًا ردًّا.. لكنه شعر بضجيج الصمت فآثر أن يخرسه متابعًا: «ماشي، يمكن يوم المخزن الحكاية ماعجبتوش.. بس ده مُصِر على إن «عمر» لسه مختفي، قال لي كده بالمتغطي، وكان بيضغط على «منى» علشان تعترف له إن الولد مش في البيت.. مش طبيعي، فيه حاجة غلط.. إيه اللي..».

أطرق برأسه متوقفًا في الردهة فجأة.. وهاله الصمت من الطرف الآخر.. دارت به مشاهد عديدة.

مرت كلمات «رأفت» السابقة إليه كشريط أحداث أمام عينيه.

«طيب اسمع.. أهو خلاص فات 24 ساعة، بلغ البوليس بقى يا «شريف».. خللي البوليس معانا على الخط. يبقوا على مسافة مراقبين الدنيا، وكمان الجماعة اللي كلموك مسيرهم يكلموك تاني ونعرف طلباتهم.. خلينا ما نشتغلش لوحدنا..».

- «بوليس لأ.. جرى إيه يا «رأفت»؟ بقى احنا حافظين الكتالوج ده صم.. وبنشتغل في الشغلانة دي بقالنا قد كده.. وبرضه حنغلط الغلطات الكلاسيك دي؟ حيعمل لي إيه البوليس لما يدبحوه، ولا يبعتوه لي في أكياس؟».

«إنت يا «رأفت»؟.. إنت تعمل فيَّا كده؟!».

أجابه في ضيق من يغالب ألمًا: «إنت بتزعق لي ليه دلوقتي؟ يا أخي انت إيه؟ ما بتحسش باللي حواليك ليه؟ يعني انت ضيعت الولد بأحلامك الخيالية إياها.. وكمان عاوز نقف كلنا نتفرج عليك؟ ولو نساعدك، نعمل كده بشروطك، يعني الحاجة الوحيدة المنطقية إنك تبلغ البوليس.. مش عاوز تتحرك ليه؟ حتى بعد ما عرفت مين اللي ورا الموضوع، شاغل نفسك بفرعيات.. ورايح تجري ورا سراب هنا وهناك.. ومفكرتش تقول للبوليس على المعاد اللي رايح تقابل الراجل فيه؟».

- «بتبلغ البوليس عني يا «رأفت»؟».

انفعل أكثر وهو يصيح به: «فوق يا «شريف».. بابلغ عنك إيه بس؟ أنا بحاول أساعدك، ما دام انت مش عارف تساعد نفسك..».

- «والنتيجة إيه يا فالح؟ ما عملتش حسابك إنهم مراقبين الكل؟ أهم وصلوا لبيتي، وراقبوا «شادي» لحد ما خطفوه وهو بيجيب لي الورق.. وشافوك طبعًا، وحاولوا يخلصوا منك.. برافو، لأ حقيقي هايل..».

- «أنا غاوي أجيب الأذية لنفسي يعني؟ أعرف منين إنهم حيعملوا كده؟ ».

صاح في غضب: «واشمعنى أنا عارف؟ اشمعنى أنا مش مستغرب؟ أنا في الشغلانة دي من سنين، عمرها ما مشيت إلا كده.. لكن انت عليك بإيه.. طول عمرك فاكر نفسك انت البطل، وأنا العبيط اللي ماسمعش كلامك، صح؟».

ساد الصمت بينهما ولا يقطعه إلا أصوات رواد ردهة الفندق، وهم يمرون بجواره.. بينما انهار هو على مقعد في طرف الجلسة الأنيقة قبالة موظفي الاستقبال المنشغلين بمجاذبة شخصين أطراف الحديث.. جاءه صوت صديقه من الطرف الآخر مفعمًا بالندم.. وهو يغمغم: «أنا مش عارف أقول إيه يا «شريف».. أنا كنت متأكد إني باساعدك.. كل اللي عملته إني كلمت الظابط بتاع القسم، «حسناء» أخدت نمرته من «منى»، إنت عارف إنه كان سايب لك النمرة علشان يقفل المحضر.. أكيد انت فاكره، اللي كان معانا يوم ما فتحنا المخزن..».

بتهكم متحسر قال: «عارفه.. والله عارفه..».

- «فهمته إن الولد مخطوف وإنك واقع تحت ضغط، وما قلتش أكتر من كده.. قابلني بره الشغل؛ لأني طلبت منه إن الموضوع ما يستحملشي إني أدخل القسم، أنا كنت خايف إننا نكون كلنا متراقبين.. هو قعد يحاول يسأل عن الشركة وبنعمل إيه، وكان شاكك في كل كلمة وكل حاجة باقولها.. بس في النهاية وعدني إنه حيتصرف، وحلف لي إن الموضوع مش حيتكشف، وإن الجماعة دول مش ممكن يحسوا بحاجة..».

غمغم «شريف» في غيظ: «أهو بيتدخل على المكشوف أهو.. والدنيا كلها شايفاه عادي.. يا «رأفت» الداخلية مالهاش في الشغل المتغطي زينا كده.. إنت ازاي مش فاهم إن ده اللي هيحصل؟».

توقفا عن الحديث.. و«رأفت» يحاول أن يجد كلامًا يوازي صدمة صديقه.. حتى قال في انكسار: «أنا يمكن ضيعت الدنيا، بس

والله يا «شريف» ما كانش قصدي كده.. الظاهر إن الحكاية رنت في ودانه حاجة تانية خالص، ودخلت معاه في شغلانة تانية في خياله.. أنا حسيت إنه شايفك عامل عملة ومخبي، أنا عارف إن كلامي ده لا بيقدم ولا بيأخر، بس أنا آسف على اللي حصل.. آسف فعلًا..».

بألم وحزن دفين لكلمات صديق عمره قال: «ما تفكرشي انت بس يا «رأفت».. أنا السبب في اللي بيحصل ده كله.. أنا اللي ما كفانيش اللي ربنا إداهوني، جريت ورا سراب.. فاكره الجنة..».

توقف في منتصف البهو عن السير.. وهو يهمس لصديقه في ندم: «ربنا إداني زوجة بتحبني، بتموت في أي حاجة بحبها، عايزة تبسطني.. ابن زي الفل.. فلوس وأصحاب ممكن يموتوا علشاني.. علاقات ونفوذ.. لكن أنا جريت ورا واحدة من دور عيالي، طبيعي إني لازم آخد جزائي.. علشان كده ما تقلقش عليًا.. أنا مش هاممني يحصل لي إيه، بس خايف عليكو إنتو تروحو في الرجلين معايا..».

بقلق جاوبه رأفت: ««شريف»، البوليس خلاص حط مناخيره في الموضوع، روح لـ«حاتم» واحكيله كل حاجة.. خليهم يسندوك..».

- «ما تقلقشي.. كلامي دلوقتي متأخر قوي، مش حيصدقوني، ما بقاش ينفع.. والموضوع حيخلص كده كده من غيرهم، مش حينوبني إلا مشاكل زيادة.. هو عايز يشوف «عمر» أدامه علشان يصدق إن مافيش حاجة، وأنا أهم حاجة عندي إن الولد يرجع، وممكن ساعتها الولد يأكد له إنه مفيش حاجة حصلت، وإنه كان هربان مننا وزعلان ولَّا أي حاجة زي كده.. ويحل الظابط ده عن

الشركة ونرتاح.. المهم دلوقتي.. أخلص موضوع العقد، وبعدها حنشوف..».

(38)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 22

ركز!

ابتسم «عصام».. وعبأ العقد في حقيبة فاخرة بجانبه.. نظر لـ«شريف» نظرة طويلة، وهز رأسه مؤمنًا لأعلى ولأسفل.. فسأله «شريف» في قلق: «يعني أستنى تليفونهم؟».

- «حيتصلوا بيًا، أديهم الضوء الأخضر، وحيكلموك..».

- «أمشي؟».

بتهكم الواثق قال: «إنت لسه ما مشيتش؟»

لم يكد يخطو خارجًا من مدخل الفندق بعد لقائه الثاني برجل الأمن «عصام».. حتى جاءه صوت «منى» عبر محموله تصيح في جنون: «إنت فين يا «شريف»؟ اللي اسمه حاتم اتصل بيك.. وبعت لك أربع عساكر ياخدوك من البيت..». دق قلبه في قلق، وهو يسألها في توتر: «ليه فيه إيه؟» ـ «ماعرفشي يا «شريف».. حاولنا نعرف منهم

إيه السبب.. بالعافية قالولنا إنه عليك قضية تمويل إرهاب..». صرخ في دهشة: «الله يخرب بيته!! تمويل إرهاب إيه وزفت إيه؟».

- «ما عرفش، بيقول إن شركتك انت بتديرها ستار بس، وإنك بتمول جماعات إرهابية بفلوس بتاخدها من العملا بتوعك من تحت لتحت، وإن الضرايب ما تعرفش حاجة عن شغلك، كمان النيابة فرضت على الشركة وحسابات البنوك حراسة، وكلام كتير كده ما فهمتش منه حاجة..». أطرق برأسه مفكرًا.. بينما قاطعته هي مواصلة: «إنت خلاص سلمت العقد؟ قالولك عايزين كام؟ وصلت معاهم لإيه؟ و«عمر»؟».

غمغم بهدوء: «اهدي يا «منى» الله يخليكي.. واحدة واحدة.. العقد خلاص مضيته، والشركة راحت خلاص، أنا فاوضتهم على الفلوس زي ما كنت باقول لك، بس ما فيش فايدة.. عايزين عشرين مليون جنيه، بعدها «عمر» حيرجع على طول..». صاحت بذهول: «عشرين؟».

- «أيوه عشرين.. فيه إيه يا «منى»؟ هو دا وقت تردد ولا حنستكتر على الولد؟». بفزع أجابته: «إنت بتقول إيه يا «شريف»؟ أنا؟ أنا بستكتر؟ أنا بس اتخضيت من المبلغ.. مش عارفة أعمل إيه وأتصرف إزاي؟».

أطرق في صمت.. مستندًا لسيارته في قنوط تابع: «.. مش باقول لك واحدة واحدة، أنا كنت حطلع البنك دلوقتي أسحب الفلوس.. لكن دلوقتي المصيبة دي أنا مش عارف أعمل فيها إيه..».

-«اهرب يا «شريف».. اهرب على أي بلد، ونتصرف بعدين..».
صاح في غيظ: «ما تعقلي بقى.. أهرب أروح فين؟ أقصى حاجة أقدر أعملها إني مارجعش البيت إلا لما «عمر» يرجع.. بس أنا دلوقتي أسحب فلوسي إزاي والحسابات عليها حراسة؟ أعمل إيه في المصيبة دي؟».

جاوبه صمتها.. تلفت من حوله وكأنه يخشى أن يراه أحد.. ثم قال بلهجة من حسم أمره: «مافيش إلا حل واحد..».

سألته في لهفة: «حل إيه؟».

- «حسابك فيه كام يا «منى»؟ أنا عارف إنك سايبالي الدنيا وأنا اللي باراعي كل حاجة، بس انتي معاكي كارت البنك، وتقدري تسحبي اللي انتي عايزاه..». قالت بقلق ممتزج بتصميم غريب عنها: «قول لي أعمل إيه وأنا أعمله».

- «خدي أمك، انزلوا دلوقتي خدمة العملا المميزين فاتحين، اتصلي الأول، اسحبي الفلوس.. أكبر فئات ممكنة، خدي أربع شنط كبيرة.. يا دوبك يكفوا، واستني تليفوني..».

بلهفة قالت: «حاضر.. وبعدين، حاعمل إيه؟.

- «ما عرفش يا «منى»، بمجرد ما أعرف المكان حاروح هناك.. تِركني العربية مطرح ما حاقول لك.. تقفليها كويس وتروحي البيت في تاكسي.. بعدها بساعة بالكتير، أتوقع إن «عمر» حيرجع البيت..».

- «بجد يا «شريف»؟».

(39)

شارع «المعز لدين الله».. منطقة «مصر القديمة».. «القاهرة».

الشمس تضيء بالبهاء أحجار أرضية الطرقات الضيقة، أشعتها تتكسر منهزمة على الأرضية المقطعة إلى مربعات صغيرة متشابكة.. المارة والجائلون، يديرون أبصارهم في النقوش البارزة بفخر على وجوه المباني الساحرة.. مجموعات تتهادى معًا، البعض يجلس إلى بعض المصاطب الحجرية التي تتوزع على جانبي النافورة الساكنة، وآخرون يتشحون بوشاح قديم ويضعون على رءوسهم «طرابيش» قديمة ليتخذوا أوضاعًا، تطلق حناجر أخدانهم بالضحك الصافي، قبل أن تلمع أضواء الكاميرا هنا وهناك، الباعة خلف الحوانيت المحشوة بالمشغولات النحاسية والمفروشات زاهية الألوان، يتململون كما تلمح عيونهم، بينما تعقد شفاههم بالابتسامات المزيفة التي تتحين فوات وقت العمل وانتصاف الليل ليجروا سيقانهم المجهدة وجيوبهم نصف الممتلئة إلى بيوت اعتادت السهر في انتظار عودة مظفرة لا تأتي، أمام زبائن يملؤها الحبور، وتكتظ جيوبها بأموال عسيرة، لا تبغي ترك حشواتها الدافئة لأخرى باردة، زبائن تملك كل الوقت.

بالمقهى الكبير الذي يتوسط منتصف الشارع قبل انحناءته إلى الداخل، اتخذ «شريف» مكانًا قصيًا.. في ركن منزوٍ تتراص على المناضد حوله مجموعات تتناجى بأصوات متداخلة، هذا يبدو رجل أعمال.. يناقش مع مساعد له أمرًا خطيرًا، يقترب رأساهما فيما يهمسان بالتفاصيل.. ذلك مهموم بشيء، لكنه يواصل امتداح رفيقته التي تضاهي سنوات عمره الخمسين.. لكنها لا تصدقه، يراقب تلك الفتاة التي تلقم ساق الأرجيلة في نهم، بينما ينبعث الدخان من فتحتي أنفها.. وتميل بشعرها للخلف في استرخاء مصطنع، بينما يداعب رفيقها شاشة محموله منشغلًا عنها.. فترمقه بنظرة تحمل لومًا دفينًا، تتوقف للحظة.. ثم تزيح جديلة شعر من أمام عينيها جانبًا، بينما تسر إليه بشيء وتبتسم.. يجيبها في جدية وهو لا يرفع عينيه عن شاشته.

طلب رقمًا من محموله وأصاخ السمع.. جاوبته الرسالة تنذر بأن الخط مشغول، فأغلق الخط وابتسم لنفسه.. لم ينفعل، فقد كان يستعد لما هو أهم.

ظهر خيال متوتر عند مدخل المقهى.. تتأبط حقيبة يدها الأنيقة، يشرئب عنق المنشغل بمحموله، فتفلت رفيقته المبسم من بين أناملها الغليظة.. وتلتفت لتعود محنقة توبخه بنظرة لائمة، يشرد الرجل الخمسيني في الشعر الثائر، والقوام المتناسق، لكنه يعود ليركز مع رفيقته فيمطرها بجمل متتالية وهي لا يزال يبدو عليها التحفظ عن تصديقه.. يتقدم الخيال خطوة وخطوتين.. لتغرق وجهها أضواء مصابيح المدخل المشنوقة عند سطح المقهى.. ليناديها «شريف»:

««شيرين».. هنا..».

تجفل لندائه، لكنها تواصل التعثر في خطواتها سالكة طريقًا متعرجًا إلى مجلسه.. أجلسها.. تبادلت معه نظرات شابها الترقب، لكنه عاجلها بالسؤال: «كنتي بتحبي «عمر» يا «شيرين»؟».

ارتبكت لسؤاله.. خفضت بصرها كعادتها.. وسألته: «لزمته إيه السؤال ده؟ لو كان ده مدخل إنك تديني محاضرة في الصح والغلط، فأرجوك، أنا مش ناقصة..».

- «كنتي بتحبيه قد إيه؟».

ارتبكت واهتز جفناها في قلق: «أنا مش فاهمة!».

ابتسم في خبث وهو يقول: «يعني لما واحدة بتحب واحد، واخدين على بعض، وبتروح له بيته، هي عارفة إنه عينه زايغة، مع ذلك عندها أمل فيه، وبتديله فرصة ورا التانية، لما الواحدة دي.. تشك فيه إنه يعرف حد غيرها، فتقرر تمشي وترجع له تاني علشان تظبطهم مع بعض وتحسم أمرها، وتدوس على قلبها اللي معذبها معاه، وبعدين تحس إنه برضه فيه حاجة مش صح.. هل خلاص كده؟ هل من الطبيعي إنها تمشي وتسيبه، وهي لسه ما تأكدتشي من شيء؟».

- «أنا قلت لك كل حاجة أعرفها..».

- «لأ.. كل حاجة لأ.. أقول لك أنا ما قلتليش إيه؟».

سحب نفسًا عميقًا، وهو يبتسم ويميل نحوها عبر المنضدة: «ما قلتليش إن اللي بيحب حد بالشكل ده.. مش حيبطل يحبه، ولا يخاف عليه إلا لو اتأكد بنفسه إنه مافيش فايدة.. ما قلتليش إنك طول

ما انتي ماشفتيش عنده حد.. كنتي مش حتمشي أبدًا، حتى لو كبستي عليه وطلع بريء، كنتي حتقولي لنفسك: ما يمكن حتيجي البنت اللي أنا شاككة إنه مستنيها كمان شوية..».

ارتعش صوتها وهي تحاول النهوض: «أنا حامشي.. أنا مش مضطرة أسمع الألغاز دي..».

أمسك بمعصمها وهو يقول في حسم مجبرًا إياها على الجلوس: «أنا لسه ما خلصتش..».

انهارت على المقعد وهي تلقي بحقيبتها أمامها وتشبك ذراعيها مشيحة بوجهها بعيدًا وكأنها لا تريد الاستماع لما يقول، لكنه ابتسم وواصل قائلًا: «إنتي استنيتي بره تاني.. وشفتي كل اللي حصل.. واضح انك كنتي شاطرة جدًّا، لدرجة إن أنا نفسي ما شفتش إنتي كنتي فين.. لكن إصرارك على إنك تقولي إنك مشيتي، ده معناه إن فيه حاجة أنا مش المفروض أعرفها.. ولو كانت الحاجة دي هم الصبيان بتوع خان الخليلي اللي جم وخطفوا «عمر».. كنتي حكيتي كل حاجة، وريحتي نفسك.. بس سكوتك، معناه إنك شفتي حاجة تانية، حاجة ما تقدريش تقوليها..».

ظهر القلق عليها إذ سألته بحذر، كسته لامبالاة مفضوحة: «يعني إيه بقى؟».

واصل في ثقة: «حاجة من اتنين.. إما إنك شفتي ناس معينة، بتخطف «عمر».. الناس دي شافوكي، أو عرفوا إنك شفتيهم.. وبيهددوكي وانتي مش قادرة تتكلمي، أو..».

صمت ليعطي لحديثه الأثر المطلوب، وأنبأه احمرار أرنبة أنفها وعيناها المغرورقتان بدموع مرتعشة أنه على الطريق الصحيح، وواصل في تؤدة وبلهجة مسرحية: «وإما، إنك انتي اللي ورا الموضوع ده كله.. تفتكري لو انتي مكاني.. فيه أي احتمال تالت؟».

ارتعدت حتى خشي بالفعل عليها من الانهيار.. لكنها أطلقت لدموعها العنان وهي تقول بصوت متوسل: «أرجوك يا «شريف».. أنا ما عملتش حاجة.. أنا حكيت لك على كل اللي حصل..».

تجاهل حديثها وشرد ببصره في سقف المقهى قائلًا في ثقة: «شوفي انتي بقى، لما أبلغ البوليس اني شفتك قبل الحادثة.. لازم تفهمي إن «عمر» حيرجع، وأنا كده كده، ما عنديش دليل يدين أي حد، العصابة اللي خطفته دي حتهرب بالفلوس، فص ملح وداب، الراجل بتاع الجهة الأمنية ده حوت، أنا مش قده، ومش بعيد لو بلغت عنهم ألبس قضية إرهاب، «أسيل».. أنا مش فاهم لغاية دلوقتي هي مضحوك عليها ولا معاهم، وغالبًا عمري ما حافهم، و«عزة المقدم» بتنكر إنها هي اللي وراها، وحتى لو كانت هي.. دي دلوقتي مرات وزير، يعني أنا ما عنديش أمل أوصل لحد..».

دنا منها بوجهه، وأمسك بيدها المرتعشة، وهو يتعمد أن يصوب نظرة نارية لعينيها وهمس بفحيح: «أملي الوحيد فيكي انتي، إنك تحكيلي اللي شفتيه، ولو مش حتعقلي.. صدقيني حتلاقي نفسك مضطرة، غصب عنك، إنك تحكيه للبوليس.. علشان تنجدي نفسك من السجن.. علشان ده ساعتها حيبقى أملك الوحيد، ده لو صدقوكي طبعًا!!».

حملقت في وجهه كأنها تتأكد من صدقه، وتتحرى جديته.. واصل في لهجة صادقة: «إنتي إنسانة كويسة يا «شيرين»، بنت جميلة، ومُخلِصة، وعايزة تعيشي.. أنا بجد حاكون سعيد إنك تبقي زوجة لـ «عمر»، بس ما تخليش العند يضيع منك كل حاجة».

غمغمت بحذر وهي ترمقه بعينين مفتوحتين عن آخرهما وكأنها تخشى أن تفوتها لمحة من تعبيرات وجهه: «قصدك إيه برضه؟».

تابع وكأنه لم يسمعها في شرود مصطنع: «عمر» بكره يرجع، بيكي أو من غيرك، ما تحطميش حياتك، وتقضي عمرك في السجن، وتسيبي أمك الغلبانة دي لوحدها، وكمان تخسري حبك بمجرد جرة قلم..».

أمسكت رأسها بكفيها، وأطرقت منهارة تبكي، كانت ترتعد في جنون.. اقترب منهما الساقي مستفسرًا فنهره «شريف» بإشارة من يده، لكنها استجمعت شجاعتها وقالت دون أن تكفكف دموعها: «مقدرشي يا «شريف».. حيقتلوني لو اتكلمت..».

قال بتركيز وهو يضغط على حروفه: «الناس دي شافوكي، ولا عرفوا متأخر إنك كنتي هناك؟».

بنظرة دهشة من سؤاله، أجابت بتلقائية: «لأ، هم ما شافونيش..».

ابتسم لإجابتها، عاد بظهره للوراء.. وقال بارتياح: «خلاص.. يبقى أنا كده فهمت كل حاجة..».

همت بسؤاله عما يقصد إلا أنه أوقفها مشيرًا لها بالصمت، وهو يجيب على محدثه بالمحمول: «أيوه يا «منى».. الناصية اللي قصاد

شارع «المعز».. أيوه عند المحل بتاع السندوتشات.. سيبيها انتي وارجعي البيت زي ما قلت لك.. لأ ما تخافيش، هم أكيد مراقبين العربية، ما حدش حيسرق حاجة.. اسمعي الكلام، ارجعي البيت واستنني أخبار كويسة إن شاء الله».

أغلق الخط، ونظر إليها وابتسامته تتسع.. أطلق ضحكة عالية، حتى خيل إليها أنه جُنَّ..

سألته في لهفة: «هو كده «عمر» رجع البيت؟».

قال في سعادة لم يستطع أن يخفيها، وهو يدفع بورقة مالية لتتوسد قاع قنينة تتوسط المنضدة، وينهضها من مكانها: «إنتي تقومي تتمشي معايا لحد بره علشان أقول لك أنا فهمت إيه، مش أنا اللي تقدري تضحكي عليه يا بنتي، بس ورطتك دي لها حل.. ما تخافيش صدقيني. أنا بعد كده حكمل مشواري، بس تتكلي على الله وتروحي على طول مش عايز «منى» تشوفك، إنتي عارفة هي بتفهم المواقف دي غلط، غيرة ومخ صغير بعيد عنك..».

سارت معه في تردد وهي تختلس النظر إليه في قلق، بينما لاحظ نظرتها فقال في ثقة: «خلينا نتمشى لحد الباب، وأنا حاقول لك أنا فهمت إيه..».

تأبط ذراعها في بساطة وهي تجر ساقيها بجانبه ولم تزل نظرة الدهشة على وجهها، وهو يردف في حبور: «بس عمومًا، مش لازم تفوتك اللحظة دي لما «عمر» يرجع يا «شيرين».. ابن الإيه، وحشني وأخيرًا حسيت إن تعبي الأيام اللي فاتت حييجي بفايدة..».

(40)

شمس الظهيرة في القاهرة.. وكأنها تراوغه لتشق أشعتها الدءوب طريقها إلى وجهه.. يغرق بعرق بارد رغم حرارة الجو القائظ.. يكاد يدفع السيارة دفعًا للانطلاق للأمام من فرط حماسه، ثعبان طويل متموج من السيارات الزاحفة على بطونها في إرهاق، وهو يقبع في منتصفه لا يدري ماذا يفعل؟

يلتقط محموله ليجيب الصوت الأجش من الطرف الآخر: «إنت فين؟ اتأخرت ليه؟».

يجيب في توتر: «أرجوك اصبر عليًا.. يعني أنا عارف إنكم أكيد مراقبين كل حاجة، وشايفين أنا طلعت امتى بالعربية، السكة زحمة.. حعمل إيه..».

أطلق الصوت ضحكة سمجة، أتبعها قائلًا في حسم قاسٍ: «براحتك، احنا مش حنستنى كتير..».

صاح باستنكار: «جرى إيه؟ مش العقد وصلكم؟ لسه فينا من الشك والتخوين ده؟».

- «العقد تمام، بس الفلوس لسه.. ما تخليش دماغك توزك إنك ما تجيبش الفلوس، ولا تفاوضنا ولا تحاول تكسب وقت.. أي

حاجة مش تمام حنشم فيها ريحة مش مظبوطة، إنت عارف.. الولد لسه معانا..».

انفرج الطريق قليلًا، فانحرف بمقدمة سيارته.. وصل لمدخل طريق جانبي، وزاد من سرعته وهو يجيب: «لا ماتقلقش.. أنا خلاص كده قربت.. اديني نص ساعة، وحاكون عندك..».

لما توصل، تركن العربية أدام القلعة.. تخللي القلعة على شمالك وتلف لفة واحدة يمين.. أول صف محلات فيه عربية سودا مرفوعة على أربع طوبات.. تركن وراها وتنزل ما تبصش وراك.. حيقابلك تاكسي حيقف لك، من غير ما تشاور ولا تعمل حاجة، ويسألك: «ياباشمهندس «شريف»، اركب معايا أنا باعتني ليك «عمر»..».. حتعرف بكده إنه التاكسي اللي باعتينهولك.. حتركب معاه، حيوصلك حتة قريبة، حتلاقي «عمر» في انتظارك.. صاغ سليم..».

غمغم ساخرًا: «صاغ سليم؟ خاطفينه ومخبيينه، وبالعين شركة وفلوس قد كده، وتقول لي صاغ سليم؟».

- «ما انت اللي ابتديت الخطف يا باشمهندس ولا تحب أفكرك؟».

- «يعني «أسيل» كانت معاكم؟».

- «ماترميش فشلك على حد يا باشمهندس، احنا كمان عايزين نركز على شغلنا، ومالناش دعوة بحد..».

- «ياسلام على أخلاق العصابات الكُمَّل والله.. المهم ما قلتليش.. أعمل إيه بعد كده..».

- «تعمل إيه إزاي؟».

- يعني تحب أحاسب التاكسي كمان، ولا انتم محاسبينه؟».

.. جلجل الصوت الأجش في أذنه بضحكة سمجة أخرى، وقال في بساطة: «لأ يا باشمهندس، إنت فاكرنا ماعندناش دم، معاذ الله إن إيدينا تتمد على حرام، مش احنا اللي زنقناك في المشوار ده؟ يبقى احنا برضه اللي نحاسب عليه.. الأصول أصول..».

ابتسم رغمًا عنه، وحرك شفتيه بسبة مكتومة كيلا تصل إلى مسامع محدثه، وسأل باهتمام: «وعربيتي؟ والفلوس اللي في العربية؟».

- «متشغلش بالك. احنا حنلقطها بعد ما تمشي مراتك على طول، وحترجع لك العربية قريب.. ده شغلنا..»

لم يكد التاكسي يبتعد حاملًا «شريف» متخذًا بعض الطرق الجانبية.. سالكًا وسط البيوت نصف المتهدمة وسط طرقات القاهرة القديمة.. حتى غاص «شريف» في أفكاره.

دق بأنامل، باردة برغم حرارة الجو، على ركبة تئن من ألم السعي طوال أيام ثلاثة طويلة.. كان لا يزال يسيطر عليه هذا الشعور الغامض.. برغم ما احترس منه، ومع كل ما بذل من جهد.. إلا أن رأسه لم يتوقف عن التفكير لحظة واحدة.

ها هي ذي رحلة شقائه تقترب من نهايتها.. كسر حاجز الأربعين عامًا، ليعود كما بدأ.. زوجة يتلمس طريق التودد إليها بعدما فاحت خياناته، وولد سيبدأ في التعرف عليه من جديد، شركة بناها عبر

سنوات.. تبخرت وصارت سرابًا، أمواله التي جمعها صارت في مهب الريح.. الشرطة تطارده هو بدلًا من أن يلجأ إليها في ورطته..

أحس نفسه مكمم الفم، لا يستطيع الاعتراف لـ«منى» أنه سئمها، لأنه يخجل ببساطة من ذلك، ولا لابنه «عمر» أنه لا يفهمه، لأنه الأب الذي لا بد أن يبدو فاهمًا كل شيء، ولا للشرطة بما حدث، لأنه بذلك يميط بيده اللثام عن وجه الحقيقة، فتنكشف أفعاله بالشركة.. ويخسر كل شيء، بدا له الموقف أشبه بالبيدق الذي يكاد يصل لخط النهاية بعد شقاء مرير، لكنه لا يستطيع أن يصرح بما يريد.

كيف انهارت أحلامه وتضاءل حجمها، من انتصار ساحق خطط له بأن يفوز بقلب «أسيل» وثقة «عمر»، ليتضاءل إلى أمل محموم في استعادة ولده من براثن مجهول، مع خسارة كل شيء آخر؟

هل كان الجمع بين الأمرين مستحيلًا من البداية؟ هل علمته الأقدار درسًا سيظل غائرًا في وجدانه، ألَّا مكان للإثنين في قلبه، وأن حياته تنوء بالحملين معًا: أسرته الصغيرة ولذته الخاصة؟ هل يمكن أن تعود به الأيام ليختار غير اختياره؟

دور شطرنج.. حركة واحدة خطأ، نقلة غير محسوبة بما يكفي.. قد تؤدي بك لكوارث متلاحقة. تلهث أنفاسك على الرقعة لتحاول أن تعيد انتشار قطعك بما يكفي لإنقاذ الدور، لكن أثر الخطأ يلاحقك.. تقدم تنازلًا بعد الآخر، لعلك تدير دفة الأمور.. لكن الدمار الذي خلفته نقلتك الخرقاء يفضي بك لخسارة تلو الخسارة..

متى بدأ الدمار في حياته؟ متى كانت تلك النقلة الشؤم؟ هل كانت «حورية» وارتباطه بها؟ هل هربه بوليده منها؟ هل محاولته الخلاص

منها؟ هل هو الجزاء العادل الذي يلقاه لذلك، وهو الذي طمأن نفسه دائمًا بأنها لقيت حتفها لسبب آخر غير ما اقترفته يداه؟.. وهل هذا يصنع فارقًا؟ هل كان إهماله لــ «منى» هو نقطة البداية؟ هل كانت «أسيل»؟ هل كان العبث الذي لحق بحياته، كما في دور الشطرنج، إنذارًا له بأن نهايات الدور قد لاحت في الأفق؟ وأنه وجب عليه الآن أن يجدَّ في البحث عن حل؟ لماذا لم يخطر في باله الاستسلام، كما يفعل أي لاعب في ورطة لا فكاك منها؟ هل أخطأ التقدير، وظن بأن مواصلة التعب والعرق، تفيد؟ هو الذي لا يقبل الاستسلام في اللعب، هل وجب عليه أن يقنع به في الحياة؟

لِمَ لَمْ يتمهل ليبطئ من وتيرة لهاثه في العمل، من الشغف بالنزوات، فيتيح وقتًا أكثر لـ «عمر»، ويفرد مساحة أعظم لـ «منى»؟ هل سرقه الوقت، فانشغل في أهداف زائفة زائلة، أو طارد قطعة خطيرة يريد الظفر بها بأي ثمن، فشغلته عن الأوجب والأهم، حتى انقشع السراب، وضاع كل شيء؟

هل انهزم؟

زفر في حنق، وهو يراقب التاكسي وهو يميل جانبًا على مفرق طريق ضيق يؤدي لشارع أرحب..

توقفت السيارة والتفت إليه وجه السائق العجوز وهو يقول: «اتفضل ياباشمهندس.. انزل هنا.. ربنا يعينك..».

بدهشة قال له: «انت اللي قالولك توصلني، فهموك عني إيه؟ قالولك بتوصلني ليه طيب؟».

بدت أسنانه، صفراء مهترئة الأطراف، بينما أشرق ثغره بابتسامة هادئة تفيض حكمة وهو يقول: «ربنا مابينساش حد يابني.. أنا عارف إنه ابنك، وعارف إنكو واحشين بعض.. وهو راجع من سفر طويل.. ربنا يخليهولك..».

ابتسم وهو يترجل من السيارة.

راقبها وهي تبتعد.. انتبه من شروده على تربيتة خفيفة على كتفه.

استدار ليجده.. يقف على بعد ذراع واحد منه.. حقيبة حاسوبه معلقة على كتفه، كأنه لم يغب سوى ساعات وعاد لتوه من الجامعة، عينان مثقلتان بإرهاق أصيل، وجه مترقب.. ينظر إليه بعينين متفحصتين.. وكأنه ينتظر منه الرد على سؤال ما..

بوجه انقلب غاضبًا بشكل حاد، بادره: «تعرف يا «عمر»؟».

تنحنح في مزيج من الدهشة والإحراج قائلًا: «أعرف إيه يا بابا؟».

ابتسم فجأة وهو يواصل: «تعرف لو سهرت لوحدك في الفيللا دي تاني، أنا حاعمل إيه؟».

انقلب وجهه كمن يعاني ألمًا.. وقال في غموض بوجه حاول أن يحتفظ بملامحه لا تشي بشيء: «أنا عارف إنك تعبت، باين عليك من غير ماتقول، بس انت عارف برضه مين السبب في ده كله.. ومش أنا أكيد، ماتبتديش تلومني، وانت عارف انت عملت إيه..».

قاطعه مواصلًا جملته، وكأنه لم يسمع شيئًا: «عارف.. ساعتها حاعمل إيه؟».

لانت ملامح ولده وهو يغالب الابتسام وغمغم وهو يحك ذقنه: «حتعمل إيه؟».

سحبه من كتفيه وضمه لصدره في شوق، وهو يقول: «ساعتها حاقول لك..».

(41)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 23

الدور ينتهي، عندما تقول في ثقة: كش مات

كل ما عدا ذلك.. تفاصيل، لا قيمة لها!

زادت سيارة الأجرة البيضاء من سرعتها وهي تتجه نحو ميدان فسيح بالحي الراقي.. بينما تعالى صياح «منى» من خلال جهاز المحمول.

كانت تبكي وتضحك وتصرخ في آن واحد.. اطمأنت أربع مرات على حالة «عمر» بنفس الأسئلة بترتيبها: «إنت كويس؟ بجد كويس؟.. حبيبي يابني.. طيب عملوا فيك إيه؟.. طمنني بجد؟ ضربوك؟ ما تخبيش عليّا.. طيب عرفت مين هم؟..».

بينما «شريف».. يجلس بجانبه يراقبه في تركيز، وأذنه تلتقط تفاصيل المكالمة التي فضحها صوت «منى» المرتفع.. لا يكاد يرفع عينيه عن وجهه.. يتأمل في تفكير عميق اضطراب مقلتيه، الدهشة التي غلفت وجهه بقناع رفيع، المشاعر التي يحاول السيطرة عليها

بلا جدوى، تفضحه اختلاجة زاوية فمه.. عيناه اللتان تميلان لتختبرا ردة فعل «شريف»، أنفاسه الثقيلة، التي يريح ثقلها بتنهيدة عفوية بين كل جملتين مقتضبتين يجيب بهما على «منى».

لكن العجيب أن «شريف» كان يبتسم.

كان سعيدًا.. سعيدًا وكفى.

لم يكد الرفيقان يترجلان من السيارة.. حتى تلفت «عمر» حوله مدهوشًا وهو يسأل أباه: «احنا رايحين على فين، إيه المكان ده؟».

ابتسم في جذل، تأبط ذراعه وهو يقوده ليمشي جواره، وقال في بساطة: «إنت راجل واخد على الخطف يا «عمر».. ماتستغربشي قوي كده..».

«امتقع وجه «عمر» وتخشب جسده بجانب أبيه وهو يبطئ من خطوته وسأل في قلق: «فيه إيه؟ أنا مش فاهم حاجة..».

كانا قد وصلا لأعلى السلم الفخم المتسع.. فقال «شريف» ليطمئنه، وهو يركز بصره بعينيه: «إنت مش بتقول إنك عارف إني تعبت علشانك الكام يوم اللي فاتوا دول؟.. إديني بقى فرصة، اعتبرها رد الجميل يابني..».

بخوف سأله وهو يتوقف تمامًا عن السير معه، وقد توسطا السلم الرخامي عريض الدرجات: «جميل إيه؟ انت واخدني على فين؟ هو مش المفروض نروَّح؟».

- «حنروَّح.. فيه بس واحد أنا عايزك تتقابل معاه.. الراجل ده له فضل كبير عليَّا في الكام ساعة الصعبين اللي عدُّوا عليَّا من امبارح

للنهارده، عايز أشكره، وأخليك تشكره بنفسك، وكمان عايز أتكلم معاك شوية لوحدنا.. يا أخي اعتبرني خاطفك يا أخي.. بس أنا لا عاوز فدية ولا يحزنون، أنا خلاص الشركة اللي حيلتي راحت وكنت بفديك بيها من غير أي استخسار، فوقهم عشرين مليون كمان، يعني أنا حرفيًّا على الحديدة، ومش طالب بعد ده كله غير إنك تسمعني بس.. ».

تسمر «عمر» في مكانه، اتسعت عيناه في دهشة وهو يهمس مبحوحًا: «الشركة راحت؟ وعشرين مليون؟ ليه ده كله؟..».

تأمله في اهتمام وهو يبتسم قائلًا: «فداك! فداك بجد..».

عاود «عمر» السؤال بنظرة أكثر دهشة وغضبًا تجمع في وجهه: «ولاد الـــ.. ليه يعني؟ ليه ده كله؟».

تردد للحظة وكأنه يصارع فكرتين.. نقَّل بصره بين وجه أبيه وبين الشارع الفسيح من خلفه.. غمغم بشرود محادثًا نفسه «أنا معرفش إن الحكاية حتقلب بالشكل ده..».

سيارات تعبر الطريق أمامه مبتعدة في غير مبالاة.. سيارة أجرة تهدئ من سرعتها إذ لمح سائقها نظرته الهائمة الشاردة تبحث عن شيء ما.. يخرج السائق رأسه بحركة جانبية سائلًا إياه عن وجهته.. يطول صمت «عمر»، وهو ينظر لوجه «شريف» الممتلئ رجاء.. يشيح السائق بوجهه لما طال سكوته ويسمعانه يغمغم: «وقت سهوكة أصله بروح أمك..».. السيارة تبتعد مرة أخرى، فيبتسمان.. يحيط «شريف» كتفيه بذراعه، ويضمه إلى جانب صدره، بينما يصعدان الدرج حتى المدخل الرئيسي لمبنى الوزارة العتيد.

الوزارة التي صار يترأسها منذ الأمس «رمزي الطويل»..!

هزَّ «عمر» رأسه بإحراج وقال في خفوت: «يا سيادة الوزير، أنا سعيد بمعرفة حضرتك.. بس أنا لأني مش فاهم حاجة، مش عارف أقول إيه. حضرتك بتهنيني بالسلامة، وبتقول لي إنك حتكون تحت أمري، وإنك ووالدي أصدقاء من فترة قصيرة، بس حيكون فيه حاجات مشتركة كتير بينكم قريب.. أنا المفروض أفهم حاجة من الكلام ده؟».

ابتسم «رمزي» في وقار.. وأمَّن على كلام «عمر» بهزة عمودية من رأسه، وهو يقول «تمام.. ما تقلقش من التفاصيل، كله حتعرفه بعد ساعات.. أنا عارف إنك تعبان ومحتاج تستريح، وعمومًا «شريف» حيفهمك كل حاجة..».

التفت إلى «شريف» المبتسم وهو يسأله في عجب: «فيه إيه؟ إيه اللي بيحصل وأنا مش فاهمه؟».

في هدوء باغته «شريف»: «انت مش كنت زعلان مني يا «عمر»؟».

تحرج من الرد خافضًا بصره ثم قال بصوت لا مشاعر فيه: «أيوه، بس مش وقته..».

- «لأ وقته.. أنا عارف كمان انت كنت زعلان ليه..».

في ضيق حاول مقاطعته لكن «شريف» أشار إليه أن يصمت، وواصل مغمغمًا: «أنا اللي ما فهمتكش يا «عمر».. كنت عايزلك أحسن حاجة، شايفك وانت ماشي في طريق أنا شايفه مش صح،

وكل اللي فكرت فيه: هو أنا المفروض أفرملك، ولا أسيبك تجرب وتتلسع؟ حتى لو ضاع مستقبلك..».

غمغم «عمر» في ضيق.. بينما «رمزي» يراقب وجهه باستمتاع يفوق استمتاعه بدخانه المنفوث في تلذذ: «يا بابا مالوش داعي الكلام ده..».

نظر له «شريف» نظرة طويلة ثم واصل وكأنه لم يتوقف للحظة: «.. لغاية مافهمت، بس متأخر، إن مستقبلك لو اخترته على أي وضع.. وبأي شكل، هو مستقبلك انت، اللي حينجح فيه انت، واللي حيعرف يعدل المايلة فيه انت، وفي الآخر اللي انت عايزه حتعمله، بيًا أو من غيري حتعمله..».

تأثر «عمر» بكلمات أبيه.. بدا ذلك من عينيه اللتين أشاح بهما بعيدًا، بينما «رمزي» يرقبهما في صمت وابتسامة الفخر على وجهه ثابتة، وكأنه يتابع مشهدًا مسرحيًا شهيرًا، يُعرَض له وحده.. بينما «شريف» يربِّت على كتف «عمر».. الذي أجفل وهو ينظر إليه في ألم.

بعينين مغرورقتين، قال له بصوت مرتعش: «أنا آسف يا بابا.. آسف على اللي حصل.. بس صدقني أنا عمري ماكنت أتخيل إنها توصل معاك لكده.. ولا إنك تخسر كل اللي خسرته ده.. لكن عمومًا، أنا ححاول أظبَّط الدنيا، ومش حسيبك لوحدك.. وحاصلح كل حاجة..».

ابتسم «شريف» وتبادل نظرة مرحة مع «رمزي».. وقال له في خبث: «مالكشي دعوة انت باللي خسرناه، كل شيء يتعوض.. خليك معايا بس..».

انتزع ابتسامة وهو يقول: «أيوه طيب مش حنروح البيت؟ أنا كمان عايز أنام..».

تدخل «رمزي» في حسم وهو ينهض في بساطة قائلًا: «تقدروا تتفضلوا.. العربية جاهزة وحتوصلكم الأوتيل..».

نظر إليهما «عمر» في دهشة وهو يقول: «أوتيل إيه؟ يا بابا انت مش فاهم، احنا لازم نروح علشان فيه حاجات كتير قوي لازم نلحقها قبل ما الوقت يفوت.. أنا حاحكي لك.. بس أرجوك نروَّح دلوقتي..».

غمز له بعينه، وهو يقول: «طيب مانا عارف إنك عاوز تحكيلي طبعًا، مش قلت لك خليك معايا؟».

(42)

صوت «شادي» كان يرن في أذنه بفرحة مدوية وهو يقول في مرح: «ماتشغلش بالك بيَّا أنا يامعلم.. أنا مايقدروش عليًا.. كانوا بصراحة آخر كرم.. دا ماكانشي خطف ده، ده كان أوبن بوفيه..».

ضحك «شريف» في جذل وهو يستند بجانب رأسه لسماعة محموله، ويحكم إغلاق حقيبة سفر صغيرة، على سطح سرير عريض بحجرة الفندق.. بينما يراقبه «عمر» في وجوم من الناحية الأخرى للحجرة وهو يجلس إلى مقعد واضعًا ساقًا فوق ساق.. و«شريف» يواصل في هدوء: «لا والله؟ وأنا اللي حامل همك، وباقول ذنبه إيه وهيعذبوه بسببي..».

- «ياريس، أنا العذاب الوحيد بالنسبة لي هو إنه الأكل يتحاش عني، هم في الأول ماكانوش مركزين، بس يظهر شكلي وأنا جعان صعب عليهم..».

- «أو خافوا إنك تاكل دراع حد فيهم، أنا عارفك..».

جلجلت ضحكته في أذنه وقال في اهتمام: «المهم، ماتزوقش الكلام وتحط له كرانيشك، وماتاخدنيش في دوكة.. انت فين دلوقتي؟ عايزين نخرج نتعشى ونحتفل بالمناسبة الجميلة دي.. أنا

كلمت «منى» حتموت من الفرح، بس بتقول انت واحشها قوي.. حتروح امتى..؟».

قال في غموض وهو يغمز لـ «عمر»: «كلها ساعة ولا حاجة.. احنا سبقناك وبناكل أهو..».

- «فين؟ فين وأنا أجيلك؟».

- «ماتشغلش بالك.. معلهش ثواني أرد على «رأفت»..

لم يبال بصيحته الأخيرة «استنى بس قل لي إنتو فين..» وضغط شاشته واستقبل صوت «رأفت» الهادئ، الذي يقول في سعادة» «أهو كده، الحمدلله ربنا ماضيعش بهدلتنا هدر.. حمدًا لله على سلامة «عمر» يا «شريف».. «حسناء» جنبي أهي، وبتقول لك مبروك، فداك أي حاجة.. وفدا «عمر»..».

قال بلهجة ذات مغزى: «هنيًا لك يا سيدي، المفروض تشكرني على كسرة رجلك دي، أنا شايف الأمور ماشية كويس أهي، امشي عدل بقى، البنت دي صبورة والله..».

ضحك وتابع وكأنه لم يسمع تعليقه: «بص.. احنا مع «شادي»، عايزين بقى نقعد كلنا في حتة نحتفل.. «شادي» بيقول لك، قفلت معاه من غير ماتقول له انت فين ليه؟».

ضحك وهو يشير لـ «عمر» على حقيبة صغيرة أعدها في طرف الحجرة، قام «عمر» لالتقاطها، ولا يزال متعلقًا ببصره بوجه «شريف» الذي انقلب ليحمل أثر تفكير عميق وهو يقول متظاهرًا بالسعادة:

«وأنا يعني أطول أقعد معاكم يا رجالة، ده اللي عملتوه علشاني مايتنسيش، قل له احنا قمنا خلاص وفي الطريق، وطمّن «منى»».

أنهى المكالمة.. فبادره «عمر» في اهتمام: «طيب وماما؟».

أجابه متحاشيًا عينيه، وهو يقلب جواز سفر وأوراقًا في يده، ويناوله مثلها: ««منى» حتفضل بخير، ما تقلقش.. احنا مسافرين صحيح، بس ممكن في أي وقت ترجع وتشوفها..».

- «يعني خلاص يا بابا؟ ما فيش فايدة؟».

سرح في عينيه وهو يحاول انتقاء ما يقول كما أظهر ذلك بطء كلماته: «من زمان وإحنا ما فيش بيننا الرابط اللي بيربط أي اتنين يا «عمر».. انت كنت ساحة معركة بينا، كنا بنتخانق مع بعض عليك، وبيك وعن طريقك.. لكن دلوقتي..».

وصمت قليلًا قبل أن يضيف: «خلاص.. أنا عرفت اللي أنا عايزه، وعمومًا هي الدنيا كده.. مش كل اللي بتعوزه بتلاقيه، وساعات ما بتلاقيهوش إلا في الوقت الغلط.. أنا حصل لي كده، لقيت «أسيل» في وقت غلط، غلط لدرجة إنه كان حيدمر لي حياتي.. لكن الغلطة ما كانتش بس إني خدت خطوة «أسيل» دي دلوقتي، لكن الغلطة كانت إني ماخدتش قبلها خطوة تانية، كانت حتخللي «أسيل» هي البني آدم الصح، في اللحظة الصح..».

غمغم «عمر» في بساطة: «وآديك حتاخدها..».

- «صحيح.. والأهم من كده عندي، إننا حناخدها مع بعض، ساعات بتبقى لازم تهد الدور.. تعمل حركة كده فتوقع الشطرنج

كله بالخشبة بالقطع اللي عليه.. صحيح هي حركة ماتصحش، ومش مروءة ولا جدعنة كمان، والصح إنك تكمل، بس الصح في الوقت ده بيبقى أكتر حاجة غلط في الدنيا.. ولو الدنيا ادتك الفرصة دي مرة، اوعى تعمل بطل وتعند وتركب راسك وتخاف من كلام الناس.. امسك في الفرصة بإيديك وسنانك..».

نظر «عمر» إلى الأوراق في يديه وقال في حيرة: «والجامعة؟ وحياتنا؟ وتبدأ ازاي من الصفر، انت مافيش معاك حاجة خالص دلوقتي؟».

غمز له بعينه وهو يسحبه من ذراعه بيد حانية، ويجر حقيبته الصغيرة بيد أخرى: «اصبر بس، ثم الصفر ده أنا اتعودت عليه.. إنت بس اللي شفت أبوك بعد ما كبر وبقى معاه فلوس، تلاقيك فاكر إني طول عمري كده، بس أنا عشت المرحلة دي كتير.. إنت مش عايز تعمل قناة مزيكا وشغل كبير؟».

زفر في حنق اصطبغ بابتسامة خرجت على الرغم منه لتعانق زاوية فمه: «يا بابا اسمها موسيقا.. هو مفيش فايدة؟..».

- «لأ فيه، ياللا بس علشان الناس اللي مستنيانا تحت، احنا ورانا معاد طيارة..».

(43)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 24

النهاية المباغتة الحاسمة حلم كل لاعب شطرنج.

لكن تذكر أن الشطرنج حياة.

والحياة لا تمنح تلك النهايات!

دخلوا معًا.. «منى»، «شادي»، رأفت» و«حسناء»..

«منى» كانت أول المندفعين تجاههم، فلم يدرِ المجتمعون، إلا وهي ترتمي في أحضان «عمر» تقبل جبهته، وتحيط وجنتيه براحتي يديها محملقة بوجهه من بين دموعها، كأنها تراجع ملامحه التي حفرتها في قلبها، تعيد احتضانه في قوة.. بينما لا يبدو رد فعله متوائمًا مع حماستها، اللهم إلا من ابتسامة أنارت ثغره في وقار، وهو يجيب على أسئلتها بهدوء: «أيوه، الحمد لله».. «تعبان شويه؟»..

«لا مافيش والله، مرهق بس».

«شادي» نال نصيبًا لا بأس به من الترحيب من «شريف»، كما اندفع «رأفت» ليحتضن رفيقيه على التوالي.. في الوقت الذي طفق «شريف» يسأله عن ساقه المتوسدة لجبيرة أنيقة.. بينما تجيب عنه «حسناء» تارة، وهو تارة.. بما يفيد أن الأمور على ما يرام.

جلسوا، ولم يلبث أن خفتت الأصوات وانطفأ الحماس للحظات، فإذا بــ«منى»، تشير بإصبع تصاحبه كل علامات التساؤل: «إيه يا «شريف» الشنط اللي وراكم دي.. إنتو مسافرين؟».

قالتها وضحك الحاضرون.. لكن كلًّا من «شريف» و«عمر» ظلت ملامحهما ساكنة.. الأول يرقب ملامح زوجته في اهتمام، والثاني يخفض بصره، علَّه يتفادى نظرتها.. بعد صمت قصير، بادرت «منى» بإعادة سؤالها بدهشة أشد، لكن زوجها قال وهو يشير براحتين مضمومتين لأسفل: «اهدي يا «منى».. أنا حفهمكم كل حاجة.. أيوه احنا مسافرين، مشوار ضروري، بس المهم تسمعيني الأول..».

بعينين متسائلتين، راوحت بين وجهه ووجه «عمر» في قلق.. بينما قال وهو يجيل بصره فيهم جميعًا: «شوفوا يا جماعة.. الأول أحب أشكركم على وقفتكم جنبي، إنتو فعلًا مش مجرد أصحاب، ولا زمايل.. لأ، إنتو فعلًا أهل، وأكتر من أهل.. والكام يوم اللي فاتوا دول أثبتولي الكلام ده..».

اقترب من جلستهم وجه مألوف، لم يلبث أن اتخذ مقعدًا في جلستهم دون استئذان، بينما العيون المندهشة تتابعه في تساؤل، ولم تلبث العيون أن تعود لوجه «شريف» الذي واصل في بساطة: «أحب

أعرفكم بالملازم «حاتم»، كلكم تعرفوه طبعًا.. الحقيقة، برغم إني كنت مش طايق تدخله المستمر، لكن أنا ممتن له جدًّا، لأنه عالج القضية باهتمام وعمل أكتر من المطلوب من أي ظابط بوليس، من غير ما العصابة تشم خبر إلا في أوقات حرجة، وريحني من الزن بتاعكم على دماغي طول الوقت.. لما كنتوا عاوزين إني بأي شكل أبلغ البوليس. هو صحيح تعبني شوية، وبرضه ماقدرش يمنع إنهم يهجموا على بيتي ويخطفوا شادي، وكانوا حيموتوا «رأفت».. بس حتعرفوا في الآخر، هو إزاي رغم كل ده، عمل شغل رائع..».

جذب نفسًا عميقًا، وواصل في لهجة يملؤها العجب:

«طبعًا واضح جدًّا إن العصابة كانت مهتمة جدًّا إني مابلغش البوليس، كل ده طبيعي ومفهوم.. أنا برضه ماستغربتش.. لكن الملحوظ إن كلكلم كنتم بتأيدوا العكس..».

قاطعه «شادي» في تعجب وهو يقلب كفيه: «طبيعي يا «شريف». احنا كنا عاوزين الموضوع يعدي من غير مشاكل..».

أشار له «شريف» بإصبع وقال مؤمنًا: «تمام، أنا برضه ماشكتش لحظة في الأول، لكن خللي موضوع البوليس ده على جنب شويه، اللي حيفهمكم أنا الحكاية دي لفتت نظري ليه.. هي حكاية اللي اسمه «عصام» ده..».

عاد «شادي» ليقول في دهشة: «احنا عارفين الكلام ده كله يا «شريف»».

تابع وكأنه لم يسمعه: «الراجل ده ظهر فجأة، وبقى بين يوم وليلة هو الكل في الكل.. هو سبب المشكلة، وهو سبب خطف «عمر».. وهو اللي المفروض أسيب الدنيا وأركز عليه هو، واشوف طلباته..».

قلب «رأفت» كفيه متحيرًا، وقال في قلق: «يا «شريف»، انت عاوز تقول لنا حاجة من كل ده؟ احنا فعلًا مش فاهمين حاجة!».

ابتسم وهو يقول: «اصبر بس، أنا عاوز أقول إن في اللحظة دي ابتديت أفكر شوية، الحقيقة كان مفيد ليًا جدًّا قعدتي مع «رمزي الطويل».. الراجل ده لقيته بيفكر زيي بالظبط..».

قال «رمزي الطويل» وهو يشير إليه بإصبعه في حسم «بالظبط كده.. تعال نفكر مع بعض: عاوزينك تصدق إن فيه حد بيعمل خطة معقدة جدًّا، الشخص ده المفروض إنه شخص من جهة أمنية، له تار معاك، وفيه ورق حد من رجالتك سرقه منه.. طيب الشخص ده لازم يحط عصابة بينك وبينه؟ طيب مايخطف الولد أسهل من كده.. ويقول لك على طول بنفسه.. أو ممكن حاجة تانية: يخلي بينك وبينه العصابة وبس، ومايظهرش من الأصل؟ ليه لازم يظهر بنفسه، وكمان يبقى فيه عصابة وعربيات ومطاردات وخطف، ومشاكل كبيرة؟».

تنهد «شريف»، وهو يقول كمن يزيح عن كاهله فكرة أرهقته: «كان واضح إنه مطلوب إني أصدق إن فيه عصابة، بتكلمني في التليفون، وبتعمل مطاردة ليًا، بعربية غامضة، وأنا في الطريق لبيت «شادي» لما اتقابلنا كلنا.. كان مطلوب كمان إني أصدق إن في الآخر العصابة دي

وراها «عصام» بيه، الراجل التقيل اللي ظهر فجأة في حياتي.. وكل ده كان غريب..».

أشار له «شادي» بعجب وقال في غيظ يكبح جماحه: «انت واضح إن أعصابك تعبانة يا «شريف».. انت بتقول كلام ماشي في سكة معينة.. بس أكيد إنت عارف إن المسافة من الشارع اللي طاردوك فيه وبيتي أقل من إن حد فينا يكون عملها.. وأظن ده يخليك تعيد تفكير..».

تجاهل «شريف» حديثه إلا من ابتسامة ساخرة، ودار بعينيه في وجوههم المترقبة، وهو يقول: «كان تفكير «رمزي» جدير بإني أحطه في اعتباري، كنت وصلت لمرحلة من اليأس، إني أفهم مين اللي عمل الموضوع ده، و«عصام» بيهددني، ومكالمات العصابة بتطاردني، ومش عارف هو ممكن يكون «رمزي» نفسه، ولا «أسيل» اللي ورا الموضوع ده، ولَّا هي نفسها وراها حد، ولَّا فعلًا «حورية» لسه عايشة، ومفيش أي أمل إني أفهم.. والمسألة كلها ريحتها مش حلوة، لقيت إن السؤال بيرن في وداني فجأة: ليه فعلًا العصابة تاخد الطريق الصعب ده؟ لو الهدف الفدية، مايطلبوها على طول، ولو الهدف الورق بتاع «عصام».. ماتَّصلش هو ليه من الأول.. وفيه سؤال أهم: يتصل ليه وهم ممكن يطلبوا الطلبات بنفسهم؟ إيه لزوم إنه يظهر في الصورة من أصله؟».

زفرت «منى» في غيظ وقالت بنفاد صبر: «أنا شايفه إنك بتضيع وقتك ووقتنا يا «شريف».. «عمر» رجع بالسلامة، واللي انت بتعمله ده شغل البوليس.. ومش فاهمة برضه حيوصلنا لإيه..».

تابع في برود، وهو يقوم ليدور حول مجلسهم:

«كان الموضوع باستمرار كده: كل ماتبقى الخطوة المنطقية الجاية إني أدور على صاحب المخزن.. يطلع لي أي شيء يعطلني، فاكر كويس يا «رأفت» إنك كنت مُصِرّ إني لازم أقابل صاحب المخزن لوحدي، رغم إن «شادي» قابله وطلع من المقابلة بنتيجة، إن مافيش أي حاجة جديدة، بس إنت كنت دايمًا بتحسسني إن دي أهم حاجة لازم أعملها، لكن الحقيقة إنك ماكنتش عايز كده، بالعكس.. كنت عاوز إني مامشيش في السكة دي خالص، وإلا حاعرف حاجات مش ضروري أعرفها.. أنا عارف إنك أذكى من «شادي».. وبصراحة لعبتها كويس جدًّا، كلامك كله كان بيوجهني لأهداف تانية، الأول تطمن إني ماقابلتش «عبدالحميد» ده، وبعدين توعدني إنك حتقابله بنفسك علشان أنا مشغول، برضه حاولت تبعدني عن إني أبلغ البوليس، كنت بتنصحني طول الوقت أبلغ، بس انت كنت في الحقيقة عاوز تتابع.. هل أنا قابلت الراجل ولَّا لسه، وهل بلغت البوليس فعلًا ولَّا لأ.. علشان تتحركوا براحتكم، ولما اتَّطمنت إني حقابل «رمزي» بسرعة، جت اللحظة المناسبة إنكم تدخلوا شبح «حورية» في الموضوع.. ودي برضه حاجة كلها ابتدت وانتهت من عند «شادي».. برافو، أنا واضح إني علمتكم كويس.. «رمزي» منافس قوي ليَّا على الوزارة، قوم ييجي قضية تخصه وبالذات ليَّا أنا، وتطلع «حورية» لها علاقة بيه.. ولأن «شادي» لعب على النقطة دي كويس قوي، كنتم عارفين إني لازم حاروح أشوفها.. ولا يمكن أبدًا حافوت معاد زي كده.. لحد ما بعدها الخيوط قربت تخلص من إيديكم، فكان لازم ينزل

«عصام» بتقله في الموضوع، خطوات رسمتوها بالترتيب علشان أمشي في سكة معينة، إنتو حددتوها من أول لحظة.. علشان لما تطلبوا فدية يبقى الموضوع مقنع، ومايبقاش عندي أي شك ولا طريق أدور فيه، لأنكم حددتوا كل الطرق والخيوط وأنا بحثت وراها كلها.. لكن اللي انتم مش عارفينه إني عرفت.. وفهمت.. صحيح بمساعدة «حاتم» بيه.. لكن عرفت..».

واصل وهو يجيل بصره في الجالسين الأربعة، مأخوذي الأنفاس.. بينما «عمر» يلقي بالمحمول جانبًا وقد ظهرت على وجهه أمارات العزم على شيء ما: «ماخطرش على بالكم، إني أنا اللي علمتكم الشغل ده، واللعب ده شغلتي، وإني عندي طرقي اللي مش حغلب معاها أوصل للحقيقة، وإن أول حاجة فكرت فيها، إني ماخدش أي معلومة مسلم بيها.. إنت يا «شادي» رفضت تسمع كلامي، وعملت تحقيق، علشان.. زي ما بتقول.. تطَّمِّن إن «أسيل» فعلًا كلامها لي حقيقي، كل ده علشان أطمِّن.. ومادورش بنفسي، ولا أفكر في أبعد من كده. ماكانشي همك إني أفكر، هي اللي ورا الخطف ولّا لأ، لأنك عارف إنها مش هي العقل المدبر ورا الموضوع.. لكن اللي كان هامَّك.. إني مدورش بنفسي على أي معلومات حكتها لي «أسيل» عن نفسها، علشان ما لاقيش الرابط اللي يربطها بيكم..».

قلبت «منى» كفيها في غيظ وهي تصيح به محنقة: «يا «شريف» انت اتجننت؟ طيب مش قدام «عمر»!! انت بتتكلم على الحاجات دي عادي؟ إذا كنت مش مراعي مراتك.. على الأقل اعمل حساب لابنك..».

لكنه تجاهلها وواصل بلهجة ظفر: «طبعًا ماخطرش في بالكم إني حاعرف.. إن الأتيليه اللي بتقابلني فيه «أسيل» مش بتاعها زي ماهي قالت لي.. وإن هي كمان اسمها مش «أسيل».. والشقة إيجار باسم تاني.. لكن حتى الاسم التاني ده عندي، إنتو ناسيين انكم موظفين عندي ولَّا إيه، ولَّا إنتو بجد فاكرين إني باعمل شغل وتحريات عن الناس الغريبة بس؟ ولَّا إيه يا «حسناء»؟».

امتقع وجه تلك الأخيرة وهي تقول في حدة: «ماتبصليش كده.. أنا مش لوحدي في اللي بيحصل ده..».

نظر إليها «رأفت» في حنق وقال من بين أسنانه: «تعرفي تحطي لسانك في بقك وتخرسي؟».

تابع في تهكم: «لوحدك إيه؟ مانا عارف طبعًا.. المهم المسألة كانت أسهل مما تصورتوا إنتو.. مع كل قلقكم الرهيب من تدخل البوليس، لكن لما قررتوا إن الضغط لازم يوصل لأقصى مستوى ممكن، علشان تخلصوا الموضوع.. هو اللي بلغ الملازم «حاتم»، وهو عارف إن ظهور البوليس حيخوفني ويخليني أتحرك بسرعة وأنا مرعوب، وبرضه مالاقيش وقت لمقابلة الحاج «عبد الحميد»، لأن الوقت بقى أضيق من إني أدور ورا كل الخيوط اللي بتزنوا عليها.. «رمزي»، و«حورية».. وقبلهم «هيثم».. وفي النهاية.. أضطر أوافق على كل طلبات «عصام» بدون تفكير. الضغط عليَّا منكم زاد، خصوصًا لما رفضت أمضي العقد على طول، وحسيتوا إني يمكن أكون باماطل، ابتديتوا تطلعوا كل اللي عندكم.. وبدأت حكاية خطف «شادي».. اللي ماحصلش طبعًا، وحادثة «رأفت» اللي

مثلتيها علينا يا «حسناء»، «حاتم» بيه نفسه هو اللي كان السبب في إنكم وقعتم.. وإني ابتديت أشوف الأمور من ناحية تانية.. وأشوف حاجات، ماخدتش بالي منها من الأول..».

التفت إلي «رأفت» الممتقع وقال في سخرية: «فاكرني مشغول انت والأهبلِ اللي ممشيه وراك؟.. «شادي» راح بأمر منك «خان الخليلي» فعلًا.. قعد شويه على القهوة اللي هناك مع واحد من معارفك القدام هناك،.. شويه ومشي، وهو معتمد على إن فيه شهود إنه كان هناك، وإنه متأكد إن «حاتم» شافه داخل وخارج من خان الخليلي وقاعد مع ناس.. لكن الحقيقة إن «شادي» ماقعدش مع الراجل صاحب المخزن، رغم إنه رجع وقال لي إنه قابله، وعلشان يقفل الموضوع كالعادة، وتمنعوني من إني أروح، قلت انت يا «رأفت» إنك حتروح تقابله تاني، وفي آخر لحظة لما اتأكدت إني لازم أروح أقابل «حورية».. وماعنديش وقت، قلت إنك مش حتقدر.. بس انت ماتعرفش إني عرفت إن مافيش «عبد الحميد» أساسًا.. يبقى انت قابلته ازاي؟».

ضرب «شادي» كفًّا بكف وهو يتهكم في توتر ملحوظ، وعرق غزير يتجمع على جبهته: «مش باقول لك أعصابك تعبانة يا «شريف»؟ مافيش دليل على خيالك ده خالص.. واضح إن رجوع «عمر» صدمك.. وعايز تبرر لنفسك إنك مش السبب في اللي حصل له.. بتلزقها فينا بأي شكل..».

تململ «عمر» وسأل في صوت خفيض: «يعني إيه مافيش «عبد الحميد»؟».

تابع «شريف» في ظفر وهو يخاطب «عمر»: «لما كنا عنده في البيت بنناقش الورطة اللي احنا فيها بعد الخطف، «شادي» اخترع الاسم في لحظة، من كتر الخضة بتاعته إني ممكن أقابل الراجل، وأفهم حاجة مهمة.. المهم، إداني ورقة عليها اسم الراجل، وعنوان المحل بتاعه.. عنوان مش سهل توصل له.. الاسم المزيف اللي «شادي» اتورط وألفه في لحظة علشان يخلص من الزن بتاعي لما اتنرفزت عليه، كان مشكلة.. مشكلة سببت ربكة استمرت طول الوقت معاهم، ماكانشي مطلوب إني أعرف كده وإلا حاشك.. بس الموضوع ده ماوقفش في وش حاتم بيه، حكاية المخزن والخطف كانت معروفة جدًّا في «خان الخليلي»، فطبعًا وصل لصاحب المخزن بسهولة.. الموضوع كان مضايق الراجل جدًّا، وكان لفترة طويلة مش عايز يتكلم.. معتبرها عيب في حقه كبير.. ولد من صبيانه سرق مفتاح المخزن من وراه، والحكاية انكشفت بعد ماجينا وفتحنا المخزن.. وطلعنا «هيثم» اللي كان واخد مكانك.. المعلم صاحب المخزن ده، اللي مش اسمه «عبد الحميد» ولا حاجة، لما عرف.. دوَّر وفكر لحد ما كشف اللي سرق المفتاح، رفد الولد وقطع عيشه، بس كان متحرج يحكي للبوليس، بس في النهاية لما أخد تأكيدات كافية، إن ماحدش حيئذي الولد.. حكى الحكاية..».

وأشار لـ «شادي» قائلًا في تهكم: «طبعًا انت عارف ليه ماكنتش عاوزني أوصل بنفسي لصاحب المخزن؟ وليه انت اتخضيت لدرجة إنك تألف اسم من خيالك وتديهوني؟ لأن الراجل الحقيقي.. صاحب المخزن اللي بجد، قال إن الولد لما اعترف له بسرقة

المفتاح.. قال إنه اللي اتفق مع الصبي بتاعه يعمل الشغلانة دي ويخبي «هيثم» في المخزن.. كان جدع قصير وتخين، ولابس كوفية حوالين وشه.. جدع يشبهك بالظبط يا «شادي».. انت كنت عارف انه الموضوع خطر عليك.. وعلشان كده من كتر خوفك قلت اسم مالوش وجود.. أظن دي كانت غلطة منكم.. حاولتو تداروها، بإن كل شوية تطلعولي حاجة أهم من الراجل ده، ولازم أعملها حالًا.. لكن ما حسبتوش حساب إن «حاتم» بيه سأل وعرف الحكاية كلها من بدري.. وده شككني أكتر..».

شرد في الأفق الممتد خارج نافذة القاعة الصغيرة التي يجلسون إليها.. مشيحًا بوجهه عن وجوههم التي توزع عليها الاحتقان والدهشة وقال: «الخلاصة.. إن كل ده بدأ بـ«أسيل».. اللي تصورت طول الوقت إني لازم أفهم، إيه علاقتها باللي حصل، بينما كان لازم أصلًا أدور.. هي مين؟ ده كان الخيط اللي أول ما مسكت أوله بدأت افهم.. بس الأهم، هو ليه «أسيل»؟ ليه الطعم ده بالذات فكرتوا ترموه ليَّا؟.. ».

عاد لذلك اليوم بذاكرته، في مكتب «رمزي الطويل».

تابع «رمزي» حديثه في ثقة: «على ما أظن لأن اللي عمل الموضوع ده يعرفك، دخل لك من مدخل الستات الحلوة، وعارف إنك حتقع، وبعدين.. عارف إنك باحث ومحقق صبور، حتدور وحتشك في صوابع ايديك، يبقى يعمل إيه؟ يديك كل الأسامي والأشخاص اللي حواليك ويستدعي ناس من الماضي، وهو أو هي عارفين إن ده حيبقى إغراء أقوى منك،

وإنك برضه مش حتقدر تقاوم.. وحتدور وتبحث وتتعب، ومن كتر الحيرة اللي حتحتارها في الرحلة بتاعتك، وفي الآخر، حتبقى مستعد في لحظة معينة إنك تقبل أي تفسير متناسق يقع تحت إيدك.. أي تفسير يرجع لك الولد من غير ما تضطر تبحث ورا الخيوط الحقيقية.. لأنك تعبت».

سحب نفسًا من سيجاره وأمال رأسه للخلف.. ثم عاد بعد أن بدا وكأنه يتفحص سقف الحجرة.. ليميل برأسه للأمام وأضاف بتساؤل عميق»ها؟.. أبلغ العميد «سلطان» دلوقتي؟ أنا حاضمن لك سرية تامة.. الراجل كمان ممكن ييجي هنا، يسمع منك بنفسه، ويخلي رجالته يراقبوك من بعيد، ما تقلقش.. حتى الجدع الظابط اللي بتقول عليه ده، ممكن يخليه يراعي إنه يساعدك بهدوء.. «سلطان» إنسان كويس، ومخلص في شغله، وإحنا نعرف بعض من زمان، وفوق ده كله.. ما بيرفضليش طلب..».

تنحنح الملازم «حاتم» في حرج، وقال، وقد جذب العيون إليه: «المسألة من اللحظة دي أخدت بعد تاني، رغم إني كنت مهتم بالقضية، أصل سيادة العميد غالي علينا شويتين، المهم.. أنا بدأت بمقابلة الباشمهندس «شريف» وهو نازل من عند سيادة الوزير.. يمكن دي كانت حركة مش مظبوطة مني، بس كان لازم أعرَّفه إن أنا اللي ماسك الموضوع، لأني ما كنتش ضامن تكون التليفونات عليها رقابة.. وما كناش محتاجين نتكلم لأني كنت عارف خطوته الجاية، وكنا طول الوقت متابعين كل حاجة.. المرة الوحيدة اللي اتكلمنا

فيها كانت ساعة تسليم الفدية.. ودي ماكانشي فيه حد صاحي لينا فيها..».

تدخلت «منى» هذه المرة وهي تقول بوجه ممتقع: «يعني كل اللي بيحصل لنا ده، من تحت راس «شادي»، و«رأفت».. وانتي يا «حسناء»؟».

ونظرت نحو صديقتها في ضيق وقالت في حنق: «ليه؟ انتي؟ بتعملوا كده ليه؟».

تدخل «شريف» قائلًا في بساطة: ««منى».. سيبيني أكمل..».

ثارت ثائرة «حسناء» وهي تهب واقفة صائحة: «أنا مش حاقعد أسمع الكلام الفارغ ده، كلكم ساكتين ليه؟ عاجبكم اللي بيتقال؟ ماتنطق يا «رأفت».. ماتسأله ماسك فينا احنا ليه بيداري خيبته، بعد ماحب واحدة قد عياله لفته حوالين صباعها زي الخاتم، ولعبت عليه وجابته على بوزه، ماتتكلم يا سي «عمر»؟ سايب ابوك يبهدل فينا ليه؟ ولا انت مش عارف انه كان متفق عليك مع ست الحسن والجمال علشان يخطفوك، بس الحكاية باظت منه.. ودلوقتي بيحاول يداريها فينا احنا..».

التفتت إلى «شريف» وتابعت في حدة: «انت مش حتلبسنا بلاويك يا أفندي انت، آه الشقة شقتي، ومأجراها لـ «أسيل».. وأيوه أنا اللي زقتها عليك، بس كل ده علشان أثبت للمسكينة المخدوعة، الهبلة دي.. إنك ماتستاهلش اللي بتعانيه كل يوم علشانك، وباستمرار بتلوم نفسها إنها مقصرة معاك.. وانت داير تصيع مع دي ودي، ولو

ناموسة غمزت لك بتجري وراها.. بس وحياة أبوك ماتعملهمش علينا..».

التقطت نفسًا عميقًا وهي تقول بلهجة متشفية ناقلة بصرها بين وجهه الهادئ برغم كلماتها، ووجه «منى» المصدوم: «لكن أظن دلوقتي انتي عرفتي كل حاجة.. وانت يا أستاذ، بدل ما تغلوش على عمايلك بالشكل الرخيص ده، دور على اللي خلاك تبيع له الشركة، وتاخد من مراتك كل اللي حيلتها، علشان المصيبة اللي انت.. انت السبب فيها..».

صفق بيديه في سخرية ببطء عدة مرات.. ثم قال لها في هدوء: «برافو يا «حسناء».. والله مبهرة، بس متأخر قوي اللي انتي عملتيه ده.. «عمر» عارف أكتر ما انتي تتصوري، ومش حيلعب معاكم اللعبة دي تاني..».

قال وهو يضم يديه معًا في تصميم كأنه يركز كلامه في قبضتيه: «الشركة أنا مافكرتش أتردد لحظة إني أخسرها، حتى لو بالطريقة دي.. وأرجع الصفر تاني.. علشان «عمر» يرجع، المهم هو مين؟ مين بس اللي عايز عقد زي ده، علشان يبلع الشركة؟ كمان فيه طلب تاني، الفلوس يعني، العشرة مليون اللي كانت العصابة طلبتهم على لسان «عصام» بيه، الحكاية دي حاجيلها بعدين.. بس يفضل السؤال: مين الشخص أو الأشخاص اللي عاوزين ياخدوا كل ما أملك؟ هل هي العصابة، اللي عاوزة الشركة والفلوس؟ اللي كانوا حيتجننوا لما أخرت العقد عليهم لتاني يوم.. وقالوا لي إوع تكون بتلعب بديلك، وهاجموا «منى» وحماتي..».

نظر في اتجاه واحد من الجالسين وقال في شماتة: «عارف انت طبعًا اللي كنت دايمًا أقوله؟ اللحظة اللي خصمك بيطمن لك فيها، ويحس إنك خلاص وقعت.. النقلة الغلط، اللي الدور بعدها بيفلت من إيده، هي أنسب لحظة إنك تطعنه في مقتل.. بس المهم إنك تكون جهزت للحظة دي كويس. وده، بالظبط، اللي أنا عملته..».

استمر «شريف» يخبرهم بما حدث.. ودار أمام عينيه شريط يعرض الأحداث:

شارع «المُعز».. ظهيرة نفس اليوم.. قبل هذا الاجتماع بعدة ساعات.

تلفت حوله في قلق وهو يتخذ مقعده في المقهى، مواصلًا مكالمة يبدو أن عمرها يمتد لفترة ليست بقصيرة قبل تلك اللحظة: «أيوه يا «حاتم» بيه.. الميزة في المكان ده إنه مافيهوش دخول بالعربيات.. أيوه شارع المعز من جوه، لو اللي أنا شاكك فيه صحيح، البنت «شيرين» دي مفتاح كل اللي حصل.. واللي شافته ممكن يغير الدنيا كلها، والبركة فيك بقى.. هم غالبًا مشغولين عنها خلاص بعد ما اتطمنوا إنها تحت ضغط منهم.. ومش حييجي في بالهم في اللحظة دي بالذات يسيبوا موضوع الفدية والتسليم والكلام ده ويتصوروا إني سايب ده كله وقاعد معاها.. أنا بس عايز من حضرتك تعرف الفلوس دي رايحة على فين.. وسيب الباقي عليّا..».

امتقع وجه «شادي» وهو يواجه «حاتم».. الذي قال في سماجة كعادته، أضـاف لـها ابتسـامة شـامـتة: «بتسوق وحـش قـوي انت يا أستاذ «شادي».. تعبتني جدًا بعد ما أخدت العربية من قدام محل السندوتشات.. لحد ما وصلت بيتك وأنا وراك، بس بصراحة كنت مغير شكلك خالص.. ومتابعتك كانت صعبة، بس برافو.. حقيقي حافظ الشوارع كويس قوي.. وبتعرف تاخد طرق مبتكرة كتير..».

تجمع عرق غزير على جانبي وجهه وهو يتلعثم في رده: «أنا كنت بحاول أنقذ الفلوس من العصابة.. يعني مافيش داعي للمبلغ ده كله.. مش يمكن نعرف نتفاوض ونقلل شويه؟».

ضحك «شريف» في بساطة وقال: «يا راجل اكذب كذبة أنضف من دي شويه، انت كان المفروض انك مخطوف ساعة ما «عصام» قال لي على المبلغ.. عرفت منين إن فيه فلوس في العربية دي؟ عرفت منين الفلوس كام وعايز تتفاوض وتقللها كمان؟ انت كمان المفروض إنك ورقة ضغط، مش المفروض حيسيبوك إلا لما يستلموا الفلوس والعقد أساسًا.. زيك زي «عمر»، يبقى إزاي انت في الشارع من قبل ما ياخدوا الفلوس؟ إلا لو انت مافيش حد خطفك أساسًا.. وكل ده، لعبة كبيرة..».

أشار له وقال في هدوء: «وريني موبايلك يا «شادي»..».

تركزت العيون في دهشة على «شادي».. الذي قال في عجب: «موبايل إيه؟ انت بتتكلم بألغاز ليه النهارده يا «شريف»؟».

واصل وكأنه لم يسمعه، بينما «عمر» الجالس بجانب شادي» يختطف منه محموله: «انت لعبت دورك هايل يا «شادي».. كل

الخيوط كانت بتؤدي ليك من أول لحظة، أنا بس اللي كنت مش شايف، يعني إنت اللي جبت القضية بتاعة «عصام»، وخلصتها، بحجة إنك بتهاديني هدية عمري علشان تساعدني أوصل لناس مهمين، يساعدوني في ترشيح الوزارة. انت اللي عملت تحرياتك عن «أسيل»، رغم إني قلت لك لأ بلاش، وكفاية كده.. علشان في الآخر تقول لي إنها زي الفل.. وإن كل حكاياتها سليمة، وبكده أنا مافكرش أدور وراها تاني في المستقبل، وماخطرش في بالك إني حاسأل برضه، لغاية ما أعرف إن الأتيليه ملك «حسناء».. إنت برضه اللي قلت، إنك راقبت اتصالاتها وانها فعلًا كلمت الصبيان اللي خطفوا «عمر».. وفي كل مرة كنت بتخلص موضوع.. بتقفل عليَّا باب إني أتأكد منه.. كنت عامل زي الوزير اللي بيحمي الملك بجسمه، وعلشان نوصل للملك، لازم نقتل الوزير، وده قرار مش سهل لما يبقى الوزير صاحبك وحبيبك..».

- «انت بتقول إيه يا «شريف»؟ ده أنا اتخطفت علشانك.. وماكدبتش عليك في ولا كلمة..».

ضحك «شريف» بينما يقلب «عمر» في محمول «شادي» في جذل.. وواصل: «ياراجل؟ «عمر» بيتفرج دلوقتي على نمرة «أسيل» المتكررة على موبايلك كام مرة، «أسيل»، اللي كانت بتديك أخباري وإزاي بفكر، ويمكن كانت بتراقبني معاكم.. «أسيل»، اللي المفروض إنك ماتعرفهاش.. وبتعمل عنها تحريات من وراها ومن غير رضايا علشان تنقذني منها، «أسيل»، اللي رقمك، ورقم «منى» و«رأفت» أنا اللي مديهم لها بنفسي، لما خليتها تنتظر معايا في الفندق وأنا بقابل

«عصام»، وهي مش المفروض إنها تعرفكم ولا معاها نمركم، غير كده.. أنا متأكد إن موبايلك عليه مكالمات تانية في نفس الوقت اللي انت مخطوف فيه..».

تدخل «رأفت» في جدية وهو يقول: «بص يا «شريف»، أنا مش حارد على الكلام اللي قلته عني أنا.. وكلامي ده مش دفاعًا عن «شادي» ولا حاجة، بس بصراحة مش ده رد الجميل اللي منتظرينه منك، وأنا شاهد هو تعب قد إيه.. انت واضح إن أعصابك فعلًا تعبانة يا شريف.. والمنطقي إنه «شادي» يحاول يطمن عليك بمكالماته لـ «أسيل»، ولو فيه مكالمات وقت ما كان مخطوف.. يبقى ده ممكن يكون دليل على إن اللي خاطفينه، وبالتالي اللي خاطفين «عمر» كمان تبع «أسيل»، أو هم كلهم مع بعض.. وبيتصلوا بيها من محموله.. كل شيء وارد يا «شريف»..».

دار «شريف» دورة كاملة حولهم وهو يقول في هدوء: «الحكاية ما خلصتشي يا «رأفت».. خلينا نقول من الأول..».

جلس قبالتهم وقال وهو يعد على أصابعه: ««حسناء» بتقرر تعريني قدام «منى»، علشان أنا وحش زي الرجالة كلها، بتزق عليَّا ممثلة شاطرة تخليني أعمل تحريات عن منافس مشهور ليَّا على الوزارة، في نفس الوقت بتظهر قضية يخلصهالي «شادي»، وورق خطير ضايع وأنا المسئول عن اللي حصل، الحكاية دي مابتظهرشي على طول، لأ.. بعد شوية، لما ناخد أنا و«أسيل» على بعض، وهي تدفعني في سكة إني أخطف «عمر».. بعدها على طول الدنيا بتتقلب، والولد يتخطف بجد، ويطلع لي موضوع الورق ده تاني، وعصابة

كبيرة لها طلبات، كل ده منطقي، واتلعب حلو قوي.. وتمنه واضح: الشركة وفلوس.. أنا قدرت أرجع الاتنين من غير ما أخسر «عمر».. كل ده محبوك وجميل وكان ممكن يعدي عليًا، وكله يبقى تمام، بس السؤال المهم هنا.. فين الثغرة الواضحة، الثغرة اللي انتم ماحسبتوش حسابها..؟».

اندفع «رأفت» يقول في غضب: «اعقل بقى يا «شريف».. مافيش دليل على تلات اربع كلامك ده..».

أجابه في حدة: «الثغرة اللي انتو ماحسبتوش حسابها كانت «شيرين».. «شيرين» اللي ماكنتوش تعرفوا إنها بتحب «عمر» وإنها بتزوره في الفيللا كمان.. لما قلت لكم إن فيه شخص مجهول كمان لازم ندور عليه، كان باين عليكم جدًا الدهشة.. البنت وصلت ومشيت قبل الخاطفين ما يوصلوا، المختطفين نفسهم كانوا مستنيين إن «عمر» نفسه يديهم الضوء الأخضر إنهم ييجو.. ».

اندفعت «منى» تحملق بوجه «عمر» المضطرب وهي تقول له ولـ«شريف» معًا: «انت بتقول إيه يا شريف؟ «عمر» كان متفق مع البنت دي؟ ولّا مع اللي خطفوه؟.. إيه اللي باسمعه ده؟».

ابتسم ونظر لها مشجعًا وهو يقول: «اهدي يا حبيبتي، حتفهمي كل حاجة دلوقتي.. المهم، زي ما كنت باقول.. «شيرين» آه.. هي حاولت تقنعني إنها ماشافتش حاجة.. لكن ده طبعًا ماكانشي منطقي..».

انبرت «حسناء» تقول في تهكم: «يعني انت عندك «أسيل» اللي خطفت «عمر» بالاتفاق معاك.. و«شيرين» كانت موجودة وقت الحادثة كمان، وفي الآخر بتدور تلبسها لنا ازاي، مش فاهمة؟».

قال في برود: «لا يا «حسناء»، أنا مش محتاج ألبسكم حاجة.. اللي حصل إن اللي خطف «عمر»، أول ما عرف إن «شيرين» كانت هناك، اتأكد إنها أكيد شافت اللي حصل.. علشان كده كان لازم يهددوها.. لأنها لو اتكلمت حتفضح كل حاجة.. وهنا السؤال هي شافت إيه؟ شافت إيه خلاها ماتجيش الشركة يومين، وتبقى خايفة تتكلم بالشكل ده؟».

امتقعت وجوه الجالسين وهو يشير نحوهم بلا تمييز قائلًا: ««شيرين» فضلت مستنية بعيد، شافت عربية جاية على الساعة اتنين صباحًا.. بعد ما «عمر» قال لهم إن الدار أمان، عربية نزل منها شخصين بس.. خبطوا على الباب، دخلوا.. غابوا جوه وهي سامعة أصوات تكسير، ودوشة كبيرة، وفجأة كل حاجة سكتت.. وخرج معاهم «عمر»، خرج بهدوء.. خرج وهو ماشي معاهم، مش شكل واحد مخطوف ولا حاجة، ركبوا العربية ومشيو ..».

جال في وجوههم مستمتعًا بنظرة الصدمة عليها وتابع: ««شيرين» ما فهمتشي لما سمعت إن «عمر» اتخطف، حضرت بنفسها معاكم يوم ما المخزن فتحناه في حضور البوليس، كانت موجودة وهي مرعوبة عليه، ومستنياه يظهر، فوجئت إن اللي طلع مكانه مش هو.. استغربت.. قعدت في البيت مش عارفة ولا فاهمة تعمل إيه من الصدمة، وبدأت تراجع مع نفسها اللي شافته بعينيها.. هي من ناحية عارفة إنه مش الحقيقة إن «عمر» اتخطف، علشان شايفاه بيمشي بهدوء مع الاتنين اللي دخلوا عليه، ومن ناحية تانية فهمت

إنه كان ليلتها بيستعجلها إنها تمشي.. علشان هي ماتشوفش اللي حيحصل..».

توقف وهو ينقل بصره بين وجوه الجالسين، قائلًا ببطء من يلقي بكارثة: «اللي «شيرين» مافهمتوش، وأنا نفسي عمري ماكنت أتخيله.. إنه في الوقت اللي كنت متصور فيه إني بعمل خطة أخطفه بيها، كان «عمر» عارف كل اللي متخطط له، عارف وفاهم.. من قبل ما «أسيل» تقترح عليًا الفكرة..».

سحب نفسًا عميقًا وهو يرقب وجه «عمر» الممتقع خجلًا، ويتأمل أثر كلماته على وجوه الجالسين المأخوذة، بينما «منى» تقول في شرود ذاهل وهي تصوب نظرة غاضبة لـ «عمر»: «يعني أنا سمعت صح؟ يعني إيه؟ انت كنت عارف يا «عمر»؟ كل دي تمثيلية.. ومستخبي؟ وسايبني باموت كل ساعة 100 مرة من قلقي عليك؟..».

تجاهلها «شريف».. وواصل في ثقة: ««شيرين» كانت محتارة جدًّا، فهمت إنه اتخطف بمزاجه، بس مش فاهمة، ليه فيه شخصين بعينهم، بيتعاملوا مع الموضوع على إنه خطف.. وهي شايفاهم بعينها عملوا إيه؟ علشان كده حست بالخوف على نفسها وعلى «عمر».. وخافت إن الموضوع بالشكل ده ممكن يلبسها هي.. لو حد عرف إنها كانت هناك.. أو إنها آخر واحدة شافت «عمر»..».

عض على شفتيه في ندم مصطنع وهو يحرك يديه بشكل مسرحي مواصلًا الشرح:

«لكن أنا ماكنتش لسه فاهم حاجة من ده كله، فقلت لكم إني شفتها هناك. دي طبعًا كانت غلطة كبيرة مني.. لأن الشخصين اللي شافتهم هناك بدأوا يهددوها.. نفس الشخصين اللي كانوا هم اللي عملوا تمثيلية الهجوم على بيتي.. علشان يوهموني إن العصابة مراقبين الدنيا.. الشخصين دول بدأوا يهددوها إنها ماتتكلمش، وإلا حيخلصوا عليها، وعلى أمها.. وكمان استغلوها تساعدهم في نقط معينة..».

بدأ يشرد في أركان الحجرة مصفقًا بيديه في إعجاب مصطنع، وهو يسرد كأنه يقرأ من كتاب: «تسوقي عربية وتمشي وراه، وماتخليهوش يشوفك ولا يعرف انتي مين.. حاضر.. أخبار «شريف» توصل لنا أول بأول، قوليلنا تحركاته يا «شيرين».. حاضر.. تلبسي اللبس اللي حنقول لك عليه يا «شيرين»؟ تروحي المكان ده في الوقت الفلاني.. علشان يفتكرك «حورية».. برضه حاضر..».

واتخذ موقعًا متوسطًا قبالة مقعدين متجاورين لاثنين من رفقائه وهو يقول مقربًا وجهه منهما بلهجة المنتصر: «مش كده يا «رأفت»؟ مش كده يا «شادي»؟».

ساد صمت عنيف.. هبت على أثره «منى» واقفة وهي تتحرك صوب «عمر» قائلة في حسم: «كفايه كده، أنا مابقيتشي فاهمة حاجة، كلكم مجرمين.. وأنا حامشي دلوقتي وحاخد ابني معايا..».

صاح بها وهو يبعد ذراعها عن «عمر» ويجبرها على الجلوس بقسوة: «استني يا «منى».. فيه كلمتين لازم تعرفيهم قبل ما تمشي..».

جلست مشبكة ذراعيها أمام صدرها، ونظرة من الخوف والترقب تتجلى في نظراتها الجانبية نحو «عمر»، بينما واصل هو قائلًا: «لما بدأ الشك عندي يكبر ناحية الاتنين دول، كنت حاسس، مع ذلك، إن اللفة الطويلة دي شغل ستات، وكانت «حورية» وظهورها أكتر حاجة قالقاني، وفي لحظات كتير فكرت إنها ممكن تكون هي فعلًا اللي ورا ده كله، خصوصًا إن «رأفت» كان بيغذي فيَّا الشعور ده، شكيت كمان في «حسناء» فترة، وخصوصًا إنها بتحب «منى»، وصعبانة عليها ودايمًا شايفة إني ظالمها.. لكن الحقيقة بقى، إن «حسناء» مش حتفكر تخطف ابني، وتعمل العملة دي لوحدها.. على الأقل ماتعرفش تقنع «عمر» إنه يشترك في حاجة زي دي، «حسناء» نفسها لسه قايلة قدامكم دلوقتي.. إنها مش لوحدها في الموضوع ده كله..».

انقلبت نظراته نحو ركن من القاعة.. حدج شخصًا بنظرة تكاد تسكب نارًا، وقال: «لكن لما استبعدت كل الاحتمالات دي، لقيت إن فيه شخص مافكرتش فيه طول الوقت.. شخص عنده الدافع إنه يعمل ده كله، شخص بعيد تمامًا عن أي شك.. ومش ممكن يخطر على بال حد إنه يكون ورا الموضوع ده كله.. الشخص ده هو انتي يا «منى»!!».

صرخت في حدة: «إنت بتقول إيه؟ أنا لا يمكن أعمل اللي بتقوله ده..».

أجابها في بساطة، وعيناه يملؤهما حزن حقيقي يظهر في خفوت صوته: «أنا باعترف إنك كنتي شاطرة جدًّا، ضحكتي علينا كلنا، على الأقل عليَّا أنا.. أقنعتي الناس دي كلها إنهم يخدموا عليكي، وفضلتي

لآخر لحظة بعيد عن الشك.. بس، مين غيرك ممكن يقنع «عمر» يشترك في تمثيلية الخطف دي بمزاجه، علشان يبقى له نصيب من الشركة؟ مجرد نصيب صغير زي مافهمتيه، مش تبلعوا الشركة كلها وتخسروني فلوسي بالكامل؟ مين غيرك يعرف أصحاب «عمر»، وبيقابلهم في الفيللا وبيحضر بروفاتهم؟ مين غيرك ممكن يأجر اللي اسمه «هيثم» ده ويخليه يعمل الدور الرهيب اللي عمله ده، بقصد إنه يفوت عليَّا إني أبلغ البوليس.. علشان مش معقول انتي تقولي إنه ابنك والبوليس يصدقني أنا؟ مين غيرك.. كان ممكن يزحزحني من مكاني وأنا قدام الفيللا.. بعد «عمر» ما شافني واقف، وحسيتي بالقلق لأن «رأفت» و«شادي» مش محضرين مشهد مناسب يضحكوا بيه عليَّا.. فكان لازم أمشي.. علشان يخلى الجو، لولا وجود «شيرين»، اللي ماكانشي حد يتصوره.. واللي شافت كل حاجة؟ الظريف بقى، إن رغم أدائك التمثيلي العالي، سواء في الانهيار اللي جالك لما شفتي «هيثم»، ولا صريخك في البيت، ولا صدمتك بعد تهجم العصابة على البيت، مع إنك عارفة إنهم «رأفت» و«شادي»، ولا زعيقك فيَّا، وصدمتك.. وانتي بتكتشفي إني برافق واحدة بنت، رغم إنك عارفة إنها «أسيل» وانتي اللي زقتيها من الأول، ومتابعة أخباري عن طريقها لحظة بلحظة.. الظريف إنه مع كل الأداء العالي ده.. فيه حاجتين صغيرين، صغيرين قوي.. كشفوكي.. وخلوني أحس لأول مرة إن فيه حاجة فايتاني..»

مال نحوها بجذعه العلوي، وهو يقول مضيقًا عينيه وهو يتأمل وجهها المحتقن في غيظ: «بعد فترة، وبعد «أسيل» ما بقت بالنسبة

لي، علامة استفهام.. وما بقيتش فعلًا فاهم، هي معايا ولا ضدي.. ابتديت أقلل اعتمادي عليها، بس كنت حتجنن، لأنها مفتاح مهم. بعد «رمزي» و«عزة المقدم» مانفوا تمامًا إنهم يعرفوا عنها حاجة.. كان لازم أواجهها، أصرت هي إنهم هم اللي بعتوها، ماصدقتهاش.. انفعلنا على بعض.. وهي اندمجت في دورها.. وهنا كانت الغلطة الحقيقية. لما واجهتها بإني بشك فيها، أخدها التأثر، والانفعال بتاع الستات في المواقف اللي زي دي.. نسيت نفسها، قالت لي إني إزاي أعمل كده، وازاي أراقب تليفوناتها.. ساعتها قلت لها إني كنت براقب الفيلا قبل الخطف، ومشيت علشان «منى» اتصلت بيَّا.. لأنها مش عارفة تنام، وتعبانة.. أنا ما قلتش أكتر من كده، راحت هي بمنتهى التلقائية قالت لي بعصبية «تمشي علشان الهانم عندها كابوس؟».. والحقيقة، أنا ما قلتش ولا جبت سيرة الكوابيس.. قوليلي بقى يا «منى».. «أسيل» في بيتها، وأنا واقف قدام الفيلا، وانتي بتكلميني في ودني، في التليفون يعني، «أسيل» تعرف منين اللي انتي قولتيه؟.. ساعتها بس فهمت أخيرًا الجزء اللي كان ناقصني أفهمه.. مين اللي بعت «أسيل».. لا كان «رمزي»، ولا «عزة»، ولا حتى «حورية»، انتي الوحيدة اللي كان ممكن تكون وراها..».

اتكأ بظهره وهو يلمح ارتباكها، واختلاسها لنظرات مترقبة تجاه «عمر»، الذي كان يراقبها بضيق، ودهشة معًا.. وتابع «شريف»: «الحاجة التانية بقى، كان صوتك.. وأنا باقول لك إن مطلوب عشرين مليون فدية، كان واضح جدًّا إنك مندهشة.. صحيح انتي طلعتي من دهشتك بسرعة، بس رد فعلك أول لحظة كان كافي بالنسبة لي جدًّا..

إني أتأكد من إحساسي.. وأعرف مين الست اللي ورا الموضوع كله..».

غمغمت بضعف وهي لا تزال تتابع نظرة «عمر» التي تفيض بخيبة أمل: «طبيعي إني أكون مندهشة.. المبلغ كبير، ويخض..».

تنحنح الملازم «حاتم» كعادته وقال في هدوء ناقلًا بصره بين «منى» وبين «شريف»: «هو أنا يمكن فيه فقرة كان لازم أوضحها هنا.. أنا ماكملتش إيه اللي حصل لما تابعت الباشمهندس «شادي» وهو واخد العربية.. هو ركنها تحت بيته.. وطلع شنطتين كبار للبيت.. الشنطتين دول كان فيهم 10 مليون جنيه بس.. مش عشرين مليون..»

نظر إلي وجهها الشاحب بقوة، وعينيها المغرورقتين بالدمع، وقال في قسوة: «منطقي جدًّا مش كده؟ خطتك كانت إني أنا اللي حدفع الفلوس، علشان تستولي عليهم لنفسك.. بس فجأة، حضرة الظابط أوهمك إنهم فرضوا عليًّا حراسة، وإن مابقاش ممكن أسحب فلوس من البنك، وقعتي في حيص بيص.. المشكلة دلوقتي، إن فيه فدية، ولازم كل حاجة تمشي طبيعي، والفلوس تتدفع، على الأقل قدامي، وقدام البوليس اللي مابقتوش ضامنين إنه يمكن مراقب الخطوات الأخيرة دي بعد تدخل حضرة الظابط.. صوتك ماقدرتيش تخبي الدهشة منه، واستغربتي إن المبلغ عشرين.. ده لأن انتي بنفسك اللي محددة المبلغ، والمفروض إن «عصام» قال لي عشرة بس.. لكنك فكرتي بسرعة، ياترى أنا باقول كده ليه؟ هل «عصام» بيلعب بديله؟ مش معقول، لأن «عصام» نفسه مايعرفش حاجة عن نواياكم، ومش معاه «عمر»، ولا هو حيمسك الفلوس بإيده علشان يطمع فيها مثلًا..

طيب هل أنا بازود في المبلغ علشان آخد جزء ليًا؟ طيب أنا إزاي حاحط إيدي على الفلوس أساسًا؟ طيب باقول كده ليه؟ ماعرفتيش تعملي إيه، الموقف غامض، اتصلتي بكل الناس اللي معاكي.. «شادي»، و«رأفت».. و«حسناء».. وحتى «أسيل».. ماحدش لقى تفسير لحكاية العشرين دي.. الفلوس دلوقتي راجعة لك تاني، «شادي» حياخدهم، يشيلهم في البيت عنده.. وبعدين تحطيها في حسابك في البنك تاني..».

تمهل وهو يضغط على حروف كلماته متابعًا: «في الآخر، حسيتي إن فيه حاجة غلط، يمكن أكون بخسرك فلوس زيادة، أو «عصام» اتفق معايا على حاجة، قلتي تفوتي عليًا الفرصة.. عملتي حسابك تسحبي فلوس من حسابك تساوي مبلغ الفدية.. بس على قد العشرة مليون بالظبط، عشرة بس مش عشرين، لأنك مالقتيش له لزوم إنك تسحبي عشرين بجد، ماهي الفلوس راجعالك في الآخر، ولا فيه عصابة ولا يحزنون.. بس بصراحة، أنا مش عارف كنتي ناوية على إيه كمان..؟ بس ممكن أتخيل فكرتي في إيه، يعني مثلًا.. ممكن كنتي متفقة مع «أسيل»، كان ممكن تشهد في أي لحظة إنها أجرت لي بلطجية يخطفوا ابني.. ويمكن تكوني مخططة إن الفلوس دي يلقاها البوليس عندي، يبقى أنا اللي ألبس تهمة الخطف.. وانتي تطلعي بالشركة، وفلوسك ترجع لك.. مش ده اللي كنتي ناوية عليه برضه؟ مش كفاية إنك تخسَّريني اللي ورايا واللي قدامي؟ لأ كمان أدخل السجن؟».

اتسعت عينا «عمر» في ذهول.. و«منى» ترتعد شفتاها وتنتفض حنقًا وهي تنقل بصرها ما بين وجهه بتوسل غامض، وبين وجه «شريف» في دهشة عارمة.. قالت متعجبة: «أنا سحبت عشرين مليون من البنك.. الشنط كان فيها عشرين مليون.. أنا ولا فكرت في حاجة من الكلام ده كله.. الفلوس زي ما انت بتقول كده، كانت راجعالي تاني.. أسحب أقل منها ليه وأنا عارفة إنك أكيد حتعرف، وحساباتي في البنك انت بتفتحها عادي، وساعتها حتشك فيَّا طبعًا. احنا أول ما قلنا لك اركب التاكسي علشان تلاقي «عمر»، واطمننا إنك أكيد مشيت، «شادي» أخد العربية ومشي.. وكان متخفي، ومش باين هو مين..».

ابتسم «شريف» في سخرية: «هو ده الموضوع؟ عشرين ولَّا عشرة؟ انتي بتداري على إيه؟».

أدارت وجهها في وجوه الحاضرين كأنها تبحث عن شيء حتى توقفت في لهفة عند وجه «شادي» وغمغمت في رجاء: ««شادي».. الفلوس فين؟ أنت بتلعب عليَّا دلوقتي؟ انت يا «شادي»؟».. نهرها «شادي» في غيظ.. ««منى»، ما تسيبيهوش يلعب بيكي.. فلوس إيه اللي بتتكلمي عليها؟ أنا واخد الشنط زي ماهي وقافل عليها البيت..».

في غيظ أجابته: «يعني أمال راحوا فين؟».

تدخل «عمر» في هدوء كالثلج، وهو يقول موجهًا نظره لأمه: «ممكن كفاية يا أمي؟.. سيبي بابا يكمل.. أنا عايز أسمعه، وعايز أسمعك حتقولي إيه؟» بينما أشار «شريف» إليها في حزم ملتقطًا الخيط: «انتي اتفقتي مع «عمر» على كل اللي حصل، استغليتي

إنه فيه خلاف بيني وبينه، وأقنعتيه إنها ليلة وحتعدي، وإن الفدية حتكون نص الشركة بس، بعقد بيع لـ «عصام» يبيعه لكم بعد كده، الولد وافق لما أقنعتيه إن دي فلوسه في النهاية، وإن من غير كده، عمره ماحيعرف يمول مشروعه بتاع المزيكا، لأني عمري ماحوافق.. «عمر» وافق على هذا الأساس، لكن اللي حواليكي طمعوا.. وده اللي ضيعكم، لأن «عمر» أول ما عرف كده، بعد ما قابلني.. فهم إن الهدف كان أكبر من اللي فهمتيه له..».

صمت ليراقب وجهها وتابع بنفس النبرة: «.. ولأنك كان لازم تستعيني بحد، خططتي مع «حسناء» تزقوا واحدة عليًا.. تقنعني بالخطة المجنونة دي، يمكن علشان حبيتي تتأكدي الأول أنا فعلًا لسه مخلص ليكي ولا خلاص، أستاهل اللي يجرالي وإنك تحطميني وتاخدي كل حاجة ليكي.. ولًا لأ، النتيجة إنه بقى فيه حد طول الوقت باشك في إنه ورا الموضوع، واللي معاكي، البهوات اللي قاعدين، و«حسناء» هانم كمان.. الحقيقة لعبوها صح، وسعت الدنيا لدرجة إني مابقتشي فاهم حاجة..».

أشار لـ «عمر» قائلًا في لوم بسيط: «أكتر حاجة ضايقتني، إن «عمر»، علشان المشروع ده حلمه، وعلشان انتي أمه..».

قالها وضغط على كلمة «أمه» بشكل دفعها لأن تتسع عيناها رعبًا مما ظنته على وشك أن يعلنه.. هزت رأسها يمنة ويسرة، لكنه واصل دون أن يبدو عليه ما إذا كان ينتوي أن يلمس الوتر المؤلم أم لا: «.. اللي بيثق فيها طبعًا، واللي شايفها بتشجع حلمه طول الوقت.. صدقك، وصدق إنك حتاخدي نص الشركة بس وتديله نصيبه يبيعه..

وإني حفضل أشتغل عادي.. لحد ما فوجئ إن الموضوع مش كده.. وإن الشركة كلها راحت، وإن فيه عقد، «عصام» المفروض حيسلمه لـ «شادي».. أو «رأفت».. أيًا كان اللي اتفق معاه يعني، واللي قابله مرة واحدة في الضلمة في السينما، العقد ده بيبيَّعني اللي ورايا واللي قدامي..».

أطال النظر في عينيها وسألها بصدق: «السؤال دلوقتي.. انتي شايفة إن اللي عملتيه ده عدل؟».

من بين دموع أبت أن تغادر، قالت في فحيح هادئ: «أيوه عدل! انت مابتصونشي النعمة يا «شريف».. وكان لازم الظلم يبقى له نهاية، لا انت بتراعي مراتك، ولا ابنك.. ولا حتى عارف انت عايز إيه من شركتك، عايش في أفكارك وقافل عليك.. وكل اللي عايزه إنك تنبسط ولو على حساب أي حد.. حياتك اللي لا عارف تعيشها صح، ولا اللي حواليك بيسلموا منك فيها.. انت ماتستاهلهاش.. وصدقني، أنا مش حاكون زعلانة عليك وانت على الحديدة، بعد ماتترمي في الشارع، وترجع له تاني..».

اقترب منها.. فأجفلت، لكنه وضع وجهها بين راحتي يديه، تأمل في عينيها المنكسرتين طويلًا، حتى لانت ملامحها، وسالت دمعة منهارة على وجنة محتقنة.. لكنه قال في هدوء مشفق: «على الحديدة؟.. انتي غلبانة قوي يا «منى»، طول عمرك عاوزة تثبتي للناس إنك قوية.. في الجامعة، مع أمك.. وحتى معايا.. بس مشكلتك انك افتكرتي إنك تقدري تلعبي مع الديابة.. وتطلعي سليمة، والنتيجة.. إن حتى الخطة اللي انتي حطيتيها.. ماعملتيهاش صح..».

أطلق وجهها من بين يديه.. فاتسعت عيناها دهشة لحديثه.. لكنه واصل في شماتة هادئة: «دي أحسن فقرة في الحكاية كلها..».

عاد لتلك اللمحة، لليلة جلسته مع رجل الأمن، «عصام».. ليسلمه العقد.

ابتسم «شريف» في غموض.. وقال ببساطة : «اسمح لي يا عصام بيه.. ».

وضع الحافظة التي بيده على المنضدة أمامه.. أزاحها لتقترب من موضع محدثه، وقال في ثبات واثق: «الورق بتاع حضرتك.. شوفه بنفسك..».

قال في لا مبالاة، وبإشارة متعجرفة من يده: «مافيش داعي للكلام ده، انت عارف كويس إنك لو بتلعب بديلك، أنا حاعمل إيه..».

هز «شريف» رأسه يمنة ويسرة.. وقال في ثقة وهو يشير للأوراق أمامه: «أنا لسه مُصِر على اللي باقوله ياعصام بيه.. بص في الورق كويس، بص فيه أحسن لك..».

بنفاد صبر، اعتدل في جلسته متحفزًا «انت بتقول إيه؟».

- «باقول اللي سمعته، بص في الورق وقل لي رأيك.. أنا مش حامشي من هنا إلا لما تقول الورق سليم، وآخد ابني وأروح بيه..».

- «ابنك حيروح بيتك لما أنا أقول..».

انقلبت سحنة «شريف» بشكل مدهش وهو يقول: «لأ..ماهو يبدو إن انت اللي مش فاهم.. المسألة أسهل مما تتصور، أنا عارف إنك جامد.. وإنك يمكن بتقول إيه ده اللي فاكر نفسه حيهددني

ده، لكن انت عارف إن فيه مشاكل كتير اليومين دول، مافيش مانع إن قنبلة تنفجر هنا ولّا هنا.. مرة في شارع.. مرة في محطة مترو، ويمكن.. يمكن يعني، صدفة كده في عربية وهي ماشية في الشارع..».

احمر وجه الرجل وانتفخت عروق رقبته وهو يقول بصوت مليء بغضب مكتوم: «انت مش عارف انت بتكلم مين يا ولد؟ لا دا انت باين عليك اتجننت.. حاسب في كلامك، أنا بمكالمة مني مش بس مش حتشوف ابنك تاني، لا دا إنت مش حتعيش لحد ماتشوف نعيه في الجرايد كمان..».

اتسعت ابتسامة «شريف» في ثقة وهو يقول في لا مبالاة: «اتكلم على قدك يا «عصام» بك، أنا وانت عارفين إنك مش قد الكلام ده.. اسمعني كويس بس..».

سدد عينيه بعيني الرجل.. وقد بدأ الرجل يرمش بجفنيه في توتر لأول مرة.. فواصل قائلًا: «صدقني أنا مستبيع، لو ماعملتش اللي باقول لك عليه، ممكن تكون عربيتك انت.. لا قدر الله يعني، ده في حالة لو أنا ماخرجتش من هنا سليم. فيه بنت معايا في اللوبي بره.. أكيد رجالتك شافونا داخلين مع بعض.. هي حتقوم بالمطلوب صدقني لو خدت مني الـــ أوكي، أو لو انت خرجت قبلي..».

تمهل ليرى أثر كلماته على وجه الرجل المتجهم في غضب، وتابع في سخرية: «البنت كمان حتنفذ المطلوب لو قلت لها إني عملت هنا حاجة غصب عني، زي إني أمضي على الورق بتاع بيع الشركة ليك ده.. علشان كده، وعلشان أنا راجل حقاني، إنت

مالكش عندي إلا الورق بتاعك، تبص فيه بقى بسرعة ورد عليًا كده.. ».

(44)

ما زالت كلمات «رمزي الطويل» يتردد صداها في أذنه وهو يجلس إلى رجل الأمن الغامض.

أشار إليه «رمزي» كأنه التقط الخيط الذي يشرح به وجهة نظره، وقال في ثقة:

«ما هو ده السر، والسر هو الدليل.. افهمني، تخيل معايا كده لو إن حد بيلاعبك شطرنج.. بدل ما يسيبك تهاجم الملك، بيرمي لك قطع تقيلة في وسط الملعب.. بتحاصرها وتفضل تفكر، إزاي تبعدها عن طريقك، كل ده علشان يحسسك إنها تحركات خطيرة.. تهديدات لازم تواجهها، خطة معقدة وقوية زي ما إنت بتقول، شوية تاني وتلاقيه بيخلق لك تهديدات، تخليك طول الوقت مشغول بمحاولة حماية نفسك، وكل ماتخلص من واحدة، وتقول إنك خلاص خلصت، وحتهاجم الملك، يطلع لك بغيرها.. في النهاية.. إنت سايب الهدف الأصلي.. مش عارف تهدد الملك.. في لحظة معينة من الدور حييجي خصمك بعد ما انت تعبت، وحيلك خلصت، وقدرتك على الحسم انتهت، حييجي يرمي لك طعم ما تقدرش تقاومه، حيرمي لك الوزير مكشوف في وسط الملعب، ولأن حيلك خلصت، ولأنك مافيش قدامك إلا الحل ده، حيتهيألك إنه جهدك

جاب نتيجة.. والخصم ارتبك وغلط، علشان كده حتندفع وتصدق.. حتاكل الوزير.. وفي اللحظة اللي إنت فاكرها قمة انتصارك.. حيقول لك بعدها كش مات..».

- «أي لحظة؟».

تنهد «رمزي» وهو يقول بلهجة من قارب صبره على النفاد، وكلماته تقطر شفقة على «شريف» المتوتر أمامه: «لحظة ماتفتكر إنك وقعت على الصيد الثمين اللي بتطارده، الصيد اللي بيشغلوك عن الحقيقة بيه، الخاطف اللي بتدور عليه وحيتعبوك لحد ما تعرفه، ساعتها حيضربوا ضربتهم.. افتكر كلامي كويس، وفكر كويس إزاي تحسم اللحظة دي لصالحك».

قاعدة رقم 25:

في أصعب المواقف، كن هادئًا، بعثر أوراق خصمك.. ستجد العجب.. وستعلم ساعتها، أي الخصوم هو!

زفر الرجل في حنق وهو يتناول الحافظة بغلظة.. قلب أوراقها على مهل.. استغرق بضع دقائق وهو يتأمل حافات الأوراق، ظهر كل ورقة، يرفعها في ضوء سقف الحجرة ليتأكد من كونها أصلية، كل سطر، كل جدول.

حينما انتهى.. قال في نفاد صبر.. «كل شيء تمام..».

ابتسم «شريف» في انتصار، عاد بظهره مستندًا إلى مقعده وعاقدًا كفيه أمام وجهه، ثم قال في بساطة: «متأكد يا «عصام» بك؟ طيب ورقة زيادة رسوم جمارك الحديد فين؟..».

بدأ «عصام» يرتبك بوضوح وهو يعاود تقليب الأوراق.. تجمعت حبات عرق على وجهه، ثم ألقى الأوراق جانبًا وهو يقول في ثقة يحاول رسمها على وجهه: «إنت بتلعب معايا لعبة أنا مش فاهمها..».

قال «شريف بخبث: «مش فاهمها ولا مش عارف ترد تقول إيه؟ تلاقيك بتسأل نفسك.. كان فيه ورقة خاصة بأسعار الحديد ولَّا لأ؟».

ازداد ارتباك الرجل.. فقام «شريف» من مكانه وهو يدور حوله مكملًا حديثه: «بتسأل نفسك لو الورقة دي لها وجود، يبقى إزاي ماخدتش بالك منها.. ولو مالهاش وجود تعرف إزاي إني بلاعبك؟ مش عارف تعمل إيه، تقول لي أيوه فعلًا.. إزاي فاتتني حاجة زي دي، وتقلب الدنيا وتقول لي فين الورقة، ولا تضحك.. وتقول لي ماكانشي فيه حاجة من دي؟!!».

ثم مال نحو وجهه حتى كادت أنفاسه الحانقة تحرق وجهه وقال في انتصار: «وعارف الحيرة دي كلها ليه يا «عصام» بيه؟ لأنك ما تعرفش حاجة عن الورق ده من الأصل.. طيب، عارف ليه كمان؟ لأن الورق ده كله مضروب، ومالوش أصل ولا فصل.. أقول لك بقى، ده معناه إيه؟!».

ثم عاد بظهره مسترخيًا في المقعد المواجه له مرة أخرى، مبتسمًا ابتسامة واسعة.. وقال : «معناه إن النهارده يوم سعدك.. أنا فعلًا حبيع لك الشركة، وكمان الجماعة اللي تعبوا معاك في الخطف دول وبيكلموني كل شوية، ولاد حلال قوي.. حنديهم عشرين مليون مش عشرة، ابسط ياعم..!!».

بملامح زال عنها التجهم، واكتست بمسحة لين، قال في خفوت مترددًا: «.. يعني إيه؟ أنا مش فاهم حاجة من كلامك..».

حدج الرجل بنظرة ثاقبة صارمة، انخلع لها قلبه، وقال وهو يعقد كفيه أمام وجهه: «من أول ما دخلت وأنا قريت اللعبة.. الهيصة اللي عاملها حوالين نفسك والرقم الخاص، ظهورك فجأة وموضوع العربية والورق.. لعبة حلوة.. بس إنت مجرد عسكري شطرنج

تعبان، منفوخ فيه علشان يظهر إنه قطعة مهمة، وزير أو طابية نناور بيه من بعيد في أول الدور، لكنه قطعة مالهاش دور أكتر من إنها بتتحرق بدري علشان الملك يعيش، إنت لو كنت بجد، كان زمانك عرفت الإجابة.. مافيش لا ورق حديد ولا غيره.. الورق اللي قدامك ده كمان أنا شلت منه ورق كتير.. قبل ما أدخل هنا وإنت لا لاحظت ولا أخدت بالك، ومع ورق بالأهمية اللي بتدعيها دي كلها، كان ده لا يمكن يحصل..».

مال نحوه سائلًا في حزم: «ما تخافش.. قل لي مين اللي بعتك؟.. إنت مش عارف أنا ممكن أعمل إيه..».

ابتلع لعابه في بطء وهما يتبادلان نظرة طويلة.. قال بلهجة منكسرة: «أنا ما عرفش حاجة صدقني..».

بلهجة يشتم منها الأزكم رائحة الخطر قال شريف: «انطق..!».

بكلمات تتعثر حروفها في بعض، وبوجه محتقن منكسر.. قال في بطء: «صدقني أنا ما قابلتوش إلا مرة واحدة.. أنا ممثل كومبارس، بشتغل في الوكالة بتاعة الفنانين في وسط البلد، بلقط عيشي والسلام.. في يوم، الجدع اللي بيوزع الأدوار ويوصل السيناريوهات للممثلين الكبار، قال لي فيه واحد بيسأل عليك.. وعايزك في مسرحية.. شافك في الاستديو في بروفات الفيلم اللي لسه حينزل، وأنا اديته رقمك.. المهم الراجل ده لقيته كلمني، واتقابلنا في سينما.. كان سايب لي تذاكر آخر صف، وحاجز الصف كله علشان ما حدش يضايقنا، دخل في الضلمة قعد جنبي، وخرج بعد ما فهمني المطلوب.. ومن ساعتها ما فيش إلا تليفونات بيننا..».

- «ما تعرفش توصفه؟ أو توصل له تكلمه أو تقابله؟».

- «والله ما شفت إلا خياله في الضلمة.. وكان لابس كوفية مغطي بيها وشه.. صوته كمان كان واطي وبيهمس.. مافهمتش منه إلا إن المطلوب إني أعمل مكالمات هو حيقول لي إمتى وإزاي، وأقول فيها إيه.. إداني موبايل وفيه الخط وبس.. وبقى يكلمني من رقم خاص دايمًا.. وأنا ما قدرش أكلمه..».

قطب جبينه وهو يفكر مليًا، رأسه يزدحم بعشرات الأفكار.. لكنه ما لبث أن أشار إلى الورق المسجى على المنضدة بينهما وهو يسأله: «وهو اللي إدالك العقد ده؟».

- «أيوه هو.. وساعة الجد قال لي حنفهمك كل حاجة، إنت بعد ما تمضي المفروض بكره حاقابله ونطلع على الشهر العقاري.. وساعتها كنت حبيع له الشركة بعقد هو مجهزه، بس مستنينك تمضي علشان يحددوا التاريخ بعد تاريخ النهارده..».

- «ما قالكش حتبيع لمين؟».

توتر الرجل وعيناه تمتلئان بتوسل صادق: «أنا قلت لك كل اللي أعرفه.. ولو اتأخرت عليهم أو إنت ما مضيتش، أو لو فكرت ألعب بديلي كده ولا كده، حيقتلني..».

داعب «شريف» ذقنه بإبهامه وهو يقول في خبث: «واللي مستعدين يقتلوك دول، حيدفعولك كام بقى؟».

قال في انكسار وهو يتحاشى عينيه «ميت ألف يا بيه..».

ضحك «شريف» في جذل وهو يصفق بيديه.. ثم أردف في جدية: «شوف، إنت كده كده.. ميت! يعني لو مشيت وراهم، وخلتني أخسر اللي ورايا واللي قدامي بالطريقة دي، أنا اللي حاقتلك، لكن لو عملت اللي حاقول لك عليه بالضبط، حاديلك قد اللي حيدفعوه تلات مرات، وحايكون عندك فرصة إنك تهرب من الناس دي ومحدش حيقدر ييجي جنبك..».

انقلبت سحنة الرجل بشكل يوحي بقلق وفزع دفين وهو يخفف من إحكام رباط عنقه حول رقبته ويقول: «الراجل اللي اتفق معايا إنت ما تعاملتش معاه.. كلامه وطريقته تخوف، أنا مش عارف إيه اللي ورطني في الموضوع ده بس.. لولا الفلوس أنا ما كنتش أدخل في مصيبة زي دي أبدًا..».

- «المهم إنك تسمع اللي بأقول لك عليه.. وساعتها بس، أوعدك إنك مايحصلكش حاجة. قل لي: تعرف تختفي عن كل الناس، ما حدش يعرف لك طريق، وتقفل الموبايل ولا يعتر لك حد على أثر.. يومين ورا بعض؟؟» - «ممكن يا بيه.. بس أكتر من كده ما قدرش، أنا عندي عيال لازم أرجع علشانهم.. والراجل بتاع العقد ده أكيد حيلاقيني.. أنا مش واصل قوي كده يعني..».

- «لا، ما هو أنا مش محتاج أكتر من يومين بس، ياللا بقى.. وريني كده».

تناول العقد من يد «عصام» في اهتمام، أعاد النظر إلى الصفحة الأخيرة، ثم قال في ارتياح، وهو يتناول من جيب قميص «عصام» المستسلم قلمًا، ليخط به شيئًا في موضع محدد: «تمام.. آدي العقد

ده صح كده، حخده معايا بحجة إني لازم أقراه قبل ما أمضيه، بس استناني بقى أنا حارجع لك بعقد تاني زي ده بالظبط.. بالعقد الجديد تبيع لي الشركة تاني، بتاريخ بكره، ونسجل الساعة كمان، وبكده تمام.. تبقى الشركة بعتهالك مرة وبعتهالي إنت بعدها على طول تاني..».

واتسعت ابتسامته وهو يسترخي بظهره متابعًا: «وإنت كمل معاهم بقى، طمنهم إني مضيت العقد اللي مستنيينه منك، وسلمه لهم، خليهم ينشغلوا بيه، وما تخليش بعدها حد يشوفك يومين.. كمان خللي بالك: لما يسألوك، تقول لهم إنك طلبت مني 10 مليون زي ماقالولك، مش عشرين مليون، فاهمني؟ ركز إنت بس، وسيب الباقي عليّا».

ظهر الارتباك على وجه الرجل، فابتسم «شريف» وقال في هدوء: أنا حاشرح لك كل حاجة دلوقتي، إديني فرصة بس لحد بكره، حرجع لك تاني في نفس المعاد، ونمضي العقدين زي ما قلنا.. موافق؟».

قال «شريف» في لهجة ظفر، وهو ينظر لـ «منى» الفزعة، بينما امتلأت مقلتاها بدموع ساخنة وهي تنظر لــ «عمر» الذي تحاشى النظر إليها طول الوقت: «طبعًا ما كانشي قدامكم حل إلا إنكم تطلقوا سراح «عمر»، بمجرد ما «عصام» قال لكم إن العقد اتمضى.. وكمان بعت لكم صورة العقد والإمضا بتاعتي عليه، حتى مع اختفائه، كنتم مطمنين إنكم ممكن تجيبوه بسهولة.. ما أنتم عارفين كل حاجة عنه، علشان كده اعتبرتم إن كل حاجة خلصت خلاص.. لكن ماكنتوش

تعرفوا إني رجعت الشركة بالعقد اللي معايا، يعني دلوقتي، العقد بتاعكم.. مالوش قيمة..».

وجوه شاحبة.. وعيون محملقة في وجهه، ونظرات رجاء تنتقل بين وجهه ووجه «عمر».. بينما يتابع «شريف» حديثه في حيرة، ناظرًا صوب «شادي»، «رأفت» و«حسناء»: أنا اللي مش فاهمه بس، كل ده عملتوه ليه؟ طيب «منى».. مفهوم إن الغيرة كلتها، بس إنتو؟..».

قلب كفيه صامتًا، وهو يتمهل محاولًا البحث عن كلمات مناسبة، وقال في بطء: «أنا ممكن أفهم إن الفلوس مهمة.. ليك يا «رأفت» مثلًا.. قضايا نفقة مراتك، والعيال.. وأكيد مرتبك والعمولات مش كفاية، «حسناء» كمان.. حالك واقف مع «رأفت» علشان الفلوس، ماشي.. يمكن الفلوس حل برضه، «شادي»، برضه إنت أكيد مش حتكره الفلوس.. بس، برضه مش قادر أفهم.. الفلوس عندكم، أهم من العِشرة؟ ده حتى كلمة عِشرة دي قليلة، طول عمركم إخواتي، وأهلي.. ده إنتو ماكنتوش بتغيبوا عن البيت ولا فيه تفاصيل عننا ما تعرفوهاش.. إيه اللي خلاكم تبيعوا كل ده، تمشوا مع شكها وظنها، وتساعدوها وتدمروني بالشكل ده؟».

انقلبت سحنة «شادي» بملامح شرسة.. وهو يقول في غيظ، مشيحًا بيديه: «عاوز تعرف السبب، من غير تزويق كلام ولا كرانيش؟ بجد مش عارف؟ فلوس إيه وعِشرة إيه اللي إنتي بتبكي عليها؟ إنت إنسان أناني يا «شريف».. طول عمرنا بنشتغل عندك، عندك مش معاك.. طول عمرك فاهم أحسن، وتنقي الشغل اللي ييجي على مزاجك، عمرك فكرت فينا، احنا عايزين إيه؟ عمرك حسستنا إننا

شركا معاك في الشغل؟ كام موقف أنقذناك منه؟ وكام مصيبة طلعناك منها؟ سنين.. وإحنا بنستحمل تريقتك وسوء ظنك، وإدارتك الغريبة للأمور.. سنين وإنت بتشغلنا في كلام فارغ، واجهة علشان الشركة تمشي.. أهم حاجة عندك إن شغلك يتعمل، وقلنا ماشي، أدينا مستحملين، ولما جه اليوم اللي حنعمل حاجة لنفسنا.. برضه ما فكرتش إلا في نفسك..».

بادل النظر بينه وبين «رأفت» المتحفز، و«حسناء» مقطبة الجبين.. وسأل بدهشة حقيقية: «إنت بتتكلم عن إيه؟».

صاح في ثورة حقيقية والزبد يتطاير من فمه: «موضوع التطبيق اللي وصلناله، واشتغلنا عليه شهور.. طلع عين أهالينا وإحنا بندور على حل لمشكلة ورا مشكلة.. مع ذلك، عمرنا ماقصرنا في حاجة من شغل الشركة، لحد ما جه اليوم اللي الموضوع ابتدا يبقى واضح، وله ملامح وباين عليه حيجيب فلوس، فلوس بجد مش زي الملاليم اللي إنت بتجري وراها.. قابلنا الراجل مندوب الشركة الكبيرة اللي قلت لك عليه..».

شرد «شريف» وهو يستمع له مغمغمًا في خفوت: «فاكره طبعًا..».

تدخل «رأفت» وهو ينهر «شادي» بقوة، مراوحًا بصره بينه وبين وجه «حاتم» المنتبه لحديثه: «كفاية يا «شادي».. اسكت حتودينا في داهية..».

لكن زمامه كان قد أفلت.. فطفق يصرخ، وهو يشير نحو صدره في ألم: «تعب عمري كله حطيته في الفكرة دي، كنا مابننامشي علشان خاطر شغل الشركة مايتأثرش، وعلشان نعمل المشروع ونخلصه في

نفس الوقت، وفي الآخر بعد الراجل ماعرض علينا مبلغ خيالي، عمرك ماتسمع عنه إلا في أخبار صفقات السلاح.. لقيتك بترفض بأي شكل، رجعنا للراجل.. نعرض عليه نبيعه من وراك، ضحك، واتريق علينا، وقال فيما معناه إن الشركة اللي ماتبقاش مؤمنة بشغل المبرمجين اللي فيها، بتديله انطباع إنه حيشتري الهوا..».

نهض من مكانه وهو يمسك بتلابيب «شريف» وياقة قميصه صارخًا: «عارف قعدة مع راجل زي ده، ولا شركة بالحجم ده ممكن تتكرر مع واحد زيي كام مرة؟ عارف أنا حلمت بيوم زي ده كام مرة؟ عارف استحملت تريقتك عليًا واستهتارك بيًا في الشغل ليه طول السنين دي؟ علشان لحظة زي دي.. وفي الآخر، تيجي إنت تضيع كل اللي عملته..».

تدخل «رأفت» و«حاتم» للفصل بينهما بصعوبة، بينما همس «شادي» بفحيح وهو ينهار على مقعده وقد غرق في عرق غزير: «عايز بعد كل ده نعمل إيه؟ أعمل البرنامج قراطيس؟ إنت حتى ماكلفتش خاطرك تناقشها معانا، ولا تتفرج على اللي بعتوهولك على الميل بتاعك، وتناقشني فيه.. علشان كده، وبعد ما اتأكدت إنه مافيش فايدة، كان لازم الشركة تبقى بتاعتنا، كان لازم نبيع البرنامج بشكل رسمي، ما دام إنت بتحطنا في الخانة دي.. وبتزنقنا الزنقة دي.. طباخ السم بيدوقه يا «شريف».. مستغرب إننا نعمل عليك الفيلم ده كله؟ ماحنا ياما عملنا الأصعب منه على ناس، وكانت جزاتنا إيه؟».

ساد صمت طويل.. عدل «شريف» من ملابسه، وشد قامته وهو يقول: «طيب.. أظن أنا حسيبكم بقى مع الملازم «حاتم».. علشان أنا و«عمر» ورانا طيارة نلحقها..».

صرخت «منى» في لوعة وهي تنظر لـ «عمر»: «إنت حتسيبني وتمشي يا «عمر»؟ بعد كل اللي عملته، وكنت عايزه أعمله علشانك؟».

نظر إليها وقال في تردد من يحاول ألا ينزلق بكلمات لا يريدها: «يا أمي، كفاية كده أرجوكي..».

عاودت التوسل وهي تخبط براحتيها على فخذيها، مولولة: «حتسيبني وتروح معاه؟.. هو حيحبك قدي؟».

أجابها وقد نفد صبره، بينما يراقب وجوه المحيطين به في حذر: «إنتي السبب يا أمي، إنتي عارفة إننا ماتفقناش على كده، ماتفقناش إننا ندمره، ده أبويا.. مش واحد من الشارع. أنا كنت عايز حاجة وإنتي قلتيلي حتعمليها لي، بس مش أكتر.. ماتفقناش على إن الشركة تتسرق من إيديه كلها كده..».

قالت وقد مالت لهجتها للتوسل مرة أخرى وقد خفضت من صوتها المتهدج: «أنا ماقدرش أسيبك تسافر معاه.. أبوك مفتري.. أبوك ده وحش، حطمني وأخد أحلى سنين عمري، عمره ما طمر فيه وقفتي جنبه، وياما استحملت خيانته، علشانك.. واستحملت إنه اتجوز عليَّا، اللي اسمها «حورية» دي، استحملت أعيش معاه رغم إنه قتلها، برضه علشانك..».

اتسعت عينا «شريف» في دهشة بينما واصلت حديثها، وهي تصوب عينين ناريتين إلى «شريف» في تنمر قائلة: «فاكر لما جيتني ترتعش، وإنت بتقول لي إنها ماتت.. فاكر ولّا لأ؟ قلت لك خايف ليه ماردتش عليَّا، سألتك قتلتها ولّا لأ، انهرت وقعدت تبكي زي العيال.. كان لازم ساعتها أبلغ البوليس، لكن أنا فضلت خايفة سنين.. وفي الآخر زي ما عملت طول عمري مع بلاويك، استحملت، علشان «عمر»..».

وعاودت النظر لوجه «عمر» الذي اتسعت عيناه وهو يبادل نظراته بين أمه وأبيه واستطردت في حنق: «وفي الآخر حتسيبني وتمشي معاه؟.. أنا مش حسيبك تسافر.. مش حسيبه يخليك تطلع نسخة حقيرة منه..».

زجاجة «سم فيران» في يمناه.. كوب ماء ممتلئ حتى نصفه في يسراه.

يصب من هذه لتلك في ضوء المطبخ الخافت.. يتلفت حوله.. يضع الكوب بجانب رأسها.. يطمئن لأنها سوف تشرب منه فور يقظتها.

فيما بعد عاد ليملأ الصراخ جنبات المكان.. ويغرق الدم بقعة تحت رأسها بعرض الطريق أسفل الشرفة.

لكنه لم يسأل عن تفاصيل.. خشي أن يفعل، عاش لسنوات يتمنى أن يعرف، ويتمنى أن يفهم.. لكن الخوف ألجمه.

متى؟ لماذا؟ صمت كزوج مكلوم انتحرت زوجته المخبولة.. أمام نظرات الجميع، واتهامات أعين الكل.

الكل يعزيه.. والبعض يشيعه بنظرات كراهية لا نهائية.

سمعوا صوتًا يقول بلهجة سمجة مألوفة، ببطء مستفز: «لو تسمحيلي يا هانم، العميد «سلطان» لما اتصل بيَّا، كان ليَّا مع «شريف» بيه مكالمة طويلة على تليفون مكتب الوزير.. موضوع المرحومة «حورية» ده اتحسم، لأنه كان لازم نفهم، فيه فعلًا حد بيطارده بالاسم ده، ولَّا دي اشتغالة يعني، صحيح المسألة من سنين طويلة، بس الطب الشرعي سجلاته لسه بخير.. أهل الفقيدة شكوا طبعًا في الباشمهندس، ماكانوش مرتاحين للجوازة دي، ولا لاختفائه المفاجئ.. طلبوا تشريح الجثة، بس التشريح أثبت إنها ماتت بكسور في قاع الجمجمة، بعد ما رمت نفسها من البلكونة.. البوليس وجد برضه زجاجة سم فيران، وكوباية فيها ميه، عليها من السم ده.. بس ما كانشي فيه في جسمها أثر.. يبدو إنها حاولت تنتحر، بس كانت سكة البلكونة أسهل..».

عاش لسنوات يتمنى أن يعرف، ويتمنى أن يفهم.. لكن الخوف ألجمه.

لكنه لم يعلم.. أن سيف خبلها قد سبق عزل كأسه المسموم.

(45)
من قواعد الشطرنج

قاعدة رقم 26.. وقبل الأخيرة:

اضحك، أخيرًا!

ساد صمت مرتاب، مهيب.

«منى» انهارت على مقعد مجاور، وهي تنتحب وتنظر لــ «عمر» في توسل، بينما تهمس باسمه كل عدة ثوانٍ، بينما لا يبدو عليه سوى تأثر خفيف وهو يشيح بوجهه.. «شادي» بدا عليه الذهول وهو يحرك شفتيه بكلام غير مفهوم كمن فقد عقله.. «حسناء» و«رأفت» بدا عليهما الغضب، وأخذا ينقلان وجهيهما بين الواقفين في ترقب.. بينما قال «شريف» في هدوء: «.. «منى»، إنتي حتفضلي أم «عمر».. مهما حصل.. أنا لا يمكن آخد منك حاجة زي دي، حتى لو عايز ما عرفش أعملها إزاي..».

نظرت إليه وصدرها يموج بامتنان مغموس بكأس من الحسرة والغضب، واصل هو في حسم وهو يسحب حقيبته ويتجه نحو مدخل المطعم.. يتبعه «عمر» في هدوء..«اسمحولي لأن معاد

الطيارة كده حيفوتنا.. أسيبكم مع الملازم «حاتم»، أنا متأكد إن عنده كلام يقوله لكم..».

ابتعدا حتى صارا على مسافة بعيدة بينما تتابعهم أعين الواقفين في ذهول.. سيارة تقترب من مدخل المطعم يجلس في مقعدها الخلفي رجل فخم الهيئة، يمسك بسيجار من النافذة، بينما يستدير «شريف» ناحيتهم قائلًا في ظفر وتهكم: «اللعب ده مش معايا أنا.. كش مات، يا سادة!!».

(46)

في صالة المطار.

اندفعت «شيرين» نحو «عمر».. أمسك بيديها، وهي تغالب دموعها.. همس لها: «وحشتك؟».

ضربته بقبضة مضمومة بخفة على صدره، فضحك وهو يقول في هدوء: «الفيزا حتطلعلك في خلال أسبوعين، تحصلينا بقى، وعندي مفاجأة علشانك..».

رفعت حاجبيها في دهشة بينما برزت من خلفه سيدة جاوزت الستين، شهقت «شيرين» لمرآها وهي تهتف في قلق: «ماما؟ إنتي بتعملي إيه هنا؟».

تحركت ببطء شف عن مفاصلها المرهقة نحوها وهي تقول: «الباشمهندس كتر خيره، جابني بعربية مخصوص لحد هنا، علشان أكون معاكم وهو بيفاتحك..».

نقلت «شيرين» مقلتيها الواسعتين بين وجهها ووجه «عمر» الذي أشرق بحبور لا نهاية له، وهي تضيق عينيها في شك طفولي قائلة: «فيه إيه بالظبط؟ أنا لسه سامعه إن فيه شغل عاوزيني فيه.. المهندس «شريف» إنتي عارفاه يا ماما، حينقل شغله بره.. هو ده الموضوع ولَّا إيه؟».

اتسعت ابتسامته وهو ينقل بصره بين وجهها ووجه أمها الذي ارتسم آية للحبور.. وقال وهو يهبط على ركبة واحدة، لتضع يدًا على فمها كاتمة صرخة سعادة، بينما ما زال ممسكًا بيدها: «تتجوزيني؟».

جلس «رمزي» مجاورًا «شريف» في قاعة كبار الزوار.. نقر بسبابته على جانب جبهته وقال: «أنا مش قلت لك؟ مش أنا برضه توقعت إن يكون العصابة دي عايزه التطبيق؟ اللي ما شفتوش بقى إنهم يكونوا هم دول، أقرب الناس ليك..».

ابتسم «شريف» قائلًا في استرخاء: «إزاي يا «رمزي» بيه بقى؟ إنت كل كلامك كان بيدور حواليهم، انت اللي خليتني أفكر تاني.. خليني أسألك سؤال، إنت حقيقي ما بتلعبش شطرنج؟».

ضحك في جذل، حتى بانت أسنانه.. وسعل في قوة، بينما واصل «شريف» «ده إنت حتبقى لعيب عظيم لو لعبت يا سيادة الوزير.. وعمومًا، أنا مش عارف أشكر حضرتك إزاي على المساعدة دي..».

– «ما تشكرنيش ولا حاجة.. بكره المعاد لما توصلوا (لندن) حيبقى بالليل.. أنا حاوصل ونقابل الراجل بتاع الشركة دي مع بعض.. أنا كلمته وهو مبسوط جدًا إنه حيتعامل معاك، واتفاقنا زي ما هو.. مظبوط؟».

– «طبعًا يا فندم.. عشرين في المية من المكسب زي ما اتفقنا، نحولهم على حساب المدام.. ربنا يخليكم لبعض..».

أهداه «رمزي» ابتسامة ثعلبية متابعًا: «وبالنسبة لشنطة الفلوس؟».

ضرب جبهته براحة يده في حركة مصطنعة قائلًا: «يا خبر أبيض، معقولة؟ كنت حانسى يا سيادة الوزير.. لا اطمن.. الشنطتين في الحفظ والصون، ده أول شيء عملته بعد ما استلمت الولد، ورحنا حطيناهم في البنك.. أول ما نرجع من المأمورية دي، حتاخدهم في المكتب كاش.. وعليهم بوسة يا فندم..».

غرق بعينيه في عيني «شريف» قائلًا: «ماتاخدهاش بمحمل وحش.. بس انت عارف طبعًا إنك في إيدي؟».

- «طبعًا.. ماتقولش كده يا سيادة الوزير..».

- «أنا مابلغتش العميد «سلطان» بناء على طلبك، إنت أصريت إنك تنجز لوحدك.. بس لو لعبت أي لعبة مش مفهومة.. مافيش أسهل من كده..».

- «عيب يا «رمزي» بيه.. عيب».

بنفس النظرة الثعلبية تابع «رمزي»: «وماتنساش كمان، إن الموضوع ده لما يتم.. حتحتاج تصاريح، وموافقات كتير علشان الموضوع ده يدخل «مصر».. ده سيستم جديد، وحيحتاج رخصة، وورق وشغل كتير.. مايخفاش عليك طبعًا، إن حتى لو ورقك سليم، ممكن موظف مايسواش تلاتة تعريفة، يوقف لك المراكب السايرة، مهما كانت كبيرة وشراعها مفرود..».

ابتسم وبادره في ود: «البركة فيك يا سيادة الوزير، مايكونش عندك أي فكر.. الشنطة حتوصل لك الليلة بعد ما نوصل هناك.. وقبل ما تركب طيارتك بكره معاليك..».

قام ناهضًا وهو يسعل للمرة الأخيرة قائلًا: «تمام، أسيبك أنا بقى.. مش عايز حاجة؟».

عصر الأمس.

سحب «رمزي» نفسًا من سيجاره وأمال رأسه للخلف، بعد أن بدا وكأنه يتفحص سقف الحجرة.. ليميل برأسه للأمام وأضاف بتساؤل عميق «ها.. أبلغ العميد «سلطان» دلوقتي؟ أنا أضمن لك سرية تامة.. الراجل كمان ممكن ييجي هنا، ويلبس ملكي كمان، علشان أي مراقبة ماتتعرفش عليه.. ولو المسألة تطلبت متابعة عن بعد، حايعملها، الراجل ده إنسان كويس وإحنا نعرف بعض من زمان، وفوق ده كله.. مابيرفضليش طلب..».

على شاشة محمول «شريف» ظهر لحظتها رقم خاص، أشار بيده للوزير بالانتظار، وأجاب في اقتضاب: «أيوه يا «حاتم».. «رأفت»؟ تمام.. طيب اقفل إنت دلوقتي..».

شرد ببصره وغمغم: «أظن مالوش داعي البوليس يا معالي الوزير، هي كده ابتدت تتحل.. البوليس معايا على الخط أهو، كله تمام..».

اقترب منه «حاتم» بعد رحيل الوزير.. تابعه ببصره وهو يبتعد، ثم التفت لـ «شريف» قائلًا في مرح: «خلاص مشي؟.. أفك بقى وأبقى براحتي؟».

أجابه في غلظة تمتزج بالمرح: «اهدى كده وماتزودهاش..».

في جذل سأله: «بس بذمتك إيه رأيك فيًا؟ أظن أنا لبست الدور هايل؟».

ابتسم في مرح وهو يتلفت حوله في ترقب: «حاسب، «عمر» ممكن يكون سامعنا دلوقتي، هو راح الحمام وزمانه راجع.. وبعدين احمد ربنا، «رمزي» لو كان بلغ العميد «سلطان» صاحبه، كان كشفك وكشف اللعبة كلها، أنا لولا أصريت إنه مالوش داعي، كان زمانك لابس الأساور..».

- «خلصت موضوع البنك؟».

- «أنا ظبطت الدنيا خلاص.. خبيت إنت فلوسك؟».

- «أيوه تمام.. وحطيتها في حساب البنك الأجنبي، فرع بره البلد زي ما إنت قلت..».

- «المهم إنت تروح لـ«رمزي» المكتب بالليل، وتسلمه الشنطة، هو منتظر، هو فاهم إنهم كانوا شنطتين بس، زي ما إنت أكدت له، يعني لهف النص، بس إنت طبعًا أخدت شنطة وفلوسك اتأمنت في البنك، وأنا كذلك.. يبقى تمام كده..».

بقلق سأله: «وإنت مش قلقان من «رمزي» ده؟ يعني دا باين عليه راجل مش سهل، وإيده طايلة، إنت عاوزه يلبسني انتحال شخصية ظابط وأروح في حديد؟».

ضحك في تهكم وأجابه: «.. «رمزي» مش فارقة معاه إنت مين ولَّا بوليس من أصله ولَّا لأ، هو عارف إني مابحبش أدخَّل البوليس في الموضوع، وتقريبًا فاهم كل حاجة من ساعة ما قلت له يطلَّع العميد

صاحبه ده بره الموضوع، وإنت ظهرت بعدها فجأة كده، بس هو مش فارق معاه إلا مصلحته.. وأنا النوع ده بحبه قوي، وبيريحني..».

أجاب في تلمظ وهو يقلب شفتيه بلهجة متململة: «أيوه يا سيدي.. أنا يدوب أطلع بخمساية، وإنت لاهف عشرة مليون بحالهم.. حتى الوزير الفخم ده ماطايلش إلا خمسة..».

أشار بسبابته على فمه وواصل التلفت حوله وهو يخفض صوته: «يا مجنون وطي صوتك.. خمساية إيه اللي بتتكلم عليها يا جربوع إنت؟ ده إنت آخرك المحل اللي بتقف فيه في البازار.. أنا اللي نضفتك وخليتك تعمل شغلانة عمرك ما تحلم بيها..».

أجاب في حماس وهو يحرك يديه بانفعال: «يا ريس مانا تعبت برضه، كفاية مشاوير خان الخليلي، والجري ورا «شادي»، وتقرير الطب الشرعي اللي كنت عاوزني أشوف حد يدينا منه نسخة علشان تفهم إيه اللي حصل بالظبط، علشان المدام بتاعتك لامؤاخذة ماتمسكش عليك موضوع المدام اللي قبلها، وكله طلع تمام أهو، مش كده؟ ده غير بقى البيات تحت بيتك، ومصاريف الجماعة اللي أجرتهم يعملوا عساكر، واللبس، والمنظر اللي عملته عليهم بعد ما طلعت إنت و«عمر» على المطار.. ده أنا سبكت الدور تمام، هم فاهمين دلوقتي إن الفلوس اللي معايا متحفظ عليها.. حرز يعني وكلام من ده، وركبهم بتخبط في بعض دلوقتي من الرعب من اللي سمعوه.. قضايا بقى وفيلم كبير، وبعدين مش أي حد يعمل الدور ويسبكه كده..».

- «ما هو برضه مش أي حد يعرف بلاويك والنصب اللي بتعمله في البازار، والحشيش اللي مالي الأدراج عندك، والعيال اللي بتسرحهم.. ويبقى ساكت عليك.. ماتنساش نفسك يا «حاتم»..».

أحنى رأسه وهو يقول في استسلام: «ماشي يا ريس.. وأنا ممنون والله، هو أنا فتحت بُقِّي، بس إيه رأيك؟ مش أنفع داخلية؟ شفتني وأنا بزعق فيك يوم المخزن؟».

ابتسم في مرارة: «أهي مشيت معاك كده، إنت صدقت إنك بوليس بجد، ولا إن المقاطيع اللي كنت بتجرهم وراك دول وبيعملوا نفسهم عساكر ويكسروا قفل المخزن ويفتحولك الباب ويعملولك التحية، دول داخلية بجد؟ حظك حلو إنهم صدقوا إني بلغت البوليس بجد.. طول عمرهم عارفين إني في القضايا دي ما باقربشي للبوليس، فاكرين إن الموضوع لما يخص خطف ابني، حاروح للداخلية برجليَّا..».

بنفاد صبر سأله: «المهم، أعمل إيه دلوقتي؟».

- «وأنا مالي تعمل إيه؟ ماتخليش أي حد منهم يشوف وشك، دي أهم حاجة..».

امتقع وجه «حاتم» في خوف وهو يقول: «انت حتبيعني خلاص يا باشمهندس..؟ الله أعلم الجماعة دول القضايا اللي داخلين فيها حيبقى شكلها إيه.. وبعدين، الفلوس لازم أفضل مخليها بره كده، وماينفعش تظهر في السوق.. مراتك لو أثبتت إنها سحبت عشرين فعلًا، حيكونوا مرقمين من البنك.. ولو حد فيهم فكر يبلغ البوليس، وفتش ورا الحكاية.. البوليس حيعرف إن ماكانشي فيه ظابط اسمه «حاتم» ولا حاجة.. وحيتفتح علينا فتحة احنا مش قدها..».

ضحك «شريف» في استهتار بكلماته وقال: «اللي هم فاهمينه إن فيه قضية، وفدية.. البوليس متحفظ عليها، وإن فيه ظابط اسمه «حاتم»، حيبعت يستدعيهم.. علشان تحقيق ولًا قضية وكده، وطبعًا حيستنوا كتير، ومافيش حاجة حتحصل.. ولما يبتدوا يفهموا إنهم اتضحك عليهم، مش حينفع يقولوا حاجة أساسًا.. لأن أي كلمة حيقولوها حتبقى ضدهم، وحيبقوا بيفضحوا نفسهم.. و«عمر» مش ممكن يصدقهم تاني..».

حملق فيه «حاتم» في انبهار، وصفق بيديه في بطء، دفع «شريف» أن يلكزه في صدره لينهره عن لفت العيون إليهم، لكن «حاتم» غمغم في انبهار: «إنت إيه يا باشمهندس..؟».

شرد ببصره بعيدًا وقال وكأنه يحادث نفسه مجيبًا إياه: «أنا؟.. ما تشغلش بالك، هم اللي لعبوا مع الشخص الغلط..».

(47)

اجتازا حاجز الجوازات.. «عمر» نظر إليه وقال في هدوء: «بس بجد بقى، أنا عايز أفهم حاجة؟».

قال وهو يسير بجانبه في بساطة: «قول..».

- «الحكايات اللي حصلت دي كلها، الأيام اللي فاتت، واللف والجري والحيرة.. الضغط اللي إنت كنت فيه، تعبك؟ أنا بصراحة شايف إنك بتتكلم ببساطة، ولا كأنك تعبت، ولا كأنك مريت بمصيبة، وكان حيروح منك كل شيء؟».

ضحك لسؤاله وقال في هدوء بعد تفكير قصير: «عارف يا «عمر»، الدنيا دي فيها شبه كبير من الشطرنج، يعني فيه أدوار بتخطط تخشها إزاي وإمتى، وفيه أدوار، هي اللي بتختارك.. الأدوار المتعبة دي، دي ما بتبقاش حاسب حسابها.. بتبقى داخل الدور وإنت مستهتر ومش حاطط في بالك، أو مطمن لخصمك رغم إنه قوي، ده بيبقى غلط بتدفع تمنه.. في لحظة الدور بيخرب.. وبتحس إنك حتتهزم.. بس لما تفلت من الهزيمة يا بطل، تخلص من إحساسك إنك غلطان، شعور الندم إنك نقلت نقلة غلط ولَّا اتصرفت في موقف غلط، وإنك السبب في اللي حصل، هو ده الشعور اللي حيقتلك.. ده اللي بيموتنا في الحياة، وده برضه اللي بيموتنا في الشطرنج..».

أطرق «عمر» برأسه مفكرًا وغمغم في شرود: «أنا فيَّا الطبع ده.. يعني إني اشتركت في موضوع زي ده ضدك.. مش عارف ربنا كان حيسامحني ازَّاي..».

ابتسم وأجابه في ثقة: «ولا أنا عارف حيسامحني ازَّاي، بس أنا عارف إني غلطت.. في حياتي عملت بلاوي، العقاب جاني إني ممكن أخسرك.. وأخسر كل اللي عملته.. أنا مش أحسن واحد، ولا مثالي، بس مش لازم مش لازم أقول لنفسي استاهل.. رغم إني يمكن استاهل فعلًا، بس أكيد ربنا اللي عاقبني.. مش عاوزني أستسلم وأقول كده صح.. كده عدل.. أنا مش فاهم العدل لأنه أكبر مني، وأكبر مننا كلنا.. بس افتكر إن فيه أي صعوبات حتواجهك.. ارفع راسك وركز مع مشكلتك، دور على خصمك، حاول تلدغه في اللحظة الصح.. أو تستسلم وتخسر بالنقط.. موضوعك إنت كان بالنسبة لي كده، مش بس كان لازم ترجع، كان لازم كمان اللي عمل كده يدفع التمن..».

عدل من ياقة قميصه وهو يواصل محاولًا أن يخفي تهدج صوته: «مش عايزك تكون زي أمك يا «عمر». طول عمرها بتهرب من المدفع بإنها تستخبى وراه، وكتير تستخبى جواه.. وهي مش واخده بالها.. زمان لما البنات كانت بتضغط عليها في الجامعة، ما لقتش حل لبُعدها عن ربنا زي ما كانت شايفة.. غير إنها تتحجب، وتبقى واحدة منهم.. ولما اتجوزنا، حست إني طفشان من البيت، ففكرت تخلع الحجاب، علشان حست إنها بقت مش جذابة ولا حلوة زي زمان.. حتى لما قررت تبقى حوت كبير، وتبلع الشركة باللي فيها

وترميني بره، وتثبت لنفسها ولأمها إنها مش ضعيفة، راحت لفت لفة كبيرة ودبرت حكاية طويلة عريضة، واختارت برضه تحاربني فيك.. علشان هي مش قادرة تواجهني ولا تقول لي، إنها مش مسامحاني على خيانتي ليها.. وإني ماستاهلش العيشة معاها ولا الشركة اللي عندي، كانت كل مرة تقول إنها نسيت.. وإنها مسامحاني، لكن الحقيقة كانت غير كده..».

شرد للحظات وهو يقلب أوراق سفره يقول: «الضمير اللي يوجع صاحبه علشان مايغلطش تاني، يا مرحب بيه.. لكن لو حيفضل يوجعك لحد ما الندم جواك تبقى مش عارف تعيش بسببه.. يبقى معلش، مالوش لازمة».

ابتسم «عمر» وهو يهز رأسه لأعلى وأسفل موافقًا.. وأضاف موافقًا: «طبعًا.. الواحد لازم دايمًا يحاول يصلح غلطه، ويبص لقدام..».

في تهكم خفيف، ابتسم «شريف» بزاوية فمه وقال: «إوعاك تعيش برد الفعل تاني.. «شيرين» بتحبك، وإنت واضح إنك بتحبها، كفاية التعبير اللي على وشك دلوقتي وأنا بتكلم عليها.. متردد ليه؟ رابط البنت معاك، ومش عايز تكمل ليه؟ إحساسك بإنك مش مخلص، مش علاجه إنك تكمل وتفضل مش مخلص.. وتعرف عليها ألف واحدة، بص.. إنت مش حترتاح، ومش حتنساها، هي أو غيرها.. عارف بقى إيه هو الفعل.. الفعل بجد؟ إن اللي تحبها، تسيب الدنيا علشانها.. ده اللي بيخليك أحسن..».

أطرق «عمر» برأسه وهو يقول بحيرة تسللت لصوته: «يمكن يا بابا.. يمكن معاك حق، أنا نفسي مش عارف..».

- «المشكلة دايمًا بعد كل أزمة أو غلطة، إننا بنحاول نزحف لقدام علشان مش قادرين نمشي، كورة حديد مربوطة في رجلك، بتشدك وتكعبلك.. كل ماتقف تقع تاني.. وكل ما تجري تفرملك.. افتكر إن ده مش ضميرك، ده شيطانك اللي مش عايزك تنجح، وتعيش وتبقى أحسن، فتحب نفسك وناسك، وتتوب ويتعدل حالك.. إنت غلطت، أنا غلطت، كلنا بنغلط وحنغلط.. لكن إننا نقع ومانقومش تاني بسبب كده؟ هو ده، هو ده بالظبط اللي لازم ماتسمحشي بيه.. أبدًا!».

شرد «عمر» بعلامات حزن بادية على وجهه، وقال في اهتمام: «وماما؟ حيجرالها إيه؟».

أجابه بعد هنيهة من التفكير في لهجة حانية: «أمك، حتفضل بالنسبة لي أمك.. لما التحقيق يتفتح.. أنا أقوالي ثابتة، إنت اتخطفت، طلبوا فدية ودفعناها.. وبس. الموضوع خلص بالنسبة لي على كده. وإنت لما تتسئل، قول اللي إنت عايزه».

توقف للحظة ووضع يده على كتفه متابعًا، مبطئًا حروفه بلهجة هادئة بطيئة، تحمل المغزى على أسنة كلماتها، بينما عيناه تحيطان بمقلتي «عمر» فلا يجد منهما فكاكًا: «افتكر بس إنها أمك، وإن مهما كان اللي عملته، فهو علشان بتحبك وخايفة عليك، طريقتها لو كانت غريبة بقى، صح، أو حتى غلط.. بس بتحبك، ساعات بنعمل حاجات واحنا قصدنا خير.. بنبقى مش راضيين عنها، بس ده من حبنا ليك.. مش أكتر».

نظر إليه في امتنان.. خفض بصره وواصلا السير البطيء متلاصقي الكتفين.. وإذ بغتة رفع رأسه متسائلًا في خبث: «إلا صحيح.. حتاخد كام من الشغلانة اللي رايحين نعملها دي؟ أنا ماليش في شغل المكاتب والقعدة والكلام ده خللي بالك..».

ضحك لسؤاله وقال معقبًا : «حناخد كتير، ماتقلقش، أنا مش حاجبرك على شيء، بطلت خلاص.. إنت مش عايز فضائية مزيكا؟ حاعملهالك، عايز إيه تاني؟..».

- «موسيقى يا بابا، أبوس إيدك اسمها موسيقى.. طيب وحنعمل مكتب هناك؟ تحريات برضه؟».

- «لأ، ده مكتب لشغل التطبيقات.. مش باين لسه، «شيرين» معانا بتفهم في الحاجات دي.. إنت مش حبيبة القلب معاك؟ عايز إيه تاني؟».

احتضنه برقة.. وسارا معًا نحو صالة الانتظار الأخير.

(48)

استرخى في مقعده الفخيم في الطائرة.. طلب رقمها.

ردت مباشرة وجاءه صوتها ثائرًا: «إنت عايز إيه تاني.. إنت مش خلاص عرفت كل حاجة؟».

ضحك وهو يجاوبها: «آه بس ده مايمنعشي إني أتكلم معاكي.. ولا حتمنعيني من الكلام..».

قالت وهي لا تستطيع إخفاء ضيقها: «لا طبعًا، إنت حد يقدر يمنعك تعمل اللي في دماغك..».

- «قولي لي بقى، «أسيل» ده جبتيه منين، يا لواحظ؟.. ده إنتي طلعتي شيطانة، أنا ححتاج واحدة زيك عندي قوي، بس.. لواحظ؟، مش بيئة قوي ده؟.. طيب حتى اختاري حاجة قريبة، مش «أسيل»!».

قالت في غير اهتمام: «لزوم الشغل، وبعدين ما دام بيئة، بتكلمني ليه؟ عاوز مني إيه تاني؟ مش كل حاجة انتهت خلاص؟».

واصل كأنه لم يسمعها: «المرة الجاية، ماتبقيش تتكلمي وتحكي كتير.. فضحتك حكاية الست بتاعة الورد اللي حكيتيلي عليها، قالت للظابط «حاتم».. بعد ما لف على كل بتوع الورد اللي في

«المعادي».. إن المواصفات دي لايقة على «لواحظ»، لما ورَّاها صورتك.. جابت له القديم والجديد..».

قالت باستهتار وكأنها تحاول التقليل من فخره: «حظك حلو مش أكتر..».

تابع بثقة: «وبرضه حكاية الكابوس اللي فهمتيه من غير ما أقول لك عليه، حظ؟ حرقت لك دمك يا جميل معلش.. مش قصدي والله».

صمتت ولم تعلق.. بينما كانت، على الطرف الآخر، تبتسم برغم الضيق، فواصل هو متسائلًا في مرح: «إنتي فين؟».

قالت في عناد: «وده يهمك قوي؟».

- «آه، يهمني إن القمر اللي ضحكت عليَّا ماتبعدشي بعيد..».

- «لم تفتها نبرة الغزل في صوته، لكنها سارعت بقولها: «أنا ماضحكتش عليك.. ده شغلي، زي ما شغلك إنت برضه إنك تقرب من ناس ماتعرفهاش وتمثل عليها وتراقبها.. أنا ماعملتش أكتر من اللي إنت بتعمله طول الوقت، مع ذلك.. إنت بس اللي مابتشوفش إلا اللي عايز تشوفه وبس..».

بادرها في صوت حنون عميق: «ومين قال لك إني مش شايف.. وحاسس كمان؟ لو فاهمه كده، يبقى إنتي بقى اللي مش حاجة..».

قالت وقلبها يختلج سعادة أجادت كتمها «يعني إيه؟».

- «يعني خلاص كلهم اتمسكوا، وداخلين في مشاكل الله أعلم حيخرجوا منها إمتى.. وانتي وأنا ممكن نكمل، ننسى كل اللي فات..

أنا أنسى إنك مثلتي عليَّا، وإنتي تنسي إني كشفتك وسايرتك لحد الآخر.. أو ممكن مانعملشي حاجة من دي، ونعند في بعض بقى.. ونفضل مقموصين للآخر، والاختيار ليكي.. ها؟.. إيه رأيك؟».

ضحكت في اندهاش وقالت بسعادة تسللت لحروفها بجلاء: «وحاتطمنلي عادي؟».

قال في بساطة: «لأ طبعًا، بس أنا متعود على كده.. وبعدين احنا لسه ماكملناش كلامنا على عسكري الشطرنج..».

قالت في دهشة: «إنت مجنون..».

قال وهو يتحرك ناحية البوابة، مشيرًا لـ «عمر» أن يتبعه: «أسبوع وحارجع، خلينا نتكلم.. أوكي؟».

أغلق الخط قبل أن تجاوبه.

جلسا متجاورين في الطائرة.. نادى على المضيفة وهمس لها في مرح: «هو أنا ممكن أطلب لمون.. ساقع؟».

بابتسامة جاوبته: «مش عاوز تجرب القهوة يافندم؟ احنا هنا في البيزنس عندنا بُن محوج..».

بإصرار، قال وهو يبتسم: «لمون.. لمون ساقع ومشبر!».

اتسعت ابتسامتها وهي تجيب: «هو عادة مافيش، بس أنا حاشوف ممكن اعمل إيه..».

بابتسامة خبيثة سألها: «ولّا ممنوع؟».

اتسعت ابتسامتها وهي لا تدري لم يدفعها مرحه للضحك: «لا، ولو ممنوع نخليه مسموح لحضرتك يافندم..».

مال بظهره في المقعد الوثير في ارتياح.. وأغلق عينيه وعلى شفتيه ابتسامة.

رجة خفيفة بالمقعد.

فتح عينيه في تثاقل.. نظر لـ «عمر» الذي يجلس بجواره مسترخيًا وقد غطت أذنيه سماعتان عملاقتان.. يهز كتفه في بساطة ويقول بعد أن جذب انتباهه إليه: «اربط الحزام.. شكلنا داخلين على مطبات..».

المضيفة تناوله كوب الليمون بابتسامة عريضة، فيتناوله ويتجاهل نظرتها الباحثة عن كلمة امتنان.. لا يلحظ خيبة الأمل وهي تعود أدراجها نحو مقدمة الطائرة.. لتباشر راكبة كانت قد ضغطت زر الاستدعاء أعلى رأسها.. و«عمر» يهز رأسه يمنة ويسرة في تصميم: «ماليش أنا في الأحزمة والخنقة دي، كفاية ربطته واحنا طالعين من المطار..».

رجة أشد.

رجة أعنف.

كوب الليمون يفلت من يده.. الزجاج يتهشم على الأرضية.

المضيفة تتمسك بطرف المقعد بكلتا يديها وتصرخ:

الطائرة تميل للأمام بعنف.

«عمر» يسقط من مقعده إلى الأرض.. رأسه يصطدم بعنف بظهر المقعد الذي أمامه.. الدم يسيل بغزارة من مفرق رأسه.

«شريف» يتمسك بمقعده بالكاد.. يصرخ باسم «عمر» في لوعة.

راكبان يسقطان أمامه أرضًا.. صراخ.. عويل.

وجه يميل عليه.. هي الراكبة التي نادت على المضيفة منذ قليل على ما يبدو.

متى قامت من مكانها؟

كيف وصلت وسط هذا الارتجاج إلى مقعده البعيد عنها؟

مالها ثابتة؟ لا تهتز، ولا تسقط، ولا تصرخ كالآخرين.. وكأن ما يحدث لا يعنيها.. لا يؤثر فيها..؟

كأنها ليست بشرًا..؟

ميل الطائرة يزيد.. الصراخ يعلو.

«عمر» لا يزال طريح الأرض، ساكنًا، لا يرد نداء «شريف»..

وجه الراكبة يميل على وجه «شريف».. تدخل مجال رؤيته.. يعرفها، يعرف الشامة، الوجه الجميل، والغنج في العينين.. يجفل في رعب.

تنظر لـ «عمر» في ألم وهي تتمتم بصوت عميق لم يسمع مثله، لكنه يعرفه: «هو ارتاح.. كان تعبان، وحشني قوي..».

لكنها تحول عينين مخيفتين ناحية وجهه، تتأمله من قرب وكأنها لم تره منذ زمن.. بشغف، بنظرة وحش، يتلذذ بالرعب في وجهه، ويقرر في بطء من أين ينهش فريسته أولًا.

تبتسم.. تكشف عن أسنانها الناصعة.. وعينياها تضيقان في وحشية.

يصرخ: «إنتي؟.. إزاي؟».

تجيبه في تشفٍّ: «عدل ربنا يا «شريف».. هو عدل ربنا فيه إزاي؟».

يغطي عينيه بذراعيه في فزع، كأنه يحتمي بهما منها، كأنه لا يريد أن يراها.. يزيح ذراعيه مرة أخرى، ليجدها قد اختفت.. يدير رأسه حوله في جنون، لكنها لم تكن حوله، اختفت فجأة كما ظهرت فجأة.

الصراخ يعلو.

مقدمة الطائرة تهبط في سرعة.. المضيفة تبكي في هيستيريا، «شريف» يصرخ باسم «عمر».. يفك حزام الأمان.. ليسقط بعنف بجانب جسده المتكوم الهامد، دموعه تغرق وجهه البارد.

القاعدة رقم 27

القاعدة الأخيرة.

لا تغتر بنفسك كثيرًا.

لن يمكنك أبدًا أن تكون حذرًا أكثر من اللازم، إذا كان خصمك هو القدر.. فهو اللاعب الأعظم للشطرنج منذ بدء الخليقة.

نحن لسنا إلا قطعًا بيضاء وسوداء.

لكن القدر يعرف ويعلم، القدر يصبر ويقدر.

وهو لم.. ولن يهزمه أحد.

أبدًا!

وتلك هي القاعدة الوحيدة، التي يجدر بك أن تصدقها!

برج المراقبة.. مطار القاهرة.

جلس رجلان أمام شاشة المراقبة بالبرج الزجاجي يراقبانها في اهتمام.. يبدو الملل على أحدهما، بينما يتمتم الآخر وهو يميل برأسه للأمام غير مصدق: «طيارة «لندن» اختفت..».

غمغم زميله في غير اهتمام، كمن لم يعد يندهش بمثل هذه الأمور، وهو يبحث عن شيء ما في محموله: «اصبر بس، إنت أصلك جديد وبتتخض بسرعة.. دلوقتي تظهر.. تلاقيه مطب ولّا الطيار اضطر يغير الارتفاع ولّا حاجة..».

أجابه في قلق: «طيب.. أتصل بيهم؟».

قال في بساطة وهو يشير للشاشة التي أمامه: «هدي نفسك بس، مش دلوقتي، لو فيه حاجة حيكلمونا هم.. بص، تعال إنت تابع االشاشة دي، ورُدَّ على الاتصالات.. وسيبلي أنا الشاشة اللي عندك..».

تبادلا موقعهما.. وإذ استلم شاشة زميله غمغم في ارتياح: «تمام.. مبسوط كده؟ خليك إنت مع الطيارات اللي على وصول، وأنا حاخلص الموضوع..».

تابع وهو يشرد في الأفق الممتد، والسماء الرحبة.. صوب الموضع الذي شقت عبابه الطائرة منذ قليل: «أظن كده عدل؟».

(النهاية)

بدأت كتابة الرواية في يوم الإثنين، الثالث من فبراير 2014، الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة م.

تمت بحمد الله في يوم السبت، الثامن من أكتوبر 2016 الساعة الحادية عشرة وتسع و أربعين دقيقة م.

الفهرس

إهـــداء 5
شـــكـــر 7
(1) 9
(2) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 1 13
(3) 21
من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 2 23
(4) 26
(5) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 3 38
(6) 59
(7) 62
من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 4 71
(8) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 5 82
(9) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 6 95
(10) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 7 05
(11) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 8 114
(12) 117
من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 9 119
(13) 127
(14) 136
(15) 143

من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 10 144
(16) 158
(17) 171
(18) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 11 186
(19) 196
(20) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 12 211
(21) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 13 222
(22) 227
(23) 233
من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 14 240
(24) 242
(25) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 14 (استكمال) 253
(26) 265
(27) 268
(28) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 15 287
(29) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 14 (استكمال ثانٍ) 297
من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 16 301
(30) 316
من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 17 318
(31) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 18 327
(32) من قواعد الشطرنج - قاعدة رقم 19 331
(33) 341

(34) 346
(35) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 20 349
(36) 358
(37) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 21 366
(38) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 22 379
(39) 382
(40) 389
(41) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 23 396
(42) 402
(43) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 24 406
(44) 439
قاعدة رقم 25 441
(45) من قواعد الشطرنج – قاعدة رقم 26 وقبل الأخيرة 453
(46) 455
(47) 463
(48) 468
القاعدة رقم 27 – القاعدة الأخيرة 474
(النهاية) 476